الاثنينية

AL-ITHNAINYA

منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الدكتور

عاصم حمدان علي

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية
(٢٨)

الأعمال الكاملة

للأديب الدكتور

عاصم حمدان علي

الجزء الأول

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

علي ، عاصم حمدان

الأعمال الكاملة للأديب الدكتور / عاصم حمدان علي / عاصم حمدان علي .- جدة ، ١٤٢٦هـ

٤ مج ٢٦٤٤ ص (الجزء الأول ٤٩٦ ص) ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الأثنينية ٢٨)

ردمك ٨-٢١٠-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)
٦-٢١١-٤٧-٩٩٦٠ (ج ١)

١ - علي ، عاصم حمدان - المؤلفات الكاملة أ- العنوان .

ديوي ٨١٠,٨ ١١٤/ ١٤٢٦

رقم الإيداع : ١١٤/ ١٤٢٦

ردمك ٨-٢١٠-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)
٦-٢١١-٤٧-٩٩٦٠ (ج ١)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ — ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

الأديب الدكتور عاصم حمدان علي

الإهداء

بمناسبة اختيار

مكة المكرّمة عاصمة للثقافة الإسلامية

لعام ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م،

أهدي هذا العمل لمؤلفي

"وحي الصحراء":

والدي

محمد سعيد عبدالمقصود خوجه

و رفيق دربه

عبدالله عمر بلخير

–يرحمهما الله –

فهرس

الأعمال الكاملة

المقدمة ———— ١١

كلمة الناشر ———— ١٥

اصدارات كتاب الاثنينية ———— ١٩

السيرة الذاتية ———— ٢٣

الجزء الأول/ حارة الأغوات – حارة المناخة – أشجان
الشامية – ذكريات من الحصوة – هتاف من باب
السلام – رحلة الشوق في دروب العنبرية ———— ٣١ – ٤٩٦

الجزء الثاني/ المدينة بين الأدب والتاريخ – الأخبار الغريبة
فيما وقع بطيبة الحبيبة – حلقات العلم في
الحرمين الشريفين – الشعر السياسي والوطني
عند شعراء المدينة المنورة – صفحات من
تاريخ الإبداع الأدبي بالمدينة المنورة ———— ٥ – ٨٦٠

الجزء الثالث/ نحن والآخر – دراسات مقارنة بين الأدبين
العربي والغربي – التآمر الصليبي الصهيوني
على الإسلام – قراءة نقدية في بيان حمزة
شحاته الشعري – قطوف آخر ———— ٥ – ٦٥٢

الجزء الرابع/ المقالات الصحفيّة ———— ٥ – ٦٣٦

فهرس المحتويات

الإهداء ....

المقدمة ....

كلمة الناشر ....

إصدارات الاثنينية ....

السيرة الذاتية ....

النثر ....

حـــارة الأغـــوات ....

تقـــديـــم ....

تمهـــــيد ....

حـــارة الأغـــوات (١) ....

حـــارة الأغـــوات (٢) ....

حـــارة الأغـــوات (٣) ....

حـــارة الأغـــوات (٤) ....

حـــارة الأغـــوات (٥) ....

حـــارة الأغـــوات (٦) ....

حـــارة الأغـــوات (٧) ....

حـــارة الأغـــوات (٨) ....

حـــارة الأغـــوات (٩) ....

حـــارة الأغـــوات (١٠) ....
حـــارة الأغـــوات (١١) ....
حـــارة الأغـــوات (١٢) ....
حـــارة الأغـــوات (١٣) ....
حـــارة الأغـــوات (١٤) ....
حـــارة الأغـــوات (١٥) ....
حـــارة الأغـــوات (١٦) ....
حـــارة الأغـــوات (١٧) ....
حـــارة الأغـــوات (١٨) ....
حـــارة الأغـــوات (١٩) ....
حـــارة الأغـــوات (٢٠) ....
حـــارة الأغـــوات (٢١) ....
حـــارة الأغـــوات (٢٢) ....
حـــارة الأغـــوات (٢٣) ....
حـارة المناخـة ....
تقديم ....
تمهيـد ....
حـارة المناخـة (١) ....
حـارة المناخـة (٢) ....
حـارة المناخـة (٣) ....
حـارة المناخـة (٤) ....
حـارة المناخـة (٥) ....
حـارة المناخـة (٦) ....
حـارة المناخـة (٧) ....
حـارة المناخـة (٨) ....

حـارة المناخـة (٩) ....
حـارة المناخـة (١٠) ....
حـارة المناخـة (١١) ....
حـارة المناخـة (١٢) ....
حـارة المناخـة (١٣) ....
حـارة المناخـة (١٤) ....
حـارة المناخـة (١٥) ....
حـارة المناخـة (١٦) ....
حـارة المناخـة (١٧) ....
حـارة المناخـة (١٨) ....
حـارة المناخـة (١٩) ....
حـارة المناخـة (٢٠) ....
أشجان الشامية ....
تقديـــــم ....
لماذا هذه الأشجان؟ ....
أشجان الشامية (١) ....
أشجان الشامية (٢) ....
أشجان الشامية (٣) ....
أشجان الشامية (٤) ....
أشجان الشامية (٥) ....
أشجان الشامية (٦) ....
أشجان الشامية (٧) ....
أشجان الشامية (٨) ....
أشجان الشامية (٩) ....
أشجان الشامية (١٠) ....

أشجان الشامية (١١) ....
أشجان الشامية (١٢) ....
أشجان الشامية (١٣) ....
أشجان الشامية (١٤) ....
أشجان الشامية (١٥) ....
أشجان الشامية (١٦) ....
أشجان الشامية (١٧) ....
ذكريات من الحصوة ملامح من ماضي المدينة المنورة ....
بسم اللَّه الرحمن الرحيم الإهـــداء ....
هــذا الكتـاب ....
ذكريات من الحَصْوة (١) ....
ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة (٢) ....
ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة (٣) ....
ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة (٤) ....
ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة (٥) ....
سائح في ديار الأنس ....
في روابي قباء (١) ....
في روابي قباء (٢) ....
في روابي قباء (٣) ....
في روابي قباء (٤) ....
فقير في ديار الرحمة (١) ....
فقير في ديار الرحمة (٢) ....
فقير في ديار الرحمة (٣) ....
فقير في ديار الرحمة (٤) ....
غريب في حوش النورة ....

جليس الخوخة وأنيس الرستمية ....
طيف المنام وصوت النعمان ....
حديث الزين عند السارية ....
هاتف الربوة (١) ....
هتاف الربوة (٢) ....
أشواق الطريق (١) ....
أشواق الطريق (٢) ....
أشواق الطريق (٣) ....
أشواق الطريق (٤) ....
أشواق الطريق (٥) ....
أشواق الطريق (٦) ....
أشواق الطريق (٧) ....
شكر وتقدير ....
هتاف من باب السلام ....
بسم الله الرحمن الرحيم ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٢) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٣) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٤) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٥) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٦) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٧) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٨) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (٩) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٠) ....

هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١١) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٢) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٣) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٤) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٥) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٦) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٧) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٨) ....
هُتَافٌ مِنْ باب السَّلام؟ (١٩) ....
شكر وعرفان ....

رحلة الشوق في دروب العنبرية ....

الإهداء ....
تقديم ....
رحلة الشوق بين العنبرية والحارة ....
ذكريات من باب العنبرية (١) ....
ذكريات من باب العنبرية (٢) ....
ذكريات من باب العنبرية (٣) ....
ذكريات من باب العنبرية (٤) ....
ذكريات من باب العنبرية (٥) ....
ذكريات من باب العنبرية (٦) ....
ذكريات من باب العنبرية (٧) ....
ذكريات من باب العنبرية (٨) ....
ذكريات من باب العنبرية (٩) ....
ذكريات من باب العنبرية (١٠) ....
فهرس المحتويات ....

المقدمـــة

لقد ازدهرت «الاثنينية» وواصلت مسيرتها وهي تمتح من معين النور في مكة المكرمة مستلهمة فضائل أم القرى من موقع انعقاد فعالياتها بجدة «بوابة الحرمين الشريفين». . وكان لا بد لهذا القرب الجغرافي من إلقاء ظلاله على ما يمكن أن يقدمه هذا المنتدى في مناسبة تاريخية مثل اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، وإن كانت مكة المكرمة دائماً وأبداً موئل العطاء وإشعاع الثقافة والفكر منذ نزول «اقرأ» بغار حراء على سيد الخلق وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

والحمد لله الذي ألهمني التوجه إلى بر والدي، وصديق عمره معالي الشيخ عبد الله بلخير «رحمهما الله». . . ذاكراً فضل معاليه عليَّ بالتوجيه والرعاية في دروب الحياة المختلفة. . فقد غرسا في نفسي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حب الكتاب. . . وكانت البذرة التي أخرجت ما تيسر من السنابل والحبوب كتابهما القيم (وحي الصحراء) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٥٥هـ، بصفته أول عمل أدبي معاصر يرصد جانباً من نتاج أدباء الحجاز بتراجمهم ونماذج من أعمالهم. . وقد أعادت «تهامة» طباعته للمرة الثانية عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وكان من فضل الله بما أفضلت به «تهامة» في قمة عطائها إصدار كتاب «محمد سعيد عبد المقصود خوجه حياته وآثاره» للأستاذ الدكتور محمد بن

سعد بن حسين، من سلسلة الكتاب العربي السعودي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.. ثم شرفت بإصدار سلسلة [كتاب الاثنينية] كرافد يوازي [سلسلة أمسيات الاثنينية] وتحت مظلته صدر كتاب «عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية» للأستاذ محمود رداوي، في طبعاته: الأولى عام ١٤١١هـ/١٩٩١م، والثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، والثالثة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.. وأردف بكتاب «عبد الله بلخير يتذكر» للدكتور خالد باطرفي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ثم كتاب «الغربال» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).. ثم كتاب «الأعمال الكاملة للشاعر أحمد إبراهيم الغزاوي» الذي صدرت طبعته الأولى في ستة أجزاء (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).. وكتاب «المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي محمد سعيد عبد المقصود خوجه» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ـ وبين هذه الإصدارات وبعدها ـ أصدر [كتاب الاثنينية] مجموعة أخرى، إلا أن التي نوهت عنها ذات ارتباط مباشر بكتاب «وحي الصحراء» الذي استلهمت منه فكرة الأعمال الكاملة لكل أديب أسهم فيه بأنموذج من أعماله.

وبدأت مرحلة شاقة من البحث، وحصر الأعمال، التي كان معظمها متناثراً أو لدى الورثة الأفاضل الذين حافظوا عليها مشكورين، واستجابوا للإعلانات التي نشرتها في مختلف الصحف، إلى أن تجمعت حصيلة طيبة خضعت لمعايير صارمة من المراجعة والتدقيق أثناء مراحل الطباعة المختلفة... وقد أكرمنا الله عز وجل بطباعة هذه الكتب التي تقدمها «الاثنينية» بكل اعتزاز بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ما بين عامين وعام من المناسبة المذكورة، وظلت في المستودعات لترى النور وتتلازم مع هذه الفعاليات.. ويسعدنا تقديم:

ـ الأعمال الكاملة للأستاذ حسين سراج (١٠ أجزاء).

ـ أخبار مكة للأزرقي (جزءان في مجلد واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان (٧ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأستاذ إبراهيم أمين فودة (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب عبد الله عبد الرحمن الجفري (٤ أجزاء).

ويلاحظ القارىء الكريم أن هناك أعمالاً لم تكن ضمن كتاب «وحي الصحراء» إلا أن أصحابها الأفاضل لهم ريادة وعلاقة وثيقة بهذا التوجه... أي إنها تنصهر كلها في بوتقة حب مكة المكرمة زادها الله تشريفاً وتعظيماً.

سائلاً الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها المسلمين ويجعلها خيراً يسهم في إثراء مكتبتنا العربية والإسلامية.

والله الموفق وهو من وراء القصد،،

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

كلمة الناشر

بقلم: عبد المقصود محمد سعيد خوجه

إذا كان حب المكان بالمكين، فإن مكة المكرمة والمدينة المنورة تحظيان بحب ملايين القلوب التي تهفو إليهما من كل حدب وصوب.. غير أن هناك فئة من الناس اختصها الحق سبحانه وتعالى بقوة التعبير عن مكنون أنفسها، شعراً أو نثراً، دون عناء البحث عن الشوارد ووعثاء تكلف الخواطر، ومن الناس من لا يرضى بغير (المجاورة) تعبيراً حسياً عن حبه للالتصاق بالأرض التي يسري عشقها في عروقه.. وقد خبرت أصنافاً من البشر ممن هاموا حباً بالحرمين الشريفين، إلا أن معرفتي بالأستاذ الدكتور عاصم حمدان جعلتني أقف على أنموذج فريد في حب «المدينة المنورة» على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إن تفصيل ما أجملت عن ذلك الحب الكبير يستدعي الغوص في الأعمال الكاملة للأستاذ الدكتور عاصم حمدان علي التي أشرف بنشرها في المجموعة التي بين أيديكم، ضمن سلسلة [كتاب الاثنينية].. فكاتبنا المعروف، عاشق تراث المدينة المنورة، أكاديمي جاد «أستاذ النقد الأدبي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة»، وأديب ذائع الصيت، وصحفي مطبوع،

وظف له مواهبه المتعددة لخدمة مدينة رسول ﷺ.. والمتتبع لأعماله يجد أنها نابعة من قلب مفعم بذلك الحب الخالد الذي يعمر فؤاده ويفيض على جوارحه، فهو صاحب عبارة مشرقة، وأسلوب سلس في التعبير عن ذاته مما يمكنه من الوصول إلى المتلقي عبر أقرب نقطتين، إذ ليس بين القلب والقلب رسول كما يقال، وهل منا إلا ذلك المشوق الذي يقبل أرضاً وطأتها أقدام الحبيب ﷺ؟

ولا يقف كاتبنا الكبير عند حدود العرض الفكري والتناول الأكاديمي لكثير من الظواهر الأدبية والاجتماعية، بل نجده دائماً يسعى لأعمال الأسلوب التحليلي والمنطقي لسبر غور أي ظاهرة، والخروج بجواهر الفكر من لجج العواطف التي قد لا تحمل أكثر من رسم لواقع الحال، غير أن التحليل العميق وفق معايير أكاديمية صارمة يمثل عبقرية الأداء التي تستقرئ كل حالة، وتشخص المرض، لتسهم في العبور نحو بر الأمان وتسعى لتشكيل قاعدة بيانات قد تساعد صانع القرار أو من بيده الحل والعقد على ترتيب الأمور بموجب قراءة هادئة توضح أبعاد أي ظاهرة أو أزمة اجتماعية تمس الاستقرار والأمن والأمان.

بالإضافة إلى ذلك شارك أستاذنا الكبير بعدد من المؤلفات القيمة التي أرخت للمجتمع المدني، ورسمت من تاريخ المدينة المنورة لوحات ذات ألق وعبق نادرين، حتى يخيل للقارئ أنه يسعى بين أزقة وحواري تلك الأحياء التي تتنفس الحب، وينظر إلى أسطح المنازل المتقاربة في سكون الليل وهدأة السحر، ويجالس سكانها ويسمع حواراتهم الهادئة.. إنها أنفاس مقتبسة من عمق أصالة وطِيبة الناس الذين طيّبتهم طيبة الطيبة، فكانوا وما زالوا عنواناً للآداب الإسلامية السامية.

إن الأستاذ الدكتور عاصم حمدان يتمتع بمقدرة فائقة على توصيل فكره للمتلقي سواء عن طريق مخاطبته مباشرة، أو بمقال صحفي، أو من خلال أجهزة الإعلام المختلفة، فهو في كل الأحوال متفرد ومميز بقوة المنطق، وحضور البديهة، وثراء المعلومة.. وهو مستمع جيد يستوعب بمقدرة فائقة كل المتغيرات ويحلل بهدوء ما يثار من شبهات ثم يرسل الرد الشافي معتمداً على كنوز المعارف التي يختزنها في ذاكرته القوية أو بين محتويات مكتبته الخاصة، أو مصادر المعلومات التي يستطيع الوصول إليها في وقت وجيز.

هذا الحب الكبير الذي يحمله كاتبنا الأنيق بين جوانحه للأدب والثقافة دفعه لتعلم اللغة الإنجليزية في معقلها.. فنهل من معين الأدب المقارن وتمثل ما درس وعلم، ثم أنجز بعض المؤلفات باللغة الإنجليزية إسهاماً مشكوراً في توسيع آفاق المعرفة الإنسانية وتطوير أساليب البحث العلمي.

وبجانب إبداعاته الأدبية والفكرية، يقف أستاذنا عاصم بصبر وصلابة كمواطن يشعر بآمال وآلام أبناء وطنه فيقدم ما يستطيع من جاه ومعارف وقنوات تواصل للمشي في حاجة إخوانه، وليس ذلك بغريب عن أستاذ كبير اختلطت ذرات كيانه بأدب النبوة، فهو بالرغم من علو شأنه في ميدان الثقافة ولافكر والأدب، إلا أنه لم يعرف من الأبراج العاجية غير اسمها.. فهو من جيل القنطرة، ذلك الجيل الذي ارتشف قطرات النجاح والتواضع وحب العلم من مجالس الروّاد الأفاضل الذين أسسوا صرح عطائهم على قاعدة صلبة من العلم والحب وقوة الإرادة، فكانوا أبداً سادات خير وأرباب حجى وقامات سامقات وأشجار باسقات آتت أكلها كخير ما يكون الخير من المنبت الحسن.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع المسلمين بهذه المجموعة الكاملة التي هي ثمرة إنجاز ابن بار من ابناء المدينة المنورة، وتأتي في إطار احتفاء «الاثنينية» بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، هدية متواضعة من ابن من أبنائها يرجو من الله عز وجل أن يتقبله قبولاً حسناً ويجعله في ميزان حسناته.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل..

شعبان ١٤٢٥هـ/أكتوبر ٢٠٠٤م

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

إصدارات كتاب الاثنينية

١ ـ ديوان (الأعمال الكاملة).

لمعالي الأستاذ أحمد بن محمد الشامي، (رقم ١) الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢ ـ كتاب (عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية).

لمؤلفه الأستاذ محمود رداوي، (رقم ١/١) الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣ ـ ديوان (عاصفة الصحراء).

للشاعر الأستاذ محمود عارف، (رقم ١/ ٢) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤ ـ ديوان (الأربعون).

للأستاذ عبد السلام هاشم حافظ، (رقم ١/ ٣) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٥ ـ ديوان (قلبي على وطني)

للشاعر العراقي الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٤) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٦ ـ كتاب (جرح باتساع الوطن).

للشاعر الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٥) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٧ ـ ديوان (حصاد الغربة)

للشاعر العراقي الدكتور زاهد محمد زهدي، (رقم ١/٦) الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٨ ـ ديوان (الأعمال الكاملة)

للأستاذ الراحل زكي قنصل، (رقم ٢) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٩ ـ كتاب (البهاء زهير)

للأستاذ المرحوم محمد إبراهيم جدع، (رقم ٣) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٠ ـ كتاب (التوازن معيار جمالي)

للأستاذة غادة بنت عبد العزيز الحوطي، (رقم ٤) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١١ ـ كتاب (سوانح وآراء)

للأستاذ الدكتور بدوي طبانه، (رقم ٥) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٢ ـ كتاب (ترجمة حياة)

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٦) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٣ ـ ديوان (قوس قزح)

لفضيلة معالي الدكتور الشيخ أحمد الزرقاء، (رقم ٧) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الأول).

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٥ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الثاني)

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٦ ـ ديوان الأعمال الكاملة (الجزء التاسع)

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٩) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٧ ـ ديوان (أوراق من هذا العصر)

للشاعر الدكتور خالد محي الدين البرادعي، (رقم ١٠) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٨ ـ ديوان (زمن لصباح القلب)

للشاعر فاروق بنجر، (رقم ١١) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٩ ـ الشعراء في إخوانياتهم

للأستاذ خالد القشطيني، (رقم ١٢) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٠ ـ عبد الله بلخير يتذكر

للأستاذ خالد باطرفي، (رقم ١٣) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢١ ـ كتاب (الغربال)

للأستاذ حسين عاتق الغريبي، (رقم ١٤) الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٢ ـ ديوان (حلم طفولي)

للأستاذ سعد البواردي، (رقم ١٥) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٣ ـ كتاب (الأعمال الشعرية الكاملة وأعمال نثرية)

للشاعر أحمد بن إبراهيم الغزاوي، (رقم ١٦) الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٤ ـ المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي الراحل محمد سعيد عبد المقصود خوجه

إعداد وتقديم الأستاذ حسين عاتق الغريبي (رقم ١٧) الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٥ ـ الأعمال الكاملة للشاعر والأديب الكبير حسين عبد الله سراج رقم (١٨)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٦ ـ أخبار مكة للأزرقي رقم (١٩)، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

٢٧ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر رقم (٢٠)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي رقم (٢١)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٩ ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي رقم (٢٢)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٠ ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي رقم (٢٣)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣١ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان رقم (٢٤)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٢ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي رقم (٢٥)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٣ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء رقم (٢٦)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٤ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة رقم (٢٧)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٥ ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي رقم (٢٨)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٦ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق رقم (٢٩)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٧ ـ الأعمال الكاملة للأستاذ إبراهيم أمين فودة رقم (٣٠)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب رقم (٣١)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٩ ـ الأعمال الكاملة للأديب عبد الله عبد الرحمن الجفري رقم (٣٢)
الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

السيرة الذاتية

الدراسة:

ـ أكمل تعليمه الابتدائي والمتوسط والثانوي بالمدينة المنورة.

ـ تحصل على بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها «مرتبة الشرف الأولى من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٣٩٦هـ».

ـ درس في جامعة «لانكستر»، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة «مانشستر» عام ١٤٠٦هـ، عن رسالته «أدب المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري»، دراسة نقدية اعتماداً على المصادر المعاصرة.

ـ عضو لجنة مناهج الدراسات العليا بقسم اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز.

الأعمال:

ـ يعمل حالياً أستاذاً مشاركاً في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

ـ يعمل مستشاراً غير متفرغ لمعالي وزير الحج منذ العام .

ـ عمل رئيساً لتحرير مجلة الطلاب الصادرة عن نادي الطلاب السعوديين في بريطانيا ١٤٠٦هـ الموافق ١٩٨٦م.

ـ عمل رئيساً لتحرير مجلة الحج الصادرة عن وزارة الحج.

ـ يعمل الآن مستشاراً لهيئة تحرير مجلة الحج.

العضويات:

ـ عمل عضواً بلجنة الإشراف على مجلة الآداب المحكمة بجامعة الملك عبد العزيز لفترتين متتاليتين.

ـ عمل عضواً بمركز تدرب العاملين في شؤون الحج والعمرة من العام ١٤١٧ إلى العام ١٤٢٠هـ.

ـ عمل عضواً باللجنة العلمية لمؤتمر الأدباء الثاني المنعقد بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

ـ عمل عضواً باللجنة العلمية لندوة الإعلام في الحج، التي أشرف عليها مجلس الإعلام الأعلى مع مركز أبحاث الحج بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

ـ عمل ضمن اللجنة الاستشارية لتكريم سمو الأمير عبد الله الفيصل والتي خصصتها دار الصباح احتفاءاً بشعره (١٤٢٢هـ/٢٠٠١).

ـ عضو هيئة تحرير مجلة كلية الآداب الصادرة عن جامعة الملك عبد العزيز.

ـ عضو لجنة الإعداد لمشروع المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين المنعقد بجامعة أم القرى العام ١٤١٩هـ.

ـ عضو لجنة مناهج الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز.

ـ عضو لجنة مناهج الدراسات العليا بقسم اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز.

ـ عضو لجنة المناهج العليا بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز.

ـ عضو المجلس العلمي لموسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة والتي تشرف عليها دار الفرقان للتراث.

ـ عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مركز بحوث ودراسات مجلة المدينة المنورة.

ـ عضو في لجنة اختيار المعيدين بقسم اللغة العربية.

ـ عضو لجنة إعداد تنظيم المسابقة الثقافية العامة لجامعة الملك عبد العزيز العام ١٤١٠هـ.

ـ عضو لجنة تحكيم مسابقات البحث العلمي والابتكارات العام ١٤١٠هـ.

ـ عضو لجنة إنشاء وحدة الدراسات الإنسانية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز العام ١٤١٧هـ.

ـ عضو لجنة مناهج مرحلة البكالريوس بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز العام ١٤١٨هـ.

ـ عضو لجنة دراسة مشروع إنشاء مركز خدمة المجتمع العام ١٤١٦هـ.

ـ عضو هيئة الإشراف على مركز تدريب الطوائف العام ١٤١٧هـ.

ـ عضو لجنة الحوار والمناقشات في مهرجان القصة والشعر لشباب دول مجلس التعاون العام ١٤١٨هـ.

مبادرات:

ـ أنشأ ندوة الأصدقاء في أوائل التسعينات الهجرية ١٣٩٠هـ، ١٣٩٢هـ بالمدينة المنورة، وكانت نداوتها المتصلة بقضايا الفكر والثقافة والأدب

تعقد بحصوة المسجد النبوي الشريف.

ـ اختير من قسم دراسات الشرق الأوسط والذي كان يرأسه المستشرق المعروف أدموند بوزورث، ليكون عضواً بمجلس القسم كممثل لطلاب الدراسات العليا ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦م.

الجوائز:

ـ نال جائزة علي وعثمان حافظ الصحافية كأحسن كاتب عمود صحفي خلال العام ١٩٩٦م.

ـ نال درع نادي المدينة المنورة الأدبي، وشهادته التقديرية تقديراً لجهوده في مجال الثقافة والتربية الأدبية في الاحتفال الذي أقامه النادي بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على تأسيسه واختيار الرياض عاصمة الثقافة العربية وذلك برعاية سمو الأمير مقرن بن عبد العزيز أمير المدينة المنورة في العام ٢٠٠٠م.

المؤلفات:

ـ «التآمر الصهيوني الصليبي على الإسلام» عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ١٤٠٩هـ.

ـ «المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ» إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي ١٤٢١هـ/١٩٩١م.

ـ «حارة الأغوات» صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري: دار القبلة بجدة ١٤١٣هـ.

ـ «حارة المناخة» صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري: دار القبلة بجدة ١٤١٤هـ.

ـ «نحن والآخر» إصدارات نادي المدينة الأدبي ١٤١٥هـ.

ـ «أشجان الشامية» صورة أدبية لمكة المكرمة في العصر الحديث: دار جدة ١٤١٦هـ.

ـ «دراسات مقارنة بن الأدبين العربي والغربي»، إصدارات نادي المدينة الأدبي ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ـ «هتاف من باب السلام» دار جدة ١٤٢١هـ.

ـ «ذكريات من الحصوة» شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة إصدار العام ١٤١٩هـ.

ـ «صفحات من تاريخ الإبداع الأدبي بالمدينة المنورة» شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

ـ قراءة نقدية في بيان حمزة شحاتة الشعري، تقديم الأستاذ الناقد عبد الله عبد الجبار، المطبعة المحمودية ١٤٢٤هـ.

ـ عمل مع أ.د. بكري شيخ أمين، على تحقيق كتاب «تحفة الدهر ونفحة الزهر في شعراء المدينة من اهل لعصر «لمؤلفه عمر بن عبد السلام الداغستاني»، وذلك من خلال جميع النسخ الخطية للكتاب.

ـ عمل على تحقيق كتاب «الأخبار الغريبة فيما وقع بطيبة الحبيبة» لـ «جعفر بن هاشم المدني» كجزء من متطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة ماسترفكتوريا بالمملكة المتحدة.

ـ شارك في تحرير كتاب دعوة الحق عن الأديب الداعية أحمد محمد جمال، الصادر عن رابطة العالم الإسلامي العام ١٤١٤هـ.

البحوث المنشورة:

ـ أمين الحلواني ومخطوطات مكتبة بريل.

ـ مجلة عالم الكتب الفصلية، المجلد العاشر، العدد الثالث محرم ١٤١٠هـ/ أغسطس ١٩٨٩م، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٧.

ـ المؤثرات العربية في شعر الشاعر انجليزي جيفري تشوسر «١٣٤٠ ـ ١٤٠٠/م».

ـ مجلة جامعة أم القرى، السنة الخامسة، العدد السابع العام ١٤١٣هـ.

ـ الأدب في المدينة المنورة في القرنين الثاني عشر الهجري ـ الثامن عشر الميلادي «أعلامه، موضوعاته الرئيسية، ظواهره الفنية»، حولية كلية دار العلوم، العدد الثاني والعشرون، شعبان ١٤١٨ ـ ديسمبر ١٩٩٧/م.

ـ الحالة الفكرية في البلاد العربية في القرن الثاني عشر الهجري ـ الثامن عشر الميلادي.

ـ مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد الرابع، محرم، ربيع الأول ١٤٢٤ ـ مارس، مايو ٢٠٠٣، ص ٩٦ ـ ١٠٠.

ـ حلقات العلم في الحرمين الشريفين ودورها في صياغة المعطيات الثقافية والفكرية «القرون ١٢، ١٣، ١٤ الهجرية ـ بحث مقبول للنشر في مجلة كلية الاداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

ـ الفكر والأدب في المدينة المنورة بين السكوبي ومحمد هاشم رشيد، مجلة أهلاً وسهلاً، يونيو ٢٠٠٢م.

ـ السمة الاجتماعية في شعر جعفر بن محمد البيتي ١١١٠ ـ ١١٨٢هـ «الموضوعات والظواهر الفنية» بحث مقبول للنشر بحولية كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

ـ مخطوطات عربية في مكتبة بريل «بحث في العلاقة العلمية بين العالمين أمين بن حسن الحلواني ومحمود التركزي الشنقيطي، والمستشرق السويدي كارلو لاندبدج، نُشر بمجلة عالم الكتب العدد الثالث محرم ١٤١٠هـ /أغسطس ١٩٨٩م ص ٣٩٨ ـ ٤٠٧.

ـ الشعر في المدينة المنورة في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي «أعْلامُهُ، مَوْضُوعاتُهْ ظواهرهُ الفنية». بحث نُشِر بحولية كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

ـ عمر بن شَبَّه وكتابهْ «تاريخ المدينة المنورة». بحث نُشِرَ بمجلَّة أهلاً وسهلاً.

ـ صلات أمين الحلواني المدني بالشخصيات العلمية والاستشراقية في صْره واثرها في جهوده العلمية. مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة، العدد التاسع ١٤٢٥ أغسطس ٢٠٠٤.

النشاط العِلْمي والفِكْري والصحافي:

ـ شارك في الندوة الأولى التي عقدتها رابطة العالم الإسلامي ـ الأحد ١٤١١/١٠/٢١هـ للبحث في سبل تطوير أجهزة الإعلام برابطة العالم الإسلامي حيث قدم ورقة في تلك الندوة بعنوان «ملاحظات حول أجهزة الإعلام برابطة العالم الإسلامي، وعمل عضواً في اللجنة العلمية لندوة الإعلام في الحج، والتي عُقدت بإشراف جامعة أم القرى بمكة المكرمة والمجلس الأعلى للإعلام في ١٤١٦/٦/٢٨،١٧هـ.

ـ عمل لفترتين متتاليتين عضواً في هيئة تحرير مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الصادرة عن جامعة الملك عبد العزيز.

ـ شارك في لجنة الإعداد لمشروع المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين المنعقد في رحاب جامعة أم القرى عام ١٤١٩هـ، كما اختير عُضواً في اللجنة العلمية للمؤتمر نفسه.

ـ يكتب زاوية أسبوعية في صحيفة المدينة المنورة، بعنوان رؤية فكرية وأخرى باللغة الإنجليزية في صحيفة عرب نيوز بعنوان: In Focus.

النشاط الأكاديمي:

ـ مسؤول عن لجنة المعادلات بقسم اللغة العربية العام ١٤٢٣هـ.

ـ الإشراف الداخلي على بعض المبتعثين بقسم اللغة العربية بجامعة الملك عبد العزيز العام

ـ الاشتراك في لجنة الجدول، ولجنة التخصصي.

ـ الاشتراك في لجنة قبول المعيدين.

ـ الاشتراك في لجنة تقييم بعض الرسائل العلمية للمعتمدين للعمل بقسم اللغة العربية.

المؤتمرات والندوات:

ـ شارك في الندوة الأولى التي عقدتها رابطة العالم الإسلامي للبحث في سبل تطوير أجهزتها الإعلامية العام ١٤١١هـ.

النثر

حـــارة الأغـــوات

صُورَة أدبيّة للمدينة المنوّرة في القرن الرابع عشر الهجري

تقـــديـــم

بقلم: الأستاذ الدكتور غازي عبيد مدني

المدينة المنورة، طيبة، المسكينة، و. . .، تعددت وكثرت مسمياتها. وقد درج العرب على الإِكثار من الأسماء لمن أو لما يُعظّمون.

المدينة المنورة ضاربة في أعماق التاريخ، تكاد حجارتها تنطق فتروي المجهول من التاريخ، وتصحح المغلوط منه. تاريخها هو التاريخ نفسه من قبل العرب العاربة وأيامهم وبعدهم.

المدينة المنورة زهت على جميع مدن الأرض، واكتسبت تقديساً وشرفاً وفخراً بهجرة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وإقامته ومن ثم مثواه. هاته الخصيصة أكسبتها منزلة في قلوب المسلمين ستظل تعيش ما ظل المسلمون يَعْمُرون الأرض.

المدينة المنورة تهفو قلوب المسلمين إليها دائماً وأبداً، فما بالنا بمن يسعده الحظ بالعيش على أرضها، يَتَنَسَّمُ هواءها يتغذى دمه وعظمه من مُنْتَجِ أرضها ولا غرابة أن نجد الدكتور عاصم حمدان، وقد فتح عينيه على خُلُقِ وأدب طيبة الطيبة أن تظل في خاطره لا ينساها بل يقول لنا أن لن ينساه.

(*) مدير جامعة الملك عبد العزيز ـ سابقاً.

لماذا حارة الأغوات؟!

المدينة، أي مدينة، في الفكر الإِسلامي وتبعاً لما يهدف إليه الإِسلام ذات صورة واضحة ومميزة. الصلاة هي المحور الذي يدور حوله كل شيء، والصلاة تقام في المسجد، فالمسجد، بذلك هو مركز المدينة. كل شيء يلتف حوله، وكل الطرق تؤدي إليه. وطيبة، المدينة المنورة تجسيد للفهم الإِسلامي في هندسة المدن، وفي جعل الناس يتمحورون حول مركز واحد يجمعهم كل يوم وليلة.

الحرم النبوي الشريف يخدمه فئة من الناس نذروا أنفسهم، ومنذ نعومة أظافرهم نذرهم آباؤهم وما انفكوا كذلك إلى عهد قريب يطلق عليهم مُسمَّى الأغوات. وهم ولوقوفهم على خدمة الحرم الشريف تكون سكناهم حوله وبالقرب منه. فلا يصبح ولا يمسي أحد يسعى إلى الحرم إلا ماراً بدارهم أو بالقرب منها. فسميت المنطقة بكاملها التي تجاور الحرم الشريف بمنطقة الأغوات تكريماً لهم.

كل من عاش في المدينة تنسم عبير حارة الأغوات. فهو لا بد من أن يعود إلى بيته وفي الحالتين يمر بأروقة منطقة الأغوات. من سكن ومن زار المدينة المنورة تظل صورة تلكم المنطقة في مشاعره لا ينساها ولا يريدُ أن ينساها.

أبناء المدينة المنورة، وخاصة في المرحلتين المتوسطة والثانوية، ـ كما نشأ الدكتور عاصم حمدان ـ كانوا يداومون على ارتياد المسجد ليس للصلاة فقط بل للاستذكار ورؤية بعضهم بعضاً بل وأحياناً مراجعة أساتذتهم.

* * *

تاريخ أم ذكريات؟

الصورة هي الحقيقة، وهي لا تعرف الكذب لأنها تعكس المُصَوَّرْ إنساناً أو حيواناً، أو جماداً. فالصورة تعرفنا بذلك الشيء المصور، وإذا كانت صادقة فإنها ترينا الحقيقة وكأنها ماثلة أمامنا. هذا العمل الذي يقدمه الدكتور عاصم حمدان يقدم صورة تنقل مشاعر القارئ إلى روعة الماضي.

الصورة يمكن أن تكون تاريخاً إذا صَوَّرتْ حدثاً أو أحداثاً مع متابعة تسلسل ذلك الحدث؛ ويمكن أن تكون محاولة لفهم دوافع وفلسفة ذلك الحدث. في كل من الحالتين تصبح الصورة تاريخاً. ولن يغيب عن فطنة القارئ أن الدكتور عاصم حمدان لا يؤرخ للمدينة أو لحارة الأغوات.

الصورة التي يقدمها الكاتب، أيضاً، ليست ترجمة لأفراد أو عائلات وقد أحسن صنعاً في تجنب هذا الخصم. ولا شك أن هناك عوائل وأفراداً لم يأت على ذكرهم، ولا أخال هؤلاء يفهمون أن هذا إهمالٌ من الكاتب أو إقلالٌ من شأنهم، لأن الكاتب، وببساطة لم يهدف إلى التاريخ.

الصورة التي أمامنا تعكس ذكريات وهي بذلك يحكمها ويحدد إطارها وتفاصيلها ثلاثة عوامل: عامل زمني، وعامل مكاني، وعامل ثقافي. العامل الزمني تحدده الفترة التي بدأ الكاتب يفتح عينيه فيها على الحياة، فانطبعت في ذهنه ذكريات رسخت في أعماقه، وتأثرت بها شخصيته. أما العامل المكاني فإن إطاره منطقة واحدة هي حارة الأغوات، بل بعض من الحارة، العامل الثقافي تحكمهُ النشأة الدينية والخُلُقِية التي نشأ عليها الكاتب وأثرت في نظرته للحيلة وللناس.

هذه العوامل الثلاثة تظهر بجلاء في هذه الصور الأدبية مكوّنة في مجموعها لوحة فنية اجتماعية ترسم ذكرى حارة الأغوات. الكاتب ينتقل

بك من مخبز «عم حجازي» وفرن «وحيدة» «وحيدة سيدة هاجرت من صعيد مصر وافتتحت مخبزاً، وكانت تقف بنفسها تخبز عيش الحَب. وكان لها ولد وبنت. توفيت البنت وهي لم تبلغ الشباب بعد، وكان لوفاتها رنة حزن في جميع أنحاء الحارة».. إلى صديقه الذي كان مثلاً للخلق والدين، الدنيا لديه لا تساوي شَرْوَى نَقِير، يود كثير من الناس لو يكونون أصدقاءً له. ثم ينتقل بك إلى المؤذن وهو يرفع صوته الجميل بالأذان إلى الصلاة والناس في خشوع تعرج أفكارهم ملكوت السموات والأرض. حقاً الله أكبر ولا إله إلا الله.

جميع الصور في اللوحة يُلْبِسُها الكاتب ثوباً رقيقاً من الدَّعة والسكينة، كأن كل شيء من تلك الحارة وقد تَهَذَّبَ شكلاً وضميراً. ولم لا؟! إنَّه بقرب مَثَوى ذي الخلق العظيم الهادي البشير عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

أرجو أن يجد القارئ مُتعة في استعراض هذه الصور الأدبية، فسوف يعيش فيها كما لو كان آتياً أو رائحاً في دروب حارة الأغوات.

وأخيراً أشكر الصديق الزميل الدكتور عاصم حمدان الذي أَوْلاَني ثقته في كتابة هذه المقدمة وأرجو أن أكون قد أديت جُزءاً مِمَّا كان يأمل.

وبالله التوفيق

غازي عبيد مدني

١٤١٢/١١/٢٠هـ

تمهـــــيد

لم يكن هذا العمل الأدبي المتواضع والذي استقر بين يدي القارئ على هذا الشكل، وليد عوامل طارئة دفعت بي إلى كتابته، ولكنه يبرز بعض تلك الصور التي اختزنتها الذاكرة منذ عهد الطفولة ويفاعة الشباب، وهو أيضاً تلك الأحاسيس التي تكوّنت بمرور الأيام عن بلد المصطفى ﷺ وخصوصاً عن ذلك الحي العتيق الذي كانت تطل عليه منائر المسجد النبوي، وتشع على أحيائه أنوار الروضة الشريفة، لطالما تنقلت بين أزقته ومكثت في دوره، وخالطت القوم من أهله، في هذا الحي «الحارة» رأيت خدم المسجد الشريف بهيئاتهم المتميزة يمسكون العصي بيد ويواسون الناس بيد أخرى. وفيه حملت «الدَّورق» بين يدي، ينسكب ماؤه العذب في فمي وتلامس وجهي تلك النسمات الباردة المنبعثة من أرض «السبيل» وجدرانه التي تتراص على جنباتها، وبطريقة منظمة، تلك الدوارق المصنوعة من تراب الأرض الطيبة.

في الحارة كنت أنصت للأذان يرتفع من المنارة «الرئيسة»، يأتيني الصوت ندياً، يلامس وجداناتي ويبعث صوراً من الذكريات عن تلك العصور التي شهدت انطلاقة الإِسلام من هذه الأرض، فلطالما أَذَّنَ سيدنا بلال من فوق هذا المسجد الطاهر، ولطالما رتل فيه آيات الكتاب الحكيم

صحابة رسول الله ﷺ من أمثال عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري وسالم مولى أبي حذيفة ـ رضوان الله عليهم أجمعين.

عرفت «الحارة» و «سويقة» و «المناخة» و «باب المَصْري» وعِشْتُ ردحاً من الزمن أستمع إلى صفوة القوم من أصدقاء والدي ـ رحمه الله ـ يتحدثون أحاديث فيها الكثير من تلك الحكم والمواعظ التي تربي العقول وفيها أيضاً من الطرائف التي تروح عن النفوس وتدفع عنها الملل ودواعيه، وإنني في هذه الصور الأدبية التي ضمها هذا الكتاب مدين لوالدي الذي سمعت منه الكثير ولم أحفظ عنه إلا القليل، وهذه الصور لا أتطلع من ورائها إلى تدوين التاريخ ورصد الحوادث فكتابة التاريخ بمعناه الاصطلاحي شيء غير هذا الذي يجده القارئ في فصول هذا الكتاب، وهي ليست بالقصة أو الرواية، فللكتابة القصصية ملامحها الأساسية التي لا يتوافر بعضها في هذا العمل، ولكنها تستعير من القصة والرواية ملمحاً هاماً وهو «السَّرد»، ومن هنا جاءت محاولة البعض لتصنيفها ضمن الأعمال القصصية.

إنه عمل يقف في منتصف الطريق بين التاريخ والعمل الروائي، ولم أجد عبارة تكاد تنطبق عليه أكثر دقة من (صورة أدبية) ولهذا فليعذرني البعض الذي كان يظن أنني أؤرخ للمدينة. وتساءل البعض لماذا ذكرت أناساً وأهملت آخرين؟ فالناس عندي جميعاً سواء، وإنني لأحمل بين جنبات نفسي لهذه المدينة وأهلها ما أمر به رسول الله ﷺ في حق جيرانه من صون ورعاية وتقدير، إنني يا عزيزي ـ القارئ ـ كنت مثل من يحمل آلة تصوير فيصور ما تقع عليه عيناه دون أن يعي لماذا وقف هنا ولم يقف هناك؟ ولم يدرك بواعث الإِغراء التي حملته على التقاط صورة دون

أخرى، وأعترف أنني عجزت عن التقاط صور عديدة، فقدرة الكلمة على التصوير صعبة جداً وقد تَصِلُ أحياناً إلى ما يمكن وصفه بالاستعصاء أو الاستحالة، وما دمت قد اعترفت بالعجز فأسأل الله أن يثيبني إِنْ أصبت ويعفو عني إن أخطأت ـ بغير قصد وتعمد.

لم أكن بشخصي الضعيف ـ من يعزى له هذا العمل المتواضع، ولكن هناك بعد الله رجال وأخوة كرام يدين لهم صاحب هذه السطور ـ التي لم يكن وراءها دافع إلا حب الله وحب رسوله ﷺ ـ فأنا مدين للشيخين الكريمين جميل شيناوي وعبد الله كامل ومعهما معالي الدكتور محمد عبده يماني بمشاعرهم الإيجابية تجاه هذا العمل. وكانت هذه المشاعر حافزاً قوياً وراء الإِقدام على نشره، كما كان للخطوة الرائدة التي أقدم عليها معالي الأستاذ أحمد زكي يماني، وهي تفضله ـ رعاه الله ـ بإهدائي مجموعة صور نادرة عن حارة الأغوات والتي تمثل نمط البناء والعمارة في عُصُور الإِسلام الأولى، وهذه المجموعة هي من مقتنيات السيد الفاضل المهندس سامي محسن عنقاوي ـ الذي ينفق جل وقته في الاهتمام بتراث هذه الأرض الطيبة، فلأبي هاني وللسيد العنقاوي خالص الشكر سائلاً الله أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم. أما صحيفة (المدينة) إدارةً وتَحْريراً فقد كانت الأرض الخصبة التي شهدت ولادة هذا العمل ورعته حتى شب واكتمل. ولا شك أن لملحق الأربعاء والعاملين فيه دوراً إيجابياً ومثالياً في الوقت نفسه في التعامل بروح إنسانية رائعة مع كاتب هذه السطور، وأود أن أشيد بتلك المشاعر الأخوية الفياضة التي غمرني بها زميل الصبا ورفيق الدرب الأستاذ محمد إبراهيم عبد الستار ـ وفقه الله.

أما الإِخوة الكرام والزملاء الأفاضل الأستاذ محمد صلاح الدين،

والدكاترة: عصام فيلالي، جميل محمود مغربي، محمد خضر عريف، راكان حبيب، حسن باحفظ الله فقد لمست أن هذا العمل يعنيهم كما يعنيني شخصياً وتلك سلوكيات نادرة وأخلاق كريمة تعزي الإنسان في زمن أضحت فيه النفس أحوج ما تكون إلى معاضدة الإخوان ومشاركتهم الوجدانية.

ولا بد لي أن أتوقف عند دور صديقي معالي الأستاذ الدكتور غازي عبيد مدني مدير جامعة الملك عبد العزيز السابق الذي كان بتفضله بكتابة مقدمة هذا العمل، يرعى ذلك الود الذي كان قائماً بين آبائنا في بلد الرسول ﷺ وكم كنت سعيداً أن تكون السطور الأولى في هذا الكتاب هي من نتاج هذا القلم النظيف نظافة صاحبه وطهارة سلوكه وكريم نسبه، ولن أنسى ثلة كريمة من القراء الذين كان لاستفساراتهم، وتعليقاتهم وتصحيحاتهم أيضاً دور رئيسي في أن يحتفظ هذا العمل بزخمه الخاص المتمثل في تلك الصلة الإيجابية وذلك التعاطف الذي يتحقق بين القارئ والكاتب وذلك من أهم أسس العملية الأدبية التي لن تحقق غرضها من دون مشاركة هذا القارئ مشاركة فعّالة في إنتاج العمل الأدبي، ولعلّي أكون قد نسيت في غمرة المشاغل العديدة بعضاً من الأسماء التي لم تألُ جهداً في تقييم هذا العمل أو التعبير عن فرحتها به، فلها من العبد الفقير إلى مولاه كل شكر وتقدير، وصلى الله على سيد الخلق وصفوة البشر محمد بن عبد الله وآله وصحبه وسلم.

جدة: ١٤١٢/١١/١٧هـ.

عاصم حمدان علي

(١)

تخرج من باب الحرم النبوي المسمى بباب جبريل. فيواجهك هذا الحي ببنائه المتميز، بيوت متقاربة وطرق ضيقة ومتعرجة. الشارع الرئيس الذي يخترق هذا الحي والذي كان يسلكه أهل المدينة حاملين موتاهم إلى روضة البقيع، أو مسلمين عليهم في المناسبات. هذا الشارع يفضي بك إلى رحبة تضم منهلاً للعين ومقهى صغيراً وبناء قديماً يسمى «الرستمية». أما المنهل الذي كان سكان الحي يستخدمون ماءه في الشرب ويتم هذا الاستخدام عبر وسيلة كانت متداولة في المدينة إلى قبل ما يقرب من ربع قرن من الزمن وهي «الزَّفة» وهي أداة لحمل الماء لتزويد المنازل به، وكان الشخص الذي يحمل هذه الزفة ويسير بها بين الأزقة والحواري يسمى (السقا) هكذا كانت تنطقه عامة أهل المدينة. وإذا بلغت الحارة وأردت الوصول إلى هذا المنهل فما عليك إلا أن تهبط إليه عن طريق درجه الخاص والمرصوف بالحجر الذي كانت تتميز به معظم شوارع المدينة القديمة وأسواقها «كشارع العينية»، و«سويقة»، و«سوق الحدرة» وفي الجهة المقابلة «للعين» أو «المنهل» كان يقوم مقهى المعلم «طيفور» الذي يأمه الناس إذا ما فرغوا من صلاة الصبح وأرادوا الانطلاق إلى أعمالهم، أو إذا ما أخذت الشمس في المغيب وتطلعت الأنفس إلى الراحة والاستمتاع بتلك النسمات الرطبة التي كانت تنبعث من أرض الحارة. فالرحبة تضم

العين والمقهى والبناء القديم ويطل عليها منزل شيخ الأغوات الذي كان يتطوَّعُ «لِرَشِّها» بالماء رجل غريب الأطوار كان يتخذ من الغرف الصغيرة المتناثرة في ذلك البناء القديم مسكناً له، إنه «عبد الرحيم» لا أعرف له لقباً أو كنية، يلبس الأسود من الملابس. لا يتحدث إليه أحد من أهل الحارة أو من غير أهلها الذين يأمونها ولا يتحدث هو إلى أحد، يقضي سحابة نهاره في الحرم قارئاً للقرآن وإذا ما واتتك الفرصة ووصلت الحارة في الهزيع الأخير من الليل فستلمحه صاعداً من العين حاملاً الماء على كتفيه ثم ساكباً له في تلك الرحبة كأنه يهيئها بتلك السقيا لبقية القوم من أهل الحي الذين يحبهم ويحبونه ولكنهم يتورعون عن الحديث إليه فغضبه لا يطاق وحياته تنطوي على سر وما أكثر الأسرار في حياة أهل الحارة، ولم يكن «عبد الرحيم» الذي يتخذ من «الرستمية» والتي أعتقد أنها كانت في حقبة ماضية مدرسة من المدارس التي أقامها الوزير رستم باشا في ما أقام من مؤسسات خيرية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، لم يكن صاحبنا الوحيد الذي لم تهيىء له فرص الحياة أكثر من مساحة محدودة في البناء الذي كاد يتهدم لتقادمه بل كان في جواره يسكن العم «حسن» الذي قضى جزءاً من حياته في «مكة المكرمة» وعلى وجه التحديد في حي الشامية حيث كان يعمل في بيت المحجوب، وكان عمل العم «حسن» هذا ينحصر في إعداد الطعام عندما تكون مناسبة معينة في الحي، وليس بعيداً عنهما كان يوجد «زايد» و«سعد» يحفران القبور في بقيع الغرقد نهاراً ويأويان إلى «الرستمية» ليلاً راضين بما كتب الله لهما وقانعين بهذه القسمة من الرزق. ثم العم «حسب الله» الذي كان يحترف صنعة «النجارة» وكان إلى جانب قيامه بهذه الصنعة يمثل الشخصية التي تتمحور عليها لقاءات سكان الرستمية وذلك بحكاياته الطريفة التي كان يرويها لجلسائه، وبتعليقاته

التي لا يسلم أحد منها حتى المعلم «طيفور» نفسه والذي كان يعتبر مسؤولاً عن مبنى «الرستمية» فهو من أتباع الأغوات أو كما يقال من «عتقائهم»، اسمه «محمد» و «طيفور» اسم «سيده» من الأغوات. ولقد امتد العمر بالمعلم «طيفور» إلى ما يزيد على ثمانين عاماً وكان يبدو للآخرين في تمام الصحة لم ينحن له ظهر أو تتغير له ملامح، يلبس ذلك الثوب الفضفاض ويشد على وسطه حزاماً ويعتمر «كوفية» بلدي منشَّاة، ولا يتعمم ولكنه يلقي بالسَّلِيمي على كتفه ويبقى طرفه الآخر متدلياً حتى ليكاد يلامس الأرض، يجلس على كرسي صغير مصنوع من «الشَّريط» وإذا ما جلس فهو منشغل بشيءٍ واحد وهو شرب «النارجيلة» يهيئها هو بنفسه، يخرج «دخان الحُمِّي» النوع الممتاز منه «الغَيْلي» يبله بالماء ثم يفركه بأصابعه حتى يجف ثم يضعه في «الرأس» المصنوع من الفخار، وزيادة في إتقان «التعميرة» فإنه ينفخ الرأس من أسفله حتى تتداخل حبات «الحمِّي» وتندمج مع بعضها البعض عندئذٍ تطيب نفسه فيضع على «الحمِّي» حبات صغيرة من النار، يخرج «ملقاطه» الصغير ويحرك الجمرات وربما استبدل «ولعة» بأخرى لا تسمع «لنارجيلته» صوتاً ولكن بإمكان أذنك أن تميز صوت أنفاسه وهي تمتح من ذلك الدخان الذي يملأ برائحته ذلك الفضاء المفتوح للمبنى العتيق.. قليلاً ما كان المعلم «طيفور» يشارك في أحاديث الجماعة التي تؤم الرستمية أو تسكن فيها، مثل «الحاج التوم» الذي يجيد شيئاً من كلمات اللغة الفرنسية والتي أفادها في مطلع حياته في بلده «السُّودان» والنور و«عبد الله» اللذين كانا يسكنان رباطاً موغلاً في القدم وهو رباط «المظفر» الذي إذا ما رغب أحد في دخوله فسوف تقابله عند مدخله درجات وعليه أن يسلكها نازلاً وليس صاعداً فتعاقب الزمن عليه جعل كل طبقة منه تمثل عصراً محدداً..

المعلم «طيفور» كان يمثل لي ولصديقي الأستاذ «أسامة أحمد السنوسي» سراً من الأسرار، سمعت عنه أنه كان من «مشاكلة» الحارة مثله في ذلك مثل «أبو عشرين» ومن «عناترتها» كما يقولون. وظلت هذه العبارات تشكل هاجساً غريباً في نفسي حتى إذا ما حل العيد واحتفل الناس بقدومه ووضع أهل حي «باب التمار» «المزمار» بالقرب من البقيع وكانت حينئذ منطقة شبه خالية من المباني، ولا يصبر على السكنى فيها إلا القلة من الناس الذين يتوزعون بين ظلال النخيل ويحتمون من الهاجرة بشجيرات الأثل. ذهبت لأشاهد مع الناس من جميع أنحاء المدينة هذه اللعبة التي يقال إنها أفريقية المنشأ ونقلها المهاجرون إلى أرض الحرمين فيما نقلوا من عادات وتقاليد.

ظللت أراقب لعبة «المزمار» وكانت المساحة المخصصة للعب كبيرة جداً، كان الكبار والقطع والصغار يشاركون في «لفِّ العصا» ويرقصون في حركات غريبة ولكنها طريفة، شاهدت من الكبار المعلم «حمزة أبو سطوة» الذي كان نازحاً عن المدينة ثم عاد إليها، والعم «علي رنقا» الذي شارك في بناء محطة سكة الحديد بباب العنبرية، والذي توفي قريباً عن عمر يناهز التسعين عاماً أو يزيد، «وعدلي» من مشاكلة الساحة القدامى، وكان هناك شيخ كبير قدم من جدة لسكنى المدينة وهو المعلم «جميل عبده» من أهل حارة اليمن من جدة. وجه مضيء كانبلاجة الصبح تزينه لحية بيضاء وملامح تشي بالصفاء والحب، هو الآخر أمسك بالعصا ولعب بها، كان معتماً بالغباني الأصفر فوق رأسه، وشاداً الإزار الأخضر في وسطه، ومع أني كنت أتنقل في طرفي ساحة اللعب من جهة لأخرى، إلا أن فضولي كان ينصرف إلى شيء واحد فقط وهو الرغبة في رؤية المعلم «طيفور»

الذي كان غائباً عن الساحة. وعندما سألت أحدهم عنه، كان جوابه مقتضباً: المعلم «طيفور» لا يلعبُ «المزمار». وانفض الجمع بعد أن تحركت منهم الأجسام وتقابلت العصي من فوق الرؤوس وحرَّكت الأرجل تراب الأرض الساكن وذراته، وخلت الساحة إلا من صدى يردد قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفا   أنيس، ولم يسمر بمكة سامر

لقد مات «طيفور» ولم أجرؤ يوماً لأسأله، لماذا لا يلعب المزمار؟ أو أستفسر منه عما أفضى به لي الأستاذ عبد الستار بخاري ـ رحمه الله ـ ذات يوم. فلقد أومأ بإصبعه تجاه «طيفور» الخارج يومها من باب الرحمة وقال هذا رجل شجاع فعل كذا وكذا عندما كان شاباً، وبقي السر مدفوناً هناك في الحارة وذهب مع الطيبين من القوم الذين لم يبق منهم أحد، فلقد ساروا جميعاً إلى رحمة الله ضمتهم الأرض التي أحبوا واحتواهم التراب الذي عفروا فيه جباههم قربى لله وزلفى..

(٢)

كانت الحارة تشتق اسمها من (الأغوات) الذين كانوا يهبون أنفسهم لخدمة الحرمين الشريفين. ففي المدينة كانوا يقومون بتنظيف المسجد وتهيئته نهاراً وحراسته ليلاً بعد أن تقفل أبوابه، كان نظامهم الذي أرجح أنه يعود إلى العصر المملوكي نظاماً يقوم على الدقة والإِتقان يأتون في موعد محدد وينصرفون بعد أن يكون كل واحد منهم قد أدى ما يوكل إليه من عمل، كان لا يسمح لهم بالدخول من باب جبريل بل يجب أن يدخلوا من الباب الآخر المجاور له فدخولهم من هذا الباب يمكن الشيخ أو نائبه أو رأس الخيالة من معرفة الوقت الذي دخل فيه الشخص المكلّف بأداء الخدمة من بينهم.

مع ارتفاع صوت الأذان الأول من المنارة الرئيسة في المسجد والذي كان يخترق سكون الليل في سماء المدينة كنت تسمع صوت باب يفتح هنا وآخر يوصد هناك ووقع خطوات واثقة تتلمس طريقها وسط الظلام الذي كان يلف منعطفات الحارة ويغطي منازلها بغلالته السوداء ولم يكن ليخفي على أحد عندئذٍ أن القوم يتجهون إلى المسجد فهم من أول الناس دخولاً له كما أنهم آخرهم خروجاً منه.

كانت الغالبية منهم تأتي من بلاد السودان ولكن كتب تاريخ المدينة وخصوصاً ابن فرحون في (نصيحة المشاور وتعزية المجاور) يتحدث عن

أجناس مختلفة منهم. ولقد حدثني الشيخ مصطفى العلوي أمد الله في عمره وكان كاتباً لأغوات المدينة لحقبة من الزمن بأنه أدرك اثنين من الأغوات يعودان إلى أصل تركي ويشتركان في اسم واحد هو «سليم». وهما من عتقاء عبد الله باشا، وقد أهداهما لمسجد المدينة. وكان من بين أغوات المدينة من اشتهر بالعلم والتفقه في الدين مثل خليل آغا الذي تولى مشيخة أغوات المدينة بعد الستينات الهجرية. وكان قد قرأ القرآن على الشيخ مصطفى الذي أتينا على ذكره قبل قليل كما اشتهروا بعمل الخيرات ومساعدة المحتاجين من الناس فخليل آغا بنى مسجداً في حي قباء لا يزال موجوداً ويعرف باسم مسجد الآغا كما أوقف رباطاً على الفقراء لا يزال يحمل اسمه في حي باب الشامي، وحي العنبرية مدخل المدينة للقادم من مكة، وجدّه يقال إن اسمه مشتق من «عنبر آغا» كما يوجد مسجد على يسار الداخل من شارع العنبرية ينسب إلى حافظ إبراهيم آغا.

كان الأغوات الذين أدركتهم تتوزع منازلهم في أماكن مختلفة من الحارة. وكان البعض منهم قد نذر نفسه بالكلية لعبادة الله وخدمة مسجد رسوله ﷺ فلا يعرف من المدينة إلا مسجدها وموضع سكناه، كما أن بعضهم قد بلغ من كرم اليد وسماحة النفس شأواً عظيماً كان بينهم شخص اسمه «أحمد» وينطقونه في الحارة «هكذا» «أحمدو».. ولا أعرف من أين جاء للغة المدنيين هذا الإشباع للحرف الأخير مِن الاسم.

كان أحمد هذا لا يسمع عن واجب عند أحد من أهل الحارة إلا وأرسل إليه ما يعينه على أداء واجبه وكان إذا طلب من أحد قضاء حاجة ولم يجد ما يكافئه على قضائها له نزع ساعته من يده وأهداها إليه.. هكذا سمعت من سكان الحارة وبالتواتر بعد وفاة هذا الإِنسان وانتقاله إلى رحمة الله.

ولا أنسى موقفاً حدث لي مع واحد منهم اسمه «الضوء» كنت صغيراً أسير في الحارة مع أحد أصدقائي وكان الضوء ينظر إلينا من نافذة منزله وما إن سلمنا عليه حتى بادرنا بهدية قذفها علينا من أعلى داره المطلة على واحد من تلك الأزقة الضيقة التي كانت تشتهر بها الحارة أما «جاه الله» الذي شارف عمره على المائة بحسب أقوال زملائه في المهنة.. فهو مواظب منذ عرفته على أداء الصلوات في المسجد لا يتخلف عن فرض ولا يسكت لسانه عن ذكر ولا تنقطع يداه عن صدقة، رأيته قبل عام واحد فقط من كتابة هذه السطور وهو يسير بين الدكتين «دكة الأغوات» و «دكة شيخ الحرم» فإذا هو منتصب القامة لا يتوكأ على عصا ولا يتباطأ في مشية ولقد عرفته على هذا النحو منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمن (جاه الله) واحد من الأغوات الذين قدموا المدينة فلم يعرفوا منها غير المكان المطهر الذي أتوا من بلادهم بقصد الخدمة فيه.

عندما تميل الشمس إلى المغيب تعمر رحبة الحارة بالناس ومن بينهم فئة الأدلاء العاملين بالحرم فتتهادى إلى أذنيك بين الحين والآخر أصوات من ضحكاتهم البريئة وأحاديثهم المسلية، فيخرج الأغوات من منازلهم التي تحيط بها الحوانيت من كل ناحية يجلس أحدهم واسمه «محمد حسن» كان سمح الوجه ويميل لونه إلى شيء من البياض، فلا يمر طفل إلا ويداعبه ويقدم له شيئاً من الحلوى التي غالباً ما يتهالك الأطفال على الحصول عليها ويميلون بطبيعتهم إلى من يتوددون بها إليهم.

رحم الله القوم فلقد كانت الوجوه منهم مستبشرة والصدور منهم متسعة والأيدي منهم سخية، ورحم زماناً عاشوا فيه كانت القلوب فيه عامرة بالإيمان، والألسنة لا تنقطع عن الذكر، والدور لا يتردد فيها غير آي من الذكر الحكيم أو مقاطع من سيرة المصطفى ﷺ.

(٣)

كانت الحارة تشتمل على معالم خاصة تتميز بها. ويسكنها أناس هم في سيرتهم وأخلاقهم جسدوا تلك المثل الحسنة التي عرف بها سكان البلدة الطاهرة من رقة ورأفة وسعة أفق.

من المعالم تلك الأماكن التي كانت تزود الحرم الشريف بالماء ويعرف المكان الذي يحتفظ فيه بالماء بارداً ونقياً باسم (السَّبيل) ومنذ أن تشق طريقك صاعداً إلى الحارة سوف تجد هذه الأماكن متوزعة بين أزقة الحارة ومنعطفاتها. فهنا سبيل «مالاه» وهناك سبيل (الأفندي) وفي الرحبة الأقرب إلى البقيع يوجد سبل (المنادي) و (الشريف حسن) وسوف تلمح شباباً خارجين منها يحملون (الدوارق) المصنوعة من الفخار بين أيديهم ومسرعين بها في نشوة وحماس إلى الصناديق المخصصة لها بين أروقة المسجد، وكانت قدرات هؤلاء الشباب في حمل هذه الدوارق بينها اختلاف واضح. وكان شهر رمضان المبارك كفيلاً بالتمييز بين هذه القدرات فهو الشهر الذي يزداد فيه الطلب على الماء في الحرم ويستتبع ذلك الاستعانة بعدد كبير من أبناء هذه الحرفة.

أعود إلى الوراء قليلاً بذاكرتي، وبالتحديد في بداية الثمانينات الهجرية، كنت طالباً في مدرسة دار العلوم الشرعية، وكان نظام المدرسة يسمح بخروج الطلاب من المدرسة في أثناء ما كان يسمى بـ (الفسحة

الكبيرة) وهو قريب إلى النظام الذي عادت إلى الأخذ به مدارسنا في الوقت الحاضر، فطلب مني ذات يوم زميل اسمه (بشير العقيبي) مع زميل آخر مساعدته في حمل الدوارق من (السبيل) إلى الحرم، ولما كنت جاهلاً بأصول المهنة فلقد سقطت على الأرض ولم تقو يداي على حمل (شكَّة الدورق) وكانت هذه البداية في تاريخ معرفتي بهذه الأماكن، ثم قادتني الأقدار إلى الحارة في المرحلة التالية من حياتي، فإذا أنا أقضي فيها من الوقت بحكم القرب من الحرم ودراستي فيه أكثر من الوقت الذي أقضيه في حارتي التي نشأت فيها وهي (حارة العنبرية) وإذا أنا أعرف في الحارة من الناس الطيبين من كان لهم دور كبير ـ بعد الله ـ في توجيه حياتي وفي تشكيل المناحي الفكرية لدي، من هؤلاء صديقي (أحمد الزين) الذي كان فيه من طيبة القلب وسماحة الخلق وكرم النفس ما حملني على أن أؤم دَارَهُ كل صباح ومساء، يلقي علي من شعره الذي يمدح فيه الرسول ﷺ ويتشوق به إلى ديار الهدى والإِيمان، وأن أبيات هذا الشعر وقوافيه لتذكرك بالرواد الأوائل الذين ارتبط اسمهم بهذا الفن الشعري مثل الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه أو المتأخرين الذين آثروا بإبداعاتهم المشهورة مثل البرعي والبوصيري ـ رحمهما الله..

وفي وقت لاحق تعرفت على شخصية كريمة كانت تسكن الحارة وبالقرب من منطقة (ذروان) وهي بئر أثرية مشهورة، ذلكم هو الأستاذ الفاضل والمربي الكريم محمد حميدة، الذي عرفته بداية فيما كان يكتبه على صفحات جريدة (المدينة المنورة) في الحقبة التي كانت تصدر فيها في المدينة المنورة. ولكن في بداية التسعينات الهجرية جلست إلى الأستاذ حميدة واستمعت إليه محدثاً يشدني ما يتسم به حديثه من صدق وتنتزع إعجابي تلك الإِحاطة الشاملة لديه بالتيارات الفكرية في العالم الإِسلامي،

كان يحدثني حديث العارف عن الفكر عند محمد الغزالي السقا وأحمد جمال وأحمد عبد الغفور عطار، وينزع فيّ أحياناً إلى دنيا الشعر، فإذا هو قارئ متذّوق وناقد خبير لما يبدعه شعراء الرعيل الأول أمثال شحاته والعوّاد وضياء الدين رجب ويضع بين يدي ـ وبكل تواضع ـ خلاصة تجربته في الحياة العلمية والتربوية. لذا فأنا مدين له بالكثير فلكم قضيت من الوقت المفيد مستمعاً إليه تارة ومناقشاً له أخرى وبالقرب من مكتبه التي تحتوي على أمهات المصادر والمراجع في الفكر والتراث، ولكم زودني بما أحتاج إليه من كتب، هو والمرحوم الشيخ ـ جعفر فقيه ـ يمثلان في أخلاقهما ويجسّدان في سلوكهما ذلك السلف الصالح من علمائنا الذين كانوا يحببون العلم إلى الناشئة ويرغبونهم بما وهبهم الله من حكمة ومعرفة في الدرس والتحصيل.

وكان يسكن الحارة أيضاً ـ شيخ فاضل تدنيك منه ملامح إيمانية مضيئة ويستهويك ذلك الهدوء والسكينة اللذان تنطبعُ بهما ملامح شخصيته. كان يخرج من داره الملاصقة لمنهل العين في الحارة، فإذا المقام يستقر به في ذلك المكان المعروف ـ بدكة ـ شيخ الحرم، والواقعة على يسار الخارج من باب جبريل. ويجلس إلى جانب صديقه الشيخ الجليل ـ جميل شيناوي ـ رحمه الله ـ ويصلي إلى جانبهما زمرة من أهل الفضل وأحد حفظة كتاب الله المعروفين في البلدة الطاهرة الشيخ حسن بخاري ـ رحمه الله ـ وكان بين الشيخين عبد الجواد والبخاري من المحبة في الله الشيء الكثير، وكان من دلائل تلك المحبة وصدقها انتقالهما إلى رحمة الله في يوم واحد.

ولقد ترك (الشيخ أحمد عبد الجواد) الذي كانت تربطه علاقة وثيقة مع شيخ الأزهر السابق الدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ سلسلة

العالم الإِسلامي الدعاء المستجاب من الأحاديث والكتاب) وسلسلة كتب في التعريف بدين الإِسلام باللغتين العربية والإِنجليزية ـ وكتاب في أسماء الله الحسنى ـ وكتاب في علم المواريث وأصوله، ولعلّ تأليفه لهذا الكتاب الأخير كان نتيجة طبيعية لتبحّره في عُلُوم الرياضيات التي كان يساعدنا في حل بعض مسائلها أثناء دراستنا بالمرحلتين الإِعدادية والثانوية.

وليس بعيداً عن الشيخ عبد الجواد كانت توجد دار الشيخ عبد الكريم السناري والد صديقنا الأستاذ عبد الرحمن عبد الكريم ـ وكان الشيخ عبد الكريم إذا ما صلى صلاة العصر تهيأ لاستقبال زواره من أهل العلم والفضل، وكان من بين الذين يأمُّون داره العلامة حسن مشاط ـ رحمه الله ـ وذلك عند حلوله في البلدة الطاهرة زائراً.

وفي الناحية الأخرى من الحارة، والتي تُسَامِت الشارع العام الذي كان يحجز الحارة عن البقيع، كان يسكن الشيخ حسن فلاته ـ رحمه الله ـ والد الصديق الدكتور عمر فلاته الأستاذ بكلية التربية بالمدينة المنورة. وكان هذا الشيخ ذا سمت حسن وأخلاق كريمة فأنت لا تكاد تحس به وهو خارج من داره لأداء الصلوات في الحرم النبوي الشريف، وكان ـ رحمه الله ـ خفيض الصوت مطمئن النفس ساكن الجوارح.

ذات يوم كنت أجلس في رحبة الحارة فإذا رجل يضع نظارة على عينيه ويلبس ما كان يعرف عند أهل المدينة المنورة بـ (السّديرية) يبادئني بالتحية ويسألني عن (حارتي) لأنني أبدو غريباً عن الحارة وأهلها، ولما أجبته ابتسم وقال: لي أنا أعرف جَدِّك لأبيك وسرد علي شيئاً من صفاته وسماته. وظل جدي ـ رحمه الله ـ يعيش في نفسي بذلك الوصف الذي سمعته منه. لقد رأيت جدي بعيني المرحوم ـ أحمد هندية ـ الذي عاش في الحارة وحيداً ومات وحيداً..

(٤)

أشياء عديدة ومتباينة كانت تجذب الناس إلى تلك الحارة أو تدفعهم لزيارتها بين الحين والآخر. من بين تلك الأشياء (مخبز المعلم حجازي) رجل تقدمت به السن ولكنه لا يزال حريصاً على الكسب من صنع يديه.. يلبس ثوباً رقيقاً من الشاش ويضع نظارة على عينيه مشدودة إلى أذنيه بخيط مفتول يسمى في لغة سكان المدينة بالدُبارة، يأوي إذا ما جن الليل إلى غرفة صغيرة في الدور السفلى من أحد بيوت الحارة، تلك الغرفة هي عالمه الوحيد الذي عاش فيه الحقبة الأخيرة من حياته حتى انتقاله إلى رحمة الله ويستيقظ مع «الأذان الأول»، فالحرم على مقربة منه. وبعد أن يصلي مع الجماعة يذهب إلى «الفرن» ويشرف بنفسه على «تقريص» الخبز المصنوع من القمح والذي يتدافع الناس للحصول عليه. كان «محمد حجازي» ـ رحمه الله ـ حاد الطبع لا يطيق الثرثرة وكثرة الكلام. أما حديثه فهو كحد السيف القاطع، يأبى أن يقول ما لا يؤمن به. أو يجامل فيما يعتقد أنه يتعارض مع أخلاقه، هو في ذلك مثل كل رجال الجيل السابق، لم يتلقوا التعليم انتظاماً، ويتدرجوا في تلقي فنون المعرفة. ولكن الفطرة كانت تضبط كل سلوكياتهم وتوجه نشاطاتهم في هذه الحياة توجيهاً سليماً وصادقاً في الوقت نفسه.

* * *

«حجازي» لم يكن من أهل الحارة ولكنه انتقل إليها من حارته الأولى «العنبرية» التي كان يعمل فيها الحرفة نفسها التي امتهنها بعد انتقاله إلى حارة الأغوات. ولقد كان متقناً لأصول حرفته إتقاناً كاملاً لا يخرج بذلك عن الإِطار الذي كانت تدور فيه جميع الحِرف الأخرى، وهو إطار محكوم بأخلاق المهنة والمحافظة على سمعة العمل وصاحبه ومن هنا تكون الجودة ويتحقق الإتقان.

المخابز في المدينة المنورة كانت جميعها تشترك في سمة واحدة وهي الاعتماد على النار الطبيعية والتي يشكِّل الحطب أساس وقودها. هذه المخابز كان يتركز وجودها في زقاق «الطيار» ومن أشهرها «العمري» و «أبو عنق» في الصباح يخصص بعضها لصنع «الشريك» أو «السّحيرة» كما يسميه جيران بيت الله من أهل مكة ـ شرفها الله ـ وفي الظهر «الخبز» وأنواعه كثيرة أجودها المصنوع من حب القمح، وفي المساء صنع أنواع أخرى من «الشريك» أشهرها ذلك المستطيل والمدهون بالسمن والذي يستخدم في حفلات الأعراس.

وفي الضحى حيث تعمر مقاهي المناخة بروادها وتمتلئ المراكيز بالزوار من كل مكان. وتفتح حوانيت بائعي اللبن أبوابها لشرب الحليب أو تناول اللبن والزبدة. في ذلك الوقت من النهار ترى العاملين لدى تلك المخابز يحملون فوق رؤوسهم طاولات «الشريك» والخبز وهم يعبرون شارع المناخة المظلل بالأشجار إلى سوق العياشة، واحد من تلك الأسواق التي تتجاور مع بعضها البعض، وتلبي حاجة من يؤمها من الناس. ولكن المنظر الوحيد الذي لا أنساه واحتفظت به ذاكرتي لمدة تقارب ربع قرن من الزمن، هو الطريقة التي كان يسير بها بعضهم وهم يحملون ذلك

الخبز، فهم يسرعون في مشيتهم وطاولات الخبز على رؤوسهم وقد أسبلوا أيديهم إلى الأسفل وكأنهم لا يحتاجون إلى تلك الأيدي للقبض على «طاولة» الخبز. لعلّه شيء من الخبرة والمران اكتسبوه من طول العمل في الصنعة أو الرغبة في إبراز الموهبة أو هو مزيج من الاِثنين معاً وإذا وصلوا إلى السوق ودفعوا به إلى الباعة سمعت الأصوات ترتفع من خلف «أشرعة» الحوانيت تكاد تختلط مع بعضها ولكن في غير نشاز أو تنافر.

في زقاق (الطّوال) الذي كان يمكنكَ أن تلج إليه من طريقين أحدهما وهو سوق «القفَّاصة» والذي تنتشر على جوانبه أيضاً حوانيت تخصص بعضها في صنع الأثاث الذي كان يستعمله أهل المدينة في منازلهم. وتخصص البعض الآخر في إصلاح المصابيح التي عرفت في حقبة ماضية باسم «الأتاريك» كما يمكنك بلوغه من طريق آخر وهو شارع الساحة المتميز بدوره المبنية من الحجر والمزدانة واجهاتها «بالمشربيات» والتي تبرز من خلال تلك اللمسات الفنية الرائعة الموجودة فيها ذلك الحس الحضاري الذي عرفت به المدينة المنورة على امتداد العصور الإِسلامية. في هذا الزقاق كان يقع «مخبز البري» لصنع الشريك وعلى وَجْه التحديد كان يقوم هذا المخبز في صدر الرحبة التي كان يقع فيها «دار النابغة الصغرى» حيث مدفن والد رسول الله عبد الله بن عبد المطلب كما أثبت ذلك بعض أصحاب السير، ولا أعلم إذا ما كانت تلك المنطقة جزءاً من دور بني النجار الذي كانت فيهم خؤولة والد النبي ﷺ الذي توفي في المدينة بعد رحلته إلى الشام وتم دفنه في ذلك الموقع.

كان من بين جميع مخابز المدينة مخبز واحد ينسب إلى اسم «امرأة» وهو مخبز (وحيدة). وكان هذا المخبز يقوم في حي «الشونة» المؤدية

طرقه إلى الحرم النبوي الشريف وشارع «سويقة» المشهور وبالتحديد خلف الدار الكبيرة المتميزة ببنائها من الحجر المنحوت والعائدة لآل «ظافر» والتي كان يسكنها آل «الخريجي» ثم سكنها من بعدهم آل «ساعد» ولا أعلم هل كان مخبز «وحيدة» يصنع الخبز أم أن الناس كانوا يذهبون إليه بالخبز لتطييبه بعد أن يصنعوه في بيوتهم كما كانت هي العادة عند أهل المدينة في تلك الحقبة التي أصبحت جزءاً من الماضي الذي يحتاج إلى أكثر من هذا السرد العابر الذي اعتمد في تدوينه على الذاكرة، ولربما اعتور هذا السرد شيء من النقص في فصوله أو بعض الخطأ، وهي فرصة مناسبة أدعو فيها الزملاء الكرام ممن عايش تلك الفترة إلى تذكيري بما وقع فيه النسيان وتصحيح ما أخطأت القول فيه، وهذا هو المنهج الذي أؤمن به في هذه المحاولة الكتابية التي تستهدف مقاربة بعض النواحي الاجتماعية ووصف وقائعها حيث لا تتوافَّر وثائق تساعدنا في معرفة دقيقة بذلك الواقع الاجتماعي أو وصفه أو الحديث عن رجاله. إلا أن ذلك لا يمنعنا من ضبط هذا السرد الكتابي بشيء هام وأساسي وهو التقيد بما يرضي الله ورسوله ﷺ نائين عن التعرض للناس بما يسوء وخصوصاً أولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم وأصبحوا بين يدي رحمته، فالشريعة الإِسلامية الغراء أمرتنا بذكر محاسن موتانا وأن ندعو لمسيئهم بالغفران، ومتحفظين كذلك على الكتابة في قضية أنساب الأسر دون أن نملك الدليل الثابت أو الرواية المتواترة التي تعيننا في هذا الشأن كما أننا ننأى عن التجديف والحديث في عقائد الناس وما يتصل بها من توجيهات فكرية فتلك أمور مردها إلى الله وحده.. والخوض فيها سواء كان الغرض منه التسلية أو النكاية والتشهير أمور تنهي عنها مقاصد الشرع الحنيف، ولا تتواءم مطلقاً مع أخلاقيات العلم ومناهج البحث، وما أجدرنا بتذكر شيء

واحد وهو أننا كما كتبنا عمن سبق فسوف يكتب عنا من لحق. فلنتق الله فيما نكتب وإذا كان هدفنا رضاءه وحده فهو الذي سوف يثيبنا على ذلك كله كما أن الناس سوف تحمد ما نقول وتلك شهادة التاريخ علينا وكفى بها من شهادة.

(٥)

عبد الله سلامة الجهني :

لا أستطيع الهروب منك وأنا أكتب عن الحارة فصورتك تلاحقني وصوتك يملأ أسماعي حيث كنت أجلس إليك في «فرش الحجر» المكان الذي كان إذا ما جن الليل يستقبل أقواماً تعلقت منهم النفوس بحب الله وتوجهت منهم الجوارح لاستدرار رحمته وطلب رضوانه، يمسك أحدهم بكتاب الله بين يديه فلا يتركه حتى يسمع صوت المؤذن في منارة المسجد، ويجلس الآخر للذكر فلا تسمع إلا تمتمة شفته، هم القوم انشغلوا بحبه عما سواه فأنساهم هموم هذه الدنيا الفانية لأنه تكفل لهم بشؤونها؛ فلا القلق يعرف طريقه إلى نفوسهم؛ ولا الخوف من فقدانها يشكل هاجساً لديهم.

لماذا لا أكتب عن صفاتك السامية للناس أيها الرجل وقد أصبحت بين يدي رحمة الله، وما زلنا نحن في هذه الدار سائلين الله ـ عز وجل ـ حسن المخرج منها؟ كيف لا أذكر اليوم الذي جلست فيه إليك لأول مرة؟ وكنت ـ من قبل ـ أتهيب لقاءك، كنت بصحبة أستاذ كريم، فجئنا إليك وأنت جالس في حرم رسول الله ﷺ وخلف ما يسمى بـ «المكبَّرية» حيث يرتفع صوت الإِيمان، فإذا الذي أنا برفقته يطلب منك أن تعينه على أمر

من أموره الخاصة، لقد أجلت بصرك فيما حولك ثم تطلعت إلى الأفق البعيد متجاوزاً حدود هذا العالم ومتخطياً حواجزه، وجاء الرد منك بكلمات ما زلت أحفظها وها أنا اليوم أرويها. قلت له: عجباً إنني هارب من هذه الدنيا، فكيف تأتّى لها أن تلاحقني في هذا المكان الطاهر؛ وساد صمت عجيب لا نسمع في أجوائه سوى رجع أصوات قوم يقرأون وآخرون يسلمون ثم رأيتك بعد هذا الموقف الذي كان بداية محبة دامت لأكثر من عقدين من الزمن.. رأيتك بعدها تدخل المكتبات المجاورة للمقام الطاهر ومن بينها مكتبة «عارف حكمت» فإذا أنت منكب على القراءة، وكثيراً ما رجعت إلى الكتب المحفوظة في تلك المكتبات فاعلم من إشارات بين سطورها أن يديك لامست صفحاتها ونظرك جال بين كلماتها، كنت عاشقاً للكتاب كأنك ولدت لتقرأ، وكتبتَ وألَّفت ولكن بعض ما كتبتَ ظل بعيداً عن متناول الأيدي، فلا المكان كان يستقر بك ولا الشهرة كانت تستهويك فأنت طراز فريد من الرجال يحبك الذين عرفوك، ويعرف منزلتك الذين كانوا يرون حياتك تنزع نحو المثالية ولا تتعايش مع الواقع، ولكنني أحببت حديثك، فإذا أنا أجلس إليك في المدينة في «فرش الحجر» بالقرب من الحارة، ثم تجمعني بك الأقدار في «مكة» فإذا حصوات الحرم تجمعنا وبيت الله يوحد شملنا، وأنت ترتدي الإِحرام نازح من الدنيا وأنت بين أهلها وزاهد في متاعها بينما كنا نلهث خلف سرابها، تقول لي: زهدت في صحبة الناس واستعضت عنها بصحبة الله، أحفظ عنك عظات من القول، كأن الناس لم يقولوها من قبل لأنك تقولها قول المؤمن بها والمعتقد في صحتها، ألم تقل يوماً المسلمون أحوج ما يكون إلى أن يحسنوا الظن ببعضهم البعض، ثم تعقب قائلاً دعونا نحاسب الناس على أفعالهم قبل أن نحاسبهم على أقوالهم. وخاطبتنا

يوماً قائلاً ـ وكان ذلك قبل وفاتك بأسابيع في جدة: إن الدعوة إلى مكارم الأخلاق من أسس هذا الدين العظيم، لقد كنت متعلقاً بتلك المكارم. فلقد سألتك يوماً: لماذا يبدو هذا الهزال عليك فأجبتني يجب أن نجوع كثيراً لنعرف كيف يجوع الفقراء من الناس. ولقد كنت تكتفي بالقليل من الطعام وتنزع إلى البسيط من الثياب، وتنام اليسير من الليل، فلكم كنت ألمحك في «الفرش» متهجداً، وفي روضة المصطفى ﷺ ـ قارئاً ـ وحول البيت طائفاً، فإذا تحدثت عن الدنيا استقر حديثك في الأعماق لأنك زهدت في الدنيا عن قناعة، ولم يشغلك ما فيها من بهرج أو يستهويك ما يجاوزه الآخرون من متاع. ولقد تركت خلفك ذكراً حسناً ولمحات إنسانية تجسدت في ذلك التراث الذي كتبت، والإِبداع الذي دوّنت والذي لو لم يكن فيه إلا (تفسير القرآن الكريم) و (أفكار بيضاء).. لكفاك الله به رضا في هذه الدنيا وقربى في الدار الآخرة.

(٦)

لن يكون هناك أجمل من اليوم الذي يطلع عليك فجره وأنت تنقل خطواتك في «أزقة» الحارة التي يرجع الناس تاريخها إلى عصور الإِسلام الأولى. ولكم دلفت إليها في الهزيع الأخير من الليل، فإذا الهدوء يشمل كل شيء والسكينة تعمر كل ناحية منها وكأني بأجوائها تتنفس ذلك الرضى وتلك الطمأنينة التي انطبعت بها نفوس القوم من سكانها، وكل ما يمكنك أن تسمعه وسط تلك الأجواء صوت خرير الماء في «خرزتها أو عَيْنِها».

أناس يتوضؤون ثم ينصرفون إلى «فرش الحجر» أو رحبة باب السلام ينتظرون اللحظة التي تفتح فيها أبواب الحرم ويؤذن لهم بالدخول، فحملهم الشوق العارم على أن يسرعوا في خطواتهم، وما أن يستقر بهم المقام في الروضة حتى تراهم والمصاحف بين أيديهم، وذكر الله على ألسنتهم، ودمع سخي ينحدر من مآقيهم. وهل في الدنيا وجد كذاك الذي ينسكب في النفوس فينتقل بها إلى عوالم أكثر إشراقاً وأشد إيناساً وأجمل بهاء؟ إنه الوجد الذي يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين فتغتسلُ به من أدران الحياة التي كثيراً ما تحول ظلمتها بين العبد في هذه الدنيا وبين تلك العوالم التي لو عرف الناس ما فيها من نعيم لتقاتلوا عليه وتنافسوا حوله كما يتقاتلون ويتنافسون حول متطلبات وضرورات الجسد الفاني.

يرتفع أذان الفجر من فوق منائر المسجد، ولم يكن هناك صوت يبعث على الخشية ويحمل على التذكر والعبرة كصوت الأستاذ «عبد الستار بخاري» ـ رحمه الله ـ يعرف الناس حفظه لكتاب الله، وتمكنه من قواعد التجويد، ومعرفته الدقيقة بمراتب الصوت ومقاماته، كان «الريس عبد الستار» ـ وهكذا كان يعرف في المدينة بين محبيه وطلابه ـ صاحب قاعدة في الأذان، وكان زميله الشيخ حسين بخاري ـ رحمه الله ـ أندى صوتاً، وكان من قوة الصوت التي منحه الله إياها أنه في بعض مناسبات عقود النكاح، حيث كانت تلقى قصائد الترحيب، لا يحتاج في إنشاده للشعر إلى مكبر للصوت. ولقد سمعته وأنا في مطلع العمر فأذهلني ما كان يتمتع به صوته من قوة، ولم أسمع أحداً بعده وبعد الأستاذ «عبد الستار ـ رحمهما الله من يؤثر في نفوس الناس ذلك التأثير الذي كان يجده كل من استمع إليهما».

حدثني صديق أن الناس كانت تخرج قبل أذان الفجر وتقف على أبواب الحرم رغبة في سماع المؤذن محمود نعمان، رحمه الله، الذي توفي في حقبة السبعينات الهجرية؛ ولهذا فأنا لا أعرفه ولم أسمع به إلا بعد مضي زمن على وفاته، ولعلّ هذه الحقيقة تشفع لي عند بعض من أصدقائي الذين إذا ما حدثتهم عن أمر أعرفه من أمور البلدة الطاهرة أخذهم الظن بأنني أكبر منهم سناً ـ وإن كان لا بأس علي من هذا الوهم الذي يداعبني بشأنه ثلة من الأصدقاء الكرام، كان «النّعمان» ثالثاً لعبد الستار وحسين بخاري ـ أسكنهم الله فسيح جناته ـ ومع أنني لا أجد من بين مؤذني اليوم من أخذ بقاعدتي الأخيرين في الأذان إلا أنه يمكن القول إن قاعدة ـ محمود نعمان ـ هي القاعدة التي يسير عليها بعض من مؤذني

المسجد النبوي ـ في الوقت الحاضر ـ ولولا خشية الإِطالة لفصلت الأمر في تلك القاعدة. ولعلّها مناسبة أن أشير فيها إلى أن الصوت الحسن في الأذان مطلب أيدته السنة النبوية وذلك عندما اختار النبي ﷺ سيدنا بلالاً ـ رضي الله عنه ـ ليصدع بكلمات الإِيمان من هذا المسجد الطاهر لأنه أندى صوتاً من بقية الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين. .

ومحمود النعمان هو من أسرة عريقة تعرف قديماً باسم «بيت الحنبلي» نسبة إلى مذهب الإِمام أحمد بن حنبل ـ عليه وعلى بقية الأئمة الكرام رضوان الله ورحمته ـ وكانت في هذه الأسرة مشيخة الأذان لفترة من الزمن، حيث تولى الشيخ محمد سعيد نعمان والد الأستاذ عبد الملك المؤذن حالياً بالمسجد شؤون المؤذنين لفترة من الزمن وخلفه في تلك المهمة الشيخ عبد الله رجب رحمه الله، ولقد صحح الأخ الكريم محمد سعيد أحمد حوالة ـ جزاه الله خيراً ـ معلومة سبق أن ذكرتها عن زقاق «الحنابلة» فحدد مكانه بأنه كان يقع في الجهة المقابلة لباب الملك سعود ـ رحمه الله ـ ولقد أزيل هذا الزقاق في التوسعة السعودية الأولى للمسجد النبوي كما أكد لي ذلك الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه ـ رحمه الله ـ ولقد كان بعض من أسرة «آل النعمان» يسكن في ذلك المكان، وكنت استفسرت من الصديق الشاعر الأستاذ خالد النعمان عن رجل من آل النعمان اسمه «محمد علي» عرف بجمال الصَّوْت وكريم المعشر قبل ما يزيد على نصف قرن، فلقد سمعت قبل ما يقرب من عقدين من الزمن رجلين يتحدثان عنه وهما عبد الستار بخاري وحمزة مقليه ـ رحمهما الله ـ كان ذلك في «سويقة» وفي يوم أغر من أيام البقعة التي طابت بحلول سيد الخلق فيها عليه صلوات الله وسلامه.

وهذه مناسبة مواتية للقول بأنه كان ينتدب لأداء هذه المهنة الشريفة الصفوة من الناس سلوكاً وخلقاً، وتفتخر تلك الأسر بتنشئة أبنائها على أدائه، ولعلّ إدارة الحرمين الشريفين تسعى برعاية المسؤولين الكرام فيها للحفاظ على هذه المؤسسة المتجذرة في التاريخ الذي هو جزء هام وثمين من تاريخ هذا الدين العظيم وآدابه السامية.

(٧)

في الليل الذي تنوءُ بي همومه، وتثقل على نفسي الخواطر فيه، لكم تسللت إلى الحارة والفجر لم يطلع بعد نوره، أطرق طرقات خفيفة على باب الدار العتيق، فالدور متقاربة وأخشى أن يوقظ الآخرين وقع أقدامي، يأتيني صوتك من سطح الدار الذي تتقاسم مساحته أنت وبقية أفراد بيتك وعجوز تجاوزت الثمانين من العمر أعطاها حب الله وحب رسوله ﷺ من النور ما لا يكاد يخفى على الناظرين إليها، تشد عمامتك البيضاء على رأسك وتقابلني عند عتبة الدار فلا أجد في ملامح وجهك غضاضة بل أنت فرح بقدومي، متهيئ لصحبتي، نشق طريقنا في الشارع الذي يفصل البقيع عن الحارة وكان شقها الملاصق للحارة ممهداً والآخر المجاور «للمقبرة» مسفلتاً، ويقوم في أوله من جهة «باب العوالي» مرتفع كبير يقع في وسطه قبر أحد صحابة رسول الله ﷺ وإذا ما أخذت خطواتنا تقترب من نهايته الموصلة إلى مدخل الحارة من جهة البقيع كنا نلمح رجلاً يميل سلوكه إلى العزلة فهو لا يتحدث إلى أحد ولكن طيبة قلبه تجد لها دليلاً في ملامح وجهه، ولكأني به اغتنى بصحبة الخالق عن صحبة الخلق، إنه «عم قونية» يجلس على حافة الشارع إذا ما أوصدت ابواب الحرم وانصرف الناس إلى دورهم، كما تلمحه هناك إذا ما أشرقت الشمس بنورها على سماء البلدة الطاهرة يزيدها نوراً ذلك الألق الذي ينبعث من قبة المسجد ومنارته.

أحدثك وأنت تصغي إلي، أشكو إليك من الهموم ما لا يُسَرُّ الإِنسان به إلى صديق، تدير حبات مسبحتك، أسمع كلمات الذكر تنطلق من بين شفتيك فتطمئن نفسي ويعود إليها سكونها. ثم تقول كأنك تجيب عن شكواي: يفرجها الله. وأحياناً تختصر القول كله في كلمة واحدة: «مفروجة». ندخل البقيع وقد انفتحت أبوابه بعد صلاة الفجر، توجه الحديث لي قائلاً: تلك يا بني دورنا وهذه قبورنا!! ألم يكن أصحاب هذه القبور أشد حرصاً منا على الدنيا، ولكن أين هم اليوم؟ تستقر كلماتك في أعماق نفسي، وهي اليوم على بعد الزمن تستدر دموعي، وهي دموع النازح عن أرض الحبيب المتشوق إلى أفياء الرحمة والرضوان التي خصها الله بها.

تسير بي في طريق متعرج خلف جدار البقيع، دور متهدمة، وأخرى قائمة، وبقايا من نخيل تلوح لنا جذوعه كلما توغلنا في طريقنا إلى دار صديقنا «معاذ» وفي فضاء تلك الدار أو ربما بالقرب منه تقوم بئر يستقي منها الناس، يصنع لنا الأخ في الله كأساً من الشاي ويقدم لنا كسرة من الخبز مصنوعة من الشعير يقول مبتسماً هذا طعام المساكين، نفرح بما يقدم، نأكله كأننا لم نأكل من قبل، ثم نتناقش في أمور كثيرة وربما احتددنا في النقاش، وكثيراً ما كانت كلمة الفصل تأتي من صاحب الدار فهو طالب علم، وكثيراً ما يتردد على حلقة الشيخ محمد المختار ـ رحمه الله ـ التي كانت تقوم في وسط المسجد، أو على حلقة الشيخ محمد المنتصر الكتاني التي لا تبعد كثيراً عن حدود الروضة.

ما زلت أذكر إذا ما آويت إلى دارك بعد صلاة العشاء وكانت أزقة الحارة تضاء بالأتاريك، والناس يأوون إلى الدور فيها مبكرين، ما زلت

أذكر رجلاً طويل القامة ممتلئ الجسم من أهل أفريقيا يسلم على الناس في دورهم ثم يقدم لهم، علبة من عود الثقاب، وما زلت أذكر رجلاً من المجاورين ـ والذين يكثرون التردد على الحارة ـ يقدم الورود في صباح كل يوم «جمعة» للناس، والمدينة تشتهر بساتينها بالورد والفل والياسمين كما اشتهرت «بالفاغية» وبعض من الشعر الذي كتبه شعراء المدينة. . لا يخلو من ذكر ما عرفت أرضها بزراعته وتربتها باستنباته.

يا صديقي الذي لم تدر وجهك عني يوماً ولا أغلقت باب دارك في وجهي، ولا تبرمت من ترددادي عليك.

ما زلت أذكر ليالي الصفا مع أحباب لنا انتقل بعضهم إلى رحمة الله والآخر ما زال باقياً في دار الفناء. فلكم قرأنا صفحات من (الشفاء) في حصوة الحرم، ولكم سرنا على أقدامنا إلى مسجد (المستراح)، وبستان (المصرع)، ولكم ضمنا في جنبات سلع، وفي التاجوري وفي زقاق الطوال مجلس لا نسمع فيه إلا ما يرضي الله عنا، وما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل. من ذلك الماضي البعيد «يا زين» يأتيني صوت الحادي، يحرك في أعماق نفسي كوامن الشوق، ويحلق بها في عوالم الصفاء الأبدي، إنك مثلي كثيراً ما سمعت:

فراق أحبتي كالصبر مرا — وأشعل حبهم في القلب جمرا
نحلت لبعدهم والليل أدرى — أقول لنسمة هبت سحيرا

فما حال الأحبة خبريني

فإن كانوا نسوا ما كان عندي — ولم يتذكَّروا عهدي وودي
وغيري واصلوا وتركت وحدي — أقاسي لوعتي، والوجد وجدي

فعند ديارهم تلك اذكريني

(٨)

كنت توقفت قليلاً في الحلقة السادسة من هذا الموضوع عند بعض الشخصيات التي عرفت بصوتها الحسن وأدائها المتميز. . فكان من هذه الشخصيات مؤذنون، وكان منهم منشدون. ولكن هناك ظاهرة ارتبطت بحياة بعض هذه الشخصيات، وأعني بها ظاهرة النزوح عن المدينة ثم العودة إليها بعد حدة من الزمن، ولعلّ الظروف التي مر بها المجتمع المدني قبل أن يصبح هذا المجتمع جزءاً من مجتمع الجزيرة العربية الذي أراد الله له أن يتوحد على يد المغفور له جلالة الملك عبد العزيز ـ طيب الله ثراه ـ وكان من آثار ذلك تلك المظاهر الإِيجابية المتمثلة في نشر الأمن. ونبذ الخلاف، والمساواة بين الناس. أقول: إن تلك المظاهر كانت في تلك العصور الماضية سبباً وراء نزوح أهل المدينة وكان من بين هؤلاء النازحين حفظة لكتاب الله ومؤذنون في مسجد رسول الله ﷺ وأدباء عرفوا بإبداعاتهم الشعرية المتميزة.

«إبراهيم محمد زين سمان» ـ رحمه الله ـ كان واحداً من المؤذنين الذين نزحوا إلى بلاد الشام وأقام بها فترة طويلة ثم عاد إلى المدينة في حقبة الثمانينات الهجرية. ولقد أدركته ـ رحمه الله ـ بعد عودته إليها، وكان ذا هيئة حسنة «جبة بيضاء وعمامة أقرب في شكلها إلى تلك التي

كان يلبسها العلماء». وكان صوته يحمل بقية من تلك الطلاوة التي اشتهر بها في المجتمع المدني. كما أن الكتاب الذي طبعه من بعده ابنه ـ أحمد السمان ـ رحمه الله ـ وجمع فيه عدداً من القصائد والمقطوعات الشعرية، يدل على أن عدداً من أفراد هذه الأسرة الكريمة عني بالشعر وروايته وإنشاده.

وإذا كان إبراهيم السمان اتخذ من بلاد الشام مسكناً له بعد خروجه من المدينة فإن ثمة نفراٍ من مؤذني المسجد أقاموا بأرض «جاوا» ومنهم أبو بكر خوج والأستاذ عبد الستار بخاري ـ رحمهما الله ـ ولكنهم عادوا جميعاً إلى المدينة، عرف الخوج بمواظبته الدائمة على أداء الأذان وخصوصاً الأذان الأول في صلاة الفجر، يجلس ـ رحمه الله ـ مع عدد من المؤذنين في مؤخرة المسجد، يضبطون ساعاتهم، ويتهيأون لصعود المنائر التي يصدحون من فوقها بكلمات التوحيد والإِيمان، في تلك البقعة كثيراً ما رأيت أصدقاء الخوج الذي قليلاً ما كان يخلع عباءته من فوق كتفيه، رأيتهم يمازحونه ويداعبونه بكلماتهم، وهو مزاح لا يخرجهم عن وقارهم وأدبهم الذي تعكسه وجوههم النيرة وهيئاتهم الحسنة. وإني لأتذكر صديقين له يحبانه ويحبهما ـ في الله ـ وهما إبراهيم شيرة، وبكر عبد الجواد ـ رحمهم الله جميعاً ـ وكان يجلس غير بعيد من القوم رجل تقوم بينه وبين المسجد صلة قوية وألفة دائمة وهو المرحوم سليمان عبده.

أما الأستاذ عبد الستار الذي كان يتميز بين زملائه بحفظه لكتاب الله ومعرفته المتعمقة باللغة العربية في أصول كلماتها ونحوها وصرفها، وروايته لتلك الإِبداعات الشعرية التي فاضت بها قرائح بعض شعراء المدينة الذين عرفوا بإجادتهم لفن القول إجادة لا تقل عن تلك التي وجدت عند

نظرائهم من شعراء العالم العربي، وهم: عبد الجليل برادة وإبراهيم الأسكوبي، وأنور عشقي، ومحمد العمري. حياة الأستاذ عبد الستار ونشاطه لم يقتصرا على بلاد «جاوا» وحدها فلقد عاش فترة من حياته في مكة المكرمة، حيث كان على صلة قوية بالشيخ عباس قطان ـ رحمه الله ـ أحد وجهاء مكة المعروفين ـ ولعلّ تلك الصلة دفعته إلى الإِقامة بمكة. ولقد أخبرني الشيخ المفضال ـ عبد الله بصنوي ـ رحمه الله ـ والذي عاصر عدداً كبيراً من مؤذني المسجدين الشريفين ـ أن الأستاذ عبد الستار، كان يؤذن بين الستينيات الهجرية، فلقد سمعته يوماً يقول: قابلني أحدهم عند وصولي إلى المدينة وأخبرني بوفاة السيد عبد الرزاق نجدي ـ رحمه الله ـ وهذا الأخير كان من أشهر مؤذني المسجد، وأتصور أنه أكبر سناً من الأستاذ عبد الستار ومن هم في طبقته من المؤذنين، ولقد أدركت شخصياً السيد حسين نجدي ـ رحمه الله ـ الذي كان صاحب صوت متميز ولكنه ترك الأذان في آخر حياته..

عندما يرتفع صوت «أسعد نجدي» من فوق منائر المسجد الشريف فإن المرء ليشعر بتلك النفحات التي تلامس أدق مواضع النفس الإِنسانية، ويتفاعل مع ذلك الصوت الندي الوجدان الخالص الذي فطر الله الإِنسان عليه، وهو نفس الشعور الذي أحسسته عندما سمعت لأول مرة صوت المؤذن الشهير ـ عبد العزيز بخاري ـ وكان لم يستقر بعد في المدينة، وكانت النفس تتجاوب مع صوت الشاب وتسبح في أجواء يظللها الرضوان وتحوطها السكينة، ورأيت يومها الناس يسرقون النظر إلى صاحب هذا الصوت وهو يخرج من منارة «الشّكيلية» ممسكاً مفتاح المنارة بيده، ولم يكن غريباً على الأجداد والآباء من مؤذني مسجد رسول الله وخليله الذي

اصطفاه من بين خلقه ليس غريباً عليهم أن ينشئوا أبناءهم على تلك التربية التي تستمد تعاليمها من كتاب الله وسنة نبيه ومصطفاه ﷺ، إنهم ليسوا فقط جيران الحبيب الذي أَوْصَى في أحاديثه الصحيحة برعايتهم، ولكنهم كذلك أطول الناس أعناقاً في يوم الزحف الأكبر.

(٩)

سعدت جداً بمتابعة الأستاذين الكريمين أحمد جمال واللواء الشاعر علي زين العابدين، للحلقات المنشورة على صفحات هذا الملحق الأغر عن بعض مناحي الحياة الاجتماعية في بلدة الرسول ﷺ وقالا: إنهما ينتقلان من خلال تلك القراءة إلى عقود مضت يتذكران فيها المواضع التي نشآ فيها، ولا شك أن الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة تشكل إغراء كبيراً لكاتبين يحمل كل منهما نفساً شاعرة قادرة على التصوير متمكنة من أدوات التعبير الفني كما هو ملاحظ في إبداعاتهما التي أثريا بها فنون الأدب في بلادنا الكريمة ولا يزالان ـ حفظهما الله ـ يمتعان عشاق الكلمة بذلك الحس الصادق والمتمثل في العديد من المشاركات الفكرية والأدبية. .

ولقد عشت من عمري أوقاتاً ممتعة في رحاب مكة المكرمة أتنقل فيها بين جبل الكعبة في حارة الباب. وبرحة القطَّان في الشامية والدَّحلة وشعب عامر وزبيدة في العتيبية، عرفت فيها دور العلماء من جيران بيت الله، أتملى وجوههم النيرة فتقر عيني، وأستمع إلى أحاديثهم فتستقر الكلمات منهم في أعماق نفسي. أي در الذي ينثرونه على سماعي؟ وأي وعظ ذلك الذي يستلهمون فيه حياة السلف الصالح من هذه الأمة؟. . وأي

فقه ذلك الذي يتحرجون فيه من القول في كتاب الله بغير علم؟! كأنهم في هذا يتمثلون خطى رفيق المصطفى ﷺ وصديقه سيدنا أبي بكر الصديق.. رضي الله عنه.. الذي يقول «أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله بغير علم» وأي سكينة تلك التي تغشى مجالسهم في «الصحن»؟! وأي عبق ذلك الذي يفوح عندما ينقلون خطاهم بين «الحجر» وعتبة باب السلام؟! قوم لا تعرف الشح أيديهم. وتنبسط موائدهم لطلاب العلم.. لا يفرقون في ذلك بين مقيم وقادم وصغير وكبير..

لقد شربت ـ يا أساتذتي ـ الماء قراحاً من أيديهم، وتلقيت أحاديث المصطفى ﷺ رواية ودراية في حلقاتهم، ولكم أفاضوا علي من عطفهم، فإذا الغربة تذهب وحشتها والبعد عن ديار الأهل في «طيبة» يمنحني الإِحساس به. ولنْ يضير النفس ـ اليوم ـ بعد أن ترعرعت بحبهم أن تعبر والقلب بعد أن عايش أنسهم أن يتحدث والمشاعر بعد أن تغذت من كريم أخلاقهم أن تصرح.

وعندما ذهبت لأتعرف على وجوه القوم في البلد الكريم وأحيائه، فإذا أنا برجل لا يغريه طول قامته بأن يتطاول على الآخرين.. ولا يبعد شموخه الذي فطر عليه عن عامة الناس الذين يجدون في كريم عطائه ونبل أخلاقه ما يحملهم على طرق بابه وندب فَضْله، إذا برجل يحلم عندما يتجسد على ملامح الناس الغضب فلا يجدون سبيلاً إلى كتمانه. ويبتسم عندما يظن الآخرون أن نوازل الدهر سوف تحول بينه وبين فقدان ذلك الصفاء الذي لا يحل إلا في نفوس امتلأت بمعرفة الله وانصقلت بمحبته وسارعت إلى رضائه.. إذا أنا برجل يرتفع صوته في «المقام» مؤذناً والناس نيام. ويجلس بينهم متحدثاً في ضحى النهار فإذا الصوت منه

خفيض، والحديث منه مهذب، والقول منه مفيد، إذا أنا برجل في ساعة الشدائد يخشى بأسه أولئك الذين تغريهم نفوسهم بالتعدي على الآخرين ومع هذا فقد سمعته يوماً يقول: الشجاع من يضبط نفسه في لحظة الغضب . .

لقد حللت ـ يا أساتذتي ـ في حي الشامية فإذا فيه قوم يحبون النزيل ويكرمون الضيف. وكان على رأس هؤلاء القوم الكرام هو من تحدثت عن صفاته ـ آنفاً ـ فضيلة الشيخ عبد الله محمد بصنوي ـ رحمه الله ـ ويعلم الله أنني لم أتزيد في قول. ولم أبالغ في وصف، ولكنني ذكرت بعضاً مما أعرف ويسيراً مما شاهدت، وإنه لن يكون غريباً على القوم الذين ولد في أرضهم سيد الخلق عليه صلوات الله وسلامه ـ وتتنزل الرحمات بين دورهم وتنفتح العيون منهم كل صباح عَلَى مشهد هو خير من الدنيا وما فيها مشهد بيت الله لمعظم، لن يكون غريباً عليهم أن يجودوا في غير سفه، وأن يعطوا بغير منة، وأن تتنزه منهم النفوس عن ضمائر السوء والألسن عن فاحش القول فطوبى لمن عرف وهنيئاً لمن ذاق، ومن ذاق عرف . .

(١٠)

لكم أتيتُ الحارة ضحى فإذا الناس يشربون الشاي معطراً «بالنعناع» في مقهى المعلم طيفور، أو في الرحبة التي تقوم أمامه أنصت السمع لأحاديث الكبار من القوم يتذكرون ماضياً تصرم عهده وانقضت أيامه، وتلوح لهم الذكريات فيبتسمون وربما ترقرق الدمع في أعينهم على حبيب فقدوه أو صديق سبقهم إلى الدار الأخرى، وكان أكثر ما يشدني إلى القوم ذلك الصفاء الذي انطبعت به نفوسهم، أهو وليد الحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها؟ أم أنهم نشأوا هكذا لا يعرفون خداعاً يفسد الحياة ويشوه فطرتها، ولا يميلون إلى كذب وادعاء يمجه الذوق وتأباه الطبيعة السليمة؟

وكما بلوت القوم في الحارة على هذا الضرب من الخلق الرفيع، فلقد كنت أتسلل إلى مجلس والدي خلسة لأستمتع بأحاديث الصفوة من أصدقائه وأقول خلسة: أن للمجالس في بلد الرسول ﷺ تقاليد يرعاها الكبار ولا يخرج عن آدابها الصغار، فصدور المجالس لا يحل فيها إلا كبار السن، وحديثو السن من الشباب لا يرفعون صوتاً ولا يقاطعون كبيراً في حديثه، بل ويمعن البعض في تلك التقاليد فشرب القهوة من قبل الصغار في مجلس يؤمه الضيوف أمر غير مستحسن ويحث الآباء أبناءهم على تجنبه.

نعم لقد كنت أتسلل إلى مجلسهم فإذا رأوني ابتسموا، في نظراتهم حنان ولحديثهم طلاوة كثيراً ما كانت تشدني، فما أسمعه منهم لا أجده في بطون الكتب، وأفتقده بين لُداتي من الشباب، وتتشعب أحاديثهم وتتعدد موضوعاتها، ولكني لم أرهم حريصين كحرصهم على البعد عن ذم الناس أحياء كانوا أو أمواتاً. إنهم ليغضبون أشد الغضب إذا ما حل عليهم أحد من خارج جماعتهم وأراد أن ينال من الناس في أنسابهم أو يلوك لسانه في خصوصياتهم. ولعلِّي لا أبالغ إذا ما قلتُ: إنهم صراحة كانوا يطلبون منه الانصراف عنهم والابتعاد عن مجالسهم، وأرجع إلى نفسي أحدثها: أين أولئك القوم من أقوام لا يتورعون عن النيل من أناس ربما كانوا خيراً منهم سلوكاً، وأحسن خلقاً، وأنقى سريرة؟ نعم لقد كان الحديث في أنساب الناس عند رجال عرفتهم يؤمُّون دارنا أو نؤم دورهم سجية تهبط بأصحابها في ميزان الرجال وأعرافهم، وأن الفطرة في هذا الأمر لتتلاقى مع قواعد الشرع الحنيف الذي يأمرنا بحبس ألسنتنا عن قول السوء والتجني على الآخرين.

كثيراً ما تردد على سمعي هذا البيت من الشعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً　　يغنيك محموده عن النسب

لقد سمعته كثيراً ولكن المرة الأولى التي بلغ فيها مسمعي كان جملة من كلمات لوالدي ـ رحمه الله ـ يخاطبني بها. والذي إذا ما حدثني أشار إلي بيده كأنه يحذرني من التفاخر بما تعده أحاديث الرسول ﷺ جاهلية ممقوتة وعصبية مذمومة، ثم يردف القول مستشهداً بقول المصطفى ﷺ وشفيع الناس في يوم الزحف الأكبر.

الجوار صنع في نفوسهم الحب، وبرأها من ظلمة الحقد وغائلة

الكراهية، والهجرة جعلتهم يعيشون آداب الإِسلام عن إيمان، ويتمثلون قيمه فيما يأتون من سلوك أو يقدمون عليه من عمل، وحب سيد الخلق ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ أوجد في نفوسهم رقة، إذا نظرت في وجوههم خلتهم أسوداً، وإذا دنوت منهم وذكرتهم فسوف تجيبك منهم أعين تفيض بالدمع، وألسنه تلهج بالذكر، وقلوب لا تعرف الذل والانكسار إلا لبارئها فرحم الله منهم من ذهب وبارك في من بقي، وهدانا الله سواء السبيل.

(١١)

إذا ما أمطرت السماء في بلد رسول الله ﷺ انغسلت معها النفوس وتطهرت القلوب. وما أكثر أدران الحياة وما أضعف هذه النفوس في مواجهة نعيم الدنيا وإغراءاتها. يهرع الناس إلى الحرم يمتعون النظر بمرأى القبة الخضراء الحاضنة للرحمة المهداة للعالمين وهي تستقبل رحمة السماء ينسكب الماء من كل ميزاب في الحرم يلامس ذرات الأرض التي يعفر الناس فيها وجوههم من جميع أطراف الدنيا لخالقهم وليس في المدينة موضع إلا ويشهد بوحدانية الله وليس بين أحيائها موقع إلا وتنقلت فيه خطوات سيد الخلق عليه صلوات الله وسلامه أو اجتمع فيه صحابته رضوان الله عليهم أو زار فيه مريضاً أو شيَّعَ فيه ميتاً.

لن نستكثر على بعض سلف هذه الأمة حبهم، لتلك الأرض ليس للأرض ذاتها فلقد كانت قبل حلوله فيها موئلاً للحمى وتحولت بعد هجرته إليها مصدراً للنور لن نستكثر عليهم هيامهم بآثارها. فالآثار قبله كانت آطاماً يتقاتل من فوقها الناس، وبعده أضحت مساجد ترتفع من فوق مآذنها كلمات الحق التي أمره الله أن يصدع بها ولئن افتخرت الحضارات الأخرى بملامحها في ميادين الكر والفر فأرض المدينة تروي ملاحم الحب الذي صنعه سيد العرب عليه أفضل الصلاة والتسليم بسجاياه العظيمة.. ألم

يؤلف قلوباً كانت متنافرة ويقضي على ثارات كانت متأججة ويوحد جموعاً كانت متفرقة، جمع الله له السلام والمعجزة في شيء واحد لقد كانت المعجزة في الكلمة فهي وحي يتنزل وقرآن يتلى وقيم سامية تُطبَّق، بالقرآن استقامت له قلوب الناس لقد داوى القرآن قلوباً غلاظاً وهذب طباعاً شاذة بالأمس كانوا يقاتلون بعضهم البعض واليوم يقاتلون عدواً واحداً. بالأمس كانوا يغيرون على جيرانهم واليوم يجعلون للجار حرمة وللآخر ذمة.. بالأمس كانوا يسهرون فيحيلون الليل لهواً وصخباً واليوم تهجع منهم العيون في أول الليل وترتفع منهم الأكف في الهزيع الأخير منه يناجون مولاهم بألسن لا تعرف الكذب وقلوب تنزهت عن الحقد وأنفس ترفعت عن صغائر الحياة. وإذا ما أظلهم الصبح فهم آخذون من دنياهم بنصيب لا يشغلهم ما فيها عن ذكر الله ولا تتبدل أخلاقياتهم لبريق يلوح منها أو بزهو تجرهم إليه فتنتها.

تلك لمحات من سيرة الأمة التي عاشت فوق تلك الأرض المحبوبة، فالأرض بهم طابت ومن أجلهم تسامت في أعين الناس على مر التاريخ فلا شوق يعدل ذلك الشوق الذي يجدونه في نفوسهم إليها ولا حب يداني ذلك الحب الذي يستشعرونه في أعماقهم لمرابعها إلا أن ما يجدونه في نفوسهم من شوق وما ينسكب من أعماقهم من حب إنما ينبثق ضياؤه من ذلك النور الذي قال الله فيه في محكم كتابه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥).

(١٢)

في الصباح البهي الذي تشرق أنواره في سماء البلدة الطاهرة يتوافد الناس على الحارة يطلبون حانوتاً من تلك الحوانيت التي كانت تنتشر على طرفي الطريق الرئيس للحارة وهو حانوت صغير يلاصق جداره جدار مخبز المعلم حجازي ولا تتسع مساحته إلا لنفر محدود من الناس ولكن الناس يطيب لها أن تأتي لهذا الحانوت من أماكن متعددة فتجلس على تلك المقاعد العتيقة والمتميزة بقاعدتها المصنوعة من الشريط الذي يؤتى به من سعف النخل، ولربما اضطر بعض من يؤمون هذا الحانوت للوقوف حتى يأتي دورهم فيجلسون بين يدي الرجل الذي يتوجب عليك ألا تكثر الكلام عنده فهو مجيد لصنعته حافظ لسماء زبائنه. وهل يغيب عن الذاكرة التي نشأت في الحارة أو قريباً منها اسم «العم حسن فرغلي» الذي كان يتفنن في صناعة «الفول»؟ لا يضاهيه فيها أحد إلا رجل آخر كان حانوته في سوق البرسيم وعند مدخل شارع العينية. وكان هذا الأخير يدعى عامر ـ رحمه الله ـ حانوت العم فرغلي كان من معالم الحارة البارزة يتساوى في ذلك مع مخبز المعلم حجازي ومقهى طيفور حيث الرحبة التي كانت في حقبة ماضية موضعاً يبرز فيه أتباع الأغوات مواهبهم في لف العصا «القشاع» أو ما يسمى بالتَّمدين، أو اللعب بالسيوف الراح من فوق ظهور الخيل ولا يكون ذلك إلا في المناسبات كالأعياد، ومن هنا أتت المرتبة

التي يحتلها أحد الأغوات وتسمى (رأس الخيالة) وهي المرتبة التي تلي مرتبتي (المستسلم والنقيب) وقد عرفت من بين الأغوات شخصاً كان يشغل هذه المرتبة واسمه «شاكر» وخلفه شخص آخر فيها اسمه «محمد قرآني» وهذا الأخير كان من أكثر الأغوات نشاطاً وكانت تسند إليه مهمة فتح أبواب الحجرة المطهرة عند وصول الوفود الإسلامية للحرم الشريف وتشرفهم بالوقوف بين يدي المصطفى عليه الصلاة والسلام مسلمين ولتاريخه المشرق متذكرين ولمناقبه العظيمة متمثلين. وكيف لا يحن المؤمن إلى تلك المواضع وقد حن الجذع الذي لا يعقل ورقت القلوب التي كانت في جاهليتها لا تلين، وفاضت العيون التي لم تكن تعرف الدمع وانسكابه من قبل، فهي المواضع التي تعبَّدَ فيها نبي الهدى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ حتى تورمت قدماه ـ ونزل جبريل بين سواريها بالوحي على قلبه الممتلئ شفقة ورحمة ـ بأبي أنت وأمي يا سيد الرسل، ويا إمام المتقين، ويا قائد الغر المحجلين.

في الحارة الليل مضيء، فهي تقع بين مسجد رسول الله ﷺ وبقيع «الغرقد» الذي يضم أكثر من عشرة آلاف صحابي ـ رضوان الله عليهم.. والنهار فيها يزيده إشراقاً إطلالة معالم مسجده الشريف وضريحه الذي حفظه الله على مر العصور والأزمان فلا يعرف في الدنيا جميعاً قبر بالتواتر المعلوم الذي لا يقبل الشك وعلى وجه التحديد والدقة كما يعرف ضريح خاتم الأنبياء والمرسلين ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وتلك معجزة خص الله بها هذا الدين العظيم.

فكتابه محفوظ من كل تغيير وتبديل، وسنته مصونة من التحريف، ومعالم مسجده يزيدها مرور الأيام قوة وبهاء، وهي اليوم بما تبذله هذه

الحكومة الرشيدة بتوجيه خادم الحرمين الشريفين وإمام المسلمين، الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود ـ حفظه الله ـ هي في خير حلة وأكرم منزلة، وأعظم تقديس.

(١٣)

عادات كثيرة كانت تميز مجتمع البلدة الطاهرة، وتربط أهله بوشائج قوية من الحب والتواصل. وإن الذاكرة ـ اليوم ـ تنقلني إلى عقود خلت كنا نسعد فيها بحلول شهر رمضان المبارك، الذي كان يحيل ليالي المدينة إلى ضياء ونور ويغمرها بأجواء من الروحانية التي تعب فيها النفس من معين الطهر والصفاء. وكان أكثر ما يشدني في تلك الليالي المشرقة مرأى شباب المدينة وهم يرتلون القرآن في جماعات متعددة بين سواري الحرم الشريف. وكان من أكثر الناس حرصاً على قيام صلاة الليل في الحرم الشيخ عباس قاري الذي كانت تقوم مدرسته في حي الشونة يخرج هذا الشيخ بجبّته وعمامته متقدماً طلابه إلى الحرم يرددون آيات القرآن بتجويد محكم وصوت ندي. وكان الشيخ عباس يعيش حياة أقرب ما تكون إلى الزهد والكفاف، وإنني لا أكاد أتذكر الشيخ القاري حتى تقفز إلى ذهني صورة رجل آخر من المجاورين ومن أهل العلم فيها وهو الشيخ إبراهيم الختني ـ رحمهما الله ـ والذي كان يسكن في حي العريضية بالمناخة وبالقرب من مسجد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان هذا الأخير على صلة بشيخ القراء في المدينة المرحوم حسن الشاعر الذي رأيته وقد تجاوز المائة من عمره وهو يسعى إلى الحرم في سكينة ووقار ليحل في وسط المسجد، فيلتف حوله طلاب العلم، يرتلون القرآن بين يديه. ولعلّ

البعض يستغرب إذا ما عرف أن الشيخ الشاعر ـ رحمه الله ـ كان يستمع وهو في تلك المرحلة المتقدمة من عمره لأكثر من قارئ يرد عليهم إذا ما أخطأوا في قراءة ويقوّم ألسنتهم بما من الله عليه من علم، فهو عارف بأصول القراءات جميعها، وقد حدثني الشيخ جعفر فقيه ـ رحمه الله ـ أن الشيخ الشاعر كان يعقد حلقة، لتدريس بعض العلوم الدينية في وسط الحرم النبوي الشريف ولن أنسى وجهاً آخر مشرقاً كان يقوم بترتيب القرآن في ليالي الشهر الكريم، ويؤم مجموعة من الناس للصلاة بهم بعد انقضاء صلاة العشاء، وهو الشيخ «هاشم محمد شقرون» ـ رحمه الله ـ كان حافظاً لكتاب الله، وقريباً من نفوس الناس، فهو يبدأهم بالتحية، ويبتسم في وجوههم إذا ما أموا داره الكريمة التي كان يزينها مجلس والده الشيخ محمد شقرون ـ رحمه الله ـ الذي كان ينتظم عدداً من أهل الفضل والعلم من بينهم الشيخ محمد علي خيمي ـ رحمه الله ـ والد صديقنا الأستاذ محمود خيمي وكان للشيخين الكريمين «الشقرون والخيمي» منزلة حميمة في قلوب أهل البلدة الطاهرة، ألسنة دائمة الذكر وقلوب متعلقة بعالم الروح وشمائل تنزّهت عن الصغائر وترفعت عن الدنايا وإني كنت مع جيل من لُداتي الشباب ننظر إلى هذين الشيخين في شيء من الإِعجاب ونسعد بمجلس يؤمانه أو مجتمع خير يسعيان إليه.

ولم تكن قراءة القرآن ومذاكرته تختص بالشهر الكريم وحده، فلقد كان الحرم يحفل بدروس القرآن طوال العام. فعند خوخة الصديق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كان ينعقد جمع مبارك فيهم المشائخ محمد علي النجار ومحمد علي السمان ـ وسليمان حجازي ـ وحلِّيت بن مُسلم ـ رحمهم الله ـ كما أن من بينهم من بارك الله في أعمارهم من أمثال المشائخ: ماجد

عسيلان وصدِّيق ميمني وطاهر عبد الحكيم عثمان وأخيه أحمد، كان هذا الجمع الطيب يتوافر على قراءة كتاب الله في الوقت الذي يفصل بين صلاتي المغرب، والعشاء وفي الجزء الآخر من الحرم ـ القريب من باب جبريل ـ كان الرجال الأفاضل من أمثال: حسن بخاري وأحمد عبد الجواد وجميل شيناوي والسيد عباس صقر ليس لهم من شغل إلا مطالعة كتاب الله، وجوه تزينت بالإِيمان وقلوب صفت بالحب ومشاعر تغذت من منابع الخير والفضيلة..

آخر الكلام:

منازل شب فيها الدين واكتملت   آياته فاستعارت نورها المدن
لأي أرض يشد الرحل راكبه   يبغي المثوبة أو يشتاقه عطن
أبعد روضاتها الغنا وقبتها   الخضراء يحلو بعيني مسلم وطن
ما غوطة الشام ما نهر الأبلة ما   حمراء غرناطة ما مصر ما اليمن
كل المنى في رحاب المصطفى جُمِعَتْ   ديناً ودنيا فما في مثلها ثمن

(١٤)

يَحِلُّ العيد، وكل الأيام عيد في المدينة، فتزدهي نفوس القوم يخرجون جماعات من أحياء المدينة وأزقتها لأداء صلاة المشهد، ويسلكون في ذلك سبلاً متعددة ولكنها جميعها تفضي إلى حرم المصطفى ﷺ. وهم إذ يخرجون تستقبلهم تلك الساحة الكبيرة التي تفصل بين المنطقة التي كانوا يطلقون عليها «جُوَّة المدينة» والمناطق الأخرى التي تقوم قريباً من السور أو خارجه، وتلك الساحة هي المكان الذي كان أهل المدينة يقصدونه إذا ما أشرقت الشمس ويأوون إليه إذا ما أظلهم المساء بهدوئه، وسكينته. الكبار منهم يجلسون في المراكيز يستعيدون الماضي، الذي عاشوا أحداثه، ويروون شيئاً من القصص الجميل الذي يذهب عن النفس كثيراً من كدر هذه الحياة، ولا ينسون أن يعرجوا على تلك الذكريات المتصلة بحياتهم في بلاد جاوة والهند أو الشام والتي يضنون بشيء من تفاصيلها على الناشئة من شبابهم، وإذا أرادوا أن يتوسعوا في شيء من حديثهم ذلك، طلبوا من ناشئتهم الانصراف ولكن في لباقة وحسن أدب. في تلك الساحة التي تظلِّلها الأشجار وتقوم على جانبيها المقاهي، رأيت الكبار يفرحون بالعيد كما يفرح به الصغار، ولا يمنعهم وقارهم من أن يلهوا ساعة من الزمن لهواً بريئاً ما أحوجنا اليوم إليه في خضم هذه الحياة المادية وهي سمة من سمات العصر بأكمله والتي لا نشعر فيها إلا باللهاث

الذي لا تنتهي مطالبه، ولا نعرف له نهاية نقف بنفوسنا عندها.

رأيتهم يمارسون رياضة (القشاع) يمسكون بالعصي في شجاعة ويلوحون بها في محبة. وكان القشاع في الماضي وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس في الحقب التي كان ينعدم فيها الأمن على النفس وخصوصاً إذا ما حل المساء واعتصم الناس بدورهم وجلسوا يستمعون إلى حكايات الجدَّات، وهي حكايات تقوم في بنائها القصصي على كثير من الأساطير ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة للتسلية. وكان الجَمْعُ يتحلَّق حول المرأة الكبيرة التي تمسك بالإِبرة والسِّيم وتتفنن في صنع الكوافي المزركشة فهي تارة تخفض الرأس لتنظر إلى موضع الإِبرة وأخرى ترفعه لتكمل ما انقطع من حكايتها. الجميع يلتزمون الصمت ولا يجرؤون على السؤال.. فللجدَّات حِسٌّ مرهف ومزاج تعتوره الحدَّة بين الحين والآخر، تحلق العائلة حول الجدة، يذكرني الآن بتحلق الصغار حول جهاز التلفزيون، ولكن حديث الجدة مع طرافته وعذوبته، له أمد محدود ينقضي عنده، ونحن اليوم كثيراً ما نسيء عن عمد أو غير عمد استخدام هذه الوسيلة الحديثة للتسلية، فنرى أبصار أبنائنا مشدودة إليها لساعات طويلة وعقولهم مرتبطة بها، فرفقاً بأبصار لم تر من الحياة بعد شيئاً كثيراً وحفاظاً على عقول يجب أن تأخذ من أوقات لهوها بمقدار حتى لا يضيع ما تعلمته في أوقات الجد والعمل.

لم يكن القشاع ذلك الشيء الوحيد الذي يشدُّني إلى ساحة المناخة ولكن وجوه الرجال كانت تستهويني، ملابسُهم ناصعة البياض ـ كوافيهم شامخة كشموخ جباههم، وعمائمهم الصَّفراء تيجان فوق رؤوسهم يقيمونها في مقامات الفرح وينزلونها في مقامات الحزن ولحاهم التي يقتدى فيها

بسنة المصطفى ﷺ هُذِّبَتْ أطرافُها ويفوحُ الشَّذَى الطيب منها، يقربون الصغير في مجالسهم ويعطفون على ذوي الحاجات إذا ما قصدوهم، ويحفظون ألسنتهم عن الخوض في أنساب الناس وخصوصياتهم، وإذا ما انفض المجلس وتفرق الجمع ختموا حديثهم بالاستغفار وبالصلاة على سيد ولد عدنان ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ ما أطيب ذكراهم، وما أجمل سيرهم ولكنني كثيراً ما أمر على الديار التي كانت تشهد حديثهم وأوقات سمرهم، وأنا أردد قول شاعر المدينة سعد الدين بن عبد الجليل براده ـ رحمه الله ـ في قصيدته التي يتشوق فيها إلى المدينة بعد خروجه إلى الشام أثناء أحداث الحرب العالمية الأولى:

يا للهوى لسويعات مضت بقبا ... وللعوالي بقلبي وخز مران
قربان روحي أفديه لرؤيتها ... يا ليت شعري هل أحظى بقربان
واحرَّ قلبي على وادي العقيق فكم ... أجرته عيناي منظوماً بعقيان
لذلك السَّيح ساحت عبرتي وغدت ... تسقي النَّقَا ولكم سالت ببطحان؟
يا حادي العيس قف، هذا البقيع ... وذا سَلْعٌ، فإن به روحي وريحاني

خاتمة

الأديب الفاضل والصديق الكريم الأستاذ عبد الرحمن الأنصاري، لقد وقفت كثيراً عند كتاباتك القيمة عن المجالس الثقافية، وعند حديثك الممتع عن رجل أحبه الكبار والصغار في بلد المصطفى ﷺ الشيخ عبد الحميد عباس ـ رحمه الله ـ ولعلّ الفرصة تواتيك فتخص بالحديث رجالاً عرفتهم عن قرب، ووقفت على كثير من المآثر في حياتهم، فلكم رأيتك تتردد على مجلس يضم صفوة من الرجال من أمثال أبي هشام السيد أديب

صقر، والسيد علي كماخي والد الدكتور الفاضل خالد كماخي والشيخ عارف برادة ـ رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته ـ وأسأل الله أَنْ يُبارِكَ حلّيت لنا في بقية أهل العلم والقرآن صاحب الدار العامرة في حي قباء الشيخ الفاضل حليت بن مسلم والد الشاعر المبدع الأستاذ عبد المحسن بن حليت فهو جدير بكل حب وتقدير وثناء.

(١٥)

المناخة بمقاهيها وبعربات «الكَرُّو» التي ينطلق بها أصحابها في أرجاء المدينة بحثاً عن الرزق، فهي تحمل الناس وأشياءهم من مكان إلى آخر، ولعلّي أذكر نوعاً من العربات كان خاصاً بحفلات الزواج، وأظن كنا نطلق عليهم اسم «الدقَّاقات» في المدينة ـ وهي الفرقة المختصة بإحياء حفلات الزفاف ـ ضرباً بالدف وإنشاداً للكلمة ـ هذه الفرقة كانت تستقل هذا النوع الخاص من العربات والمتميز بوجود الستائر على أطرافه، فكل شيء في مجتمع المدينة ينزع إلى الحشمة والتمشي مع آداب الإِسلام.

تنطلق العربات مع طلوع الشمس ثم يستقر بها المقام في آخره في مكان يدعى «الحلَّة». وأنت إذا ما مررت بهذا المكان بعد أن يحل المساء وتتوقف الحياة عن حركتها المألوفة فسوف تجد أصحاب هذه العربات ما بين مفترش للأرض أو مستلق على مركاز من الخشب (الكرويته) يحدق ببصره في سماء المدينة الصافية، وما أجمل تلك السماء التي أظلت خير من أنجبت النساء، وأكرم من مشى على الثرى ـ عليه صلوات الله وسلامه، وهم بعد زمن من إخلادهم للراحة يعود النشاط إليهم من جديد فتراهم قد تناثروا في تلك المقاهي جماعات يحتسون أقداحاً من الشاي ويأكلون شيئاً من الطعام، وكان الطعام المفضل في «الحلة» هو «الكِبْدة»

يصنعها رجل متخصص اسمه «العزِّي» ولم يكن الذين يؤمون «مَبْسَط» العزِّي من أهل الحلة فقط ولكن جموعاً كثيرة من أهل المدينة تتوجه إلى «المناخة» صباحاً أو ليلاً لتتناول هذه الوجبة الشهية التي عرفت أيضاً في مدن أخرى مثل مكة المكرمة، وما أكثر ما رأيت أهل البلد الطاهر وهم يسرعون الخطى مع مطلع كل يوم إلى سوق الليل فهناك حانوت «الكَنُو» لصاحبه محمد إدريس كنو وهو من المؤذنين سابقاً في المسجد وحالياً يؤذن فقط يوم الجمعة في مسجد الشيخ حسن مشاط بالنزهة الذي يقوم على مقربة من مقهى المريعاني الشهير.

وفي الحلة يجلس العم «شلبي بيطار» يصلح «حدوة» الخيل والبغال، وليس بعيداً عنه يبدو رجل يميل لونه إلى البياض، ولكن أشعة الشمس المحرقة قد أحالت سحنته إلى شيء من السمرة، يشد الحزام في وسطه وينتقل ما بين مقهى «النَّقاوي» ومربط الخيل ومجموعة من القِطط تسير خلفه فهو يقوم بإطعامها ويخصها برعايته، ولكنه على كل حال لا يبلغ في عنايته ذلك المستوى الذي بلغه رجل من المهاجرين الهنود فلقد كان يسكن في بيت في «ذروان» تجاوره فيه القطط، وإذا سافر في شوارع المدينة متكئاً على عصاه رأيت هذه القطط تتبع خطاه فهي لا تقوى على فراق ولا تسعى للانفصال عنه. أعود إلى رجل المناخة الذي لا أعرف إلا اليسير عن شخصيته، فأنا لا أعلم إذا ما كان شيخاً لأهل الحلة، أو أنه بحكم السن يرجع إليه الفتيان من أهل الحرفة يستفتونه في شؤونهم ويرجعون إليه في قضاياهم، وعندما أستعيد الآن صورته أجده في الحقبة التي عرفته فيها قد بلغ مرحلة متقدمة من العمر، ويظهر ذلك من انحناءة ظهره وبروز الشيب في عارضيه، ومع أن أهل الحارة يفضلون دائماً ـ

حلاقة الرأس ـ إلا أن «الكوفية» البلدي كانت كفيلة بتغطية الجزء الأكبر منه، أما هذا الرجل الذي تحدثت عنه، واختفى فجأة من المناخة وسمعت بعد ذلك أنه ذهب إلى الرياض وتوفي بها، فهو العم «محمود سِحْلي» ـ رحمه الله ـ وإذا كان «السِّحلي» ـ رحمه الله ـ واحداً من تلك الشخصيات التي كانت تشكل ملامح الحياة في ذلك الجزء الهام من المدينة، فلقد كان هناك رجل آخر يتميز بالابتسامة التي ترتسم على ملامح وجهه الأسمر ومع أنه يعمل «غندرياً» (سائس الدواب) إلا أنه كان دائم العناية بملابسه، الحزمة في وسطه، والعصى بين يديه، والشباب في «الحلة» ينادونه بالمعلم «كردش». وأذكر أن شاباً كان يسير في المناخة فتحرَّشَ به أحد من هؤلاء الشباب، فذهب إليه يشكو طيش هذا الشاب وتعديه عليه، رأيت «كردش» يقوم من مركازه، يوبّخ المعتدي، ويطيِّب خاطر الشاب الغريب، وهكذا كانت سمات أهل الحارة نخوة وشهامة، ووقوفاً إلى جانب الحق حتى ولو كان المعتدي من ذَوي القربى.

مررت بعد غربة دامت سنين عن المدينة على حي المناخة ورأيت رجلاً كنت أعرفه فيما مضى، شديد البأس مكتمل الصحة، رأيته وقد أخنى عليه الدهر، فضعف منه البصر، وذوى منه الجسد، فسلمت عليه لأسأله عن أهل المناخة الذين اختفوا، واختفت معهم بعض ملامح الحياة الشعبية والتي كانت جزءاً من المجتمع في الحقبة الماضية، قال لي يا بني: مات أكثرهم، وهجر البعض الآخر مناخَتَه إلى نواح أخرى، ولكنها ظلت حلماً جميلاً تعيشه مشاعرهم وأحاسيسهم، وأنشودة عذبة ترددها ألسنتهم، قلت له: تلك ـ يا عم ـ سنة الحياة، وطبيعة الدار الفانية، ولكننا بفطرتنا نحنّ دوماً إلى ذلك الماضي بكل إيجابياته وسلبياته، تتوق

إليه النفوس، ونذرف على تصرم أيامه الدموع، ولا أدري هل نحن بهذا الشعور نبكي أنفسنا، أم نبكي الزمن لذاته، أم نبكيهما معاً.

آخر الكلام:

وفؤاد كلما عاتبته ... في مدى الهجران يبغي تعبي!
لا أراه الدهر إلا لاهياً ... في تماديه، فقد بَرَّح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا؟ ... فني العمر كذا في اللعب
وشبابي بان عني فمضى ... قبل أن أقضيَ منه أَربي
ما أرجى بعده إلا الفنا ... ضيق الشيب عليّ مطلبي
ويح نفسي لاَ أراها أبداً ... في جميل، لا ولا في أدب
نَفْسِيَّ لا كنت ولا كان الهوى ... راقبي المولى، وخافي، وارهبي

(١٦)

واستيقظت ذات يوم على وقع أصوات غريبة لم آلفها من قبل، حداء قرأت عنه في الأسفار، ونشيد مثل ذاك الذي تحدثت عنه كتب السيرة، ولو أنني لم أسكن في «حي العنبرية» مدخل المدينة المعروف لما بلغت إلى سمعي تلك الأصوات ولم تتفاعل أحاسيسي مع تلك الأهازيج، خرجت من داري يحدوني تطلع الناشئة من الشباب وفضولهم، فإذا النوق والبهائم قادمة من البلد الحرام وقد ترجل من فوق ظهورها الفتيان الذين يسيرون الهوينى ولا يتعجلون الخطى، ولكنهم ما إن بلغوا شارع العينية حتى امتطوها، وساروا بها إلى نهايته، يرددون كلاماً لا أحفظه، ثم يعودون أدراجهم إلى «المناخة» يقيم بعضهم في «الحلة» والبعض الآخر في زقاق «الطيار» إلا أن العير انفصلت عن مسيرة الركب، وهبطت الدرجات التي تسلمك إلى الساحة التي كانت تمتد بين بابي السلام والرحمة، ثم أناخت غير بعيد عن الباب الأول، ولأول مرة أرى النوق تمرغ خديها في تلك الرحبة، كل شيء في هذا الوجود يحن إلى سيد الوجود وصفوة الخلق محمد بن عبد الله ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ألم يحن إليه الجذع، الذي كان يتكئ عليه في أثناء خطبته في المسجد؟ ألم يهتز جبل أُحد عندما ثبتت أقدامه الشريفة عليه؟

كنت مغرماً برؤية أشكال هذه الفئة من الناس التي تزور المدينة في كل عام، تشد الرحال إلى المسجد النبوي الشريف، وتقف بين يد المصطفى ﷺ وصحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ مسلمة، وكان بعضهم من احترامه للبلدة الطاهرة لا ينتعل فيها حذاء وكنت أتعجب كيف بإمكانهم تحمل أشعة الشمس المحرقة، وخصوصاً في أيام تبلغ فيها الحرارة شدتها، ولكنني عرفت فيما بعد أن «أبناء الحارة» قد تعودوا على السير على الأقدام كما تعودوا على شظف العيش وقسوته.

كان الركب ينتظم مجموعات كبيرة من أهل الحارة في مكة ولكنني أعتقد أن أحياء مثل المسفلة والنَّقا، والشِعب، والشُبيكة، كانت تشكل الغالبية من أفراده. وكان أهل مكة يخرجون لتوديعه في الوادي، ولعلّ ركباً كان يخرج من المدينة في الماضي وقبل توافر وسائل المواصلات الحديثة وسمعت أن رجلاً من سكان «العنبرية» اسمه «حمزة لبان» كان شيخاً من مشايخ هذا الركب، ولعلّ صديقنا الدكتور «يوسف بن أحمد حوالة» يُحدِّثنا عن ركب المدينة فهو من أهل الساحة وأسرته الكريمة في الذروة من وجهائها، ولا أنس أَصْهارهم ـ آل الملا ـ فلقد كان المرحوم عبد القادر ـ ملا ـ شَيْخاً لهذا الحي المشهور في البلدة الطاهرة، وفي الحقبة التي كان فيها معتوق بري ـ رحمه الله ـ شيخاً لحي المناخة.

كان لأهل الركب أصدقاؤهم بين الحلَّة وزقاق الطيار وقهوة «الفار» قرب باب الكومة ـ وكان هؤلاء الأصدقاء من المدنيين يفتحون دورهم لإِخوانهم المكيين، ويرحبون بهم أجمل ترحيب، وإنك إذا خرجت ليلاً إلى المناخة بعد انقضاء صلاة المغرب أو العشاء، فسوف تجد القوم ينتشرون في المراكيز يتبادلون أحاديث الصفاء وينشدون بعضاً من أدوار

«الصَّهبة» التي أقرب ما تكون إلى ما يعرف بالموشحات الأندلسية ولكل دور (طريقته) في الإِنشاد، وهو إنشاد يعتمد على حركة «كف اليد» ولا يصاحبه شيء آخر. وإن كنت لا أعلم لماذا يسمونه بالمصري. ويسمون نوعاً آخر من الإنشاد «اليماني»؟ ولعل البعض ممن تعمقوا في معرفة هذه الموشحات يفصل القول لنا في ذلك، وهذا يدخل في باب تاريخ الأدب فالدكتور «محمد عبده غانم» نال شهادة الدكتوراه من معهد الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن عن أطروحته في «شعر الغناء الصنعاني» والتي جاءت في حوالي ٤٥٠ صفحة وطبعت مرات عديدة كان آخرها في بيروت في عام ١٩٨٣م، وما خصه الدكتور غانم بدراسته وبحثه قريب من الموشحات التي تكاد تندثر لدينا، فهي نتاج عصر قد مضى ولكنني أرى أنه لا بد من التوقف عندها ومعرفة جذورها من حيث نسبة الأشعار التي تنشد إلى قائليها، ومن حيث أدائها وهي بلا شك تتصل برباط قوي بذلك الإِنشاد الذي استقبل به الأنصار نبي الهدى عليه صلوات الله وسلامه عند قدومه إلى المدينة:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا للَّه داع

آخر الكلام:

وإذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام..

(١٧)

كنت أعرف من حي العنبرية والذي سبق أن ذكرت في حلقة سابقة أن اسمه مشتق من اسم شخص كان يدعى «عنبر آغا»، أعرف من هذا الحي جزأه المطل على «المسيل» وهو مجرى لسيل أبي جيدة، ويقوم على طرفي الشارع الموصل إلى المناخة القائمة أمام ما كان يعرف عند أهل المدينة بـ «الخان» ـ سوق الخضار ـ يقوم على طرفي هذا الشارع مسجد يسمى باسم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وبناء قديم ترتفع من وسطه منارة لمسجد يسمى باسم سيدنا ـ بلال ـ وما هذا البناء القديم إلا مقر لإِمارة المدينة، ولعلّي في أثناء مروري بالقرب من هذا البنَاء قد دلفت إليه يوماً فرأيت ساحة ينبت فيها شيء من الشجر لا أتذكر هل هو النَّخل أم السِّدْر؟

ويسامت هذا البناء دار نحتت من الحجر كأحسن ما يكون النحت، فلقد عرفت المدينة بوجود الفئة التي تقيم هذا النوع من البناء المتناسق الجميل، وهي فئة «القرارية» وحدثني الشيخ عبد الله بصنوي ـ رحمه الله ـ أن دار الجنيد المشهورة في حي حارة الباب بمكة المكرمة والتي آلت ملكيتها إلى معالي الشيخ أحمد زكي يماني، هي من تشييد أهل هذه الحرفة في المدينة، أعود إلى الدار المنحوتة من الحجر على مدخل الباب

الجديد ـ فأتذكر أن قبة صغيرة مضيئة كانت مُقامة أو مبنية فوق هذه الدار، ولم تكن هذه الدار إلا دار آل الخريجي الأسرة المعروفة بالمدينة والتي برز من بينها عدد من الرجال الذين أسهما بجهودهم في أعمال الخير والبناء الاجتماعي والفكري.

في الليل تتهادى إلى سمعي أصوات الحيوانات القابعة في المسيل، وفي الصباح استيقظ على حداء «السَّقا» يأتي لملء «زَفَّته» المصنوعة من إناءين من الصفيح يصل بينهما عود من الخشب المتين، يأتي هؤلاء السُّقاة مع الفجر إلى منبع الماء وكان يسمى (البازان) الذي كان يقوم على مرمى خطوات من دارنا فأنظر إليه من ثقوب «الروشان» أو ما يعرف بالمشربيات، ومعظم الدور في المدينة كان يزين واجهتها هذا النوع من النوافذ، وهو بالإِضافة إلى ما يكشف عنه من حس وذوق فني عند القائمين على صنعته فهو له دلالته الاجتماعية المتمثلة في إعطاء أهل المنزل إمكانية النظر إلى الشارع أو الحارة دون أن يتمكن المار في الشارع من معرفة خصوصيات الدور مع أن الوضع الاجتماعي كله كان يسير في منحى واحد وهو الحفاظ على التقاليد الإِسلامية من رعاية للحرمات وحفظ لحقوق الجار وصون لوحدة الحي الذي يشكل جزءاً من المجتمع الأم.

ينزل المطر تمتلئ آبار البيوت المحيطة بالسيل بالماء، وتمتلئ بمائها تلك «الخرز» المنتشرة في مجرى السيل نفسه، يخرج الصغار من الأحواش المتقاربة، وأكبرها حوشا «عميرة» و «مناع» وأصغرها حوش «السيد أحمد» الذي كان يقوم في بدايته دارنا ودار الأفندي «ناجي» أحد العاملين السابقين في «الخالدية» المركز الرئيس للشرطة بالمناخة، يخرجون إلى شجرة النبق الممتدة الجذور في أرض مسجد سيدنا عمر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ

وقد اخضرت منها الغصون ويجمعون في براءة طفولية ما تساقط من حبات النّبق. . لا أعلم، لماذا استقرت في ذهني صورة أشجار النبق والسدر التي كانت تنتشر في نواحٍ مختلفة من المدينة، من بينها المناخة وسوق الحبابة؟ فلا أتذكر المدينة القديمة إلا وأتذكر معها هذا النوع من الشجر، ولا أعلم لماذا لا تتخذ بلدية المدينة ممثلة في أمينها معالي المهندس عبد العزيز بن عبد الرحمن الحصين خطوة رائدة في تظليل شوارع المدينة بأشجار النخيل والسدر.

إذا نزل المطر ـ وكثيراً ما كان ينزل ـ تتجمع المياه وتسيل السيول، سيل عروة، وادي العقيق، والعاقول، وسيل أبي جيدة، وادي بطحان، والأخير هذا كنت أشهد موسمه بحكم موقع دارنا، يأتي الناس من جميع أنحاء المدينة، يتجمعون على أطراف الوادي وبعضهم بحكم صلته بأهل المنازل المطلة على مجرى السيل يتخذون من «الرَّواشين» مقعداً لهم لينظروا إلى المياه وهي تنحدر بقوة عجيبة من قربان إلى منطقة «السيح» وما وراءها.

الإِنسان في العصر الحديث أقام السدود ليستفيد من المياه ولكنه دفع في مقابل ذلك ضريبة باهظة وهي فقدانه لرؤية مظهر من مظاهر الطبيعة وكثيراً ما تتغذى المشاعر وتتطهر النفوس على رؤية مثل هذه المظاهر. فمن لي بحياة لم تفسدها ماديات العصر ويشوهها تدخل الإِنسان فيما يعد من خصوصياتها؟ يبدو أن ذلك من المستحيلات ولكنه يبقى حلماً وما أجمل الأحلام بعيداً عن دنيا الواقع.

آخر الكلام:

أيـــهـــا الـــمـــشـــوق هـــنـــيـــئـــاً　　　مـــا أنـــالـــوكَ مـــن لـــذيـــذ الـــتـــلاقـــي

قـل لـعـيـنـيـك تـهـمـلان سـروراً   طـالـمـا أسْـعـفـاك يـوم الـفـراق
واجمع الـوجـد والـسـرور ابـتـهـاجـاً   وجـمـيـع الأشـجـان والأشـواق
ومـر الـعـيـن أن تـفـيـض انـهـمـالاً   وتــوالـي بـدمـعـهـا الـمـهـراق
هـــذه دارهـــم وأنـــت مـــحـــب   مـا بـقـاء الـدمـوع فـي الآمـاق

(١٨)

ما زلت في «العنبرية» فيها نشأت، أصيخ لصوت الأذان، يأتي ندياً من منائر الحرم كنت أسأل عن أصوات «الرؤساء» نسبة إلى المنارة الرئيسة بالمسجد النبوي فعرفت البعض وجهلت البعض الآخر، وإذا كان وقت الغروب هرعت إلى الدار، ولكن الشباب من أبناء الحارة وخصوصاً أهل حوش «عَمِيرة» يخرجون ليلاً ويتجمعون في الساحة الممتدة بين دار «أمين شيخ» و «الزُّهدي» أسمع أصواتهم..

وفي كثير من الأحيان يُشْجِيني ما يردِّدونه من (زومال) ولعلّي يا صديقي نسيت أشياء كثيرة ولكنني لن أَنْسَى ما حييت التَّهليل في الطوف وتزهيد الحادي في مقدمة الركب وصوت المنشد في المجلس، الصوت والنغم أول ما يتبينه الناشئة في البلد الطاهر، ولهذا لم يكن غريباً أن يكثر قول الشعر في بيئة المدينة.

في دار المرحوم «عبد الله أفندي» القائمة خلف مسجد سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ والمطلّة على واجهتين إحداهما مجرى السيل من جهة قباء، والأخرى على الباب الجديد وربما كانت مقابلة لدار آل العَشْرِي، في تلك الدار شاهدت السَّيدين حسين وياسين إدريس هاشم ـ رحمهما الله ـ يصيخان السمع لرجل أكبر منهم سناً عرف بحلاوة الصوت وترتيل القرآن

إنه الشيخ «صقر» رحمه الله.

الناس تطلب من السيدين أَنْ يُنْشِدَا وهما يلذ لهما سماع الترتيل والإِنشاد من ابن حَيٍّ «الجُبُور» رحمهم الله جميعاً.

في العيد يخرج أهل الحارة جماعات يدخلون البيوت «يعايد» الناس بعضهم البعض، الوجوه منهم مشرقة، القلوب بين صدورهم بيضاء نقية، العمائم فوق رؤوسهم شامخة، اليوم يا صديقي، الأبواب في العيد مقفلة وأصحابها يغطون في نوم عميق، والتلفون أقرب السبل للتهنئة والسؤال معاً.

في العصر تفتح أبواب الدور وقليلاً ما رأيتها موصدة في تلك الحقبة، وصاحب الدار يجلس في المقعد وهو أول ما يصادفك عند دخولك من الباب الرئيس للمنزل. وبينما كنت جالساً ذات مرة وأنا في سن الطفولة مع والدي ـ أمد الله في عمره ـ فإذا برجل يُسلّم علينا ثم يدخل، أكاد أتصور ملامحه ـ الآن ـ أسمر البشرة ولكنه جميل المحيا يشد حزاماً في وسطه، عرفت من والدي أنه شيخ الحي ـ إبراهيم عامودي رحمه الله ـ كان العمدة يتفقد أهل الحارة ويعينهم على حل مشاكلهم. لم أر الشيخ العامودي بعد تلك المرة، ولكن جنازة خرجت ذات يوم في مطلع الثمانينات الهجرية من باب قباء فإذا والدي ينهض من مقعده يقول: «هذه جنازة الشيخ العامودي، دعونا نشيع هذا الرجل إلى مثواه الأخير».

لم يكن شيخ الحارة وحده الذي يتفقد الناس، ولكن الناس في الحي كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بشأن جيرانهم، في زقاق السيد أحمد سمعتهم يتحدثون كيف أن الرجال كانوا يغيبون عن دورهم لشؤون الرزق ولكنهم لا يحملون هماً من جهة الأهل والأبناء.

في الصباح الباكر تخرج سيدة الدار متحجبة تضع (الزنبيل) وفي وسطه شيء من النقود، فلا تطلع الشمس إلا وطعام الإِفطار وقطعة اللحم قد بلغت أهل الدار، في الزقاق المذكور كان المرحوم «عبد الهادي حجاج» خير من يقوم بهذه المهمة، وهذا الواجب الإِنساني.

في ليالي الصيف نصعد إلى سطح الدار طلباً لنسمات الهواء العليل وما أجمل نسيم قباء! ولكن الجيران لا ينقطعون عن بعضهم البعض حتى وإن صعدوا إلى أسطح دورهم، جارتنا السيدة الكريمة من آل البكري كانت تدلي زمبيلاً صغيراً من سطح دارهم التي كانت مرتفعة بعض الشيء عن دارنا، نفرح بالهدية إِنها «الحلاوة» التي كان يتفنن أهل المدينة في صنعها، كثيراً ما كانوا يصنعون في المنازل من الأطعمة، وقليلاً جداً ما كانوا يجلبونه من أطعمة من السوق، وكان الأكل في السوق عند أهل المدينة عادة غير حميدة.

آخر الكلام:

لم أنس أياماً لنا في قُرْبه.. ولياليَ كانت زمان صفاء
بين الحمى واللابتين وفارع والسَّيح والعاقول والزوراء
بقيت لنا أشواقها فكأنها حلم مضى في عالم الإِغفاء
قل للمدينة قول صب ظامئ للمصطفى ولِعَيْنها الزرقاء
أنا من علمت محبة وصبابة ليس المحب وغيره بسواء
هل لي إلى تلك المعالم نظرة وإلى جلال القبة الخضراء
ومعاهد التنزيل والبلد الذي هو منيتي والروضة الفيحاء
وإلى العقيق وعروة والعنبريـ ـة والمناخة والنقا وقباء

(١٩)

لم أكن أعرف هذا الرجل الذي كان يسكن الدار الملاصقة لدار آل الخريجي، شديد بياض الوجه، شديد بياض الملابس. ولعلّ ما يميز ملابسه تلك الكوفية الأنيقة التي تشكل مع الجبة البيضاء ضرباً فريداً من اللباس الذي اختفى تماماً من الحياة العامة في المدينة. يخرج هذا الرجل من داره في الباب الجديد قبل حلول وقت الصلاة فيقصد المسجد ويجلس في مقدمة الصفوف في الروضة المطهرة، فلقد كان شيخاً للروضة هكذا كانوا يطلقون عليه في تلك الحقبة، ولقد عرفت فيما بعد اسم هذا الرجل الذي كان يجذبني مرآه إنَّهُ الشيخ عثمان مُهُرْجي ـ رحمه الله ـ ولقد خلفه في عمله هذا شيخ آخر من أهل البلدة الطاهرة وهو المرحوم عمر كمال، كان نَازِحاً عن المدينة لفترة طويلة في بلاد الهند، وحدث ذات يوم أنني كنت أجلس في حانوت الصديق أسعد نور الذي كان مواجهاً لباب السلام، كان الوقت بعد صلاة العشاء والشباب والشيوخ يمسكون بالمكانس ينظفون مسجد رسول الله ﷺ وشيخهم من آل طاهر يسير خلفهم ليشرف على أداء عملهم وإنه ليشتد حيناً عليهم فتحس أنهم يخافونه ويرفق بهم حيناً آخر فيمازحهم ويداعبونه، في ذلك الوقت الذي كان يخيم الهدوء فيه على كل ناحية من نواحي المدينة، سمعني الشيخ ـ كمال ـ أردد أبياتاً من قصيدة سعد الدين عبد الجليل برادة المعروفة والتي يقول

في مطلعها:

عن در مبسمهما عن دمع أَجْفاني　　　عن الشقيق كذا عن خدها القاني
عن المحيا عن البدر المنير وعن　　　سود الغدائر عن ليلات أشجاني

وهي قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه «المدينة» عندما كان مقيماً بأرض الشام وقد كف بصره، وما إن انتهيت من ترديد أبيات هذه القصيدة التي كان كثيراً ما يترنَّمُ بها أصحابُ الأصوات الحسنة في بلد الرسول ﷺ، حتى رأيت الشيخ كمال رحمه الله يزيح نظارته ليمسح دموعاً انسكبت من عينيه، ونظر إليَّ ملياً يطلب مني أن أعيد على مسمعه الأبيات وعرفت منه أنه عاصر الشاعر سعد الدين الذي قضى فترة من حياته متنقلاً بين أقطار عديدة، وقد أخبرني المرحوم الشيخ جعفر إبراهيم فقيه ـ رحمه الله ـ أن سعد الدين هذا ووالد الشيخ جعفر قد أصهرا من أسرة واحدة من المدينة.

لقد عرفت العنبرية بدورها التي احتضنت أهل الفضل والعلم والمعرفة. والشيخان سعود ومحمود دشيشة كانا يسكنان هذا الحي، آل موسى الذين اشتهر منهم الكاتب علي موسى صاحب الرسالة الهامة في تاريخ المدينة والتي قام بنشرها الشيخ حمد الجاسر وقدم لها المرحوم السيد عبيد مدني ودار آل موسى ما زالت تقوم على مدخل الهاشمية على يمين الصاعد لباب العنبرية وعلى وجه التحديد أمام الدار العامرة للسيد حبيب محمود حمد، ودار الشيخ إبراهيم حسوبة ـ رحمه الله ـ وعلى مدخل زقاق السلطان كانت تقوم دار آل عامر، الشيخ حسين عامر ـ رحمه الله ـ والد الشاعر الأستاذ علي عامر أمد الله في عمره، كان من رجالات المدينة المعروفين.

على مشارف المسيل الذي كان يطيب للناس رؤية المياه وهي تنحدر بين جنباته، نشأ رجال أسهموا في نهضة هذه البلاد والرقي بفكرها وإثراء سبل المعرفة فيها في مقدمتهم معالي الدكتور رضا بن محمد سعيد عبيد والذي كان والده الشيخ محمد سعيد عبيد ـ رحمه الله ـ من وجهاء المدينة وأهل الفضل فيها، ومنهم الصديق معالي الدكتور السيد هاشم عبد الله يماني الذي سكنت أسرته الكريمة هذا الحي حقبة من الزمن وعلى وجه التحديد في حوش منّاع الذي ما زال يقوم جزء منه على مدخل باب قباء، ولا بد أن أشير إلى أن السيد عبد الله يماني أمد الله في عمره نشر العديد من كتب السنة النبوية، وكثيراً ما جلست بحكم زمالتي وصداقتي لأبنائه الكرام، إلى السيد عبد الله يماني في مكتبته التي كانت تقوم بالقرب من الحرم النبوي الشريف وكان ـ شافاه الله ـ صديقاً لعدد من علماء الحرمين الشريفين. وآل الخطاب ـ أصهار آل اليماني ـ كان بعضهم يسكن حي قباء وقد عرفت المرحوم الشيخ عبد المجيد خطاب والد الأستاذ الدكتور عِزَّت خطاب وكان صديقاً لعبد الستار بخاري والأفندي محسن بري والشيخ حسين برادة رحمهم الله جميعاً. والشيخ عبد المجيد واحد من الرجال الذين ساهموا في أندية الأدب ومنتدياته التي كانت تعقد في رحاب البلدة الطاهرة، لقد ارتفعت كلمة الإِيمان من فوق سمائها وشع نور العلم من بين سواري مسجدها وولدت الكلمة الشاعرة بين ظلال نخيلها، وسوف يأرز الإِيمان إليها كما تأرز الحية إلى جحرها كما أخبرنا بذلك أصدق القائلين وسيد المتحدثين ـ صلوات الله وسلامه عليه.

آخر الكلام:

هذي المدينة قد بدت أعلامها ‏ ‏ ‏ والعنبرية بابها المأهول

فاملأ عيونك من بلاد قد ثوى   فيها النبي وقد مشى جبريل
تجري العيون بها زلالاً صافياً   سيحون يأسن عندها والنيل
فيها النبي وصاحباه وآله   ومزاره والوحي والتنزيل
والقبة الخضراء فيها قد غدا   منها على رأس العلا إكليل
يا أهل طيبة حسبكم بجواره   بلد تشد له الرحال جميل
أنواركم سطعت وتالد مجدكم   باقٍ وليس لفضلكم تحويل
وأنا المدين لكم بحسن صنيعكم   ما في المدينة يا سعاد بخيل

(٢٠)

أقطع هذه المسافة بين «كوبري المدرج» ومدرسة دار العلوم الشرعية حيث والدي ـ رعاه الله ـ حبذ لي أن أدرس، أجيل بصري في سماء المدينة الصافية، أرى منائر المساجد ترتفع هنا وهناك، وبيوتاً من الحجر المنقوش وخصوصاً تلك التي كانت تقوم خلف مسجد (الغمامة) ـ بعضه يعود لآل الخريجي. حزنت كثيراً عندما علمت بهدمها كيف يهدم الإِنسان تاريخه، ويتخلص من مواضع حبه وألفته، في الجهة المقابلة لمسجد الغمامة كانت تقوم دار كبيرة ـ وكانت مسكناً لغالبية آل البري، وهي أسرة عريقة في البلد الطيب، برز منهم العلماء والأدباء وعرفت منهم شخصياً نفراً كريماً «كالأفندي محسن بري» ـ رحمه الله ـ والد الصديق الأستاذ إحسان بري، كان أنيقاً في ملبسه، عذباً في حديثه، موفقاً في أعماله، طالما جلست إليه في داره التي كنت أعدها في تلك الحقبة بعيدة عن دارنا في قباء، فلقد كانت دار الأفندي تقوم خارج باب الشامي على يسار الصاعد إلى طريق «سلطانه» وليس بعيداً عنها كانت تقوم دار الأديب والمؤرخ السيد أمين عبد الله مدني ـ رحمه الله ـ كما عرفت من آل البري الشيخ عبد الجليل بري، وكانت داره تطل على شارع المناخة، كان حفياً بالناس في داره، وكثيراً ما رأيت السيد حسين هاشم ـ رحمه الله ـ مع ثُلَّة من الأصدقاء يترددون كل عشية على الدار التي كانت تطل على أشهر

شارع في المدينة وأكثره حركة وأشده صخباً.

ألج سوق (الحبابة) ولم يكن مختصاً فقط بأصحاب الحوانيت الذين يبيعون الحَب، ولكنه كان يضم على جانبه الأيمن بعض حوانيت «العطارة» ـ بائعي التوابل والأعشاب الطيبة القديمة ـ وعلى جانبه الأيسر أصحاب الحرفة المختصة بصنع أثاث المنازل أو من نسميهم بـ «المُنَّجِدِين»، وسوق الحبابة هذا كانت تظلله أشجار «السِّدْر» يخرج الشباب من الحارة يبحثون عن الحمام يصيدونه وعن النبق يلتقطونه، ومن هذا السوق كان ينطلق أهل المدينة بموتاهم وهم يحملونهم على أكتافهم إلى مثواهم الأخير في «البقيع».

أشياء عديدة ـ يا صديقي ـ لا تحتفي بها الذاكرة وأخرى تستقر فيها ولا نعلم السبب في ذلك لم أنس ذلك الرجل القصير العامة، الأسْمر السحنة، حزامه في وسطه، يمسك «بالمنخل» بين يديه لينخل به الحَب ـ ربما كان الوقت قبل حلول شهر رمضان ـ وكثيراً ما كانت الناس تحتاج الحَب في هذا الشهر الكريم، ولكن فجأة يضع الرجل ـ المنخل ـ لقد رأى جنازة تمر من أمامه في السوق، وإني لا أكاد أسمعه وهو يقول بصوت مرتفع: «الموت يا غافل» تراه من كان يخاطب؟ أصحاب الحوانيت المنشغلين بشؤون دنياهم؟ أم يذكِّر نفسه بحقيقة الحياة؟ ليتك أيها الرجل المطبوع على الفطرة تعود ـ اليوم ـ فترى كم شُغِلْنا بالدنيا!، وكم سعينا وراء السراب!. كم قبضنا على الريح!، ليتك تعود ـ اليوم ـ تُسْمِعْنا مقولة لم تتعلمها في مدرسة أو تقرأها في كتاب! لكنك ـ وأمثالك ـ من ذلك الجيل، ترشدكم الفطرة فتصوغون خطابكم بعيداً عن الكلفة وأسباب الصنعة والتزويق.

يا صديقي أنا أقف الآن على مدخل «باب المصري» لقد غيّب الموت أهله، ولكن صورهم لم تغب عن ذاكرتي فهي حفية بها، دع القوم يتحدثون فأنا ما زلت أسمعهم، ودعهم يبيعون ويشترون فأصواتهم أقرب ما تكون إلى قلبي، ولكني لن أدخل بك اليوم ـ إلى عالم «سويقة» و«جوَّة المدينة» ورباط «الشَّامي» و«مقعد بني حُسين» ووكالة «الرَّفة» و «الكاموخ».

تلك المعالم سوف يكون لنا معها حديث نستنطق به أخبارها العذبة وتقف من خلاله على أسرارها الغريبة، فحتى يحين موعد ذلك الحديث أدعوك معي لتسمع صوت هذا الحادي الذي ينشد قائلاً:

ملأ الشوق مهجتي ويديا وهداني الهوى صراطاً سويا
بت أشكو لقائد الركب وجدي وغرامي فقال: حث المطيا
لترى طيبة وتطفئ نار الشوق فيها إذا رأيت النبيا
من بشيري بالوصل في الحب أني أتلظى على البعاد قصيا

(٢١)

أقف بك ـ الآن يا صديقي على مشارف باب «المصري» ولعلّ التسمية جاءت من ارتباط هذا المكان بالحاج المصري ونزوله فيه، وهو واحد من أبواب سور المدينة الذي كان آخر بناء له في عهد السلطان سليمان العثماني وذلك في سنة ١٩٤٦هـ كما يذكر ذلك المؤرخ المعروف الأستاذ عبد القدوس الأنصاري ـ رحمه الله ـ وأميل إلى أن الاسم الذي كان يطلقه الناس على السوق الذي يبتدئ بهذا الباب: والاسم هو (جوة المدينة) يدل على أن ما كان خارج هذا الباب يعده الناس في تلك الحقبة الماضية من أطراف البلدة ونواحيها البعيدة نسبياً عن دائرة الحياة ومركز النشاط التجاري فيها.

تدخل هذا السوق المسمى في كتب التاريخ باسم (الحدرة) والذي يعود تاريخه إلى عصور الإِسلام الأولى، فتشعر بالنسمات الندية المنبعثة من أرضه المبلطة بالحجارة، ولقد أدركت في بداية نشأتي قوماً يحملون الماء في (القربة) يرشون به الأرض، وكان بعض من هؤلاء القوم يجلبون ماء بئر «عروة» المشهورة ويبيعونه للناس في أسواق المدينة، وسوف تجد في هذا السوق صنوفاً متعددة من الحوانيت بعضها تخصص في بيع العطور والآخر يبيع الملابس أو الذهب. وعرفت في هذا السوق حانوتاً لرجل من

وجهاء المدينة كانت تربطه بوالدي روابط المحبة والألفة وهو السيد أحمد محضار ـ رحمه الله ـ

وتنتشر في هذا السوق أماكن تسمى «بالوكالات» أشهرها وكالة «آل الرفة» وهي الأسرة التي ينتسب إليها الشاعر المعروف الأستاذ عبد الرحمن رَفَّه ـ أمد الله في عمره ـ وفي تصوري أن هذه «الوكالات؛ ربما كانت أشبه بالنزل التي يقيم فيها بعض الزائرين عند قدومهم إلى المدينة ولقد قرأتُ أن هذا النَّوع مِنْ «النّزل» يوجد في بلاد عربية أخرى كمصر والشام وبلاد المغرب، ولكن لا بد من القول إن بعضاً من الباحثين توصل إلى أن تصميم الأسواق في حواضر العالم الإِسلامي والعربي كان مستمداً في الأصل من أسواق المدينة بحكم موقعها الدِّيني منذ هجرة الرسول ﷺ واتخاذها عاصمة من بعده في عهد الخلافة الراشدة.

الصديق الفاضل الدكتور غازي مدني ذكر لي أن دارهم كانت تقوم في هذا السوق ـ ولا أعرف شخصياً موضع هذه الدار ـ ولكني أدركت منذ الصِّغر أن لهذه الأسرة الكريمة التي برز منها في هذا العصر الأديبان عبيد وأمين عبد الله مدني وشاركا في حياتهما الاجتماعية والفكرية مشاركة إيجابية وفعّالة، أن لها دوراً في هذا السوق وكذلك في الناحية الأخرى القريبة من الشارع الذي كنا نسميه ـ درب الجنائز ـ

لم تكن الوكالات وحدها أو الدور المنقوشة بالحجارة والمطلة على السوق هي كل ما يميز هذا المعلم الذي يعد من المعالم البارزة للمدينة القديمة، بل هناك معالم عديدة لا نستطيع وفقاً للمساحة المحددة لهذه المقالة ـ أن نسهب في وَصْفها أو الحديث عنها، ولكن لا بد من الإِشارة إلى معلمين هامين كانا يقومان قبل نهاية السوق من ناحية ساحة باب

السلام، أولهما زقاق كان يعرف باسم «الزَّرندي» وكان يسكنه بعض من أسرة الأنصاري، وهي من الأسر العريقة ـ نسبة إلى الأنصار الذين نصروا النبي ﷺ، ولقد أدركت الشيخ حمزة أنصاري ـ رحمه الله ـ الذي كان يقيم في ذلك الزقاق وهو أخ لعثمان وعلي أنصاري ـ أمد الله في عمرهما، وربما وجدت ارتباطاً بين اسم هذا الزقاق وبين سكن نفر من آل الأنصاري فيه، فصاحب «تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب يذكر أن بيت الأنصاري «يعرف قديماً ببيت الزَّرندي نسبة إلى زَرَند وهو كما ينقلُ عن الفيروز آبادي في كتابه المعروف «المغانم. . المستطابة في معالم طابة» قرية من أعمال المدينة المنورة من جهة الشمال بقرب وادي القرى والفيروز آبادي ينقل ذلك عن شيخه عبد الله محمد بن يوسف الزرندي الأنصاري ـ محدث حرم رسول الله ـ ﷺ.

أما المعلم الآخر فقد كان يقوم في الجهة المقابلة لزقاق الزرندي، فهذا الأخير كان يقع في الجهة التي على يمين القادم من أعلى السوق إلى أدناه متوجهاً إلى الحرم النبوي، والمعلم الآخر كان في الجهة اليسرى، وهو «رباط» كانت غرفهُ تطل من الناحية الأخرى على شارع العينية، ولما سألت زميل الصبا الأستاذ عبد الرؤوف طاهر عن اسم ذلك الرباط، أجابني بأنه يعرف باسم الشام أو الشامي.

خـاتمــــة

هاتفني مشكوراً السيد علي بن حسين عامر وهو واحد من الرجال الذين يعرفون المدينة ومعالمها وتاريخها معرفة دقيقة، وصحح ـ جزاه الله خيراً ـ معلومة أوردتها في الحلقة (١٩) وتتصل بموضوع منزل جَدِّهِ السيد

عامر ـ رحمه الله ـ في حي العنبرية الذي يقع كما يذكرنا أستاذنا في أول زقاق «العبيد» ثم يليه منازل آل موسى وآل جعفر، كما أضاف لي معلومة لم أعرفها من قبل وهي أنه كان للشيخين محمد وسعود أحمد دشيشة أخ آخر يعرف باسم عبد الله.

فجزى الله أستاذنا الكريم خيراً وأطال لنا في عُمْرِه..

(٢٢)

في حارة الساحة كنت أتردد بين الحين والآخر على رباط (بودل). صديقنا المرحوم ـ محمد عبد المؤمن ـ كان يسكن ذلك الرباط، طالما حدَّثني عن امرأة مهاجرة في حب الله ورسوله تعمل طوال العام فهي لا تعيش، كما يقال، إلا من عرق جبينها وكَدِّ يديها. وإذا أتى شهر الربيع أقامت مأدبة في سبيل الله، الإخوان يتسابقون لحضور الجلسة، الغرفة الصغيرة في الرباط تتسع لذلك الجمع، والعجوز تصر على أن تطبخ بنفسها طعام الأحباب، الكل يتحدث عن مائدتها ويثني على صنعتها في الأكل.

في الحارة أيضاً طالما حثثتُ الخَطْوَ مسرعاً في الشارع الذي كانت تقوم في بدايته من الجهة اليمنى، مكتبة «عارف حكمت» وكانوا يُطْلِقُون عليها (كتب خانة). وفي الجهة اليسرى كانت تقع أعظم دار في التاريخ دار أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ والتي احتضنت المصطفى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ عند مَقْدمه إلى المدينة، حتى إذا ما جاوزتُ السَّقيفة في ذلك الشارع الضيق ـ ولا أعلم من الذي أخبرني أن عالم المدينة وشاعرها المعروف «عمر بري» ـ رحمه الله ـ كان يسكن في ذلك الشارع، وليت الصديق «عبد المجيد بَرِّي يوثِّقُ لي معلومة كهذه، نعم إذا

ما تجاوزتُ السقيفة توجَّهت صَوْبَ الرباط الذي كان يسكنه صديقنا «محمود عيسى» ـ رحمه الله ـ والده كان من خيرة المهاجرين في المدينة، يستدين الناس منه لأنه كان صاحب حانوت في سوق الفاكهة «القديم» وقبل موته تخلص من كل «سندات الديون» وأعلن أنه سامح أصحابها، ما أكرم الحديث عن رجال كهؤلاء، وما أطيب الحياة التي عاشوها.

بعد طلوع الشمس، وحلول وقت الضحى الجميل، وبين الدكة وباب جبريل، حيث يسطع النور وتتجلى الإِشراقات، قابلت صديقي «الزين». طلبت منه أن يجلس، الحرم هو المكان الذي يجمع شملنا، وقراءة السيرة هي وثاق المحبة بيننا، فإذا هو يطلب مني أن أذهب معه لنزور صديقنا (ابن عيسى) في الرّباط لمذكور. ولما سألتُه، لماذا هو متعجل في هذه الزيارة قال: البارحة رأيت محموداً في المنام قد حلت عليه رحمة الله، ولا بد لي أن أُبَشِّره، سِرْتُ بجانبه لا أسمع إلا تمتمات الذكر من شفته ويوم بلغنا ذلك المدخل الطويل الذي يصل باب الرباط بتلك الغرف المتناثرة على جوانبه بادرتنا أصوات تنتحب بالبكاء، لقد مات «محمود» وإذا الزين ينظر إلي قائلاً، تلك رحمة الله يا بُنَيَّ.

«يا زين» حَدِّثني عن من غيَّبتهم الدار، حدثني عن الليل جميلاً بين الحارة والمزار، حدثني عن فلق الصبح من بين غابات النخيل في ربى قباء وقربان، حدثني عن مجالس انتفت عنها الأكدار، وألسنة تتهيب الدنو من لغط القول وتسأل المولى موجبات الرضوان، حدثني فالوحشة تملأ قلبي وكثيراً ما تُبْكيني الفُرْقة ويؤرِّقني فِرَاقُ الأحباب.

يا أبا الفيض، يا جَليسي في الرَّحبة بين باب السلام وباب الرحمة، يا مُسْتنداً على عَصَاهُ بالقُرْبِ من الحضرة، أعْياني البَحْثَ عنك وكنت أَلْفَاكَ

قريباً من دور الأحباب، والقمر يرسل شعاعه في سكون الليل، حتى إذا انفتح الباب كنت المسرع إلى الروضة والسائل من رب العباد الرحمة، يا صديقي «كامل» كم كنت تقف في شارع العينية تطلب من الناس أن يديروا ظهورهم للدنيا، تسلك الدروب الضيقة وتنتقل بين الجموع المحتشدة ثم تطرق أبواب المحتاجين وتواسي المعدمين، تقضي الليل ساهراً والناس نيام، وفي الصبح يجدونك بين «الحلّة» والساحة، تدعوهم أن يخرجوا الصدقة فيزكوا نفوسهم، ويعينوا ضعيفهم، ويتفقدوا مريضهم، بالأمس كنت تذكر القوم وهم أقل اشتغالاً بالدنيا، بالأمس كنت تسألهم فيجيبون وتدعوهم فيلبون، ليتك اليوم تعود فتذكرهم بالرحمة، لتنزعهم من هموم الدنيا. لقد نَضبتْ يا صديقي دفقاتُ الحُبِّ في نفوسنا، وصوَّحَتْ أزهارُ في دواخلنا طالما سقيناها بالذِّكر ونميناها بشعاع الروح، وحصنَّاها بنور الإِيمان. اليوم يا صديقي ندفن موتانا ثم لا نلبث أن نتحدث عن رصيدنا من الدنيا، ونزور مرضانا فلا نجد ما نشغل به الوقت إلا الثناء على متاع الدنيا المستعار وخروقها البالية ومساكنها الباذخة والتي كل حظنا منها شقوق نتطلع منها إلى من يطرق أبوابنا فمن أحببناه أجبناه، ومن لا تربطنا به منفعة دفعناه، لقد ذكَّرتني يا صديقي «بِحَبْلِ الباب»، الذي كنا نشدُّه إلى أعلى فينتفح الباب أمام القادم، لا نسأله لماذا قدم إلينا، وكم من الوقت يقضيه بيننا، وجوه أهل الدار لا يعتريها عبوس، وأيديهم مبذولة بالعطاء ومن دخل دار صديقه تبددت عنه هموم الدنيا وزال عنه عناء النفس واطمأنت جوارحه برؤية الأحباب.

يا صديقي في دار الحلبي ـ رحمه الله ـ وفي زقاق الطوال، رأيت القوم يجتمعون لأول مرة. سمعت المنشد يصدح بالصوت، والمجلس

يختم بترتيل آيات من الذكر. هناك قرأت في وجوه القوم الحب، هناك في طيبة تغذَّتْ روحي من نبع الإِيمان وصافحت يدي الطيبين من الناس. لهم قلوب لا تنطوي على حقد، وأخلاق تنكر الزيف والغش، إن أحبوك أعلموك بالحب، إن تنافرت الأرواح أو اختلفت الآراء لم يضايقوك أو يؤذوك، ما أحوجنا ـ اليوم ـ يا صديقي إلى سعة أُفق تدفع عنا أَشْبَاح التعصب وأوهام التحيز، ما أحوجنا إلى قوم يؤمنون بأن في الحياة متسعاً للجميع.

(٢٣)

في حارة الأغوات وبعد أن نجتاز سبيل «المنادي» في طريقنا إلى (البقيع) كان يقع رباط (ياقوت المظفري) والذي يعود بناؤه إلى بداية القرن الثامن الهجري «٦٠٧هـ» كما كانت تشير الكتابة المنقوشة على بابه، في ذلك الرباط كان يسكن نفر من المهاجرين، عرفت منهم الحاج عبد الله وصديقه الحاج النور ـ رحمهما الله ـ محافظين على أداء الصلوات في المسجد النبوي مع أنهما فقدا نعمة البصر في آخر حياتهما، لا يعرفان من المدينة إلا دكة الأغوات «في المسجد. . و «الرُّستمية» في الحارة، يؤمان هذا الموضع الأخير بعد عصر كل يوم حيث يلتئم الشمل، ويطيب الحديث ويتذكر القوم أياماً خلت وعهوداً انقضت.

ذات عام من الأعوام، وفي يوم عرفة حيث تنطبع أجواء المدينة بهدوء غريب، ويخيم عليها طمأنينة الإيمان وسكينته، والصلاة تقام في المحراب النبوي بالروضة الشريفة وصفوف المصلين قليلة العدد. في ذلك اليوم الذي يعود إلى بدايات التسعينات الهجرية ذهبت إلى «الرُّستمية» فهي المكان الذي كنت أحمل إليه كتبي حتى تتسنى لي فرصة القراءة والاطلاع وهي موضع أنسي وجلاء خاطري، وكان يشاركني هذا الشعور من بين أصدقائي الأستاذ أسامة أحمد السنوسي، فشاهدت يومها الأستاذ أحمد

عثمان ـ رحمه لله ـ واحد من جملة أساتذتي في دار العلوم الشرعية، يدخل من باب المبنى العتيق يقبل رؤوس كبار أهل الحارة «طيفور، والعم حسب الله» ويقول: «كُل عام وأنتم بخير» أنتم بركة الحارة. . وتطفر دمعة من عيني على هذا الشعور الإِنساني الرفيع وهذا التواصل الذي كان سمة من سمات مجتمع بلد المصطفى ﷺ بكل طبقاته.

وبالمناسبة فأستاذنا أحمد عثمان هو شقيق لأستاذ الجيل عبد الرحمن عثمان ـ رحمهما الله ـ وكان هو الآخر مدرساً بمدرسة دار العلوم الشرعية، وكان شاعراً مجيداً، قرأت له شيئاً من شعره في مدح الرسول ﷺ، ولعلّي عرفت مما قرأت له المنبع الذي تتدفق منه شاعرية صاحب (واستوت على الجودي) ابنه الأستاذ الدكتور أسامة عبد الرحمن عثمان، وشقيقه أنس، صاحب (الموانئ التي أبحرت). وإذا كان أسامة وأنس شاعرين مجيدين في زمن أصبح قول الشعر فيه لكل من هب ودب، وأصبح يلج ساحته كل متطفل وجاهل، وهذا من جناية بعض صفحات الثقافة التي أضحت تعنى بالغث، وتستبعد الأصيل، وتمعن في إفساد الذوق تحت مسميات الحداثة والغموض.

إذا كان المذكوران شاعرين مطبوعين فإن أخاً ثالثاً لهما يملك مقومات الناقد المتمكن، والباحث المتعمق في آداب اللغات الأخرى، وهو الصديق الدكتور نُعيمان عثمان، ولكن نُعيمان مثل إخوته الكرام يؤثر الصمت ويكره الضجيج، مع أن الساحة النقدية في حاجة إلى معرفته واطلاعه بعد أن كثر الأدعياء الذين يهرفون بما لا يعرفون، ويدعون الاطلاع على آداب الأمم الأخرى وهم لا يفقهون من أبجدياتها شيئاً، فبإمكانهم أن يتحدثوا في كل شيء ولكنني أتوسل إليهم أن يصمتوا فنحن أحوج في هذا الحقل إلى

مقولات المتخصصين فيه من أمثال (الدَّكاترة) عزت خطاب وسعد البازعي ونعيمان عثمان الذي دفعنا الحديث عن أسرته إلى هذه العطفة حول هذا المطلب النقدي الهام.

في باب المجيدي عرفت رباط «عزت باشا» لا أعلم إذا ما كان وقفه ينتمي لأسرة أسعد العابد مستشار السلطان عبد الحميد آخر سلاطين الدولة العثمانية الذي اتخذ من هذا الأخير ومن السيد أحمد أسعد الجد الأكبر لأسرة آل أسعد مستشارين له في الآستانة، ولم أعرف الرباط وحده ولكنني عرفت أيضاً بعض ساكنيه منهم إبراهيم ولي ـ رحمه الله ـ الذي كان شيخاً للرباط ومن قبله كان الشيخ عبد الله الرفاعي ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ لم أدرك هذا الأخير ولكني عرفت عدداً من أبنائه منهم الأستاذ زكي الرفاعي وأخوه سليمان.

لقد غاب عن عيني رجل من المجاورين اسمه عثمان كنت دوماً أراه بالقرب من شجرة السدر التي كانت تقوم في سوق الفاكهة والذي هو في الأصل موضع «الخان القديم» في المدينة، عثمان كان، مع مجموعة من أصحاب القلوب الطيبة، يقوم بطحن الحبوب بوسيلة بدائية كانت موجودة في الحقبة الماضية في المدينة وهي المهراس الذي يصنع عادة من الخشب، ولكن الذي أغراني بالحديث عن عثمان الذي علمتُ من أحد اصدقائي أنه توفي قبل شهور بعيداً عن الأرض المحبوبة ـ على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ نعم أغراني عدم احتفائه بالدنيا وزهده في متاعها الفاني، كان يمشي حاسر الرأس، حافي القدمين، لا يكاد يلتفت إلى شيء، ولكنه مثل بقية المجاورين، جاءوا إلى هذه الأرض حُبًّا في ساكنها فهم المتأدبون في جواره، والمتبعون لسنته والنافرون من كل دعاوى الجهل وسبل الباطل.

حدثني يا صديقي أين اختفت الوجوه؟ وكيف تفرق الجمع؟ أسمعني صوت الحادي، فلطالما أثار في نفسي الشوق وأنتزع من عينيّ الدَّمْع، وأغرقني في بحر الحب، فنفسي قد كبلها القيد، والقيد يا صديقي من صنع نفسي وآثار يدي، متى نتطهر من حب الدنيا الذي تملكنا وتلبس مشاعرنا فنسينا قريباً أضحى متطلعاً إلى سؤال الأهل عنه، وتغافلنا عن صديق كنا في الماضي نلتف حوله؟

إننا يا صديقي نلهث دون أن نسأل أنفسنا، هل وعينا دورنا في هذه الحياة؟ هل أدينا حقوقاً افترضها الله علينا؟ هل استأثرت منا القلوب بمثل تلك الرعية التي نوليها لمظاهرنا أو أشكال بيوتنا؟ هل استطعنا حقاً أن نضبط سلوكياتنا فلا نبني مستقبلنا على حساب هدم ذوات الآخرين؟ هل كاشفنا نفوسنا بمثالبها وقاومنا جموحها وداوينا أنانيتها؟

إننا يا صديقي إن لم نفعل ذلك فوا أسفاه على علم ندعيه، ومعرفة نتباهى بها، وسوف يكون هذا العلم وتلك المعرفة شاهدي حق علينا في دنيانا هذه يوم نرحل عنها، وبين يدي الخالق الأعظم في آخرتنا عندما تنصب الموازين القسط وتوفي كل نفس بما كسبت.

حـارة المناخــة

صُورَة أدبيَّـــــة لِلمدينَـةِ المُنَوَّرة
في القَرْنِ الرَّابع عَشَر الهجْريّ

تقديم

بقلم السيد الدكتور نزار عبيد مدني(*)

حين علمت أن الصديق الدكتور عاصم حمدان يعكف على إعداد مادة كتابه الموسوم (المناخة.. صور أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري) سعدت بذلك أيما سعادة، ليس لأن الكتاب إضافة جديدة وقيّمة لمجموعة كتبه عن المدينة فحسب، ولكن لأني أملت في هذا الكتاب خيراً كثيراً لما عرفت عن مؤلفه من حبه لطيبة الطيبة وولعه بها، وتقصيه المنعطفات تاريخها وحوادثه وأحداثه، ودأبه على تتبع سيرة رجالاتها وأعلامها وأدبائها. ثم كانت سعادتي أكبر وأعمق حين بلغني أن أخي الدكتور عاصم أفضل إلي بتقديم الكتاب الذي لبثت أرتقب مسوداته حتى حمل إلي البريد نسخة منها، ولكن حالت مشاغل وشواغل عن قراءة الكتاب حتى عرض لي سفر إلى خارج الوطن فحملته معي واتخذته سميراً حين آوي إلى فراشي بعد عناء يوم طويل واهتمامات تصحبني أطراف النهار وزلفاً من الليل.

الكتاب يتحدث عن (المناخة) وهي ذلك المكان الفسيح الذي يقع

(*) عضو مجلس الشورى (سابقاً) نائب ومساعد وزير الخارجية حالياً بوزارة الخارجية.

غرب المسجد النبوي الشريف إلى الشام قليلاً. وكنت آمل أن ينال الجانب التاريخي الهام للمناخة ما يستحقه من عناية واستقصاء وتوثيق من قبل المؤلف. . لما للمناخة من أهمية تراثية كبيرة. فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يتخذ من طرفها الشمالي ميداناً للتدريب على ركوب الخيل والرماية. وكان ﷺ يشرف بنفسه على تدريب الصحابة الكرام وأبنائهم. وكان التدريب يشمل سباقاً للخيل ينظمه ويشرف عليه النبي القائد المربي.

أحد المواقع التي كان عليه الصلاة والسلام يتخذها مركزاً يشرف منه على التدريب معروف حتى وقتنا هذا، ومقام عليه مسجد يسمى مسجد (السبق). وهو مسجد ذو دلالة خاصة للمسلمين وعلامة مميزة في طيبة الطيبة. فهو رمز للرجولة، ورمز لإعداد العدة، ورمز للاستعداد للفداء في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة التوحيد.

وكان السبق يجري بين موقع مسجد السبق تقريباً وبين جبل سلع عند نقطة تعرف (بثنية الوداع). وهي موقع يكتسب أكثر من أهمية؛ فهي تحدد ميدان التدريب النبوي الشريف من حده الشمالي، وهي الموقع الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يصل إليه مع صحبه الكرام ليودعهم حين خروجهم في مهمات رسمية وخاصة القتالية منها. وقد سار عليه الصلاة والسلام على قدميه الشريفتين إلى هذا المكان مراراً. وسار على خطاه الخليفة الراشد أبو بكر، لتوديع الحملات التي كانت تخرج في أيامه. ثنية الوداع بالتالي، لها في قلوب المسلمين منزلة كبيرة تذكرهم بانطلاقة الصحابة الكرام في سبيل إعلاء كلمة الله.

(المناخة) بذلك ضاربة في تاريخ المدينة وهي جزء من التراث الطاهر الذي ارتبط بالإسلام ارتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه.

والمناخة كانت دائماً ذات أهمية لطيبة الطيبة. فقد كانت مناخاً للحجيج ومناخاً للزوّار، ومن هنا اكتسبت اسمها.. (المناخة)، وهي بذلك البقعة الأولى التي تطؤها قدم الزائر للمدينة.

ولقد راقني كثيراً أن الأخ الدكتور عاصم حمدان استخدم قلمه الرشيق ببراعة وذكاء في عرض صور أدبية جميلة يفوح منها عبق الماضي.. بروعته وأصالته وجماله.

لقد شاهدت ـ ولا أقول قرأت ـ في الكتاب صوراً إنسانية ناطقة لقوم عرفتهم المدينة فأحبتهم بقدر ما أحبوها وظلت ذكراهم عابقة متوهجة. ورأيت فيه تجسيداً حياً لأماكن ومواضع اندثر معظمها ولم يبق منه إلا ذكريات وحنين وحسرة على ما فات؛ أملاً وتطلعاً إلى ما هو آت.

وصحبت الكتاب مستمتعاً مشوقاً فشدتني الأحداث والصور وراعني البيان وقرأت مأخوذاً «.. أن أرض المدينة تنبت ثمر الدنيا كما أن ثمار الآخرة تتضاعف فيها، يأتيها الناس من أصقاع الدنيا جهلة فيتعلمون، وحيارى فيهتدون، وفقراء فيغنون، لا يبيت في هذه الأرض المباركة جائع، ولا يسكنها إلا مؤمن، ولا يتوسد أرض بقيعها إلا موحد، ولا يصلي في روضة مسجدها ويقف على قبر صاحبها عليه صلوات الله وسلامه إلا سعيد..».

واستمعت إليه وهو يتسلل خفية في دجى الليل ويسلك دروباً طويلة ومتعرجة في طرقات المدينة، ولكنه يسلكها وهو مطمئن النفس.. «فالمدينة ـ يا صديقي ـ دوماً تتنفس الطمأنينة، والطمأنينة وليدة الإِيمان ونبت اليقين. أنا ما زلت أعرف الطريق، فلقد أقامها الحب بين جنبات نفسي وعبّدها في داخلي ذلك الوجد الذي تعيشه جوارحي تجاه تلك الربى

الطاهرة، لا يستطيع ـ يا عزيزي ـ أحد أن يغير معالم استقرت في تلك الأعماق السحيقة من النفس وما زلت لصيقاً بها حتى وإن اختفت من عالم الحس، فعالم الروح أعظم اتساعاً وأكثر رونقاً وبهاء».

وما زلت معه وهو يرسم صوراً أخاذة يصف في إحداها ليالي المدينة وكيف يمضيها القوم في داخل الدور والمنازل أو في البساتين أو على (المراكيز) في المقاهي التي كانت تزخر بها المناخة.

ويصور في أخرى.. «يوم ترعد السماء ويهطل المطر ويسيل الوادي ويتجمع الناس من أطراف المدينة ليروا سيل (أبي جيدة)، ويسمعون في الليل هدير المياه وهي منحدرة من قباء وقربان، تقتلع في طريقها الأحجار وتدفع بها إلى منطقة (السيح). وفي عصر اليوم التالي تكون منطقة باب قباء قد تزينت. إنه عرس الأرض وهي تستقبل رحمة السماء، (الروَّاشين) مفتوحة، البيوت يفوح منها الشذى..».

ويبرز في ثالثة الأدب الرفيع الذي كان يتعامل به القوم مع بعضهم.. «إنهم ـ يا سيدي ـ لا يعرفون الحقدَّ ولا يسيرون خلف الباطل، ولا يثنيهم شيء في هذه الدنيا عن قول الحق... أفتبخل بهذا السلوك على من أكرمهم الله بأن تطل دورهم على مسجد نبيه ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وتمر أجسادهم من أمام ضريحه لتضاجع أكرم تربة، وتنعم بخير جوار..؟».

إن كتاب الدكتور عاصم حمدان ليفيض على قارئه في كل فصل ولعاً بالمدينة التي تغذي وجدانه بحبها، وتعلقت نفسه بساحاتها، ودورها، ودروبها، ومرابعها، ومجالس الخير فيها؛ ولا غرو في ذلك، فهذه بقعة من الأرض ما تغيرت، تضم في أحشائها رهط السابقين من الرجال الرجال، الذين حين رأوا عرفوا، وحين عرفوا آمنوا، وحين آمنوا انطلقوا

بالنور فأضاءوا الأرض، لم يلووا على شيء، ولا التوت أعناقهم لغير السماء..

لقد شدني الكتاب وأثار في نفسي العديد من الذكريات والمشاعر والأحاسيس عن المدينة، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وتذكرت فيما تذكرت كتاباً كنت قد قرأته فيما مضى من الزمن يصف فيه المستشرق النمساوي محمد أسد، الذي منّ الله عليه بالإسلام، الوضع الذي كانت عليه المدينة وأسواقها ومجتمعها وسمات أهلها منذ ما ينيف على الستين عاماً.. وصفاً أحسب أنه لا يزال يميز المدينة إلى وقتنا هذا، بل وأكاد أجزم أنه سيظل أبداً سمة من سماتها وعلامة من علاماتها الفارقة..

يصف محمد أسد دخوله المدينة واجتيازه الساحة العظيمة المكشوفة المسماة (بالمناخة) إلى جدار المدينة الداخلي عن طريق باب المصري الذي يجلس تحت قوسه الكبير الصرافون يخشخشون بنقودهم الذهبية والفضية، ودخوله إلى السوق الرئيسة وهي عبارة عن شارع لا يتجاوز عرضه الإثني عشر قدماً، مليء بالحوانيت، ويموج بخليط عجيب من الناس من أهل المدينة وممن يقيمون فيها أو يزورونها من مختلف أصقاع الدنيا، يمتدح الباعة فيه بضائعهم بأغنيات سارة بهيجة، ويجلس صائغو الفضة القرفصاء خلف صناديق من الزجاج مليئة بالأساور والعقود والأقراط، ويعرض باعة الروائح العطرية فيه أكواماً من الحناء والطيب وقوارير متعددة الألوان والأشكال مليئة بالزيوت والعطور.

بيد أنه، على الرغم من هذا الخليط العجيب من الناس، وبالرغم من ضيق الشارع. فلا تدافع ولا تزاحم ولا تصادم؛ لأن الوقت في المدينة المنورة لا يطارد الناس.

ولكن ما يبدو أغرب وأعجب هو أن كل الناس الذين يعيشون في هذه المدينة، أو حتى يقيمون فيها بصورة مؤقتة، سريعاً ما يصبح لهم ما يمكن أن يسمى بالمزاج المشترك، وبالتالي السلوك المشترك والتعبير الوجهي المشترك. ذلك أنهم جميعاً قد جذبتهم شخصية النبي ﷺ الذي كانت هذه المدينة مدينته وهم ضيوفها الآن.

فحتى بعد أربعة عشر قرناً لا يزال وجوده الروحي ﷺ حياً هنا كما كان يومذاك. لقد كان من أجله وحده أن أصبحت مجموعة القرى التي كانت تدعى فيما مضى (يثرب) مدينة أحبها المسلمون حتى يومنا هذا كما لم تحب مدينة غيرها في أي مكان آخر من العالم. وليس لها حتى اسم خاص بها، فمنذ أكثر من أربعة عشر قرناً التقت هنا سيول لا تحصى من الحب بحيث اكتسبت جميع الأشكال والحركات نوعاً من التشابه العائلي، وجميع الفروق في المظاهر تتحد في لحن مشترك واحد.

هذه هي السعادة التي يشعر بها كل واحد هنا دائماً، هذا التناغم الموحد. وبالرغم من أن الحياة في المدينة اليوم لا تتصل بعهد النبوة إلا اتصالاً ظاهرياً بعيداً، إلا أن صلة عاطفية لا يمكن وصفها بماضيها الروحي العظيم قد بقي حياً حتى يومنا هذا. ليس هناك من مدينة أحبها الناس إلى هذا الحد من أجل شخصية واحدة، وليس هناك من رجل مضى على وفاته أكثر من ألف وأربعمائة عام قد أصاب مثل هذا الحب ومن قبل هذا العدد من الأفئدة والقلوب مثل المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

لقد بقي هذا الحب بعد وفاته، وهو لا يزال حياً في قلوب المسلمين حتى اليوم، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. إنه حي في المدينة لا يزال ينطق به كل حجر من أحجارها، وإنك لتكاد تستطيع

أن تلمسه بيديك، ولكنك لا تستطيع له صوغاً في كلمات.

وبعد، فإني منذ قرأت كتاب أخي الدكتور عاصم حمدان، مشوّق إلى لقائه لأحدثه عن كتابه وأستزيده علماً بحوادثه وما جاء فيه، ولأناشده أن يسخر ما حباه الله به من قدرات علمية وأكاديمية، وما قيض الله له من خلفيات اجتماعية وثقافية عن المدينة المنورة وتاريخها، وما عرف عنه من جلد على البحث والاستقصاء، في الاستمرار في الكتابة عن المدينة المنورة وإبراز دورها التاريخي العظيم بالشكل الذي يليق بمكانتها ومنزلتها، مع إعطاء الجانب العلمي والأكاديمي والتوثيقي جانباً أكبر من العناية والاهتمام.

والله يجزيه ما يجزي كل مؤمن عامل مخلص، ويزيده توفيقاً في كتبه وأبحاثه ومؤلفاته المرجوة.

وهو ولي التوفيق..

نزار عبيد مدني

محرم ١٤١٤هـ

تمهيـــد

هذا هو الجزء الثاني من رواية البلد الطيب (المدينة المنورة)، فبينما استمدَّ الجزء الأول من هذا العم ل اسمه من الحي الذي كان ملاصقاً لمسجد النبي ﷺ وضريحه المشرّف، اتخذ هذا الجزء اسمه من الحي الذي كان يقع في منتصف البلدة، وكان هذا الحي وأعني به (المناخة) من أكثر أحياء المدينة حركة وصخباً، يتلاقى فيه الناس، صباحاً ويأوون إليه ليلاً طلباً لنسمة عليلة أو بحثاً عن مجتمع إخواني يضمهم ويضفي عليهم تلك البهجة وذلك السرور اللذين كانا سمتين بارزتين من سمات المجتمع المدني في الحقبة التي يحاول تصويرها هذا العمل الأدبي.

إن هذا العمل المتواضع، مثل سابقه، لا يدخل في باب الأعمال التاريخية التي لها مواصفاتها الخاصة وملامحها التي تميزها عن سواها، ولكنه عمل أدبي خالص، وإن كان يستمد مادته من واقع الحياة ونبضها وينأى ما استطاع عن التكلف والصنعة تاركاً لهذا الواقع لحظة التجسيد من خلال الكلمة المنطلقة في عفوية وبساطة. ولهذا فإن الإِخوة الذين أبدوا بعض الملاحظات على الجزء الأول من العمل، كانوا ينطلقون في نقدهم للعمل ـ وهو نقد أفرحني كثيراً لأنه دليل على تفاعل القارئ مع هذا العمل ـ كانوا ينطلقون من رؤية تاريخية لم أدع أنني من شداتها أو

مريديها، إنني أشكر هذا القارئ الذي كان لتفاعله مع هذا العمل أكبر الأثر في مواصلة الكتابة عن المحبوبة التي تشرفت بأعظم رسالة، وضم ثراها خير جسد وأكرمه ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ كما أشكر لصحيفة المدينة وملحقها الأغر (الأربعاء) خطوتها الرائدة في احتضان هذا العمل وما تبعه من أعمال أخرى. ولا بد لي من الإِشارة بالسيد الفاضل الدكتور سامي عنقاوي ومؤسسته التراثية الخاصة (عمار) وبموقفه المتمثل في تزويدي بمجموعة الصور النادرة التي تزين صفحات هذا العمل الذي أسأل له من الله القبول والنفع.

كما أشكر للسيدين الفاضلين: الدكتور غازي عبيد مدني والدكتور نزار عبيد مدني، احتفاءهما بهذه الصورة الأدبية عن الأمكنة التي عرفاها بالقلب والعين معاً، فهما من خير من أنجبت البقعة الطاهرة، ومن خير من يحفظون الود ويرعون له حقوقه وواجباته.

ولن أنسى احتفاء صاحب الكلمة الطيبة المحب الصادق معالي الدكتور محمد عبده يماني بهذا العمل من كلمة تقدير وعرفان له وللإخوة العاملين في (دار القبلة للثقافة الإسلامية)، أما الابن الكريم الأستاذ مروان محمد قماش فلقد كان له الفضل في مراجعة هذا العمل وتنقيحه وإعداده للطبع، وإذا كان للأستاذ أن يفخر بتلميذه فإنني فخور بمروان الذي كان طوال فترة دراسته بقسم اللغة العربية ذلك الطالب المثالي الذي تجمل بالعلم والخلق معاً والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ويشملنا بعفوه ورضوانه.

عاصم حمدان علي

جدة، ١٤١٤/١/٣٠هـ

(١)

في الليل الذي تتوقف مع حلوله الحياة في البلدة الطاهرة، وكانت هذه الحياة بسيطة كل البساطة وفي بساطتها هذه يكمن الجمال الحقيقي لهذا الوجود الذي نعيشه أو نعايشه، في هذا الليل أتسلل خلسة إلى مجلس والدي الذي يرمقني بنظراته وما إن تستقر نظراته عليَّ حتى أعرف من إشاراتها تحديد موقعي من هذا المجلس. والموقع بطبيعة الحال في مؤخرة المجلس. فالرجال الذين يسامرونه هم ضيوف علينا، وللضيوف صدور المجالس فكيف بهم إذا كانت الصفوة التي يأنس والدي إلى حديثها ولا تطيب أوقاته إلا بها. وكنت ألحظ مسألة لم أتبين حكمتها إلا فيما بعد، فهذه الصفوة هي ممن تقدم بهم العمر، ويكتسب هذا التقدم ميزته من أن بعضهم طوف في هذا العالم وتنقل بين بلاد عدة. عرفت فيما بعد أن ظروف الحياة كانت تجبرهم على هذا التنقل، ولعلّ بعضهم عشق السفر؛ فما أن تستقر به الحياة في مدينته حتى يعاود الحنين إلى مواضع بعينها في هذه الأرض. وكأن الواحد منهم يفتخر مثلاً بأنه شرب من مائة عين. ولعلّ السفر على مراحل، في تلك الحقبة الماضية، كان يؤدي بهم إلى الوقوف في أماكن متعددة. وكانت العيون عندئذٍ المصدر الوحيد للشرب. ألم يكن في المدينة نفسها أكثر من عين؟ من أشهرها عين سيد الشهداء التي كانت تقوم خلف مضاجع شهداء موقعة أُحد. وكان مما يميز

هذه العين وجود السمك فيها بأحجام مختلفة. ثم نضبت تلك العين كغيرها من العيون الأخرى التي كان بعضها يسقي الشَّجر كما يسقي البشر.

لم تكن الوجوه بسحناتها المتميزَة، بملابسها الأنيقة، بضحكها الذي لا يتجاوز التبسم، وبحديثها العذب الذي أهم ما يميزه صدق القول وببعده عن التعرض لخصوصيات الناس، ولم يكن هذا كله الذي يشدني إلى المكوث وقتاً أطول بينهم؛ ولعلّي في سبيل هذا المكوث بينهم كنت أظهر شيئاً من البراعة في المهام التي يطلب مني والدي القيام بها: أسكب لهم القهوة العربية من الإِناء المخصص له وهو (الدلَّة) ويجب عليَّ أَنْ ألاحظ عدم اندلاق قطرة واحدة على الأرض. ثم أصعد الدرج مسرعاً حيناً ومتأنياً أحياناً أخرى. أسمع الصوت يأتيني من «المقعد»: أين الشاي يا ولد؟ أستحثهم لصنع الشاي. وكان الناس يتخيرون النعناع بأنواعه المختلفة حتى يعطي الشاي نكهته الخاصة. الناس في المدينة لا يشربون شرابهم المفضل من دون النعناع (المديني) أو (الحساوي) المخصص لأوقات الشتاء، و(المغربي) ما أشبهه بورقة مراكش في المغرب لأوقات الصيف، وذلك يعود لطبيعة نبتة النعناع نفسها. أعود إلى المجلس وأضع (صينية) الشاي بين يديه ثم أباشرهم به (بالمناسبة يجب أن تحني قامتك وتخفض من رأسك حتى يتمكن الجالس من تناول قدح الشاي وهو في الوقت نفسه أسلوب تبرز من خلاله إكرامك للضيف وتأدبك معه).

لقد كان يا صديقي ما يشدني ويصيبني بالدهشة أيضاً هو ذلك الأدب الرفيع الذي تتعامل به هذه الفئة من الناس مع بعضهم. الصديق لا يرفع صوته على صديقه، لا يحتقره، لا يأكل في داره ثم يخرج ليتحدث إلى الناس ليحكي لهم قصصاً من صنع الخيال عما شاهده داخل الدار، لا

يتركه وحده إذا ما نزلت به نوائب الدهر أو حلت به كربة من كرباتها، يواسيه من غير أن يجرح كرامته أو ينال من كبريائه، ثم لا ينطق بكلمة واحدة عما صنع. إذا اختلفوا يا صديقي لا يحملهم الخلاف على العداء وإذا تصافوا لم يدفعهم هذا الصفاء بأن يجاملوا بعضهم في أمر لا يرضي الله أو يكون في الإقدام عليه مدعاة لسخطه وغضبه. ولعلّك تسألني يا صديقي: هل عاش هؤلاء القوم حقاً على هذه الأرض؟ إنني لأجزم لك بأنهم عاشوا يوماً على أديمها وتنقلوا بين مناكبها، ولعلّ دهشتك تعظم إذا ما علمت أن حظهم من العلم كان قليلاً وحظهم من الأدب ورعاية حقوق الجار والصديق كان عظيماً.

(٢)

هذه أصواتهم تخترق سكون الليل في سماء البلدة الطاهرة. يجلسون فوق هذه المراكيز، وهي في الغالب كراس مستطيلة صنعت من الشريط المأخوذ من سعف النخيل. وكانت المناخة، إذا ما دنت الشمس للمغيب، تزينت مقاهيها بهذا الصنف من الكراسي الذي يخف الناس لأخذ مجلسهم منها، والعاملون في هذه المقاهي يعرفون تماماً ما يريده المترددون عليها، أقداحاً من الشاي الخفيف، بينما يفضله البعض في مدن أخرى (ثقيلاً) لا أعلم إن كان الأمر مرده إلى عادة تأصلت عند الناس أم أن طبيعة «الجو» هي التي تتدخل في لون الشاي ثقلاً وخفة، وما يضاف إليه من روائح زكية. أما لماذا كان الناس يختارون المناخة ليلاً للتجمع فيها؟ فهو أمر لم أتبينه، ولكن عباراتهم كانت توحي بأنه يعود إلى تلك النسمات العليلة التي كانت تنبعث من أرض توحي بأنه يعود إلى تلك النسمات العليلة التي كانت تنبعث من أرض هذا الشارع الذي كان يخترق وسط المدينة القديمة. ولعلّ وجود الأشجار بصورة لافتة للنظر كان له دوره في تلطيف الجو وخصوصاً في ليالي الصيف الشديد الحرارة والجفاف معاً، وكان بعض هذه الأشجار من الضخامة بحيث تسمح بتجمّع الناس تحتها، بعضهم يقضي سحابة نهاره في صنعة يدوية تدر عليه شيئاً من الرزق الحلال، والبعض الآخر يلذ له النوم تحت ظلالها الوارفة نهاراً بعد عنت

السعي وراء العيش. وبعضهم لا يروق له النوم ليلاً إلا تحت أغْصَانها وأوراقها الكثيفة؛ وكان أكثر هذه الأشجار ضخامة ما يقوم على مدخل الحارة التي تقوم فيها أحواش (جعفر) و (خميس) و (السيد). وكثيراً ما لاحظت أن عروق هذه الأشجار الضخمة تمتد إلى أعماق سحيقة في الأرض. ولعلّ هذا ما يوحي بأن الحقبة التي زرعت فيها هذه الأشجار قديمة بعض الشيء، ولكن كتب التاريخ لا تساعدنا على معرفة بدايات هذه الأشياء المهمة في حياة المدن وإن بدا لنا أحياناً أنها بسيطة لا تحتاج إلى هذا التوقف الطويل عندها.

لم أرهم يتجمَّعونَ في المناخة كما كانوا يتجمعون في الأعياد. ولا أعلم لماذا ظل هذا المنظر عالقاً بذهني؟ لقد رأيت رجلاً يجلس مع أنداده من كبار السن يلبس ذلك (الكوت) الأبيض الذي كان يرتديه أهل المدينة فوق ثيابهم الناصعة البياض نصاعة قلوبهم الطاهرة وطهارة ألسنتهم. كان رجلاً حلو الحديث؛ إذا ما جلس أزاح عمامته من فوق رأسه وأخذ يتحدث إلى رفاقه، فإذا كلهم آذان صاغية وأحاسيس متوثبة. كان يتحدث بذلك الصوت الجهوري فإذا هو يتوقف عن الحديث فجأة.. يرفع يديه إلى السماء ثم يدعو.

لقد كان ذلك اليوم هو يوم التاسع من شهر ذي الحجة، لقد ابتلت لحيته الكثة بالدموع وبكى الجمع من حوله لبكائه، ثم مد يده إلى عمامته يضعها فوق رأسه ثم غادر تلك الصفوة من الرجال. أيام قليلة انقضت، سمعت بعدها أن ذلك الرجل قد انتقل إلى رحمة الله. هكذا انسل من بين أهله ورفاقه في دعة وهدوء.

يا رفيق القلب، حدثني عن ليل كانت تضيئه الوجوه السمحة، وعن

صبح تشهد طلعته الألسنة الذاكرة ـ حدثني عن (العين) و (القبة) و(المزار). حدثني: أي هاتف هتف بك من مقامات الغيب فاستجيب له؟ كأنك وحدك المعني به. حدثني: من أي نبع كانت تمتح عيونكم؟ فلا يحدثكم واحد بحديث من أحاديث المصطفى ﷺ إلا وتنتحبون، كأني أسمعكم وأنتم تقولون: «ذكره يحيي النفوس». تُرى ما الذي يُحيي نُفوساً منا ملأها حب هذه الدنيا الفانية؟ وما الذي يُوقظ أحاسيس تبلدت من داء يدعونه حب الذات؟.. إنني أتلفَّت فلا ألقاك جَالِساً؛ فأجدني جارياً صوب تلك الشجرة الخضراء التي لم يكن يسقيها أحد، ولكنها كانت تشرب من ماء القلوب الطاهرة؛ فهي دائمة الاخضرار. ولكنني ضللت الطريق ونسيت الدرب، فقدت العلامة، وضاع من بين يدي ذلك السر.

(٣)

لا أتذكر (المناخة) إلا وأتذكر هذه (العين) على مقربة من مسجد سيدنا أبي بكر الصديق، رضي الله عنه. ولعلّه كان يقوم بينها وبين المسجد الآخر الذي يطلق عليه اسم سيدنا علي بن أبي طلب ـ رضي الله عنه ـ تقوم بعض الدور التي كان يسكنها بعض من أهالي البلدة الطاهرة. وكان يلي هذه الدور أشهر المقاهي وأكثرها ازدحاماً بالناس وهي (مقهى الحادي) ـ وأحاول رسم ملامح المنطقة التي تجاور العين، ولربما أسعفتني الذاكرة بشيء من هذا. فهناك ـ أي بالقرب من العين ـ كانت تقوم (مقهى عبد الواحد) ووقعت عيناي على صورة تضمنها كتاب (مرآة الحرمين) لإِبراهيم رفعت باشا، فأرى موضعاً أقرب ما يكون شبهاً بالحلة التي كانت تقوم في منتصف شارع المناخة. وما تذكرت المناخة إلا وتذكرت رجالها، الشيوخ منهم منهمكين في تحصيل الرزق أو السعي وراء أسبابه والشباب منهم يقبلون على الحياة في توثب وطموح. وكان (ابن الحارة) مع اعتزازه بنفسه وترفعه عما يكون فيه خدش لكرامته إلا أنه لم يكن حريصاً على شيء مثل حرصه على توقير من هم أكبر منه سناً، خصوصاً إذا كان هؤلاء من أصدقاء والده أو جلسائه. فهو إذا جلس في مجلسهم استمع إلى أحاديثهم في أدب، وإن دُعِي إلى المشاركة في رأي يتداولونه فهو لا يتجاوز هذه المشاركة، مثلاً إلى ما يُعَدُّ ضَرْباً من ضروب الاستهتار

بالآخرين أو تسفيه آرائهم. وكنا في تلك الحقبة إذا ما لمحنا واحداً من هؤلاء الكبار أسرعنا للسلام عليه. ولعلّه يسألنا عن الوجهة التي نريدها فنخبره دون أن نجانب الصدق فيما نقول. ولعلّ سؤالهم عن مثل هذه الأشياء كان يقصد به التأكد من حسن السلوك. وما أحوج الناشئة، وخصوصاً في المراحل الأولى من حياتهم، إلى من يرعاهم ويهتم بهم، ويأخذ بهم عبر الحياة وهم في منأى عن السيئ من الأخلاق والقبيح من الأفعال.

إذا ما جئتُ المناخة ضُحىً شاهدت هذا الرجل الذي قليلاً ـ ما يفارق مجلس والدي ـ نحيل الجسم، مشرق الوجه، عذب الحديث. يذهبان إلى المسجد سوية وإذا خرجا منه عرجا على بعض الحوانيت التي كانت تنتشر بين (باب المَصْرِي) و (سوق الحراج)، فأصحاب هذه الحوانيت هم أيضاً من الأصدقاء. والسؤال عن الصديق لا يماثله في الأهمية عند أولئك القوم إلا زيارة مريض أو مواساة قريب. وإن لم تكن هناك مندوحة عن ذكر الأسماء، فهذا الرجل الذي كان يحبه القوم في السوق ويأنسُون إلى أحاديثه العذبة هو المرحوم (عثمان أبو عوف). وكيف تخطؤه عيناك؟ فهو هناك عند مدخل باب المصري، ويقابله في الجهة الأخرى من مجلسه خَالُه: (حسين نافع)، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته..

لم يكن العم (عثمان أبو عوف) وحده الذي تأنس نفسي إلى حديثه. فهناك ثلة أخرى من الرجال تعشقهم العين منك، تريد أن تحملهم معك أينما ذهبت وأنى يكون لك ذلك؟ ولعلّ السر في هذا التعلق بهم هو أن قلوبهم لا تنطوي على حقد أبداً، وسلوكياتهم أبعد ما تكون عن التناقض الذي ينصرف الإِنسان عن أصحابه بالفطرة، إن قلوبهم لتشبه في نقائها

وسلامتها، تلك العمائم البيضاء التي يحسنون وضعها على رؤوسهم. وإن هم أحسنوا في اختيار ما يلبسونه من حيث تناسقه وملاءمته للذوق السائد في الحقبة التي عاشوها، فإنهم كانوا على حسن اختيار ما يتفوهون به من قول ويخوضون فيه من حديث أكثر توفيقاً وتمكناً.

ترى من منهم ذلك الرجل الذي ينشغل لسانه دائماً بذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ؟ وإذا تحدث كان صوته خفيضاً على الرغم من أن أصوات جلسائه كانت تتميز بحدتها وارتفاع نبرتها؟ إِنه الشيخ يوسف شكري ـ أمد الله في عُمره ـ من سُكَّان العنبرية في المدينة المنورة ثم حارة الشام في جدة. ومن هو الآخر الذي يخرج من حوش (عَمِيرة) أو (السَّاحة)، في كل مرة يسمع فيها الآذان من المنارة الرئيسة بالمسجد الطاهر؟ يعشق أهل السوق حديثه عن بلاد ظل معظم حياته متنقلاً بين أرجائها. قال لي الأستاذ عبد الستار بخاري رحمه الله: كان السَّيد صالح حلواني يحدثنا عن طرائف الأشياء، فلا نجد شخصاً آخر قادراً على انتزاع البسمة منا كما كان يفعل أبو سعد، رحمه الله. ثم يعظنا بما يحفظه من أحاديث نبوية؛ فنخرج من مجلسنا وقد ترقرق الدمع في أعيننا ورقت من حيث لا ندري مشاعرنا أما ذلك الرجل الطويل القامة الذي يخرج من (زقاق الطيار) المؤدِّي إلى (المناخة) وقد ارتدى تلك العباءة الجميلة فوق كتفيه وأحسن وضع عمامته فوق رأسه فهو المرحوم عباس حَمَّاد، واحد من خيرة الرجال في السوق في بيعه وشرائه. كنت أجلس على بعد وقد بلغت من العمر عقداً واحداً ـ أو ربما زدت عليه شيئاً يسيراً ـ فشاهدت السيد عباس يداعب صديقه أَبَا عوف بكلمات تُجسِّدُ ذلك الحب الأخوي الذي كان يربط بين هذه الفئة من الناس؛ وكان الآخر يبتسم ثم يذهب

الثلاثة: «عباس وأبو عوف وحمدان» للغداء سوية فلم يكن الواحد منهم يتصور أَنْ تُوقَدُ النار في بيته لصنع طعام مدني متميز دون أن يخبر الخلص من أصدقائه وجلسائه بهذا الأمر، ويدعوهم لمشاركته الطعام. تلك كانت شمائل القوم الذين أكرمهم الله بجيرة مرقد نبيه ومُصْطَفَاهُ من خلقه، عليه صلوات الله وسلامه، الصدق في القول، والتجرد في العمل، والإِيثار في حق الأهل والجيران والأصدقاء. ألم تصفهم آيات الكتاب الحكيم بذلك قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

(٤)

ثلاثة رجال رأيتهم في المناخة يتعاشرون ونادراً ما يفترقون، أحدهم يأتي من قباء (الحي الذي كان بالأمس هادئاً ويموج اليوم بصخب وحركة غريبين) ماشياً على رجليه يلبس عباءة رقيقة بيضاء ويضع فوق رأسه عقالاً من القصب. اعتداله في مشيته وأناقته في قلبه يُذكِّرانني بمرأى السيد إبراهيم بن حمزة الرفاعي (آخر الراحلين من هذه الأسرة الكريمة في بلد الرسول ﷺ) أما هذا الرجل الذي يخرج من حي قباء ثم لا يلبث أن يستقر به المقام في شارع المناخة فهو المرحوم «حسين شويل» وكان له صديقان: هما أحمد عسيلان الرجل الحلو المعشر صاحب الصوت الحسن، أتذكر حانوته في السوق، هناك مع نهاية سوق (التَّمَّارة). وجدي هو الآخر ـ رحمه الله ـ كان صاحب حانوت في هذا السوق أهل البلدة الطاهرة كانوا يعيشون بين النخيل يأكلون ثماره بلحاً ورطباً، ويبيعونه تمراً. أَرْضُ المدينة تُنْبتُ ثمر الدنيا كما أن ثمار الآخرة تتضاعف فيها، يأتيها الناس من أصقاع الدنيا جهلة فيتعلمون، وحيارى فيهتدون، وفقراء فيغنون، لا يبيت في هذه الأرض المباركة جائع، ولا يسكنها إلا مؤمن.. ولا يتوسد أرض بقيعها إلا موحد، ولا يصلي في روضة مسجدها ويقف على قبر صاحبها عليه صلوات الله وسلامه إلا سعيد..

أعود إلى الرجل الثالث «والصَّديقُ للشويل والعُسيلان» الذي ارتضى جوار النبي المصطفى ﷺ وترك أهله وعشيرته في جدة إِنَّهُ المرحوم جميل عبده لم أر رجلاً متأدباً يتنقل بين أحياء البلدة الطاهرة مثله. عمامته الصفراء فوق رأسه، حزامه يشده في وسطه، كنت ألمحه يجلس على مقربة من دكة الأغوات، عيناه تذرفان الدمع، بصره يجول في ذلك المقام البهي، روحه تطوف بتلك العوالم التي تتصل فيها الأرض بالسماء، إِنَّهُ مُنْصِتٌ للتَّاريخ يتحدَّث في كبرياء ومستغرق في الأثر الذي يتلفت في جلال وبهاء.

أيا محب المصطفى، حدثني: كيف يستقر الوجد في أعماق النفوس: حدثني كيف تسكن الجوارح وتخشع القلوب؟ حدثني: لماذا غاب صوت الحادي وتلاشى صداه؟

بلبل البان مالك تغرد — في دجى الليل صوتك شجاني
جاوب الطير لو كنت تعلم — بالذي حبه قد سباني

ـ حدثني يا مشرق الوجه.. متى يشرق صبح النفوس؟

كيف تعود أوقات الصفاء وقد فرَّت من بين أيدينا وتلاشت في ذلك الأفق البعيد؟ أريد أن أعود إلى السَّاحة فأنظر الناس وهم يتوضأون. أريد أن أقف على الباب فأسمع أصواتاً تتلو القرآن وأخرى تستغفر الرحمن. أريد أن أسمع صوت (الرَّيس) يصدح بكلمات التوحيد. إنه يا سيدي يناديهم فيجيبون. أراهم يهبطون درجات شارع (العينية) أفواجاً، أجسادهم تتحرك فوق هذه الأرض وقلوبهم محلقة في آفاق السماء. أراهم يسرعون الخطى فهم في شوق لرؤية المنبر، والصَلاة بين يدي المحراب. وإذا ما حلوا في جنة الأرض فحديثهم الذكر وشغلهم التدبر.

أيا مُؤذِّنَ باب السلام أَطِلْ وقوفك في (الطوف) فلقد طال وقوفنا على أبواب الدنيا وما زلنا نطلب المزيد. أسمعني يا متبتلاً في المحراب صوتك، وبلِّغ يا زائراً (المقام) سلامي، أبلغه وَجْدِي، وصف له شوقي. أتراني بقادر على أن أعيش أوقاتاً للصفاء ولحظاتٍ للحب؟ أتراني بقادر على أن أنقل الخطو بين بَابَي الرَّحمة والسلام؟ وأجثو في الحلقة بين يدي عالم زهد في الدنيا ورغبت نفسه عن محاسنها؟ فلطالما بكى رجال عن صدق وخشوع وأبكونا معهم.. ولطالما ساحوا بنا في عوالم الوجد، في دنيا الطهر، في آفاق الصفاء، فرحمهم الله. وآنس وحشتنا بعدهم، وغربتنا بعد رحيلهم..

(٥)

يوم توفي السيد إبراهيم الرفّاعي ـ رحمه الله ـ قابلتُ الصَّديق الدكتور عباس بافقيه ـ وهو الشاب المثقَّف ثقافة واسعة بدت في رسالته التي كان محورها أدبنا العربي الحديث مُمَثَّلاً في فِكْر طه حسين وأدبه، عزَّيْتُه في الفقيد وهو يقف على باب كلية الآداب بجدة. أجابني، ودمعة تكاد تَطْفر من عينيه، بقوله: «إنه لن يتكرَّر». أعرف بطبيعة الحال تلك الصِّلة التي تربط بين السَّيدين الكريمين، وهي صلة تُؤهِّل الصديق الدكتور بافقيه ليكتب عن صديقه في البلد الكريم، ومما أذكره عن السيد الرفاعي ـ وهي ذكريات مضى عليها أكثر من ربع قرن ـ أنني رأيته يجلس في بستانه خلف البقيع والذي يطلقون عليه اسم (الأخوين). ولا أبالغ إذا ما قلت: إن مجلسه كان من أكثر المجالس أناقة وتنظيماً في البلدة الطاهرة. تُذكِّرني أَناقته بالشَّيخ الفاضل جعفر بن إبراهيم فقيه ـ رحمه الله ـ ومنزله الذي كان يحْوِي النَّفيس من الكُتب والصُور والمناظر ـ وخصوصاً تلك التي تتصل بتاريخ بلد المصطفى ﷺ، ويوم دخلت المجلس، الذي كان يطل على البستان الذي كان يحظى برعاية السيد الرفاعي نفسه، أطل صاحب المكان بذلك الوجه المشرق، كان يقف ـ رحمه الله ـ يرحِّبُ بضيوفه، الكبارُ منهم يجلسون بجانبه والصغار سِنًّا من أمثالنا لا تخطئهم عيناه، ولا تتجاهلهم كلماته ـ كان ـ رحمه الله ـ يُنصت للشيخ إبراهيم الصَّباغ ـ

رحمه الله ـ وهو ينشد إحدى روائعه في مَدْح سيد الخلق ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وكان مُحبًّا للصوت الحسن والقول البليغ.

الأستاذ عبد الستار بخاري، أو (الإِمام) كما يَحْلو للناس أن ينعتوه، والسيدان الكريمان حسين وياسين إدريس هاشم ـ كانوا من أكثر الناس تردداً على ذاك الصَّالون الأدبي والثقافي، يقولون فيُصْغِي عُشَّاق الكلمة لما يقولون، وينشدون فترق القلوب وتنتشي النفوس من ذلك الإِنشاد الجميل. والإِنشاد في المدينة قديم يعود تاريخه إلى احتفاء الأنصار بمقدم سيد الخلق ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وإنشادهم للشِّعْر بين يديه على مَشارف قُباء وبالقرب من منازل عمرو بن عوف حيث مسجد الجمعة «أول مسجد تقام فيه صلاة الجمعة في تاريخ الإِسلام».

ـ لم أعرف (الأَخَوين) فقط ولكنني عرفت دار آل الرِّفاعي التي كانت تقوم بالقرب من مدرسة دار العلوم الشرعيّة وهي من أقدم دور العلم في البلد الطيب. وكان لهذه الدار بابان: أحدهما يُؤدِّي إلى الحرم النبوي الشريف حيث باب الملك عبد العزيز، رحمه الله، والآخر يؤدِّي إلى المنطقة التي كانت تعرف باسم «الرُّومية»، وهي دار شُيِّدت على أحسن ما تُشيَّد عليه الدُّور في المدينة، فصاحبها هو السيد حمزة الرفاعي أحد وجهاء المدينة في الحقبة الماضية. وكنت ألمح رجلاً ـ عُرِفَ بوَقارِه وصَمْته ـ يخرج من هذه الدار عندما يرتفع الأذان ويحين وقت الصلاة؛ ثم يعود إليها هادئاً صامِتاً كما خرج. ولم يكن هذا الرجل الوقور سوى السَّيد أحمد الرَّفاعي ـ رحمه الله ـ عميد هذه الأسرة في عصرنا الحاضر. ولقد كان جليساً للشَّيخ الفاضل السيد محمود أحمد، والد السيد حبيب محمود، وكذلك كان جليساً للشيخ أحمد فارسي الذي كان مسؤولاً عن مكتبة

المدينة العامة، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جنَّاته. وكما عرفتُ الابن الأكبر للسيد حمزة الرفاعي فلقد عرفت إِخوته الكرام: كاظماً، وأبا الصَّفا، ومحمداً، والوحيد الذي لم أدركه هو السيد منصور ـ رحمه الله ـ ولكنني عرفت بعض أبنائه عندما كانوا يقدمون لزيارة المدينة، وتأويهم تلك الدار العامرة التي وصفت موقعها آنفاً.

ـ وإن كنت ألمح هذه الصفوة من الرجال تخرج من هذه الدار لأداء الصلاة وقضاء الحوائج، فإني كنت أيضاً ألمح هذا الرجل الطويل القامة الحاد الملامح يقبضُ بيده على عصاً طويلة تتناسب وطول قامته ـ واللافت للنظر هو أنه لم يكن في حاجة لتلك العصى ليتوكَّأ عليها فلقد أعطاه الله بسطةً في الجِسْم قلَّما شاهدتُها في مُعاصريه من الرِّجال. ولكن إمساكه بالعصا كان من مُميِّزات شخصيته الفذَّة. لقد كنتُ ألمحُ السيد الكريم حسين جَمَل اللَّيل الذي كان صِهْراً لآل الرِّفاعي يخرج من هذه الدار، كما كنت ألمحه يجلس في الدَّكة الصغيرة المجاورة لدكة الأغوات بالقرب من مثوى سيد الخلق عليه صلوات الله وسلامه. ولقد عرفتُ من والدي وممن هم في سِنِّه وطبقته أن السيد حسين جَمَلَ اللَّيل ـ رحمه الله ـ كان من رجالات المدينة ووجهائها، سَعْيٌ في وُجوه الخير والإِصلاح، وجُرْأَةٌ في قول الحق. ولعلّ السيد الكريم حبيب محمود أحمد يحدثنا عن مناقب السيد جمل الليل فهو أكثر الناس معرفة به وبالكثير من رجالات المدينة الذين عاصرهم إذ كانوا أصدقاء له أو جلساء لوالدِه الذي كان مجلسه يضم الصفوة من الرجال كما أخبرني ـ أمدَّ الله في عمره ـ في إحدى زياراتي له في داره التي كانت تقوم في حي العنبرية. وجدير بالذكر أن دار أبي أحمد كانت تواجه دار السيد عبد الله جعفر الذي ذكر لي السيد الفاضل علي بن

حسين عامر ـ رحمه الله ـ أنه كان رئيساً للكَـتَـبَـة ببلدية المدينة. ولقد أدركت شخصياً السيد عبد الله جعفر في أخريات حياته ولم أكن يومها في سنٍّ تُهيِّئني للجلوس إليه ومحادثته، ولكن ذاكرة الطفولة لا تزال تختزن صورته وصور العديد من أهل تلك الديار التي شرفها الله بأن تكون مُهَاجَرَ نبيّه ومدْفناً له ﷺ ولصحابته وآله، رضوان الله عليهم أجمعين، وسوف يكون منها مبعثه يوم القيامة. اسْـتَـقْـبَـلَـتْـه ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ حيًّا، واحتضنته ميتاً، ورعت رسالته الخالدة وبثَّتها في جميع أصقاع الأرض، أَكرم بها من تُربة، وأنْعِم بهم من قَوْم، وأدام الله علينا نعمة الأمن والإِيمان في هذا العصر الزاهر.

(٦)

ساحتان في المدينة كانتا تسمَّيان (بالمناخة)، الأولى هي تلك الساحة الواسعة التي كان يخترقها ذلك الشارع الكبير الذي يصل شمال المدينة بجنوبها، والأخرى التي كانت تقوم على الأرض المحصورة بين مدخل حوش (منصور) من جهة منزل (آل مشرف) وبين سوق بيع اللحم والخضار الذي كان يطلق عليه أهل المدينة اسم (الخان) وهو سوق حديث. أما السوق القديم فلقد كان موضعه أمام مبنى الخالدية (إدارة الشرطة ـ سابقاً). وهذه المناخة الأخيرة صغيرة نسبياً بالنسبة إلى المناخة الأخرى وأظن أن المناخة الكبرى كانت موضعاً لنزول قوافل الحجيج في العهود السابقة، أما المناخة الصغرى فَإِنَّنِي في طفولتي كثيراً ما رأيت الإِبل تنتشر فيها، فلم يكن يفصل بين دار جدي في (السَّيح) وهذا الموضع الذي تنوخ فيه الإِبل سوى (باب جديد). وأظن أنهم أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه لم يكن هناك طريق ـ في الماضي ـ يصل منطقة (السَّيح) بهذه المناخة الصُّغْرى. ثم افتُتح فيما بعد هذا الطريق فأطلقوا عليه هذا الاسم الذي يدل على حداثته مقارنة بالمواضع الأخرى التي كانت عليه المدينة منذ عصور عديدة. ولا بد أن أشير هنا إلى أن الدار التي كانت ملاصقة (آل الخريجي) هي دار (عمر فيروز) جدِّ صَديقنا الأستاذ هاني ماجد فيروز، وكثيراً ما كان والدي ـ أطال الله في عمره ـ يشير إلى تلك الدار

ويقول لي: أتعرف آل فيروز الذين يسكنون البلد الحرام؟» هذه في الأصل دار جدهم الذي رَحَلَ من المدينة» ولكن بقيت الدار تدل على الجذور وتُشيرُ إلى المنابع الأولى حيثُ يُولَدُ الناس وينشؤون.

ـ يا صديق العمر، حدثني عن يوم ترعدُ فيه السَّماء، ويهطل فيه المَطَر ويسيلُ فيه الوادي ويتجمَّع فيه الناس من أطراف المدينة ليروا سيل (أبي جيدة)، في الليل نسمع هديرَ المياه وهي منحدرةٌ من قباء وقربان، تقتلع في طريقها الأحجار وتدفع بها إلى منطقة السَّيح. وفي عصر اليوم التالي تكون منطقة باب قباء قد تزينت إِنه عرس الأرض وهي تستقبل رحمة السماء، (الروَّاشين) مفتوحة، البيوت يفوح منها الشذى، وإنني لأسمع ضرب الدفوف في (حوش عميرة)، أكبر (الأحواش) في تلك المنطقة. في ذلك الحوش نشأ العديد من أقراننا من آل (شيخ) و(بشير) و(الباز) و(السِّيسي) و(السِّندي) و(مقْنَص) و(الزّهدي) و(الحَواري) و(الحُجَيْلي) و(ومرزا) وغيرهم من كرام الناس وخيارهم.

ـ يا صديقي أنت تعرف شجرة (النّبق) في ساحة المسجد، وفي اليوم المطير تتحرك أغصانها وتتساقط حَبَّاتُ ثمرها، الهواء عليل والأرض ندية، والقلوب يعمرُها الحب، وصَوْت شجي يَستثيرُ الوجد من أعماق النفوس، إنني أَنصتُ إِليه وأعرف صاحبه، النفس طيبة والمحيًّا دائم الإِشراق والسرور، سمعته يردد:

الدنيا حلوة جميلة والمدة ما هي طويلة

لقد قضى صاحب الصوت الجميل كما يقضي الناس جميعاً في دنيانا هذه، ولكن صاحبنا الذي بكته النساء في خدورهن، ومشى الشيوخ والشباب مِنْ أهل الحي خلفه ليودعوه الوداع الأخير، قضى «خالد زُهْدي»

ـ رحمه الله ـ وهو لم يزل في مَيْعة الصِّبا ونضارة الشباب، وكان ذلك من دواعي الحزن الشديد على فراقه. ولكن الحزن مع مرور الأيام تبدَّد، والكآبة فارقت الحي وأهله. لقد كبر الأطفالُ الذين كانوا بالأمس صِغاراً وتجسَّد فيهم الخير والصلاح، رحم الله صاحب الصوت الشَّجي فلقد عرفته صغيراً ولم أنسَهُ كبيراً وسألت الله له ولمن أعرف من أهل الحي الرحمة والمغفرة، ومررت قبل شهور فرأيت الحي نَفْسَه قد قضى فذَرفْتُ عليه هو الآخر دمعةً حرَّى، هي دمعةُ التّحسر على ما نُحب ونألفُ في دنيانا هذه، حتى ولو كانت الحجرة الصماء والأرض الصلدة.

(٧)

أعرفه جليساً للرجال يؤنسهم بحديثه فهو حاضر البديهة قوي الذاكرة حتى عندما كان يدلف نحو السبعين من عمره، رأيته صامتاً لا يتحدث، حاضراً ذلك المجلس بجسده ولكنه الغائب عنه بروحه، ترى ما الذي اعترى تلك النفس الصاخبة؟ وأسكت ذلك اللسان الذرب؟ وهرب بتلك الروح بعيداً عن تلك العوالم التي تحب دوماً أن تعيش فيها، وتصر على أن تكون حاضرة فيها بجميع أحاسيسها؟ كنت أسأل نفسي هذه الأسئلة، وإذا بصوت يأتي من المجلس: يا عم فلان، لقد قضى اليوم رجل من الناس، هل أنت خائف من ذلك المصير؟، يلتفت إليه (وهو كما يقولون لا يستعير جوابه) يلتفت إليه، وقد انتزعه السؤال من ذلك العالم الذي كان مستغرقاً فيه، ويرد على السائل قائلاً: أنت مخطئ، إذا حل الوقت ودنت الساعة فسوف أودِّع هذه الدنيا دون عناء أو تعب. ستكون لحظة رضا وطمأنينة.

انفض الجمع وخَلَت السَّاحةُ من روَّادِها، دعاه والدي ـ أبقاه الله ـ ليركب معنا السيارة ونقوم بإيصاله إلى داره، أخذ مقعده من السيارة بكل هدوء، طوال الطريق كان صامتاً وعندما اقتربنا من منزله، التفت إليه والدي قائلاً: يا أبا فلان، غَداً سيكون معي بعض الأصدقاء من مكة حبَّذا

لو شاركتنا جلسة كهذه، أجاب باقتضاب قائلاً: أظن أنني لا أستطيع يا أبا علي. دخل داره وكان اليوم التالي يوم جمعة، اغتسل وتوضأ ولبس أحسن الثياب، أراد أن يتوجه إلى الحرم ليصلِّي مع الجماعة، فليس بين داره والمسجد مسافة طويلة، ولكنه لم يكمل الطريق. لقد عاد إلى البيت ثانية ولم يكن في الدار إلا السيدة الكريمة زوجته في الدور العلوي، وَدَّعها من أسفل بكلمات مقتضبة، ثم تمدد على الأرض متوجهاً إلى القبلة، وقرأ شيئاً من القرآن، ونطق بالشهادتين. وعندما وصلتْ زوجتُه من الجُزْء العلوي من الدار حيث كانت تجلس، كان صاحبنا قد ودَّع الحياة، ودَّعها في طمأنينة ورضا وهدوء كما أشار ليلة البارحة لذلك السائل من الناس.

هذه ليست أسطورة أو قصة تفنن الخيال في صياغتها ولكنها واقعة حقيقة وقد يكون في الواقع من الحوادث ما هو أكثر غرابةً من الخيال، وأشد طرافةً وجاذبيةً من الأسطورة.

أتسألني يا صديقي عن جيران نبيِّه وأحباب مصطفاه ـ عليه صلوات الله وسلامه؟ أتُجادلني في شأنهم، وتحاورني في نهايتهم؟ وإنني لقائل لك: إنهم يجتازون هذه الحياة ونفوسهم عامرة بالإِيمان، ممتلئة بالمحبة ثم يقضون وكلمات التوحيد آخر ما ينطقون به عند وداعهم لهذه الدنيا. إنهم يا سيدي لا يعرفون الحقد، ولا يسيرون خلف الباطل، ولا يثنيهم شيء في هذه الدنيا عن قول الحق. وإن المؤمنين لمدعوون بأن يحسنوا الظن في بعضهم، أفتبخل بهذا السلوك على من كرمهم الله بأن تطل دورهم على مسجد نبيه ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وتمر أجسادهم من أمام ضريحه لتضاجع أكرم تربة وتنعم بخير جوار؟ والله هو المطَّلعُ وحده على قلوب العباد، فاللَّهم اجعل باطننا كظاهرنا وهيّىء لنا من أمرنا رشداً.

(٨)

الطريق عامرة بالناس بين (السيح) و(حي الشونة) الذي كانت تقع على طرفه الأيمن، والمواجه لدرب الجنائز، دور الأسرة العريقة المعروفة (آل المدني). وكان من أشهر رجالاتها السيد (عبد الله مدني) جَدّ الصديقين الكريمين غازي عبيد عبد الله مدني، وإياد أمين عبد الله مدني، وإخوانهم الكرام. ولم يكن من شيء يشد انتباهي في هذا الحي الذي لا أفقه شيئاً عن سبب تسميته مثل منظر ذلك الرجل الذي تقع داره أو حانوته ـ لا أتذكر بالتحديد ـ على منطقة مرتفعة تقع على يسار القادم من السوق، وقبل أن يصل إلى البَرَحة الصغيرة التي يتفرع منها شارعان أحدهما يؤدي إلى ما كان يعرف بـ «سويقة» والآخر إلى منطقة الحرم. وهذا الأخير تقع في بدايته تلك الدار المبنية من الحجر التي تعود ملكيتها ـ أصلاً ـ إلى أسرة (آل ظافر) وسكنها لفترة من الزمن الشيخ عبد العزيز الخريجي ـ رحمه الله ـ عميد أسرة (آل الخريجي) في البلد الطاهر وذلك قبل أن يبني الدار المعروفة والمنحوتة من الحجر في حي (السَّيح) والتي كان يفصلها عن مسجد سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مدخل (باب جديد).

ـ أعود إلى الرجل الذي كانت ملامحه أقرب إلى ملامح الأخوة

«التركستانيين» النازحين إلى أرض الإِيمان حباً في الله ورسوله، وجه مستطيل تزينه لحية بيضاء، وجسم نحيل، وكثيراً ما أصلح الأجسام مثل ما أصلح القلوب الزهد في متاع الدنيا، وكثيراً ما أنار البصائر ذلك الورع الذي تقتات منه نفوس القوم الذين تتحرك أجسادهم فوق هذه الأرض بينما تعيش نفوسهم حقيقة في السماء.

ـ أدخل الحرم من باب «الرحمة» ففي مؤخرة الحرم تقع حلقة أستاذنا المرحوم (رجب أبو هلال) يدرِّسنا القراءة والكتابة صباحاً في مدرسة العلوم الشرعية، ونحفظ على يديه شيئاً من القرآن مساء في رحاب المسجد الطاهر.

ولكن قبل أن أذهب إلى هذه الحلقة التي كانت تجمعني بكثير من الزملاء من أمثال: غازي بشير، وغازي عينوسة، ونبيل حفظي، وإبراهيم مزيد، وسعود محمود نعمان ـ رحمه الله ـ وغيرهم من الأقران، كنت أحرص على التنقّل بين سواري الجزء القديم من الحرم، إلا أن حلقة واحدة من حلقات العلم التي كانت تنتشر بين هذه السواري، ظلت صورتها ماثلة في ذهني ـ وكانت سني عندئذ لم تبلغ العاشرة بعد ـ فمن هو ذلك الرجل الذي يكاد ثوبه يلتصق بجسده؟ أما الثوب فهو من ذلك القماش الرقيق الذي نطلق عليه في المدينة اسم (الشاش) وما كنت أعلم أنه تحت ذلك الثوب الرقيق والجسد الضامر تكمن نفس زاهدة في الدنيا، وقانعة باليسير من الزاد، ورحم الله من قال:

والنفس كالطفل إِن تهمله شَّبَّ على ... حُبِّ الرضاع وإِن تفطمه ينفطم

ـ الرجل يحدث الناس وفي يديه (مروحة) من السعف، وأمامه يجلس قارئ من طلبة العلم حافظ من حفظة كتاب الله، وهو الشيخ محمد

منصور عمر ـ أمد الله في عمره، لا أعلم كم هي المرات التي وقفت فيها على حلقة هذا العالم الذي ترسخت صورته في مخيلتي، وفي كثير من الأحيان نعجز عن تعليل صور رسخت في النفس وأخرى انمحت منها، ولكن لمدة لم تطل بين وقوفي على هذا المجلس العلمي الذي يقع في منتصف ما نُطْلِقُ عليه اسم (الحرم القديم)، وبين يوم خرجت فيه المدينة تشيِّعُ جثمان رجل من أهل العلم والفضل فيها، كان اليوم يوم جمعة، وكان المألوف أَنْ يُغْطَّى نعش المتوفى بإزارٍ نُقِشَتْ عليه بَعْضُ الآيات القرآنية، إلا أن هذا الجسد ـ خاصة ـ قد غطي بإزار أبيض لا نقوش عليه، وسمعت الناس يتهامسون فيما بينهم: لقد مات اليوم الشيخ محمد بن علي التُّركي ـ رحمه الله ـ صاحب الحلقة الذي لا أعلم لماذا اخترت في تلك السن أن أقف على حلقته دون الحلقات الأخرى التي كان يمتلئ بها مسجد رسول الله ﷺ. وتجدر الإِشارة هنا إلى أن الشيخ محمد التُّركي ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ هو عم معالي الأستاذ الدكتور منصور بن إبراهيم التركي ـ مدير جامعة الملك سعود ـ سابقاً ـ وإخوته علي وعبد الرحمن وعبد الله ـ رحمه الله. وآل التركي أسرة كريمة في بلد الهجرة والإِيمان.

ـ يا آخر المترجِّلين عن صهوات الجياد، يا جار دار النابغة حيث شهد الكون طلعة النور وكانت من قبل غرة في جباه الرجال، لقد عشت للكلمة الطيبة تنشرها بين الناس، وأعطيت المثال من حياتك كيف تسمو النفس ويتألق جوهر الروح، كيف أن الترفع عما في أيدي الناس يدنيك من القلوب، ويمنحك الحب، ويحفظ لك المهابة. لقد مضى على رحيلك ما يزيد على ثلاثين عاماً، ولكن سيرتك لم تنقض. وقوم أصغت

آذانهم لكلماتك لا يزالون يدعون لك بالرحمة والغفران. فاللَّهم اغفر لرجل حمل أمانة العلم وأداها، ولم ينتقص من قدرها وهيبتها.

آخر الكلام:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته   أتطلب الربح مِمَّا فيه خُسرْانُ؟
أقبل على الروح واستكمل فضائلها   فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

(٩)

ـ كنت قد ذكرت في الحلقة السابقة أن منطقة (الشُّونة) قد عُرِفَتْ بآل المدني فدورهم كانت تتوزع بينها وبين (سُويقة) ـ المنطقة التجارية القديمة بالمدينة ـ وأضيف هنا أن بستان (المصرع) أيضاً عرف بهم. ولقد وقفت مع مؤرخ المدينة المرحوم الشريف إبراهيم العياشي على أرض (المصرع) فذكر لي أن الناس يتوهمون أن هذا الموقع، يمثل مصرع عم رسول الله ﷺ سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ بينما الحقيقة هي غير ذلك، إذ لم يكن (المصرع) إلا ميداناً من ميادين معركة أُحد، وأذكر أن الشيخ العياشي في أثناء الجولة تلك، أخذ بيدي إلى موضع، لم يعد اليوم موجوداً بحكم عوامل التطور التي تشهدها الأرض الطيبة، وقال لي: هنا كَمُن وحْشي ـ رضي الله عنه ـ لأبي عمارة وأصابه بنبله. وكانت تقوم في ذاك الموضع صخرة، يميل الشريف العياشي إلى أنها الصخرة نفسها التي اختبأ خلفها وحشي قبل إقدامه على قَتْلِ عَمِّ المصطفى وحبيبه، الذي بكاه صاحب القلب الرحيم وبكته معه دور الأنصار مجتمعة. وهل في هذا الكون من ينافس بني (قَيْلة) في رقَّةِ المشاعر ورهافة الأحاسيس؟ ومن هنا كثر الشعر في بيئة المدينة وعرفت دورها إنشاده وترديده على مر العصور ومختلف الأزمان.

ـ لم يكن (المصرع) البستان الوحيد الذي نسب إلى السادة آل المدني، ولكن بستاناً آخر كان يقوم في منطقة سُلْطانة يُعرف باسم بستان (أم الشجرة) عُرِف بآل المدني. ولقد سمعت الكبار في المدينة يقولون: عندما ضحكت الدنيا للسيد عبد الله مدني أقام قصره في بستان (أم الشجرة)، ولقد مررت قبل مدة يسيرة فرأيت بقايا القصر والبستان، وحدثت نفسي قائلاً: كم أنشد القوم هنا الشعر! وكم ترنموا بمديح المختار عليه صلوات الله وسلامه!

ولكن كما يقول المثل المعروف: «دوام الحال من المحال». كان السيد عبد الله مدني من وجهاء البلد الطيب، وهو والد السَّيدين الكريمين عُبيد وأمين مدني، ولقد عرفتهما ـ شخصياً إذ كان السيد عبيد ـ رحمه الله ـ صديقاً لوالدي، ولقد نذر نفسه للعلم والمعرفة. وبعد قراءتي لديوانه الذي طبع بعد وفاته أصبحت أميل إلى اعتبار السيد عبيد من أبرز شعراء الجزيرة العربية في العصر الحديث. وإذا كان الناس عرفوا أخاه السيد أمين مؤرخاً من خلال موسوعته العلمية المعروفة (العرب في أحقاب التاريخ) وكاتباً من خلال مقالاته التي كان ينشرها في صحيفة (المدينة) منذ أن تولى رئاسة تحريرها في الحقبة التي كانت تصدر فيها في المدينة. واستمر في الكتابة على صفحاتها إلى ما قبل وفاته بمدة وجيزة، إذا كان الناس عرفوا ذلك كله عن أبي إياد فلقد عرفته شَاعِراً من خلال قصائده التي رثى بها أخاه الأكبر عبيداً، ولعلّه نشر في مجلة (المنهل) شيئاً من تلك المراثي التي تعكس تلك العلاقة الحميمة التي تربط بين الأخوين الكريمين فأكرم بها من علاقة وأنعم به من رباط.

وجدير بالقول: أن السيد عبيد تأثَّر كثيراً بشاعر المدينة المعروف

محمد العُمري الذي عُرِفَ بقصيدتِه المشهورة التي تصوِّرُ الوضع المأساوي الذي كانت عليه المدينةَ إبان الحرب العالمية الأولى، ومطلع قصيدة الشاعر العمري هو:

دار الهدى خف منك الأهل والسكن   واستفرغت جهدها في ربعك المحن

ـ ويذكر الأستاذ عبد القدوس الأنصاري رحمه الله ـ وهو صديق حميم للسيد عبيد ـ أن الشيخ العمري كان صديقاً للسيد عبد الله مدني، ومن هنا نشأت تلك العلاقة العلمية بين السيد عبيد والشاعر محمد العمري، وانعكست على بعض إنتاج السيد عبيد الشعري. وأعود مرة أخرى إلى الشاعر العُمري الذي انتقل إلى رحمة الله سنة ١٣٦٥هـ، وكان من علماء الحرم النبوي الشريف، ولقد قدم لي المرحوم السيد علي حافظ في حياته نصوصاً شعرية مهمة لهذا الشاعر ما زلت أحتفظ بها بين أوراقي. وبعض هذه النصوص بخطِّ الشاعر نفسه، ولقد خلَّف العُمري ابناً واحداً هو الأستاذ عبد السلام العُمري الذي ورث الشعر عن أبيه. وقد أخبرني الأستاذ عمر أبو الخير وهو حفيد الشيخ العمري أن الابن انتقل أخيراً إلى رحمة الله وله أيضاً بعض الإِنتاج الشعري المخطوط.

(١٠)

لم يكن ذلك الصوت الشجي الذي ينساب في هدوء الليل نغماً حائراً وآهات عميقة، هو وحده ما كان يبلغ سمعي، والطفولة لم تزل تحتفظ ببراءتها والحياة تسير خطواتها متئدة هادئة، بل كان إلى جانب هذا كثير مما يدخل ضمن إشراقات النفس ويسمو بها إلى آفاق الصفاء، صوت المؤذن في مسجد رسول الله ﷺ. وكان لا يعتلي درجات المنائر إلا أصحاب الأصوات الحسنة مع رسوخ الإيمان وثبات العقيدة وما كان أكثرهم في تلك الحقبة. ولقد تعرضت بالتفصيل لشخصيات بعض هؤلاء المؤذنين في الجزء الأول من رواية هذا البلد الطيب، الذي أسميته (حارة الأغوات) واليوم أعود إلى هذه الفئة فتقفز إلى ذهني بعض الأسماء، كأستاذنا السَّيد (عمر عينوسة) الذي كان يدرسنا جدول الضرب في مدرسة دار العلوم الشرعية، وكان صاحب شخصية حازمة يتوضأ لصلاة الظهر وما هي إلا دقائق حتى نسمع صوته يرتفع من المنارة الرئيسة بالمسجد. وكان صوته قوياً يصل مداه إلى مشارف المدينة. الأذان كان يدخل كل بيت وتتجاوب معه كل نفس، وما أجمل الآذان في اليوم المطير وما أروعه في دجى الليل يخرج الناس من بيوتهم على أقدامهم إلى المسجد، وإذا ما انقضت صلاة الصبح انتشروا في تلك الأسواق المتجاورة في منطقة واحدة، وما دمت قد ذكرت أستاذي (العينوسة) فإنه، من باب التاريخ،

يجب أن أشير إلى أن جده السيد مصطفى عينوسة كان شيخاً للمؤذِّنين قبل الشيخ محمد سعيد نعمان.

ولعلّ ما كان يتمتع به أستاذنا (عمر العينوسة) من صوت حسن، هو الأمر الذي كان يهيئه في مناسبات عقد القران لإِلقاء القصائد الترحيبية. وجرت العادة أن يكون هناك خطيب ومُجِيب. ولقد سمعتُ السَّيد عمر ـ رحمه الله ـ يلقي قصيدة في واحدة من تلك المناسبات المحببة إلى النفس، وإن لم تخني الذاكرة فالمناسبة كانت في حارة (باب المجيدي)، وفي تلك الحارة سمعت لأول مرة صوت الشيخ محمد علي النَّجار ـ رحمه الله ـ كان يُنشدُ إحدى روائعه في التشوق لمدينة المصطفى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ولربما كانت القصيدة التي يقول مطلعها:

لطيبة ميثاق عليّ قديم   إذا ذُكرت يوماً لديّ أهيم

ولعلِّي سمعته يُنشدها في حضور الشيخ الحافظ حسن الشاعر ـ رحمه الله ـ وسمعت من يقدمه ـ أي الشيخ النجار ـ قائلاً: هذا بلبل المدينة المغرِّد، وهذه مناسبة مضى عليها ما يقرب من ثلاثين عاماً، وإنني لألمح الصديقين الكريمين، الشيخ محمد سعيد باناجة، والأستاذ علي بن سعيد الغامدي، ينظران إلي ثم يداعبانني بشأن السن، وأؤكد لهما أنني لم أخف عليهما حقيقة عمري، ولكن ما أذكره هنا هو ما انطبع في الذاكرة في مرحلة الطفولة وَلَعَلَّهُ شيء كان من دواعي التطلع وفضول المعرفة الذي كان موجوداً لدي في تلك الحقبة، ولا أجد له أثراً الآن.

وفي مرحلة أخرى عرفت الشيخ النَّجار، يقرأ القرآن بالقُرْب من خوخة سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان صوته منخفضاً إلا أنه الصوت الرخيم الذي يلج بك إلى عوالم الروح ويحلق بك في أجوائها.

وكم نحن بحاجة اليوم إلى من ينتزعنا من عوالم المادة التي سيطرت على شؤون حياتنا، فحتى الشعر لم يعد هو الشعر، فهو إما أن يكون ألغازاً وطلاسم وإلا فهو في نظر دعاة الشعر الحديث لا يكون شعراً يستحق القراءة، وفي هذا منافاة لحقائق الأشياء، ومجافاة لبدهيات الأمور. وهم إذ يعترضون على أشكال الشعر التي وجدت في العصرين المملوكي والعثماني. فإن ما يقولونه من شعر أو يكتبونه من نقد لهذا الشعر لا يخرج عن دائرة الشعر الذي يوجهون له في كل مناسبة سهام نقدهم. ولا أجد تسمية لهذا الشعر خيراً من التسمية التي أطلقها عليه أخيراً الشاعر نزار قباني مع أنه محسوب على تيار الشعر الحديث، ولا أتفق معه في مضمون بعض الشعر الذي يكتبه، لقد سماه القبَّاني في مقالين له بصحيفة الحياة كان آخرهما بتاريخ ٢٩ شعبان ١٤١٣هـ بـ (الشعر الهيروغليفي) ولا يجرؤ واحد من أنصار هذا الغثاء الذي أصبحت بعض صفحاتنا الثقافية تسعى جاهدة لتسويقه بيننا بعد أن رفضته الأذواق في كثير من البلاد العربية التي سبقتنا في هذه التجربة الشعرية التي تلوي الألسنة وتصيبها بآفة العي، وتفسد الأذواق وتتركها سقيمة من دون دواء، أقول لا يجرؤ أحد على اتهام القبَّاني بعدم القدرة على فَهْم ما يرْمِي إليه هذا الشعر، أو أن رأيه ينطلق من موقف تقليدي محض.

أعود للشيخ النجار الذي كان ملازماً للشيخ علاء الدّين البكري ـ رحمه الله. وكان الشيخ علاء، واحداً من المجوِّدين لكتاب الله في البلد الطاهر، كما كان صاحب سمت إيماني مهيب. وكان جليساً لهم في تلك البقعة الطاهرة الشيخ محمد عمر السمان ـ رحمه الله ـ والشيخ حلّيت بن عبد الله بن مسلّم، الذي لم تقع عيناي على رجل في مثل أناقته، وكنت

ألاحظه وأنا في فترة الطفولة يخرج من (حوش مَـنَّـاع) في مدخل باب ـ قباء ـ ماشياً على قدميه إلى الحرم الشريف، ولعلّي كنت أتهيب لقاءه أو الحديث معه. ولم أجد نفسي ذات يوم إلا وأنا في بستانه الواقع خلف مسجد قباء، ولقد كنت بصحبة المرحوم الأستاذ عبد الستار بخاري والذي كان هو الآخر حافظاً لكتاب الله: وعارفاً بمقامات الصوت معرفة دقيقة. كما كان يصحبنا في تلك المناسبة الأستاذان الكريمان عبد الله خطيري ومحمد سعيد حلاَّبة، وكلاهما من أساتذتي في المرحلتين المتوسطة والثانوية.

تشعب الحديث يومها بين الأستاذ عبد الستار والشيخ حلِّيت في أصول المقامات، وكان الشيخ حليت ـ رحمه الله ـ يؤم الناس في رمضان لصلاة التراويح، وكانت الناس تأنسُ إلى صَوْتِهِ الجميل كما كانت تأنس إلى خُلقه الحسن، وقوله الطيب، وتواضعه الجم. ولما انقضت الجلسة أخرج ـ رحمه الله ـ نوعاً ممتازاً من التمر، نسيتُ اسمه الآن، وأهداه إِلينا. ووجه الحديث إلي قائلاً: هذا لك يا بني، ثم أصبحت أراه في مجلس والدي وسمعته يتحدث مرة بأسى قائلاً لوالدي: «من فقد أحبابه فقد مات» وكان الشهر شهر رمضان المبارك ـ ولقد كان الفاصل الزمني بين الجلستين ـ الأولى التي في بستانه العامر، والأخرى التي في حضور والدي، كان ما يقرب من عشرين عاماً، ولما ذكر مقولته السابقة أردفها بالقصة التالية: «لقد دخل يوماً علي في بستاني الأفندي محسن بري، ومعه مجموعة من وجهاء المدينة من بينهم السيد حسين جمل الليل، والسيد علي حافظ، ومصطفى ديولي، وطلبوا مني الذهاب إلى مسألة صلح، وذهبت معهم، ثم مضى يقول: أين هم اليوم؟ لقد رحلوا وبقيت وحيداً. ولعلّه شعر

بالغربة أكثر عند رحيل صديق عمره الشيخ عبد الحميد عباس، ومن قبله رحيل السَّيدين علي كماخي وأديب صقر، وجميع هؤلاء من وجهاء البلد الطاهر ورجاله الكرام. وخرج يومها من دارنا ـ رحمه الله ـ فقبلت رأسه مع أخي الأكبر ـ حفظه الله ـ ولم أعلم أنها المرة الأخيرة التي سوف أنعم فيها بطلعته البهية وملامح وجهه الصبيح. وعندما انتقل الشيخ حليت إلى رحمة الله لم أكن في أرض الوطن، ولكنني استيقظت من نومي ذات يوم وآلاف الأميال تفصلني عن ثرى الأرض التي أحببت، شعرت أني فقدت رجلاً أحببتُه لِفَضْلِه وخُلقه، وأحببتُ فيه وفاء لأصدقائه ومن بينهم والدي الذي كان يحثنا لزياراته باستمرار، ويجعلها من باب صلة الرحم، وهذا موضوع آخر ليس هنا مجال الحديث عنه. رحم الله أبا عبد المحسن ومن ذكرت قبله من أهل الفضل والعلم، وهدانا إلى سواء السبيل.

ـ آخر الكلام:

قال الشاعر في مدح المصطفى ﷺ:

سيد ضِحْكُهُ التبسم والمشْيُ ... الهوينا ونومه الإغفاء
ما سوى خلقه النسيم ولا غيـ ... ـر محياه الروضة الغناء
رحمة كله وحزم، وعزم ... ووقار، وعصمة، وحياء
كرمت نفسه فما يخطر السو ... ء على قلبه، ولا الفحشاء
جهلت قومه عليه فأغضى ... وأخو الحلم دأبه الإِغْضَاءُ
وسع العالمين علماً وحلماً ... فهو بحر لم تُعْيه الأعباء
معجز القول والفعال كريم الـ ... ـخَلْقْ والخُلق، مِقسط، مِعْطَاءُ
لا تقِسْ بالنبي في الفضل خَلْقاً ... فهو البَحْرُ والأنام إناء
ليته خصني برؤية وجه ... زال عن كل من رآه الشقاء

(١١)

ـ لا يحل شهر رمضان، وتؤذن المدافع بدخوله، إلا وأرى هذا الحي يمتلئ بهؤلاء الشباب الذين يقدمون إليه من نواحٍ عدة. وهم إذْ يحلون في هذا الحي الذي يتغير حاله من السكون إلى الحركة، فإنهم لا يقصدون مكاناً واحداً بعينه، ولكنهم ينتشرون في طرقاته الضيقة يتهامسون حيناً ويضحكون حيناً آخر. ترى ما الدافع وراء مجيء هذه الفئة من الناس المتميزة في كل شيء يتصل بها؟ هذا هو السؤال الذي وجدت نفسي حائراً في الإِجابة عنه عندما رأيتهم لأول مرة، وكنت حديث عهد بهذا الحي الذي أجدني في كل مناسبة عاجزاً عن وصف تلك الحياة التي تجري فيه، ولكأنها حياة من نوع خاص؛ ولكأن المدينة كلها تعيش حياتها المعتادة، ويعيش هذا الحي حياته التي سار عليها أو ألفها وأصبحت علماً دالاً عليه، وأصبح هذا الآخر مرتبطاً بها أوثق الارتباط وأشده. ولكأن الحياة توقفت ذات يوم هناك وتوقفت معها روح العفوية والبساطة، ثم سكنت هذه الروح (حي الأغوات) ولم تغادره إلا عندما أراد الله لهذا الحي أن تتساقط حجارته، وتهدم دوره، حتى يتسع بيت الله للمصلين الركع السجود.

ـ أعود لما بدأت الحديث به، لقد حملتني قدماي إلى منزلنا في قُباء مع منتصف الليل في اليوم الذي اعتاد الناس أن يقولوا إذا ما قابل بعضهم

البعض: جابوا رمضان وقد يميلون إلى الإِيجاز فقالوا: «جابوه». والإِيجاز بلاغة، والاختصار بيان في اللغة التي نزل بها القرآن، لغة قريش.

ومع هذا فقد ارتفع في الساحة الأدبية بيننا صوت نشاز، يدَّعي أن لغة قريش لم تكن فصيحة. ورأيت أقواماً يُشايعونه، وآخرين يتملَّقونه، ونسي الذين يشايعونه وأولئك الذين يجاملونه، لأسباب لا أفقهها، أن الطَّعْن في فَصَاحة لغة قريش هو الطعن في لغة القرآن. والقرآن تردِّدُ آياته أنَّهُ نزل بلسان عربي مبين. ورسول الهدى ﷺ يقول: «أنا أفصح العرب، بيد أنّي من قريش»، ولا أريد من صاحبنا الذي يتخبط بين آراء تشومسكي ويدعي المعرفة باللسانيات أن يفسر لي مضمون هذا الحديث، فعلوم القرآن، وعلم مصطلح الحديث له رجاله الذين يسمون «الصَّيارفة». ولعلّ صاحبنا ضاقت به سبل الكلام فلم يجد شيئاً يسلي به نفسه إلا هذا الطَّعْنَ في اللغة التي نزل بها كتاب الله، واختارها الله من بين اللغات جميعها لتكون لغة الوحي الذي أتم الله به الرسالة، وختم به الأديان، ويل لقوم يزيِّنُ لهم جهلهم أن يقعوا في المحظور، ويتبنوا الشاذ من الرأي، ويُمْعنُوا في الخطأ إمعاناً شديداً. والذي يطلب الخير يجده، والذي يطلب سواه لا يفتقده ولكنه يجني على نفسه، فالمرء مسؤول عن الكلمة يقولها، والرأي يتفوه به، والعلم يذيعه بين الناس. والكلمة الطيبة التي تنشرها بين الناس لك أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. والكلمة السيئة عليك وزرها ووزر من عمل بها أيضاً إلى ذلك اليوم فاللَّهم رُشْداً في القول وثباتاً على الحق، وبعداً عن اللجاجة. وقديماً قالوا: قاتل الله اللجاج.

(١٢)

ـ وأعود بك أيها الصديق إلى أولئك الفتية الذين رأيتهم يجتمعون عشية حلول رمضان في (الحارة) ولم أدر لماذا اجتمعوا؟ وما الذي أتى بهم إلى حي كهذا وهم الذين لم تقع عيناي من قبل عليهم في أزقته المتعرجة أو على أبواب دوره المتلاصقة. ذهبت إلى دارنا في (قباء) والأسئلة حول هذا الجمع العجيب تلاحقني، ومن الأسئلة ما يُقْلق، ومن الفضول ما يُغْرِي.

لم يطل غيابي عن المكان الذي أحببت منذ أن تفتحت عيناي على هذا الوجود، ودرجت قدماي في ساحات البلد الطاهر منذ أن عرفت أن الكلمة نزلت في هذه الأرض ثم تفرق شعاعها في جميع أنحاء الأرض. ولقد عرف الكون الكلمة من قبل، ولكنه لم يعرفها مضيئة. ولم يألفها صادقة كما عرفها وألفها في هذا المكان. ومنذ عرفت أن الأرض التي تنبت الثمر الطيب لا بد من أن ينبت فيها ـ أيضاً ـ إنسان طيب القلب، متفتح العقل، واسع الأفق، لا يتشبث برأي ولا يتعصب لفكرة. وإن هو تشبث بشيء فهو متشبث بالحق، ومتعلق في الوقت نفسه بروح الصفح والتسامح. لقد ابتعدت عما أردت مواصلة الحديث فيه ولكنها سبحات الفكر ونوازع التذكر والتفكر. عدت عصر اليوم الأول من رمضان، فإذا

الفتية ليسوا في مكان واحد من الحي ولكنهم في أماكن متفرقة منه. وإنهم ليضعون العمائم فوق رؤوسهم ويَـتَّـزِرُون بالإِزار الذي يعرف باسم (الفوطة) ثم يدخلون إلى أسفل بعض الدور ثم يخرجون منها وأيديهم ممتلئة بالأواني المصنوعة من الفخار التي اعتاد الناس أن يطلقوا عليها في الحرمين الشريفين اسم (الدَّوارق). وبعض هذه الدوارق نُقشت على جوانبه بعض النقوش وبعضها الآخر احتفظ بلونه الأصلي وهو لون الفخار المعروف، بيَاضٌ مَشْوبٌ بشيء من الاغبرار. وإذا كانت الدوارق تصنع من تراب الأرض، فالأرض يطلق عليها في اللغة الفصيحة التي أتم الله بيانها من عنده ونزل بها وحيه على مصطفاه ﷺ يطلق عليها عادة ـ (الغبراء).

الفتية يحملون الدوارق ويسيرون من الحارة إلى أبواب المسجد المقابلة للحي نفسه، وهما بابان فقط: جبريل والنساء. ويزيد عجبي كيف يتأتّى لهم حمل ذلك العدد الكبير من هذه الدوارق. ثم إذا ساروا أسرعوا وهم في جيئتهم وذهابهم يتحدثون إلى بعضهم، وهم مع حذقهم لصنعتهم التي يزودون من خلالها الصائمين بالماء البارد ـ الطبيعي ـ والممزوج أحياناً بماء الكادي أو الزهر، إلا أن أعين مشائخ أهل الحرفة لا تخطئهم. والصنعة كان قوامها الاحترام بين المعلم والذين يعملون لديه. ومن أَشْهر الذين كانُوا يمارسون حرفة السقيا من كبار السن الذين أدركتهم في الحارة وسقيفة الرصاص: المُنادي، والصَّواف، والأفندي والكُرْدي، والشريف حسن، والشريف علي فراش، وعم مَالاَه. ولعلّ الصديق صالح زمزمي يعرف، بحكم السن، ما لا أعرفه عن البقية. رحم الله من قضى من تلك الفئة الطيبة وبارك في من بقي. وهنا تغريني شخصية واحدة من هذه الشخصيات لأتحدث عنها وهو العم مالاه الذي كان (سبيلُهُ) على يمين

الداخل لحارة الأغوات. وكان أحد المجاورين الذين لا يعرف لسانهم إلا الكلمة الطيبة. فهو إن تحدث أدركت طهارة قلبه وصفاء روحه.

كنت أجلس في حانوت الصديق الأستاذ مصطفى برناوي المجاور لدكان الشيخ محمد علي سُكَّر، في مدخل الحارة وكان يجلس معنا الأخوان الكريمان أحمد وحامد عيسى فلاته، وكان «عم مالاه» يخرج من الحرم ليجلس في هذا الحانوت ثم يعود إلى (سبيله) مثل كثير من المُجاورين في البلد الطيب، لا يعرف إلا مكان عمله ثم الدار التي تأويه. وجلّ وقته يقضيه بين الروضة والصُّفة والاستماع إلى دروس العلم في الحرم الشريف.

وفي حقبة ماضية لم أدركها كان هؤلاء المجاوروين يترددون على حلقة عالم من أشهر علماء المدينة وهو الشيخ ألفا هاشم رحمه الله. وكان هذا الرجل، إلى جانب حذقه في علوم الشريعة واللغة، شخصية اجتماعية مرموقة بين بني قومه. وكان منزله يأوي الكثير من الناس وكانت القلوب في الماضي تحتضن المريدين قبل أن تأويهم أسقف المنازل وجدرانها، رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته.

* * *

آخر الكلام:

يا مولد الهادي ملأت قلوبنا ... أُنساً، وبدَّلت المخاوف مأمنا

وأعدت للأقوام ذكرى لم تزل ... تنمو، وذكراً في البسيطة معلنا

قم في فم التاريخ واذكر للورى ... حق النبي على العباد مبينا

واطلب من الأجيال أن يوفوا له ... بالعهد إن العهد كان معينا

يا ليلة الإِثنين ماذا صافحت ... يمناك من شرف أشم ومن غنى

كل الليالي البيض في الدنيا لها   نسب إليك فأنت مفتاح السنا
وحللت في التاريخ أشرف موضع   نـادى بـرفـعـتـه الـزمـان وأعـلـنـا
وملأت عين الدهر منك محاسنا   وملأت سمع الدهر يا بشرى لنا

* * *

(١٣)

كثيراً، يا صديقي، ما أرَّقتني الهموم وأثقلت كاهلي نوائب الدهر. أهجر مضجعي وأتسلل خفية في دجى الليل، والطريق طويلة بين (التَّحسينية) و(الحارة)، ولكنني كنت أسلكها وأنا مطمئن النفس. المدينة ـ يا صديقي ـ دوماً تتنفَّسُ الطمأنينة، والطُّمأنينةُ وليدةُ الإِيمان ونَبْتُ اليقين. أنا ما زلت أعرف الطريق، فلقد أقامها الحب بين جنبات نفسي وعَبّدها في داخل ذلك الوجد الذي تعيشه جوارحي تجاه تلك الربى الطاهرة. لا يستطيع ـ يا عزيزي ـ أحد أَنْ يُغَيِّر معالم استقرت في تلك الأعماق السحيقة من النفس، وما زلت لصيقاً بها حتى وإن اختفت من عالم الحس، فعالم الروح أعظم اتساعاً وأكثر رونقاً وبهاءً.

ـ أناديك من أسفل الدار بلقب أضحى الاسم لك والدَّال على شخصك. تنهض من فراشك، وهو فراش الزاهدين، تُقابلني مبتسماً عند عتبة الباب. لا تسألني ماذا أريد وأين هو الاتجاه. أحفظُ عنك عبارة مضى عليها دهر طويل من الزمن: «إذا قلت للصديق سر معي، وسألك: إلى أين أنت ماض؟ فهو ليس بصديق»! لا ألمح في وجهك السمح يا أبا السَّمائح ضجراً. وكيف يتسرَّبُ الضَّجرُ إلى نفس طُبعت على الوفاء، وجُبلتْ على صُنْع المعروف؟ أتتها الدنيا يوماً فعزفت عنها. وتزيَّنت لها

فأدركت خدعتها. تُرى كم من النفوس تَعْزِفُ عن متاع الدنيا الفاني؟ وكم من الرجال من هو قادر أن يتبيَّن مواضع الخداع ويرتفع إلى ذلك الأفق السَّامي حيث يكون الزهد هو الغاية وحرمان النفس مما يُغْريها هو الهدف؟ وإذا كان وجهك ينبسط لأصدقائك كانبساط نفسك وسعتها، فإنك طالما مشيت في ساحات المدينة باحثاً عن قلوب كسيرة لِتُداوِي جراحها بذلك البَلْسم الذي هداك الله إليه، إنه الإِيمان ودواء الحب الصادق. ومن نفوس عطشى فترويها من ذلك المعين الذي شربت منه يوماً وأحببت أن يشرب الآخرون منه معك، وأرشدتهم كيف ينهلون من نميره الصافي. كنت تضع بين أيديهم كل ما تحمله من زاد ولا بأس عليك إذا ظللت جائعاً وشبع الآخرون. ولا ضير عليك إذا ذهبت ليلاً إلى دارك، ويدُك خاليةٌ من الدَّراهم. فلقد كان كل ما يهمك أن يذهب الآخرون إلى دورهم وقد حملوا معهم ما يحتاجه أقوام خَلَّفُوهم وراء ظهورهم. ولقد كنت أعجب كل العجب كيف يتأتَّى لِنَفْسٍ أن تُؤْثرَ الآخرين على نفسها مثل هذا الإِيثار، كيف تكبحُ هذا الحب الدنيوي الذي فُطِرتْ عليه نفوسُ البشر وتعوَّدت عليه ولا تستطيع التخلص من سيطرته عليها.

إنِّي لأعلم ـ يا صديقي ـ أَنَّ ما تحسه النفس من لذة عن طريق هذا الإِيثار لا تعادله لذة أخرى في النفس. وإنني ـ يا صديقي ـ لمتيقن أنك لم تكتسبْ ذلك عن كتاب تضعه أمام عينيك وتَجِدّ في قراءته. ولكنك اكتسبتَ هذا وغيرَهُ بما كان يُردِّدهُ لسانُك وقلبُكَ معاً من ذِكْر الله الباقي، والتدبّر في ملكوته العظيم. فالذكر والتدبر يقودان إلى الحقيقة، حقيقة أنّ البقاء لله وحده وما سواه فانٍ.

هنا ـ يا صديقي ـ تكمن العظمة ويختبئ السِّر. ترى متى تقطع

النفوس منا هذه الطريق؟ وإنني لأعلم أن طريقاً كهذه لا تُقْطَعُ بالأَقْدَام ولا تُـقَاسُ مسافاتُها بما تعوَّدنا أَنْ نقيسَ به الأشياء، إنها يا سَمْحَ النَّفْس، يا زيْنَ الأحباب، تُقْطَعُ بالقلوب. وأَنَّى لقُلُوب ملأها حُبُّ الدنيا واستأْثرت بأوقاتها ضروراتُ الحياة، أَنْ تفعلَ ذلك وتحقق غاية سامية كهذه، ولكنني لم أفقد الأمل فلطالما كُنْتَ رفيقاً صادقاً ودليلاً عارفاً ومُربِّياً حنوناً.

* * *

(١٤)

ـ هذه كلمات يا صديقي، أقدمها إليك في خلوة دفعتها إليك ظروف الحياة، وعزلة لم تكن قط من صنع يديك. فمثلك لم يكن يوماً بقادر على أن يظل في مكان واحد يستقبل صباح يومه كما يودعه. فلقد بلوت صداقتك سنيناً، آتيك مع الفجر لأسأل عنك، فيجيبني البعض مازحاً إنك لا تعود إلى هذه الدار إلا بعد أن توصد هذه الحوانيت التي تنتشر في (الحارة) انتشاراً أقرب ما يكون إلى الفوضى منه إلى النظام، ولكنها تلك الفوضى التي تميل إليها النفس، لأنها تجسد بساطة الحياة وتمثل عفوية القوم الذين يعيشونها. لقد وجدوا أنفسهم داخل إطار هذا النوع من الحياة فلم يغيروه وارتضته نفوسهم هذه التي لا أجد تعبيراً أصفها به أصدق من القول إنها نفوس صفت وتألَّقت. وهل تصفو، يا صديقي، إلا نفوس القوم؟ وهل يتألق إلا النفيس من أشياء هذا الوجود ومكوناته؟

إن النفوس، يا صديقي، لا تصفو بمصطلحات نتلقفها من بطون الكتب؛ فنرددها على مسامح الناس ليقال إننا قرأنا مقاصد الفلاسفة، وحفظنا عن ظهر قلب مصطلحات (إيساغوجي).

فلقد تصفو نفس لا تعرف من هذا العلم شيئاً، ولكنها صفت لأنها نظرت في أعْماق نفسها، فجرَّدتها من هذه النوازع السيئة التي كثيراً ما

غيّرت هذا الوجه المضيء لهذه الحياة التي تعيشها. جردتها من كبرياء يوهمها بأنها مركز هذا الكون ودائرته. وخلصتها من أدواء البريق والشهرة. وكثيراً ما يعشى الضوء النظر، ويحجب عن النفس الحقيقة. وكثيراً ما قاد التعلق بالرغبة في البروز من غير داع. كثيراً ما قاد النفس الإنسانية إلى أن تقفز فوق الآخرين وربما تركتهم أشلاء في سبيل وصولها إلى متاع فان وشهوة عابرة. الفلسفة يا صديقي لا تصنع الحكماء، ولكن الحكمة تأتي من النظر الدقيق في شؤون هذه الحياة، والعبرة بما يدور فيها بين فجر نشهد طلعته فنفرح ثم يأتينا مساؤه بما ينقض ذلك الفرح أو ينقصه. وحفظ متون الكتب وحدها ليس هو منبع الورع. فلقد يكون من عامة الناس من تمنعه فطرته من الولوج في الشبهات، وربما زينت النفس لنا، طلبة العلم أو المحسوبين عليه، وما أكثرهم في عصرنا. نعم زينت لنا الشبهات فوقعنا فيها، فقرأنا على طلابنا علماً لم يفيدوا منه في دنياهم، ولم ينفعهم في آخرتهم. وتحدثنا طويلاً إلى الجمع من هؤلاء الطلبة، فلم يكن نصيبنا من هذا الحديث إلا حسرة في نفوسنا لأننا قلنا ولم نفعل فناقض منا السلوك ما حاولنا أن نتظاهر به أمام أعين الآخرين، وكأننا الموقنون به أشد ما يكون اليقين. ولكن كثير من سلوكنا يتكشف للآخرين، فإذا هو مدعاة لسخريتهم في أوقات صفائهم، وإذا هو مبعث كرههم لمن يجعلون أنفسهم في موضع القدوة وهم أبعد ما يكونون عنها، ولعلّهم يستطيعون أن يتستروا في هذه الدنيا لأن الضمائر فيهم قد غفت ونخال أن غفوتها طويلة ويقظتها مستحيلة، ولكنهم لا يستطيعون أن يتستروا أمام خالقهم لأنه يعلم خائنة العين وما تخفي الصدور.

أعود إليك يا صديقي لأخاطبك وأقول: أنا أعلم لماذا اخترت هذه

العزلة بعد أن كنت تكرهها أشد ما يكون الكره، وتمقتها أعظم ما يكون المقت، فلقد وجدتَ أنَّ ضمائر البعض قد غفت فخشيت على ما تبقى بين جنبات نفسك من ضياء، وأردت أن تحافظ على صفاء لم يتأت إليك عن طريق ما تنظر في هذه الأسفار فقط، ولكنك حفظت لهذه لأسْفار وقارها، ولهذا العلم هيبته، وقرنت إلى ذلك كله إتقان ما تؤدي من عمل، وهذا هو (العيش الحلال). وإذا أتى الليل ـ يا صديقي ـ لم تتجرَّأ لتخوض في شؤون الناس وخصوصياتهم، فتلك بضاعة من لا بضاعة له. لقد كانت بضاعتك (ذكر الله) فأنعم به جليساً وأنيساً. إن الناس ليسألون اليوم كيف يكون الأنس الحقيقي، وإني لأعلم أنني لا أملك الجواب عن سؤالهم، ولكنني سوف أدفع بهم إلى دارك ليسألوك فهل أنت مُحْتفٍ بمثل هذا السؤال؟ أم أنك سوف تتركهم لتخرصاتهم وأوهامهم؟ لا أستطيع أن أجزم بما سوف تدفعك نفسك للقيام به، ولكني سوف أعود إليك بعد حين فأنا لم أنته من حديثي معك وسوف أطرق الباب الموصد بعد أن تركتني خارجه أعاني من غربة هذه النفس اللجوج..

* * *

(١٥)

ـ أعود إليك اليوم يا صديقي، فالحديث بيني وبينك لم ينقطع ولكنه حديث من طرف واحد. فلقد أضحيت تلوذ بالصمت وكنت ذات يوم لا تحل بمجلس إلا وأنصت القوم لهذا الحديث الذي لا تتكلفه ولا تبحث له عن وسيلة تروقه بها، إنه حديث الفطرة الذي ما إن يخرج من بين شفتيك حتى يستقر في أعماق المُنْصِتِينَ لك ـ وكنتُ كثيراً ما أسأل نفسي: أي نَبْعٍ هذا الذي يتدفق منه القول لديكَ؟ وأي سر ذلك الذي تنطوي عليه نفسك؟ فلا يستطيع الناس حتى وإن اختلفوا معك في الرأي أن ينكروا عليك هذه النعمة التي بدت آثارها في هذا الجمع الذي يكاد يتهافت على كل كلمة تلقيها على مسامعهم، ويجد آخرون على ما يكون لديهم من علم ومعرفة إلا أنهم يخفقون في التأثير على سامعيهم ومع هذا فهم يحاولون المرة تلو الأخرى وبهذا تصبح المعضلة لديهم ذات شقين.

أنت يا صديقي لم تجر وراء هذا المطلب ولم تكلف نفسك عناء البحث عنه، ولكن الله منحك إياه كما يمنح جميع عباده ما يريد، وهو القادر وحده أن يمنع عنهم ما يريد. وكيف لا يمنحك الله نعمة كهذه ولقد كنت تبحث عن الضعفاء من عباده فتأويهم؟ تأويهم إلى نفسك وتغدق عليهم من مشاعرك ولا تشعرهم بأنك متفضل عليهم بل ترى حقيقة أنهم

ذوو الفضل وأصحاب المنة فانطبق عليك قول زهير:

تــراه إذا مــا جــئــتــه مــتــهــلــلاً كـأنـك تـعـطـيـه الـذي أنـت سـائـلـه

وكيف لا يكون لعباراتك هذا الحضور وقد قتلت هذه النفس، لقد قتلتها عندما طهرتها بذكر الله والثناء عليه ولم تدع لمطامع الدنيا وشهواتها أن يكون لها مرتع خَصْبٌ فيها، أنت يا صديقي عرفت الدواء الذي يعالج كل ما في هذه النفس البشرية من جموح فأحسنت استخدامه. ومن الناس من إذا أصابه داء حسي سعى إلى جرعة الدواء يأخذها في وقتها المحدد. وإذا ما اعترى نفسه داء معنوي لم يلق له بالاً وتركه يستشري في أعماقه. ومن هنا تأتي ظلمة النفس وانغلاق البصيرة وفساد الإِحساس. لقد قضى ذكر الله وشكر نعمته والتأمّل في ملكوته على تلك النوازع الشريرة التي قد تصيب النفوس بحكم فطرتها البشرية. كما أن ما عالجت به نفسك أعطاك أيضاً المنحة ومنحك القدرة على التَّمييز بين ما يُرْضي الله وما يسخطه. وإذا رضي الله عن عباده جعل الناس كافة تأنس بهم فتهرع إلى مجالسهم وتسعى للقرب منهم.

تلك مناقب قد يتقاتل الناس، لو كان بوسعهم ذلك، في سبيل حيازتها ولكنها تتمنع أي تمنع على غير أهلها وتأبى أن تكون من نصيب الذين لا يعطون لنفوسهم حقها كما يعطون لهذه الأجساد ما تحتاجه من طعام وشراب. ولو أرادوا أن يتأقلموا في هذا المطلب حقيقة لسألوا أنفسهم: هل قصدنا وجه الله عندما كتبنا أو حدثنا؟ وهل أخلصنا للعمل الذي انتدبنا أنفسنا له؟ هل نحن مؤمنون بما نقول؟ ومدركون لأبعاد ما نلقيه على أسماع الآخرين؟ وإنه ليحضرني دوماً هذا المثال العجيب الدال على الإِخلاص والخشية من الله والسعي إلى رضاه. فلقد وقع نظري على

عبارة في ترجمة إمام أهل الحديث.. الإِمام البخاري ـ رحمه الله ـ وأخالها في (الأدب المفرد) فلقد كان ـ رحمه الله ـ يصلي ركعتين في الروضة بمسجد النبي المصطفى عليه صلوات الله وسلامه قبل أن يدوّن أي حديث في كتابه الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله عزّ وجلّ. يصلي يطلب من الله الرشد في عمله والتّثبت من القول الذي يريد أن يدوّنه. تلك أخلاق السلف من علماء هذه الأمة. وهذه سلوكياتهم التي تركوها لنا نبراساً. ما أحوجنا اليوم نحن طلبة العلم إلى الاهتداء به والسير على ما يشعه من ضياء. ما أحوجنا إلى الضياء وما أشد شوقنا وحنيننا إليه!

(١٦)

ـ البلدة الطيبة تغرق أحياؤها في ظلام الليل. إلا أن هذا الظلام يُبدِّده ما ينبعث من بين منارة مسجدها وقبته من ضياء، وأفئدة البعض كثيراً ما يمكنها الحب من رؤية ذلك النور، والأدب والحب يمكنهما أن يدنيا بعيداً ويقصيا قريباً. أما أنت يا صديقي فقد فارقت أهلاً وتغرَّبتَ دهراً، وعانيت ضنكاً في سبيل أن يكون لك مأوى بالقرب من مثوى سيد الخلق ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ ويوم تحقق لك ذلك قلت لي ـ وإنني لألمح ذلك الوجد في أسارير وجهك. ما لي ولهذه الدنيا الآن وقد منّ الله علي بأن أدخل كل يوم من باب الرحمة وأخرج من باب السلام؟

ـ تطوف يا سيدي كل يوم في أرجاء طيبة، تقرأ التاريخ تتمثل الماضي وتعيشه في نفسك لتتواصل به مع هذا الحاضر. تمسك بيدي وتقول: انظر إلى هذا البناء القديم كم عاش بين أكنافه من الناس. كم شهدت الأرض هنا من صلاة وذِكْر. وكم سالت دماء طاهرة على أطراف هذه الأرض في سبيل أن تنتشر كلمة الإِيمان وترتفع كلمة الحق، في سبيل أن يستعيد إنسان هذه الأرض الطيبة كرامته وحرية نفسه. كان إنسان هذه الأرض في جاهليته مشدوداً إلى تلك الدائرة الضيقة. وجاء الإِسلام ليخرجه إلى دائرة أكثر اتساعاً. ويريد له البعض أن يرتكن إلى تلك الدائرة

التي تعبر عن ضيق الأفق، وقصر الرؤية، فويل لهم مما يفكرون فيه. بالإِسلام أصبح سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ رمزاً من رموز الإِيمان. وبالجاهلية الحمقاء والتعصب الأعمى أضحى أبو جهل القرشي رمزاً للكفر والطغيان.

أنت يا صديقي في رحلتك الطويلة إلى أرض الهدى والإِيمان، تذكرني برحلة ذلك الصحابي الجليل سيدنا سلمان الفارسي الذي كان يتشوّق قلبه لمعرفة الحقيقة. وتدعوه فطرته للبحث عنها. فظل يقطع المسافات، ويطوي المراحل. ظلت المعرفة رائدة، وأشواق الروح دليله، حتى استقر به المقام في الأرض ذات اللابتين، يزرع النَّخل في تربتها، يسقي الثمار في أرضها، وكان بزراعته وسقياه، إنما يزرع تاريخه ويسقي ظمأ روحه وتطلعات نفسه.

ـ هناك في المسجد الزاهر، في الصفَّة العامرة بأهل الإِيمان، جاء سلمان يحمل أطباق ثمر النخيل الذي جد في استنباته في أرض الهدى. جاء بالثمر يقدمه للمصطفى ﷺ هدية فيقبله ويقدمه تارة أخرى صدقة فيوزعه على أصحابه من أهل الصفة. ـ رضوان الله عليهم ـ ويوم تيقن من العلامات والدلائل التي قرأها في كتب الأديان السابقة عن ظهور نبي الإِسلام، مَنْ تُـخْـتَـمُ به النبوة، ويعم نور رسالته أرجاء هذا الكون، يوم بلغ السؤال لديه الغاية، طابت نفسه ووقر الإِيمان في قلبه، واعتنقت روحه الإِسلام عن رضاً وطواعية، فأكرم المصطفى ﷺ تلك الشخصية الفذة في تاريخ الإِسلام، بقوله الذي لا يقبل الشك ولا يستطيع أحد أن يجادل فيه، بقوله النبوي البليغ: «سلمان من أهل البيت».

ـ يا صديقي إننا اليوم نمر على مثل هذه المواقف الإِنسانية الرفيعة فلا

نحسن استخلاص العبر منها، ففي هذا الذي فعله الحبيب ﷺ مع سلمان ومع إخوة له من أمثال بلال بن رباح، وزيد ابن حارثة، وعمار وصهيب، رضوان الله عليهم، ما يجعلنا نفاخر الأمم الأخرى به. لقد طبق الإِسلام مقاييس حقوق الإِنسان والحرية والكرامة قبل أن تعلن الهيئات الأممية هذه الحقوق في عصرنا هذا، وقبل أن تنصب تماثيل هذه الحقوق ورموزها في ساحات الغرب وجامعاته. نعم لقد فعل الإِسلام هذا قبل أن يزايد المزايدون، ويجادل المجادلون على أن حضارة الغرب كانت هي السبّاقة في هذا المضمار. ولكن الذي ينقصنا حقاً هو ألا نكتفي بترديد مثل هذه السير وقراءتها. نحن بحاجة إلى أن نؤمن بها حقاً كما آمن بها رسول الهدى عليه صلوات الله وسلامه وصحابته رضوان الله عليهم والسلف الصالح من هذه الأمة. نحن بحاجة إلى أن يجعلها كل فرد من أمة الإِسلام دستوراً له يطبقه، ونبراساً يستضيء به، عندئذٍ نكون قد انتصرنا على مواقع الضعف في نفوسنا، وهذا يهيئ الطريق للانتصار على أعدائنا حضارة وخلقاً وسلوكاً.

* * *

(١٧)

ـ لقد هَمَسْتَ في أذني، يا صديقي، بأن الدرب لم تعد تلك الدرب التي تعرف، وأن الطريق قد تغيرت معالمه عليك تغيراً أنكرت معه كل شيء كانت نفسك تحبه أو تميل إليه. ولعلّك ذكرتني وكنت ناسياً كيف أننا قصدنا (العالية) ذات يوم وفي وقت الضحى فلم نكن نسمع إلا وقع أقدامنا وصدى أصواتنا ولم تقع أعيننا إلا على ذلك الرجل القابع أمام داره وقد بسط إزاراً تتناثر حول جوانبه بعض من تلك الأشياء الصغيرة والبسيطة التي كانت تتناسب مع بساطة الحياة وعفويتها. لقد تركتك تتحدث مع ذلك الرجل وجلت ببصري في أنحاء (العالية) فتراءت لي أشجار النخيل، ولم يدر بخلدي يومها أن تلك الشجرة الحبيبة إلى النفوس سوف يقتلها الإِنسان بنفسه وبمحض إرادته، سوف يجتثها من فوق الأرض وإني لأتخيلها حزينة من قسوة هذا الإِنسان عليها، من استغنائه عنها واستبداله إياها بالحجارة الصماء التي تشيد بها الدور والمساكن. النفس يا صديقي تتصور دوماً، وبحكم فطرتها، أنها خالدة في هذا الوجود؛ فتقودها هذه النزعة إلى حب التشييد والبناء، ويدفعها هذا الشعور إلى حب تملك هذا المتاع الدّنيوي الزائل. وإننا يا صديقي نشترك جميعاً في هذا الشعور، وقلة نادرة من الناس تلك التي استطاعت أن تعوض هذا الإِحساس والشعور بأحاسيس ومشاعر أكثر التصاقاً بعوالم الروح ودنيا الأخلاق والفضيلة، وإنني يا صديقي لأعرف رجلاً ينتسب إلى هذه الأرض الطيبة

وكان عنده شيء من متاع الدنيا أقام عليه رجلاً من عامة الناس يدير له شؤونه. وسأله ذات يوم عن هذا المتاع أو بعضه فما كان من الآخر الذي يدير مصالح وشؤون هذا الرجل إلا أن يقدم له سندات بالمبالغ التي استدانها بعض الناس من ماله وتأخروا في سدادها أو ماطلوا في دفعها. فلم يكن من صاحب المال إلا أن يبتسم ابتسامة ظن الشخص الآخر أن صاحبها يخفي وراءها رغبة في الثأر لنفسه والمطالبة الشرعية بحقوقه. ولكنه اندهش عندما قال له الرجل: مَزِّقْ هذه السندات فأنا لا أتصور نفسي واقفاً مع خصم، ولا شاكياً لإِنسان ولا متسبباً في خدش كبريائه وكرامته الإِنسانية. لقد تخلى عن حقه، لقد نسي المال أو بالأصح لم يجعل له سطوة على نفسه، لقد تغلب فيه جانب الخير، لقد ارتفعت نفسه إلى آفاق الفضيلة والتحمت بها فكان هذا السلوك النادر والخلق الكريم.

تتوق نفوسنا يا صديقي لرؤية مثل هؤلاء الرجال الذين ودعوا الحياة في صمت وتركوها في هدوء. كانوا في الدنيا مثل حلم جميل وطيف زاه. كانوا للناس مثل سحابة المطر التي تروي الأرض وتستنبت الزرع. النفوس أجدبت يا صديقي، فأين زخات المطر؟ والقلوب صدئت، فمتى ينبثق النور؟ متى نشهد يا صديقي طلعة الفجر الصادق؟ فجر يفجر ينابيع الحب في نفوسنا، يُقْصِي عنها أنانيتها، يطهِّرها من أسوائها، يدنيها من بارئها، يا صديقي أتراك تسلِّكني الدَّرْبَ؟ أتقودني إلى النبع الصافي الذي شربت منه نفوس القوم؟ أم سوف ترجع بي إلى حيث بدأنا وتقول: إن الدرب أمامك ولكنك تحتاج إلى أن تبصر، وإن النبع بين يديك وقريب منك ولكنه لا ينبئ عن نفسه إلا لمن جدوا واجتهدوا. وإنني لقائل لك: إنني سوف أسير وأجدُّ في البحث حتى أصِلَ النَّـبْـعَ. فالروح مني عطشى ولا يرويها إلا ماء المعرفة..

(١٨)

ـ إنني لأذكر يا صديقي لقاءنا الأول بين الساحتين. لقد امتدت الأيدي وسبحت الأرواح في فضاء واحد، فضاء الحب والألفة والصفاء، ولكأن الفضاء الذي كان يقوم في عالم الحس أمامنا كان له ما يوازيه في عالم الروح، لقد تلاشى ذلك الفضاء الذي كان يعمر بين المغرب والعشاء، ويخلو من زوّاره ومُريديه إذا ما خف الناس إلى دورهم ليلاً، ولكن أرواحنا يا صديقي لم تزل تسبح في ذلك الفضاء الآخر الذي لا تحده الحدود وتعجز عن وصفه الحواس. اللغة هنا تقف عاجزة، ولا تقوى على الانطلاق. وتتركنا حيرى إزاء أشياء عديدة نحسها ولا نستطيع البيان عنها، بل إن ألستنا لتنعقد، ومداد كلماتنا يتوقف، وفي ذلك الدليل على أن الإِنسان أَلِف عالم الحس فتوقفت به مداركه وقدراته عند ذلك، وعندما يسعى لاختراق العالم الآخر الموازي لهذا العالم يكون العجز من نصيبه. ولكنه مع ذلك العجز ليشعر بالدهشة ويحس بالرغبة في الانطلاق، ويتطلع إلى التحليق. وقلة من بني البشر ممن وهبهم الله الأجنحة التي يستطيعون أن يحلقوا بها في تلك العوالم التي غاية ما يتطلعون من ورائها أن تصيبهم قطرات ندية من أجوائها، يعودون بعدها مُحمَّلين بمقامات الحب والصفاء، الحب الذي يجعلهم يبتسمون عندما يستبد الغضب بالآخرين، ويصفحون عندما لا يستطيع نظراؤهم من بني البشر التخلص

من نوازع الثأر أو دواعي الانتقام. تلك المقامات التي تحملهم على رؤية الجمال في موجودات هذا الكون وهي التي تمدهم أيضاً بالقدرة على إضفاء صفات الجمال والحس على كل مظاهر هذا الوجود الذي تضيق عن تحمل أعبائه النفوس، وهو شعور طبيعي لا غرابة فيه ولا يعتبر شذوذاً الإِحساس به، ولكن التعالي على مثل هذا الشعور أو محوه من النفس هو نعمة يسديها خالق هذا الكون ومديره لبعض عباده، وأعظم بها من نعمة وأكرم بها من مزية. تلك المقامات ـ يا صديقي ـ هي التي تطهِّرُ نفوسهم من حقد قد يحمل النفس على ارتكاب ما تعده هي في أوقات أخرى وزراً في حقها قبل أن يكون وزراً وسوءاً في حق الآخرين. هي التي تجعل ذلك الحقد يتفتت ويذوب كما يذيب الماء الصّخور ويفتتها. الحب ـ يا صديقي ـ هو ماء الحياة الذي ظل الإِنسان في مسيرته الطويلة يبحث عنه ويَجِدُّ في طلبه ويتصوره دوماً بعيداً هناك عند مغرب الشمس حيث لا ضياء ولا دليل ولا أثر..

يا صديقي يا مُوقدَ الشّموع في ليل الأحزان، يا صَانعَ الحب في زمن النسيان، أعدني إلى مواطن الأحباب وأسمعني أصواتاً طالما تغنت بالجمال الذي تبدى لها في عالم الروح، أليست هي الأصوات التي صنعت الشوق في نفوسنا، ونحتته في دواخلنا؟ أليست هي الأصوات التي كانت تدفق الوجد فينا، وتمنحنا الرغبة في الإِبحار إلى ذلك العالم المجهول، عالم النفس الذي أعيانا البحث في رغباته وتطلعاته؟ فهي رغبات كثيراً ما تتناقض، وتطلعات لا تكف عن طلب المزيد. أعدني يا صديقي إلى المنبع فهناك دوائي وهناك المطلب.

(١٩)

لقد ذهبوا، يا صديقي، جميعهم وتركوني وحيداً أُعاني غُرْبَةَ النفس ووحشة الروح، وأتلظى بتباريح الوجد وآلامه، ولكم قضيت الليالي أسأل نفسي: كيف تأتَّى لهم أن يخلفوا وراءهم هذا الذهن الذي ذهب مضاؤه من فرط ما يرد عليه من خواطر وما تتردد أمامه من أسئلة وما ينشغل به من تفكير؟ كيف طاب لهم أن يروا علة النفس فلا يصفون لها الدواء؟ واشتياق الروح فلا يَردُون بها على المنبع؟ وأسألك: أين هو المنبع الذي شربوا منه؟ فأراك تغمض عينيك، تلوذ بالصمت وتهرب إلى عوالم أخرى يصعب عليَّ أن أسلكها و أَنْ أسير بين جنباتها. ويستحيل علي الوصول إلى مرافئها، أو بلوغ غاياتها. أسألك فيجيبني الدمع من عينيك، ويتوسل إلي ذلك الدمع بأن أكف عن السؤال وأن أرْضَى بالحال، يأتيني الإِشعاع قوياً من عينيك لا أتحمله وينبثق الضياء من صمتك، فيعييني تدبره. أنت تصمت والناس يتحدثون وكم يكون الصمت بليغاً والبيان عجزاً، لأن صمت الصادقين يحفظهم من الابتذال بينما تنصرف النفس عن بيان الكاذبين لأنه يتسبب في إيذائها. أنت لديك ما تعطيه ومع هذا فالتواضع يحملك على أن تكون في مقام المتلقي والمستمع، وغيرك أرض بوار وماء أجاج ومع هذا يصر على ترداد القول ويطمع في أن يكون الآخرون تلامذة بين يديه يتلقون عنه حديثاً هو أول المفكرين له والمتشككين في فحواه.

وأنت يا صديقي إذا ما أحببت لم يحملك حبك على أن تغالي فيمن تحب أو تغمض العين عما يعتري سلوكه من اعوجاج أو ما يصيب نفسه من تغير. فأنت في الأولى مُحبٌّ مُقتصد وفي الأخرى ناصح أمين. وغيرك يا صديقي إذا أحب دفعه حبه إلى أن يرى سيئات من أحب حسنات، ونقائصهم شمائل عن الوصف قاصرات. وأنا أعلم يا صديقي أن مخالفتك الرأي لمن لا تحب لا يدفعك إلى الانتقاص من أقدارهم، ولا يقودك هوى النفس إلى التلذذ برؤية معاناتهم. وما ذلك إلا لأن الضمير فيك ما زال حياً. والضمير تصنعه المعرفة ولا تصونه الثقافة، ولكنه ينمو مع المرء إذا ما خشي الله في السر كما يخشاه في العلن. وإن من يؤدي حقوق خالقه صادقاً لا ينتقص منها شيئاً كان جديراً بحمل الأمانة وأدائها. فلا حب الناس يدفعه إلى مداراتهم ولا مخالفته الرأي لهم يقوده إلى إيذائهم. إن القوة في كبح جماح النفس وفي مساءلة الذات وحسابها حساباً عسيراً إذا ما أرادت أن ترد بصاحبها موارد الهلاك..

يا قائماً بالليل يتدبَّر صُنْعَ البارئ في الملكوت، يا حسن القول إذا ما أخطأ الناس الطريق، لمن تركت بعدك الحي وأهله والمجلس وصفوته؟ لقد غابت طلعتك واختفى ضياء وجهك، وافتقد كثيرون بعد رحيلك كلمة الحب في الزمن الصعب والليل الطويل.

* * *

(٢٠)

ـ يوم تطأ قدماي الأرض المباركة تقفز صورتك وحدها إلى ذهني يؤرقني الشوق إلى رؤياك فأجد نفسي أقطع هذا الطريق بين (قباء) و(صيَّادة) أتمعن في وجوه القوم الذين ينتشرون على أطراف ذلك الشارع الكبير (مناخة دِيرُو) كل شيء يا صديقي في هذا الوجود إلى الزوال!، نعم، أنعم النظر في تلك الوجوه فلا أجد بينها وجهاً مشرقاً كوجهك، ولا قامة مديدة كقامتك، لا أعلم فلربما الإِعجاب كان يحملني على مثل ذلك التصور، أو هذا الاعتقاد..

ـ أطرقُ طرقاتٍ خفيفة على الباب فأنا أعلم أنك في تلك السن أضحيتَ تحب الهدوء وتميل إلى العزلة، كما كنت أعرف أن قلة نادرة من الناس تلك التي كنت تنزع إلى الإِفساح لها في مجلسك وتخصها بعطفك ورعايتك. يُفْتَحُ ذلك الباب برفق وتقف أنت خلفه تنظر إليّ نظرات أشعر معها بدفء الحب الأبوي ودفق العاطفة الصادقة. أجلس في تلك الغرفة التي يبدو لي أن كل شيء فيها قد وضع في مكانه المناسب. النظام شيء أساسي في حياتك، والجمال كنت تبحث عنه في أَثر قديم تعتني به، وكتاب مفيد تحتفظ به لنفسك ولا تبخل على الآخرين أن يفيدوا منه إذا رغبوا. وخارج تلك الغرفة التي يسري الجمال في كل قطعة تضمها، خارجها كانت

تقوم شجرة طويلة، فريدة في شكلها، تلك الشجرة التي تقف في تلك البقعة الخضراء من الدَّار والمحوطة بسياج من الحديد الذي لا يخلو هو الآخر من جمال في صنعه أو تزويقه، كل ذلك يذكرني بمناحي الجمال المترسخة في نفوس القوم الذين قال رسول الله ﷺ واصفاً إياهم حق الوصف: «إن الأنصار قوم فيهم غزل»، وإن من أول الناس الذين تنزع نفوسهم إلى الجمال هم شعراء تلك الأرض الطيبة وأدباؤها، أتذكر الآن: الأبَّارية، والأنورية، والأخَوين، وبستان أم الشجرة، والمَصْرع.

أستمع إلى حديثك الذي يتردد صداه في تلك المساحة من الدار التي كانت لك بمنزلة الصومعة تحتمي بها من هجير الحياة ومن تقلّبات الدهر. تأنس إلى أشكال القوم الذين علقت صورهم أمام عينيك. إنهم لا يغيبون عنك، يوجدون معك في ذلك القلب الكبير الذي كنت تحمله. والعظماء ـ يا صديقي ـ يقضون هذه الحياة في غربة يشعرون بها ولكنه يصعب عليهم وصف معاناتهم ـ والعظماء ـ يا أبتاه ـ يخلدهم التاريخ لأنهم استطاعوا بمآثرهم وأخلاقهم أن يتركوا أثراً في مجراه، أن ينقشوا حرفاً على حائطه، وأن يعزفوا وتراً في مقطوعته الخالدة. وأنت كثيراً ما نقشت الحرف الصادق، وعزفت الوتر الشجي، وتر الحب والوجدان، وكثيراً ما تردد ذلك الصوت الصادق في أعماق القوم الذين يفقهون أَنَّه صادِرٌ عنك، وقادم من خلف الأبواب التي أقمتها حجاباً بينك وبينهم. وإذا كانت الكلمة مجردة من الكثافة مما يجعلها قادرة على السمو والتحليق، فإن في بعض القلوب شفافية تجعلها قادرة على التقاط الكلمة والتفاعل معها، فهي لها بمثابة الدواء للعليل الذي لا يستطيع التوقف عن تناول علاجه متى ما حان وقته وأزفت ساعته.

يوم غابت صورتك غاب من حياتنا ـ يا صديقي ـ الصوت والصدى. ويومَ رَحَلْتَ رحلتْ معك الشجرةُ التي كنا جميعاً نهرع إليها ونتفيأ ظلالها، ويوم جاءني خَـبَـرَ نَـعْـيك لم أذرف الدموع فقط على رحيلك الذي كنت لا أقوى على تصور حلوله، ولكني وصدتُ الباب الذي كنت أقيم خلفه خوفاً من هجير هذه الحياة.

أشجان الشامية

صورة أدبية لمكة المكرمة في العصر الحديث

تقديـــــــم

أن يقدم المؤلف لكتابه، فهذه عادة مألوفة في كثير من المصنفات العربية. غير أنه من المؤكد أن كتابة المقدمات بواسطة الغير عادة غربية.. أو هو أسلوب غربي في التأليف، بدليل أن الذي يراجع كتب التراث عندنا والمصنفات الحديثة حتى عهد قريب لا يجد فيهماً شيئاً من ذلك. فلا الجاحظ قدم له أحد، ولا ابن قتيبة قدم له أحد، ولا ابن قيم الجوزية قدم له أحد، ولا الشاطبي قدم له أحد. وعندما اجتاحت حياتنا الفكرية رياح هذا التقليد وأصبحت كتابة المقدمات ظاهرة في معظم المصنفات الحديثة نحا كتَّاب المقدمات مناحي متعددة.. فريق آثر أن يقوم بدور كاتب المذكرة الإيضاحية التي تصحب عادة القوانين، فيستعرض أبواب الكتاب وفصوله دون أن يضيف شيئاً. وفي اعتقادي أن هذا النوع من كتّاب المقدمات يمثلون عبئاً على الكتاب وعلى القارئ. وكلاهما (الكتاب والقارئ) ليسا في حاجة إليه. وفريق اعتبر أن التقديم يفرض عليه واجب المديح والثناء، فلا يعبأ بشيء، فيغرق في المديح ويفرط في الثناء، يكيلهما على المؤلف والكتاب بدرجة ممقوتة، ربما تحرج المؤلف مرهف الحس، أو العارف قدر نفسه. وقد أوقع هذا النهج كتّاباً كباراً في ورطات أصبحت شهيرة. فهذا شاعر كبير يقدم لديوان أحد الشداة فيقول إن في شعره حكمة المتنبي وطراوة البحتري ونكهة جرير. وهذا أديب كبير يقدم

لتهويمات كاتب ناشئ فيضعها في مصاف الأعمال الإبداعية الجديرة بالاقتداء، وفريق نهج نهجاً مختلفاً فهو ينظر للكتاب كعمل علمي مستقل كل الاستقلال عن صاحبه.. لا اعتبار للصداقة التي تربط بين كاتب المقدمة والمؤلف ولا اعتبار للأستاذية التي تدفع الأستاذ عادة لكي يأخذ بيد ابنه التلميذ. ولا اعتبار للمركز أو المقام الذي يحظى بالاعتبار في أوساط فكرية عديدة. وهذا النقد العلمي الذي يعتمد على التقويم الصحيح والموضوعية هو النقد المطلوب.. وهو الذي يدفع بالعمل (قصة، شعراً، نثراً، مسرحاً، سينما)، إلى التقدم والازدهار.

لم تعد كتابة المقدمات طبقاً لهذا النهج الأخير مجرد شهادة روتينية بحسن السيرة والسلوك، تصدر عن غير بصيرة كتلك الشهادات التي يحصل عليها إنسان من الجهة التي يعمل بها لمجرد أنه يود الحصول عليها ويريد تقديمها لجهة ما.

استعرضت هذه الاتجاهات المختلفة في التقديم، وهي لا تمثل كل الاتجاهات بالطبع في اللحظة التي عرض علي فيها صديقي المؤلف كتابة التقديم. والقارئ يعلم أن محتويات هذا الكتاب سبق نشرها في الصحافة. وكنت أتابعها حلقة حلقة؛ ولم أُخف إعجابي بها في كل مناسبة. فنحن في حاجة دائماً إلى أن نقرأ عن الماضي ولا يتعارض ذلك مع التطلع للمستقبل. فالذي لا ماضي له لا مستقبل له. ونحن في حاجة إلى أن نُذكّر على الدوام بقدواتنا من الرجال في المجالات كافة وأن نكثر من الحديث عنهم والإشادة بهم خاصة أمام الأجيال النابتة، لنغرس في حياتهم التقدير بعد أن أصبحنا لا نجد لهذه الكلمة معنى حتى في قواميس اللغة. نحن في حاجة لأن نُعرِّف الجيل الجديد بكل شيء عن تاريخه القديم

والحديث؛ كي لا يتغربوا أي لا يصبحوا غرباء في أوطانهم.

وهذا العمل الذي بين أيدينا اليوم فيه أشياء كثيرة من هذا الذي نريد أن نحفظه في السجلات قبل أن يُنسى. فيه أشياء كثيرة من هذا الذي نريد أن تقرأه الأجيال الحاضرة والقادمة. صورة جميلة من تاريخ مكة المكرمة وماضي الحياة الاجتماعية فيها. والمؤلف يظلم نفسه حين يحصر كل هذا الحشد من الذكريات، الحياة والناس والمجتمع، في (حي الشامية). فالكتاب يتجاوز ذكريات المؤلف في ذلك الحي.

حين تسلمت المجموعة كاملة من المؤلف واستعدت قراءتها أخذ عقلي يخاطب عاطفتي وأخذت عاطفتي تخاطب عقلي: في أي اتجاه سوف أسير؟ وهناك أسباب كثيرة وترسانة من المبررات تجعلني أقف إلى جانب صاحب هذا العمل من غير تفكر أو تفكير. فأنا أولاً تربطني صداقة وطيدة بمؤلف الكتاب وإن قلت يربطني به حبّ. وأنا ثانياً، من المعجبين بثقافته وأستاذيته. وأنا ثالثاً، من المحتفين على الدوام بأسلوبه ومنهجه الفكري. وأنا رابعاً، كنت محل تكريم المؤلف حين اختارني من بين كوكبة من الكتّاب لتقديم كتابه. وأنا خامساً من أبناء مكة المكرمة، وهوى المؤلف ـ وهو من أبناء المدينة المنورة ـ مكيّ، ويظهر ذلك بوضوح في علاقاته بأهل مكة واجتماعاته الدائمة برجالها واهتماماته المستمرة بحالها وأحوالها. ألا يعمل هذا الهوى والأسباب التي ذكرنا في نفسي شيئاً ما، يعطيني مبرراً للمجاملة.. يعطيني مبرراً لكيل الثناء! إني لو فعلت غير ذلك لجلبت على نفسي متاعب من أبناء مكة المكرمة أنفسهم الذين يقدرون للرجل حبه لمدينتهم، وتقديره لرجالها، وجهوده في إعداد هذا الجانب لواقع الحياة الاجتماعية لمدينتهم. لقد عذرت كاتبي المقدمات، حين

يجنحون إلى المجاملات والإفراط في الثناء لكن لو اخترت هذا الطريق لوجدت غداً من يقول: لقد ناقض كاتب المقدمة كلامه وانجرف إلى مدرسة، عبَّر عن مقته لها.

ولو اخترت طريق النقد لوجدت غداً من يقول: لقد تنكر كاتب المقدمة لأبسط المبادئ التي تحكم علاقات الناس في مجتمع صغير كمجتمعنا يعرف الناس جميعهم بعضهم بعضاً، في مجتمع يقوم على الاعتبارات الشخصية والمجاملة. وسوف أستجيب لهذا الخطاب ولكن من خلال هذه المقدمة أكرر عميق أسفي وحزني على وفاة النقد الذي بوفاته تأثرت الحركة الفكرية عندنا كثيراً. ودعك من نقد ممجوج تقرأه اليوم وتستهجن كاتبه في حينه. ودعك من نقد يدعيه أحد اليوم وهو لا يعرف أبسط قواعد النقد. وما يسمى بالنقد الذي نقرأه في صحافتنا هو كما يقول أحد مثقفينا المعتبرين هرطقة بواعثها شخصية، تعكس فاقة ثقافية وضحالة فكرية.

محمد عمر العامودي

لماذا هذه الأشجان؟

عندما دفعت بفصول هذا الكتاب إلى الصديق الكريم الأستاذ محمد عمر العامودي ليكتب مقدمة له، كنت أشعر بإحساس المقصر وشعور العاجز. ومرد الشعور الأول بأنني لم أستطع أن أُوفِّي حق البقعة المقدسة عليَّ، ففي صحن البيت جلستُ مستمعاً لحلقات الدرس التي كان العلماء الأفاضل يخصُّون فيها مريديهم بكثير من العطف والحدب والرعاية فيجذبونهم بذلك الأسلوب التربوي الرفيع ليعرفوا شيئاً عن هذا الحقل العلمي أو ذاك، وليعمقوا في دواخلهم روح المعرفة الحقة والمتجردة. فلم يكن مشائخنا على فضلهم وعلو منزلتهم العلمية يكتبون تحت أسمائهم من النعوت والصفات شيئاً ولكنهم كانوا يكتفون بعبارة موجزة وصادقة ومؤثرة ألا وهي: (خادم العلم بالحرم المكي الشريف)، أو بعبارة أخرى يردُّون فيها الفضل إلى الخالق العظيم الذي مَنَّ عليهم بذلك العطاء، إنها المقولة التي كادت تختفي من كتب العلم وهي: (العبد الرَّاجي رحمة مولاه).

ولم يكن الفتى يقتصر على الجلوس في تلك الرَّحبة الممتلئة بالطائفين والرّكع السجود، بل كانت قدماه تقودانه إلى (العُتيبية) و(حارة الباب) و(المسفلة) و(طلعة الحجون)، ليلاحق ذلك النفر من أهل العلم الذي لحق بجوار ربه وخلَّف تلك السمعة الطيبة خلفه. فلا يُذْكَرُ ذلك الجمع الطَّيب

من العلماء إلا ويفيض الدمع من العيون مقروناً بالدعاء والرحمة والغفران لهم. كما كان صاحبنا مولعاً بمكتبة الشيخ (الفِدَا) حيث كان يلمح الشيخين الكريمين الأستاذ الأديب محمد سعيد العامودي ـ رحمه الله ـ والشيخ رشيد فارسي ـ أمدَّ الله في حياته ـ. ويصعد إلى سوق اللَّيل ليؤم مكتبة (الثقافة) فيجد الأخوين الكريمين الأستاذ صالح وأحمد جمال ـ رحمهما الله ـ، وصديقهما القائم على أمر المكتبة السيد محسن عطاس ـ رحمه الله ـ، الذي وصفه أستاذنا الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان، فقال ما معناه: إنَّه فقيهٌ شافعي مُتمكِّن. وكان يلمح رجلاً ضعيف البنية، قليل الكلام يجلس أحياناً داخل المكتبة، فقيل له: إنه الشاعر حسين سرحان. ولم ينسَ الفتى مجيء البعض من أهل طيبة الطيبة، وكان بينهم السيد حسين إدريس هاشم فيأخذونه معهم إلى دار معالي الأستاذ حسين عرب التي كانت تُعدّ في ذلك الوقت بعيدة نسبياً عن وسط البلدة الطاهرة، فيرى في مجلسه أو مُنتداه العالم الموسوعي أحمد عبد الغفور عطار ـ رحمه الله ـ وكان العطار ذلك الفارس المجلّى في حلبة البيان ـ آنذاك ـ يخشى سطوة قلمه بعض أنداده وكثير من الجيل الذي كان يتطلع ليحتل موقعاً في ساحة الأدب والأدباء. ولم ينسَ ذلك اليوم الذي صحبه فيه الشيخ المفضال عبد الله بصنوي ـ رحمه الله ـ إلى دار المرحوم الأستاذ عبد السَّلام السَّاسي في الحجون، وقدَّمني له شيخ الشامية بصوته المنخفض فإذا هو يبكي ـ أي الأستاذ السَّاسي ـ ويقول: لقد نشأتُ مع أبيك في المدينة وكانت بيننا من أواصر المحبة ما يجعلني أسمرُ معه ليلاً، ثم أصبحتُ آتيه زائراً في (المسيجيد) حيث مقرُّ عمله.

وكانت فرحتي كبيرة عندما أخرجَ الأستاذ السَّاسي بعضاً من أجزاء

موسوعته فكتب عليها إهداءً خاصاً ما زلتُ أشعر بالزهو عندما أقرأ عباراته التي كُتبت بخط جميل متناسق.

صاحب هذه الفصول المتواضعة حَظِيَ بالجلوس إلى جملة من علماء الحرمين الشريفين من أمثال السيد الفاضل صاحب الصَّوت المتميز بياناً وأداءً علوي المالكي وابنه السيد المحدِّث محمد بن علوي المالكي، والسيد حسن بن سعيد يماني، والشيخ الراوية حسن المشَّاط، والسيد محمد أمين كتبي صاحب الحوليات الشعرية المشهورة، والشيخ محمد نور سيف، والشيخ محمد ياسين الفاداني الذي قيل عنه إنه مُسْنَد العصر، والشيخ زكريا بيلا، والشيخ عبد الله دردوم، ومحمد مرداد، وعبد الله اللحجي، وإسماعيل الزَّين، ومحمد عوض، وأحمد جابر، وطه البركاتي، ومحمد المختار الجكني، والسيد المنتصر الكتاني، والشيخ سعيد حوَّى، والشيخ حسن الشاعر، والشيخ أحمد عبد الجواد، والأستاذ الحافظ عبد الستار بخاري، والشيخ الفقيه عطية محمد سالم، والشيخ جعفر إبراهيم فقيه، والشيخ المؤرخ محمد الحافظ، والشيخ القارئ عبد العزيز بن صالح، والشيخ عبد الرحمن مُضَّاي الجُهني، والأستاذ الأديب محمد حميدة، والأستاذ الذي قضى حياته ناسكاً متعبداً عبد الله سلامة الجهني، والشيخ الحافظ الخطيب عبد الله عبد الغني خياط، والأستاذ عبد الرزاق بليلة، والسيد عقيل حمدي، رحم الله من ذهب منهم وحفظ البقية الباقية من أهل العلم والفضل.

فإن كان الفتى قد حظي بالجلوس لكل هؤلاء الأفذاذ من العلماء والشيوخ فإنه يدينُ لرجل مكة ونور مجالسها المرحوم الشيخ عبد الله بصنوي بالشيء الكثير، فلقد نزع هذا الرجل من نفسي ـ بخلقه الرفيع ـ

مشاعر الغربة التي كنتُ أحسُّ بها عندما انتقلت إلى مكة دارساً في كلية الشَّريعة، كان إذا ما دخل الدار العامرة في حي الشامية طرق باب (المجلس) الذي كنتُ أقيم فيه طرقاً خفيفاً وسألني عن حالي. وإذا ما تأخرت في النزول إلى (مركازه) في حي الشامية أرسل إليَّ مَنْ يدعوني. فالأحباب قد حضروا، والمجلس ازدانَ بتلك الوجوه النَّضرة، حتى إذا ما قدمتُ داعبني قائلاً: الإخوان يسألون عنك فلماذا تتغيَّب عنهم؟ كانت هداياه إليَّ من الكُتب الأدبية لا تُحصى، وفضائله عليَّ من الكثرة بحيث إنني أدعو له في صلاتي كما أدعو لوالدي ـ رحمهما الله ـ فما كان بينهما من ود ومحبة هو السبب في تلك الرعاية التي خصَّني بها الشيخ البصنوي ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ على مدى عقدين من الزَّمن. ولعلَّ هذا يُفسر شيئاً من شعور العجز إزاء وصف تلك الرعاية التي حظيتُ بها في كنفه. وإن نطقتُ بشيء أو دوَّنتُ طرفاً من سيرة هذا الرجل الأسطورة، فإنما حالي كما قال شاعر مكة وعالمها فضيلة السيد محمد أمين كتبي ـ رحمه الله ـ:

أنطقتموني بالثناءِ عليكم، فغدوتُ أفتن
والحبُّ ينطقُ كلَّ ذي لسنٍ بمَنْ يهوى وألْكن

في الختام لا بدَّ أن أتوجه بالشكر لصاحب الكلمة المقروءة في صحافتنا المحلية الأستاذ محمد عمر عامودي لتفضله بكتابة مقدمة هذا الكتاب، ولزميلي الناقد الدكتور جميل محمود مغربي لمراجعته لمسودة الكتاب الأصلية وعلى ما أبداه من ملاحظات قيمة، ولزميلي الكاتب الدكتور راكان عبد الكريم حبيب على تشجيعه الحثيث لي لنشر هذه الصفحات من السيرة العزيزة على نفسي، كما أشكر السيد الفاضل الدكتور

سامي عنقاوي على تزويدي بصور نادرة للبلد الحرام ورجاله الكرام، وكذلك لسعادة العميد إبراهيم حمزة بصنوي الذي كان متفضلاً مثل ـ آبائه، بتمكيني من الحصول على بعض الصور الخاصة بوالده الأستاذ حمزة بصنوي وبشاعر مكة وخطيبها المعروف المرحوم الأستاذ إبراهيم فودة رحمهما الله ولا بد من تقديم الشكر للابن الأستاذ مروان قماش الذي جمع مادة الكتاب من مظانها، فلم أرَ منه مللاً، ولم يُشعرني في سعيه الكريم بضيق. كما لا بدَّ من تقديم الشكر لصحيفة (المدينة) ممثلة في جهاز تحريرها الكريم، ولأخي الأستاذ محمد إبراهيم عبد الستار ـ المشرف السابق على ملحق الأربعاء ـ الذي كانت متابعته الدائمة لي في الاستمرار في كتابة هذه الصفحات الممزوجة بعاطفة الحبِّ والشوق والحنين لأرض القداسات، هذه المتابعة من أبي سلطان ـ جزاه الله خيراً ـ كان لها دور إيجابي في نفسي يستوجب الشكر والعرفان له وللأخوة العاملين معه في الملحق الأغر. ولن أنسى تشجيع القارئ المتابع لما كنت أكتبه، وتذكير البعض لي لما كان يندُّ عن الذاكرة سهواً، وإذا كان البعض يرى أنني قصَّرتُ فلم أذكر شخصية هنا، أو نسيتُ حادثة هناك، فإنني أذكرهم ـ مع إجلالي وإكباري لهم ـ بأنْ لم أكن أكتب تاريخاً، إنما هو ضَرب من القول يمكن أن يُصنَّف ضمن إطار السيرة الأدبية المحضة التي لم تخلُ أحياناً من ومضات تاريخية أملتها ضرورة السَّرد الأدبي لهذه السيرة.

جدة ١٤١٦/١١/٤هـ

عاصم حمدان علي

(١)

لم أكن لأتصور أن يأتي يوم فأكتب سطوراً مثل هذه عن هذا الحي وأهله وشجونه فلقد تَشكل لدي ما يشبه الاعتقاد بأنَّ عيني لن تفارق مرأى هذا الحي، ما حييت أبداً. فالشامية هي الحي الذي سكنته بعد أن دفعت بي ظروف الحياة إلى البلد الأمين فعرفتُ من أهله صفوة من الرجال فيهم العلماء الذين تُردِّد جنبات البيت الحرام صدى أصواتهم في سكينة وخشوع، وفيهم القوم الذين يتحلون بأخلاق أهل العلم من هيبة ووقار، ووداعة وحب، وشجاعة في قول الحق ووفاء مع ذوي المروءة والفضل.

ولعلّ صلتي تعود بداية بهذا الحي إلى أواخر الثمانينات الهجرية. فلقد تعرفت في تلك الحقبة على وجيه من وجهائه وهو الشيخ عبد الوهاب خياط ـ رحمه الله ـ والد صديقنا الأستاذ فوزي خياط...

كان أهل مكة لا يطيب لهم المقام في كثير من المناسبات إلا في طيبة الطيبة، يأتونها زائرين بقلوب ملؤها الحب ونفوس تؤرقها الأشواق إلى رؤية مقام سيد الخلق ـ ولا يكاد يجاري أحد أهل البلد الحرام في حبهم لبلد الحبيب المصطفى عليه صلوات الله وسلامه. فهم يمشون فيه متأدبين وينتقلون بين أرجائه متعظين، وهم يرضون فيه بالقليل من الزاد والبسيط من المسكن. تكفيهم في رحابه ركعات يؤدونها في روضته، ووقفات

صادقة أمام حضرته الشريفة. وهم مع سعة صدورهم وولعهم بالمزاح البريء، إلا أنهم في طيبة الطيبة يخفضون الصوت ويذرفون الدمع ويحضرون مجالس الخير وقد حفتهم تلك الطمأنينة التي يخص الله بها كل متأدب في مواطن قداسته وربوع هديه وكل من حفته نفحات تلك الطمأنينة، فهو في سعادة لا شقاء بعدها، ونعيم لا كدر معه، وحب تنتفي معه كل جفوة مذمومة..

كان الشيخ (الخياط) يقيم في المدينة، ونلتف حوله نسعد بأحاديثه التي كان يلقيها على مسامعنا وكنا ـ يومها في مطلع العمر ـ فإذا أحاديثه تُقرِّبنا من شخصه وتحببه إلينا. ولا شك أن الأخوين الكريمين محمد إبراهيم عبد الستار والأستاذ مالك درار، يتذكران عن هذه الشخصية مثل ما أتذكر ويحتفظان في نفوسهما بالحب لأبي مصطفى مثل ما أحتفظ بعد مرور أكثر من ربع قرن من الزمن، على لقاءاتنا في قباء، والتاجوري والمناخة.

جئتُ مكة زائراً فسألت عن طريق الشامية فقدماي لم تسلكه من قبل وصعدت درجات مرتفع لم أعرف له مثيلاً في أحياء المدينة التي تتميز أرضها بالانبساط ووقفت على درجات الباب فإذا الشيخ الجليل ـ رحمه الله ـ يرحب بي ويحتضنني بكثير من الحب الذي كان يعمر نفسه الشغوفة بالآخرين ومعرفتهم والاستئناس بهم. أتذكر سؤاله لي: هل تريد أن ترى الدكتور هاشم؟ إنه يسكن هنا بالقرب منا. كنت على عجل؛ فقضيت سحابة ذلك اليوم في دار الشيخ الكريم وأبنائه، ولم يقيض الله لي رؤية (الدكتور) وهو لقب لرجل من أهل الشامية. ولكنني رأيت الرجل بعد سنوات عدة وهو يدخل من باب جبريل في المدينة وكان قد بلغ من العمر

عتيا. ويوم زرت أخي فوزي بعد استقراري في مكة رأيته يحيط صورة والده بأبيات شعرية لعلها من شعر نزار قباني. وتذكرت مقام الرجل بالمدينة وحبه للشعر والصوت الشجي، وحديثه الممتع للنفس، فذرفت دمعة صادقة عليه. وعندما حَدَّثتُ الشيخ الوالد عبد الله بصنوي يوماً عنه أجابني: ذاك رجل من خيار الناس. ولم أكن أعلم يومها أنني سوف أذرف من الدمع أغزره على أحباب عرفتهم في هذا الحي فيما بعد، وأنَّ صور القوم الذين لقيتهم في الأرض المباركة سوف تسكن أعماق نفسي ولن يكون مرور الأيام بقادر على انتزاعها من موضع استقرت فيه، وطاب مكوثها فيه.

(٢)

تعينني الذاكرة ـ بحمد الله ـ على تذكر مشاهدتي الأولى لك، الزمن هو عام ١٣٨٧هـ ـ والمكان هو شارع (العينية) المؤدي إلى الحرم النبوي الشريف، كان الناس يعتبرونه في الماضي الشارع المتفرد باستقامته بين شوارع البلدة الطاهرة، تزينه عقود نُحتت من الحجر، كما أن أرضه أدركتها في طفولتي وهي مفروشة بالحجر الذي تنبعث منه النسمات الندية عندما كان يرش بماء القرب (وهي أوعية لحفظ الماء مصنوعة من الجلد)، كان هذا الشارع يمتلئ بالناس في مواسم معينة وكان سكان البلد الحرام من أكثر الناس تردداً على بلد الرسول ﷺ، كان لباسهم مميزاً وحديثهم مميزاً وكنت سمعت كبار القوم في المدينة يقولون: أهل مكة يحسنون الأدب في جوار المصطفى ﷺ. كان والدي يرحمه الله يحدثني عن كبار القوم من المكيين الذي اتخذوا المدينة موطناً لهم وفي مقدمتهم: آل الوزنة، محمد سلطان، حسن موسى. وهذا الأخير كان صديقاً لوالدي. يحدثني الوالد ـ رحمه الله قائلاً: كان حانوته في برحة باب السلام مواجهاً للحرم النبوي. فجأة يأتيه رجل ويتمتم في أذنه بكلمات. يقول محدثي: علمت فيما بعد أنه كان له ثأر عند أحدهم فسمعنا بالواقعة في اليوم التالي، وإنما جاء لحسن موسى لمكانته ليستشيره في الأمر إياه.

بعد صلاة الظهر دخلت الدار في التحسينية، رأيت الرجل الذي شاهدته مع صديق له وهما يؤمان المسجد للصلاة فيه، وللسلام على الحبيب المصطفى عليه صلوات الله وسلامه وعلى رفيقيه رضي الله عنهما. ولكنني لم أجرؤ على دخول مجلس الرجال ـ هكذا علمونا في الطفولة ـ وإن دخلنا جلسنا في مؤخرة المجلس نسكب الشاي أو القهوة للضيوف، ولكن حذار من أن تمتد أيدينا إلى شيء من ذلك. لا نجرؤ على رفع الصوت بين الكبار، وإذا ما خاطبناهم كانت عبارة الجمع لا المفرد، هي الصيغة المفضلة التي تنبئ عن التربية الحسنة والمهذبة في آن.

وانقضى ذلك الاجتماع في تحسينية قباء، وأكرم الله الفتى بأن يذهب إلى مكة وهو متعلق بها أيما تعلق، ومعجب برجال العلم والفكر فيها أيما إعجاب. وكان (المسجد) مزدحماً بحلقات العلم علماء يجيدون فنوناً عدة من المعرفة. الواحد منهم فقيه، ومحدث، ولغوي، وأديب، ومرب روحي. فجاء وجلس في الصحن أمام الكعبة المشرفة، حيث تتنزل الرحمات، وتمحق الذنوب، وتستجاب الدعوات، لمحت عيناه رجلاً طويل القامة، خافض الرأس أدباً مع الله وشعائره لا ذلاً ـ لأحد من الخلق ـ يطوف بالبيت العتيق، وينتقل بين الحجر والمقام، إنه ذلك الرجل الذي رآه في (شارع العينية) وفي (التحسينية) منذ زمن. لم يخرج الرجل من المسجد إلا بعد أن أشرقت الشمس، لحق به الفتى حتى إذا ما استقر في مجلسه بالحي الذي يطل على المسجد الذي تشع منه الأنوار اقترب منه وسلم عليه، ولم ينكره الرجل فقد عرفه تماماً. لم يكن الفتى ليعلم أن هذا الرجل الذي كان يجلس في (مركازه) بالشامية ليقضي حوائج الناس من كل مكان، يزور مريضهم، ويواسي فقيرهم، ويسعى في قضاياهم قبل أن يسعى في قضايا نفسه، لم يكن صاحبنا ليعلم أن حياة هذا الرجل هي

أسطورة لما تنطوي عليه من قيم ومثل رفيعة. فلقد أضحى يسمع قرع نعاله قبل أن يرتفع الآذان من المقام، ورآه يعود في أيام الصيف الشديد الحرارة، ويدخل داره للراحة، فإذا بالباب يُـقرع، وإذا بصاحب الدار يسرع في النزول ليفتح الباب للطارق، ثم يعود أدراجه ليقضي حاجة من قرع باب داره، يقضيها ولا ترى في وجهه ما يدل على انزعاج أو قلق، همس في أذني ذات يوم، وقال: يوم طلب مني الشيخان صالح شطا وعطا إلياس ـ رحمهما الله ـ أن أكون عمدة لحي الشامية، هربت إلى جدة، عند صديقي صالح نوّار. كنت أنوي ركوب البحر خوفاً من تبعات عمل كهذا، ولكنهما أبيا فرجعت. كنت أشعر يومها أنني أستطيع أن أقابل (الحارة) بأكملها، إلا أن الشيخ «البصنوي» الذي أعطاه الله بسطة في العلم والجسم، استطاع أن يقود السفينة في خضم بحر متماوج وكان سلاحه في ذلك الحلم والصبر والكلمة الطيبة، لقد استحوذ على قلوب الناس في كل مكان لأنه استطاع أن يصنع (الحب) في قلوب عارفيه كباراً وصغاراً. كان غضب الرجل الأسطورة لا يتجاوز الثواني، وكان عطاؤه يصل إلى كل مكان ومع هذا فلا يشعرك بفضل ولا تسمع منه مطلقاً كلمة مَنٍّ. أتراني يا أبا محمد بمستطيع أن أنقل للآخرين صورة صادقة عن حياتك التي ختمتها (بأذان) تؤديه وأنت تتمدد في عيادة الطبيب ليكشف على قلبك الذي كان يتسع حباً لجميع الناس في البلد الطاهر؟ لقد رفعت الأذان من فوق منائر بيت الله لأكثر من نصف قرن، وكنت رجل الشامية وعمدتها، وأباً، وأخاً، وصديقاً للناس فيها لزمن طويل. ما زال الناس يتذكرون قامتك الشامخة، ووجهك الإيماني المضيء، صوتك الذي لا يرتفع إلا عندما تقف في المقام لتكبر لصلاة الجمعة والعيدين، ثم إذا أنت جلست بين الناس، كان حديثك همساً، وقولك ليناً فرحمك الله يا من يتجدد حزني عليه كلما حلت ذكراه.

(٣)

تنحدر خطواتنا من (الفلق) إلى (الشامية).. في الطريق يحدثني ـ رحمه الله ـ عن أصحاب الدور المفتوحة أبوابها. هذا منزل صديقي الشيخ إبراهيم خوج، أما ذلك الرجل الذي يجلس منفرداً فهو السيد علي برقه على اليمين تقوم دار يؤمها الناس من جميع الأحياء.. تلك دار الشيخ زيني حسن آشي ـ رحمه الله ـ أحد وجهاء مكة ورجالاتها وأبناؤه حسن وأحمد أمد الله في عمريهما. هناك شاهدت لأول مرة الشيخ إبراهيم سليم رحمه الله وثلة من الرجال أمثال حسين بوقس وعلي مختار ومحمد خياط وعباس بشاوري وصالح عاشور وحمزة قزاز ورشاد نقيب وعبد الرحمن أبو راشد رحمه الله. وهذا الأخير كان طلعة بين أنداده، حديثه عذب وشكله أنيق لا تقوم مناسبة في الشامية إلا وتراه مشاركاً فيها. كان شبيهاً بـ (اليابا رجب) في المسفلة، الأنيس أبو راشد انسلَّ من هذه الدنيا في هدوء، واحد من الرجال الذين لا تفارق صورهم ذاكرتي.. وكيف يُنسى رجالٌ صنعوا المعروف بين الناس ونشروا كلماً طيباً في مجتمعاتهم؟!

سألت نفسي قبل شهور أين ذهب الجمع؟ كيف انطفأ النور في المجلس؟ كيف أوصد الباب؟ أين غابت الوجوه؟ ولماذا خلت الساحة؟ إن كنت تحر ـ يا صديقي ـ جواباً فأجبني، وإن كنت مثلي أعياك السؤال

فردد معي قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ

وتصعد خطواتنا ـ أنا وهو ـ ذلك الجبل الذي ينتصب حاجزاً بين حارتي (الشامية) و(الشبيكة)، إنه جبل عادي. ففي أعلى الجبل كانت تقوم دار الشيخ أحمد استك ـ رحمه الله ـ يلتفت إلي الشيخ «البصنوي» رحمه الله قائلاً: كنا في شبابنا أربعة: الغزاوي والحُريي، والاستك والبصنوي نأكل سوية، وننام سوية، ونسري في الليل سوية. ثم يعلق رحمه الله. طوال عمري لم اعتد على أحد ولم يعتد علي أحد. أصمت فأنا أعلم ذلك وسمعته من أنداده، ولكنني أعلم أن محدثي كان شجاعاً، وكان الشباب في الحي إذا رأوه قادماً للحلقة تهامسوا فيما بينهم، وسمعت أحدهم يقول ذات يوم: إننا لا نجرؤ على الحديث معه ولكننا نومئ إليه فقط.

ولقد رأيت الرجل في فرحه وحزنه، وغضبه ورضاه، رأيته منفرداً، وفي الجمع، وفي الشامية وخارجها، فلم أسمع كلمة السوء تجري على لسانه، ولم أر الغضب يحمله على الانتقاص من حق الآخرين، وكان العجب يستبد بي من حلمه وسعة صدره وكان يؤم مجلس الناس على مختلف مشاربهم، وأذواقهم، ثم ينصرفون وقد استجاب ـ رحمه الله ـ لمطالبهم جميعاً. كان يطلب الدعاء من الأرامل والشيوخ. وكان يداعب الصغار بعبارات الحب والوداد، وكان يقول لذوي الحاجة من الفقراء والمساكين: هل أنتم راضون عنا؟ ويوم شيعناه إلى مثواه الأخير.. سمعت رجلاً يجهش بالبكاء ويقول: ترى مَن للفقراء ولأصحاب الحاجة بعدك يا أبا محمد؟

(٤)

هل حقاً كنتُ أصعد جبل (عَـبَّـادي) ولأكثر من مرة في اليوم الواحد؟ طبعاً كان ذلك قبل ما يقرب من عشرين عاماً. وتمر السنون ولا يبقى إلا صدى الذكريات. وهذه الأصداء هي التي أتلفّتُ اليوم إلى ومضاتها الخاطفة والمشرقة في آن، في الطريق إلى الجبل يقع بيت (الأستاذ).

هكذا سمعتهم ينادونه في الحارة. يحدثني الوالد (البصنوي) ـ رحمه الله ـ كثيراً عن شهامته ومروءته وشجاعته. وحدث أن دُعيت ذات ليلة لحفلة في حي (النقا)، سمعت في تلك الليلة المرحوم (عبد الله مريعاني) وهو يُنشد؛ قليل من الرجال رأيتهم ـ في حياتي ـ في ورع هذا الرجل وحيائه وحسن خلقه.

في اليوم الذي انتقل فيه إلى رحمة الله، سمعت الشيخ عمر عيوني ـ أمد الله في عمره ـ يقول: «لقد ذهب مع هذا الرجل علمٌ كثيرٌ في الإنشاد لا يعرفه سواه» إلا أنني كِدتُ أُغادر الحفل ـ يومها ـ بسبب تصرّف ـ غير متعمد ـ صدر من شاب صغير في سنه. نعم كِدتُ أترك تلك المناسبة الجميلة وأمضي في طريقي صاعداً ذلك الطريق المتعرج الذي يربط بين النقا والشامية. ولكن السيد الفاضل «عباس المالكي» طلب مني البقاء فبقيتُ، وأهل مكة ـ دوماً ـ يُكرمون الضيف، ويرعون حق النزيل،

ويفرحون لفرح الصديق، ويغضبون لغضبه. إنهم ـ يا صديقي ـ جيران البيت الذي دعا سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأن تهوي الأفئدة إليه.. والدعوة لا تزال متحققة يبصرها أولئك الذين أكرمهم الله بضياء البصيرة ونور المعرفة.

في صباح اليوم التالي،. لم يكن الناس قد خرجوا بعدُ إلى أعمالهم.. سمعتُ طرقاً خفيفاً على نافذة الغرفة التي أُقيم فيها نظرتُ من ثقوب النافذة العتيقة والمحببة إلى نفسي، فرأيتُ الأستاذ الذي كنا نقف ببابه كلما اجتزنا الطريق إلى الجبل. فتحتُ باب المنزل الذي كان يُداعبني الشيخ «البصنوي» ـ رحمه الله ـ في شأن فتحه وإغلاقه، فوجئتُ بالرجل وهو مكفهر الوجه، زائغ العينين.. دعوته للدخول، اعتذر وقال باقتضاب إنه ذاهبٌ إلى المدرسة ولا يريد التأخر عن الدوام. ثم سألني بحدة لم أتبين أسبابها: مَن الذي أساء إليك ليلة البارحة؟ ابتسمتُ سعياً مني للتخفيف من الحدة التي رأيتها بادية على ملامح وجهه ـ وواصلتُ حديثي قائلاً: إنه حدثٌ عارض ولا يستحق غضب الأستاذ وانزعاجه. خفض الرجل رأسه وهو يقول: «أنت نزيلٌ عندنا في الحي لا نرضى أن يُغضبك أحد أو يُسيء الأدب معك» مضى الأستاذ في طريقه، وسرتُ في دروب الحياة كثيراً وتقلبتُ بين حلو التجارب ومرها، ولكنني لم أنسَ هذا الموقف الإنساني النبيل، وظل عالقاً بذاكرتي وسيظل كذلك ما حييت..

قبل شهور قليلة، وعندما كنتُ أتهيأ لدخول الحرم المكي الشريف، رأيت رجلاً يتوكأ على عصاه، تبينت ملامحه عن قرب، إنه الأخ (حسن جنبي) زميل لي وللصديق الكريم الأستاذ ـ محمد نور تركستاني ـ في مدرسة أم القرى على عهد مديرها ـ الطيب الذكر ـ المرحوم عبد الله

البليهد، تحدثتُ معه عن ذكريات تلك الحقبة التي قضيناها سويةً في رحاب أم القرى البلد، وأم القرى المدرسة، ثم قاطعني الأخ الجنبي ـ شافاه الله ـ ليقول لي:

لقد فقدت زميلاً عزيزاً وصديقاً وفياً ـ شعرتُ بنبضات قلبي تتزايد... حدقتُ في وجه الرجل الذي ينتصب أمامي بقامته الرفيعة ووجهه الشاحب وكانت الدموع تتساقط على ذلك الوجه الذي كثيراً ما رأيته في السنين الخوالي فرحاً مستبشراً، لم يترك لي فرصة السؤال عن الراحل العزيز...

قال الجنبي «لقد مات الأستاذ فجأة، نزل كعادته من الطائف حيث أصبح يقيم بعد وفاة والدته التي أوقف حياته على خدمتها، حلَّ ضيفاً في البلد الأمين على صديق عُمْره الأستاذ «سراج مطر» وقضى في بيت أقرب الناس إلى نفسه وأكثرهم وفاء له. وكان اليوم يوم جمعة.. وكان الوقت وقت مغفرة... وكانت الساعة ساعة إجابة».

وتابعتُ خطواتي إلى المسجد، جلستُ في الصحن.. نظرت إلى البيت الذي تتنزل حوله الرحمات ويطوف به العباد الصالحون.. ودعوت بالمغفرة والرحمة للأستاذ/ عبد العزيز السَّاعاتي.. ذلك الرجل الذي كان قلبه يتسع للجميع.. كما كانت داره تتسع لذلك الجمع الكبير من أحبابه وأصدقائه.

(٥)

لم يكن يا صديقي (جبل عبَّادي) المكان الوحيد الذي نصعده، وملتقى الأحباب الذي نؤمه، فلقد كنا نهبط إلى أسافل مكة المكرمة وخصوصاً في تلك الليالي المشرقة من شهر رمضان، أقف تحت المقام أترقبُ لحظة نزولك، تقابلني بتلك الابتسامة الوادعة... قلبك ـ يا أبا محمد ـ لا يعرف حقداً أو ضغينة، ونظراتك ـ دوماً ـ تتجه صوب الأرض، تقول لي: أنا من أولئك القوم الذين ترى في وجوههم مكنون صدورهم. كأنك تعلن بتلك العبارة عن مقتك للوجوه المقنعة والسلوكيات الخادعة..

نسير بين سواري المسجد.. تتوقف فجأة، تحني قامتك التي اقترنت في أذهان الناس بذلك الشموخ والكبرياء الذي لا يعرف المذلة إلا للذات العلية ـ وحدها ـ ثم تتناول من حصباء المسجد (دورق) الماء وتحمله بين يديك، لطالما تعجبت من ساعد منحه الله تلك البسطة والقوة، إنه الساعد الذي يكدُّ ليحصل على لقمة العيش النظيفة وهو الساعد الذي سخره الله لمعونة الضعفاء والغرباء.

نتجاوز (مشَّاية) باب أم هانئ، ومنه إلى سوق الصغير ثم إلى الهجلة، تحدثني عن رجال أقوياء عرفتهم في (الشبيكة) كأنني أنظر إليك وأنت

تتحدث (كنت شابًّا) جئت لألعب (الكَبَت) هناك... تشير إلى موضع معين.. كان يوجد رجل اسمه (عبد ربه) طويل القامة.. متناسق الجسم.. جئت لألعب معه في الساحة.. كان وقتها يخرج علبة صفراء يحتفظ فيها بالتبغ.. كانت يداه مشغولتين بإبرام تلك الورقة الشفافة من دخان (العمايدي) وكانت نظراته تلاحقني ما إن تجاوزت قدماي (الشخط) حتى مدَّ الرجل يده وأعادني ثانيةً إلى الموضع الذي انطلقت منه. لم يتحرك الرجل من مكانه وما اهتزت أنامله التي كانت تعالج لفافة الدُخان، كنت ـ يا صديقي ـ شجاعاً وكنت مغرماً بمواضع القوة في كل شيء، القوة التي تُستثمر في الخير وتُستغل في مواضع الإصلاح.

نترك مقهى (الاسطنبولي) مع أذان العشاء، نلج إلى الحرم ننعم بالأصوات الندية المنبعثة من المقامين، كلانا كان يحب صوت (خَطَّاب شاكر) كان شيخاً للمؤذنين ووالده من قبله الشيخ يعقوب شاكر ـ رحمهما الله ـ وكلانا كان يأنس لصوتي الشيخين عبد الله خياط ـ والشيخ عبد الله الخليفي ـ رحمهما الله ـ.

تنقضي صلاة التراويح، نعاود الخروج إلى الهجلة (ثانية) على الشارع العام وبالقرب من السوق الصغير تقع دار أحد الأحباب، رجل ناحل الجسم، ضامر البطن، أسمر اللون ولكنه مشرق الوجه عذب الحديث.. كريم اليد.. إنه صديقك ـ أحمد عبد الرزاق ـ رحمه الله ـ يصعد إليك في (الفلق) وتهبط إليه في (الهجلة). أعجب من تلك الأناقة التي كانت تتميز بها تلك الشخصية وعندما كان (أبو عبد الناصر) يسكب لنا أقداح الشاي كنت اختلس النظرات لألاحق حركة أنامله، وعلى العكس من بقية أنداده فلقد كان نادراً ما يحمل (العصا) وإذا حملها طربت لذلك الفن

الذي كان يبديه في لفها، يخاطبه أبو محمد ـ قائلاً: ـ يا أبا أحمد.. الكل في أحياء مكة المكرمة يدعي أنه حضر ليلة (بازنقر) وشارك فيها. يبتسم رجل الشبيكة.. يقول وهو يشير بيديه: هناك وفي الليلة نفسها.. رأيت الرجل، كان مرتدياً لباساً أبيض ـ وحتى العمامة كانت بيضاء ـ كانت بيننا جفوة، استوقفني، سَلَّم عليَّ، ثم قال: سامحني يا أخي أحمد، ذهب إلى الحلقة وقضى في الليلة نفسها ـ قالوا: إنَّ صوته في الحلقة كان متميزاً بين بقية الأصوات، يتنقل بين الصفوف ثم يعود إلى صف جماعته.. إلا أنها كانت ليلته (يا قُنْفُذُ فين تنفذ)؟ لم يُعْرَف حتى الآن (غريمُه) ويوم سقط، وقف على رأسه رفيقه (البرج) لم يدع أحداً يمسه، هكذا ناموس اللعب ونظام الحلقة وحمله الرِّفاق على أكتافهم بعد أن جاء إلى الجمع على قدميه...

يصمت فجأة محدثنا (عبد الرزاق) ثم يقول: ترى هل كان الثوب الأبيض الذي رأيته يرتديه في تلك الليلة له دلالة على ما وقع له؟ ويذرف دمعة يمسحها بطرف إصبعه.. ثم يواصل حديثه: لقد طلب مني السماح ورد السلام، لا بد أنه كان يحسُّ شيئاً في أعماق نفسه، صفحة الحديث تنطوي ـ ويدخل صديقنا إلى مقعد داره، وأواصل مسيرتي مع رفيقي إلى الشامية ـ واليوم ـ أواصل أشجاني معها ومع الأحباب فيها.

(٦)

تمتد رحلتي معك إلى أمكنة عديدة في البلد الحرام، في (شِعْبِ عامر) صديقاك فيه (عبد الله بن ظافر) و(أحمد غَبْرة) ـ رحمهما الله ـ والأخير عرفته صديقاً لك ولوالدي.. فصيح اللسان تبدو جزالة الكلمة في كل عبارة ينطق بها، يحدثني والدي قائلاً: كان أبوه (الشيخ خليل غبرة) أفصح منه عبارة وأجزل منه قولاً. نتوقف فجأة في طريقنا إلى (الدَّحلة) أمام رجل يمتطي دابته.. يترجل الشيخ المسن عن الدابة.. يتجاذبان الحديث يعودان إلى ذلك الماضي الجميل الذي قضياه مع أهل الحارة.. ثم يستأذن الرجل.. يغرز عصاه الغليظة في الأرض ويقفز فوق ظهر الدابة... رشاقة الشيوخ وهم يدلفون نحو المحطات الأخيرة من حياتهم.. أسمع الكلمة منك عن الرجل بعد انصرافه، هذا رجل من وجوه أهل الشعب إنه الشيخ «موسى»، لا تمر على قوم إلا وحيُّوك في وجوههم البشر، في كلماتهم الحب، وفي سلوكياتهم الطهر والنزاهة، أهل الشّعبين في مكة (شِعْبُ علي وشِعْبُ عامر) يُولدون فصحاء، في أحيائهم وُلِدَ أفصح العرب وسيد البشر، وشفيع الأمم محمد بن عبد الله ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ وبين أفياء دورهم تنزلت آيات الكتاب المبين.

في الليل نتابع الرحلة إلى (حارة الباب) في جبل الكعبة بيت السادة

(آل البار) بيت عريق في النسب، راسخ في العلم، كأني أنظر إلى ذلك الوجه المشرق وهو يحدث الجمع من الناس.. إنه السيد علي البار ـ رحمه الله ـ وفضل البار ـ أمد الله في عمره ـ.. نتشوق إلى مساء «الجمعة» لنحظى فيه بجلسة العلم وساعة الصفاء.. وإلى مساء الأربعاء لننعم برؤية السَّيد الفاضل حسن فدعق ـ رحمه الله ـ جد الحفيد الصالح السيد عبد الله بن محمد فدعق.. أدركت الجَدّ وقد امتدَّ به العمر المبارك يتجمع الناس من كل أنحاء البلد الطاهر ليسمعوا كلمات الرجل الصالح ويحظوا بدعائه الذي يختم به المجلس، تلك بيوتٌ من بيوت العلم، يعود تاريخها إلى قرابة قرن من الزمن أو ينقص قليلاً، وليس بعيداً عن هاتين الدارين في حارة الباب، تقع دار السادة (آل الحبشي) نؤُمُّ الدار بصحبة الإخوان لصداقة وطيدة مع السيد أحمد بن حسين حبشي، والسياق يقتضي أن أروي هذه القصة التي سمعتها من المرحوم الأستاذ «محمد حسين زيدان» قال: كان جد آل الحبشي «السيد محمد بن حسين حبشي» رجلاً عالماً ومربياً فاضلاً.. وجاء رجل في يوم من الأيام يطرق باب الدار العامرة، وحين أطل الشيخ المهيب من نافذة الدار، تلجلج الرجل الغريب في حديثه فهو قد أخطأ الطريق وضَلَّ الدرب، ابتسم الشيخ في وجهه ثم أشار إلى الجهة الأخرى من الحي.. كأنه يعرف بغيته ومراده، ولا تخفى عليه خطوات الرجل التي تتسلل إلى الحي خلسة في سكون الليل ومع هجعة الأعين، والليل كما يقولون «سَتار» يقول الزيدان ـ رحمه الله ـ كأني استمع إليه «وكانت ليلة القدر، وساعة الإجابة، ونظرة الرضوان».. سلوك الشيخ الجليل من آل «الحبشي» وحسن تعامله وسعة صدره، أثر في الرجل الغريب.. لقد أقصاه عن الطريق الذي سلكه في ماضي حياته وسابق أيامه.. وسلك به طريق الهداية ودرب النجاة. جاء «الغريبُ» في الليلة

التالية إلى الدار نفسها ـ قصداً ـ لم يفتح الرجل العارف دفة النافذة وينظر إلى الطارق، ولكنه سعى إليه، وفتح له الباب.. وأي باب ذلك الذي فُتح؟ وأي درب ذاك الذي عُبِّد؟ ثم رفع يديه الطاهرتين إلى السماء.. وناجى المولى بكلمات صادرة من قلب عامر بالإيمان، ثم انصرف صاحبنا وقد اطمأنت نفسه، وتحررت روحه من إسارها، وانعتقت من قيودها، وانطلقت في ذلك الفضاء الرَّحب فضاء الحب والطهر والصفاء.

(٧)

تقول لي: في أيام الشباب كنت كثير التردد على المسفلة تستخدم مصطلح الحارة قائلاً: «هؤلاء حلفاؤنا من بين الحارات الأخرى». الناس جميعهم يا صديقي كانوا أصدقاءك وحلفاءك في البلد الطاهر، تصمت كأنك تستعيد الماضي الذي ولت أيامه ثم تقول همساً: كان في المسفلة رجل اسمه عبد الرحمن الدُّوبي وكان حسن الصوت تعلمت منه الإنشاد. وكان في مكة مدرستان لهذا الضرب من المعرفة: مدرسة الدوبي الذي أخذ عن «جوجيه» أسفل، ومدرسة «الحوراني» لأهل فوق. الصديق المهندس أحمد عرفه حلواني ـ من أهل «القشاشية» ـ يعرف كثيراً عن تاريخ هذا العلم، خاله المرحوم ـ عبد الرحمن مكي ـ عُرِفَ حادياً، وقُصد أُستاذاً، عرفتُ الرجل كما عرفت شخصاً آخر معاصراً له هو إبراهيم تيسير رحمهما الله وكان من وفاء صديقي لأحبابه أن يذكرهم بعد انتقالهم إلى العالم الآخر بالدعاء وأعمال البر. فلقد حدثني أنه كان يؤدي «العمرة» في رمضان ويهدي ثوابها لصديقه «الدُّوبي». ويؤدي عمرة أخرى ويهديها لصاحب «تحت راية القرآن» الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ فلقد كان محباً له ومغرماً بكتاباته، وكانت مكتبته ومكتبة أخيه الأديب الأستاذ حمزة بصنوي ـ رحمه الله ـ تحوي النفائس من كتب الفكر والأدب والتاريخ. وكان صديقي شديد الاعتزاز بأخيه، وقليلاً في حياتي ما

رأيت أخوين مثلهما في حبهما وتسامحهما وتأدبهما مع بعضهما. ويوم مات «أبو إبراهيم» طوى الأخ الأكبر نفسه على أحزانها وقال لي: لقد فقدتُ طعم الحياة بعد فَقْد أخي.

وفي مساء اليوم الذي انتقل فيه الأخ الأكبر إلى الدار الأخرى.. رأى أحد أفراد الأُسرة ـ في منامه ـ الأخ الأصغر ينظر في ساعته ويقول لماذا تأخَّر أخي في الوصول إلي؟ ذلك عالم الروح له أسراره وإشاراته وعجائبه، وتعس عبد تعلقت عيناه بعالم الظاهر، وتوقفت مداركه عند حدود الحواس، وتجمدت مشاعره عند هذه المحطة العابرة، فالحياة أكبر وأعظم من أن تكون فقط مادة ومتعة ولهواً، وإن عالم المادة لا يمثل إلا ذرة تائهة في ذلك الفضاء المتناهي من عالم الروح الذي تقصر عن تصوره هذه الحواس المحدودة، والتي هي بمحدوديتها وعجزها ونقصها تبرهن على وجود الكمال والمطلق اللامتناهي من عالم الغيب الذي اختص الله ـ وحده ـ بمعرفته.

وتمتد بنا الخطوات فنهبط «كُدَي»، هناك أضحى يسكن أحد أصدقائك الذين تعتز بهم «حامد شلبي» من رجال القرارة، لم يكن لوحده صديقك من ذلك الحي، فلقد كنت تعتز بصداقة «محمود الجنقلي» كان في فترة ماضية عُمدة للحي، وكذلك بصداقة الشيخ محمد نور بتاوي ـ أسرة عريقة في القرارة ـ ودخلنا مساء يوم مكاناً للاستراحة في القرارة وجدنا الشيخ البَتَاوي ـ وكان رجلاً صالحاً رحمه الله ـ كان قد تجاوز الثمانين من عمره. وعندما عزمنا على مغادرة المكان أخرج الشيخ البتاوي نقوداً ودفعها لصاحب المكان، وقال الرجل على استحياء: الجباء ممنوع. رفع ـ فجأة ـ رجل القرارة عصاه الغليظة وضرب بها على المنضدة التي كانت أمامه.

اضطرب الرجل وتسمَّرت عيون الناظرين، رجل يدلف نحو التسعين من عمره ولكنه لا يزال يحتفظ بنضارة وجهه، وسلامة جوارحه، ويخشى الحي غضبته. ويوم قطعنا المسافة بين حارتي القرارة والشامية، قلت لي: هذا نديد «لحامد شلبي» يعتزون به في القرارة كاعتزازنا برجل اسمه «محمد المجنون» ـ رحمهم الله جميعاً ـ، وأعلم يا صديقي إن القوم في حارتك كانوا يعتزون بك وكنت أحرص ما تكون على نكران ذاتك في كل شيء، مع أنك كنت المجلي وصاحب السبق، ولكن ذكر الله ومخافته أورثاك هذا التواضع، فعشت لا ترى لك فضلاً على أحد، مع أن رفدك كان يحوزه كل من يطرق الباب العتيق في حي الشامية، وكان جاهك مبذولاً لمن عرفت ومن لم تعرف، وكانت شمائلك وأخلاقك السامية تحول بينك وبين كلمة «لا» فهي الكلمة التي يستثقلها لسانك العفيف، وأكاد أجزم بأنني لم أسمعها منك طوال عقدين من الزمن نعمت فيهما بصحبتك، وأنست فيهما بذلك الود الصادق الذي محضتني إياه وشملتني فيه برعايتك.

(٨)

تقول لي: دعنا نزور الأحباب في «المسفلة»، دعنا نذهب «للبركة»، دعنا.. نشرب الشاي مع «البشكة»، ويوم بَدأْتَ تفقدهم واحداً إثر واحد، نظرت نظرة الأسى، وذرفتَ دمعة الحُزن، وسمعتك همساً تقول: «أحبابنا بـ «يتلقطُّوا» يا أستاذ»! وكنت لا أقوى على سماع العبارة من فمك. فالحياة ـ يا أبا محمد ـ كانت ملء إهابك، لا تعرف أجفانك النوم إلا لماماً، النهار لقضاء حوائج العباد، والليل لرياضة العقل والروح معاً، أسمعُ وقع أقدامك وأنت تهبط «درج» الدار والليل لا يزال يغطي جبال مكة ووديانها بسكونه، بجلاله، وبرهبته، توصد الباب خلفك برفق، مَن لي بنفس سكنت الشفقة أعطافها كنفسك! وانغسلت بماء الحب والتسامح كما ينغسل وجه الأرض بغيث السماء ويتطهر من أدرانه.

تقطع ذلك الطريق العتيق الذي يقع فيه «البازان» وتعمره أصوات الحسينين «حسين غزاوي، وحسون رحمهما الله» تقول لي: كنت أحمل زَفَّة الماء من هذا المكان على كتفي وأحياناً ـ تنطق ـ بالتعبير البلدي المستملح فتقول: كنت أستقي من هنا يومها كنت شاباً، وللشباب زهوه وسطوته، ولم أكن أشعر ـ قط ـ في تلك المرحلة بأنني أحمل شيئاً على كتفي.

كنت يا صديقي ـ تحمل ـ هموم الآخرين في قلبك، ولا يغمض لك جفن.. ولا تهدأ لك نفس حتى ترى البِشْر على وجوه الآخرين، فإذا ما رأيتهم كذلك، انصرفت ودخلت البيت العتيق.. وناجيت الرب الكريم.. وسجدت بحمده العظيم. أذكر مجلسك من الحصوة.. فإذا ما أشرقت الشمس طفت بالبيت وأنت خافض الرأس.. تستشعر عظمة المكان حيث تتنزل الرحمات وتستجاب الدعوات، تقول: إذا ما صَلَّى الإنسان الضحى في رحاب البيت خرج إلى الحياة بروح لا تعرف التخاذل والاستكانة، إنه يشعر بالقوة التي لا تعادلها قوة في الأرض وبالشجاعة التي يخضع لها كل شيء في الوجود.

تلك يا صديقي من آثار الإيمان في نفسك، أنتَ نَبْتُ أرض الهُدى، وشعاع السماء يعرف طريقه إلى قلوب أدركتها العناية فجانبتها الغواية.. ذلك الشعاع هو الذي يُنير البصائر فترى ما وراء المادة من معنى، وما يستتر خلفها من قوة فاعلة في هذا الوجود وأشيائه، البصر يرى البناء والبصيرة تستنطق الروح في ذلك البناء، فليْبكِ أقوامٌ سجنوا نفوسهم في المحسوس وآمنوا بالمحدود، ورضوا من دنياهم بمتاع زائل، ورغبات تفقد قيمتها حال الإمساك بها أو إشباعها، إنهم يقبضون على السراب، ويُشبعون نهماً لا يلبث أن يتجدد ورغبة تتطلع إلى المزيد وغاية الوجود أكبر من هذا كله، والنعيم لا يتحقق إلا بالانفتاح على عوالم الروح التي لا تنتهي لذاتها ولا يفنى نعيمها.

لقد عشت ـ يا صديقي ـ معك دهراً، فرأيت كيف يتساوى لديك التبر والتراب، ولقد رأيتك تقطع مراحل هذه الحياة ليس كما يقطعها الآخرون سعياً على الأقدام، وإنما كنت تقطعها بذلك القلب العارف وتلك النفس

المؤمنة المطمئنة، ويوم ودعتنا الوداع الأخير. . كانت غمضة عينيك تشبه ذلك الوسن الذي كان يأخذ بأجفانك ـ عندما كانت الروح تسري في كيانك ـ ثم لا تلبث أن تعود ـ بعده ـ إلى حديث كنت قد بدأته أو قصة من الماضي كنت آخذاً في سرد أحداثها، إنني على يقين ـ يا صديقي ـ بأنك لم تعرف النوم الحقيقي إلا عندما كبَّرت وهلَّلت وانسلت روحك صاعدةً إلى معارج السماء في دعة وهدوء، تلك خاتمة القوم الذين أورثهم الله ذكره وأجرى الخير على أيديهم فهم منشغلون به حتى في تلك اللحظات الأخيرة التي كانوا يشارفون فيها على النهاية المحتومة لكل حي. .

آخر الكلام:

دعاء. . «يا الله يا حي قبل كل حي، يا حي بعد كل حي، يا حي لا يشبهه حي، يا حي ليس كمثله حي، يا حي لا يشاركه حي، يا حي يحيي الموتى، يا حي لا يحتاج إلى حي، يا حي يميت كل حي، يا حي يرزق كل حي، يا حي لا يموت أبداً، يا حي يا قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم».

(٩)

تشير إلى صديقك الشيخ «أحمد رواة» أمد الله في عمره ـ ثم تقول همساً، كانت الأرواح منا في مقتبل العمر تتنافر، واليوم في الشيخوخة تتجاذب، وكان مجلس الشيخ «الرَّواة» يقوم في برحة القطَّان، أمام تلك الدار الكبيرة التي كان يسكنها الشيخ عباس قطان ـ رحمه الله ـ أحد وجهاء مكة في عصره، كما كان لفترة من الزمن رئيساً لبلديتها، والشيخ القطان له مآثر عديدة، في مقدمتها إنشاؤه لمكتبة مكة في شِعْب علي، حيث البقعة الطاهرة التي وُلد فيها سيد الخلق وشفيع الأمم سيدنا محمد عليه صلاة الله وسلامه، وبهذا الصنيع عمل الشيخ القطان على الحفاظ على أهم موقع في التاريخ الإسلامي، والمكان دوماً يستمد أهميته من صاحبه أو ممن يحل فيه ويغشاه. وقد ارتبط الشِعب بميلاد صاحب الرِّسالة الخاتمة، من ذلك المكان شهدت البشرية ـ جميعها ـ انبثاق النور وتَبدُّد ظلام الغواية والشرك، والضلال، في تلك الدار وضعت السيدة العظيمة آمنة بنت وهب حملها، فكان ما وضعته هو درة هذا الوجود ومنقذه، لقد أهدت إلى الإنسانية النور الذي وزنته الملائكة بأُمَّته ـ جميعاً ـ فرجحهم وفي ذلك دلالةٌ على رفيع قدره وعظيم منزلته، ورحم الله القائل:

يوم نالت بوضعه ابنة وهب ... من فخار ما لم تنله النِّساءُ
وأتت قومها بأفضل مما ... حملت قبل مريم العذراءُ
شمَّتته الأملاك إذ وضعته ... وشفتنا بقولها الشَّفاءُ
رافعاً رأسه وفي ذلك الرفع ... إلى كلّ سؤدد إيماءُ
رامقاً طرفه السَّماء ومرمى ... عين من شأنهِ العلو العلاءُ

وكانت برحة القطَّان في الشَّامية تعمر بزوارها مع انقضاء صلاة العشاء، وكان صديقي يحرص أشد الحرص على أن يحل في ذلك المجلس العامر قبل حلول الناس جميعهم فيه، ولا ينصرف عنه حتى يرى صديقه (الرَّواة) قد فارقه، وكان الشيخ الرواة في مجلسه كريم النفس. . حلو المعشر كما كان أنيقاً في لباسه «جُبَّةٌ بيضاء» وكوفية بَلدي منشاة، يتكئ على وسادة خاصة به، ويخص المكان المجاور له في المجلس لكل من يحل ضيفاً على المجلس وخصوصاً لأولئك الذين ينقطعون عن المجلس ثم يعاودهم الحنين إليه ثانية.

في مجلس الشيخ (الرواة) كنت أزدهي بطلعة الرجل الشَّهم عبد الرحمن أبو راشد، رحمه الله، والشيخين الكريمين علي فلمبان، وحمزة قزاز ـ أمد الله في عمرهما ـ كما كنت آنس إلى حديث الشيخ القزاز وأطرب لصوته الشجي في مدح المصطفى ـ ﷺ. وأكاد أَجزِمُ بأنني لم أسمع صوتاً شجياً في حياتي كصوته، ينشد الروائع من الشعر العربي الجزل، لا يلحن في قول، ولا يتلجلج في عبارة، وطالما استدرَّ الدَّمع من العيون، وبعث في الأنفس الأشواق. ومن الذي لا يطرب من مدح سيد ولد عدنان؟ ومن الذي لا تحن نفسه إلى معاهد الهدى والإيمان؟

وكان من عادة الشيخ القزاز أن يخفض رأسه إلى الأرض إذا ما أنشد، ويداعب البنان منه تلك الشّعيرات البيضاء التي تكسو محياه المشرق مهابةً وجلالاً.

ويوم انتقل الشيخ عبد الله بصنوي ـ إلى جوار ربه اعتزل الشيخ «الرَّواة» الناس حُزناً على صديق عمره وأنيس روحه. ولقد همس الفقيد في أذني قبل ليال معدودة من وفاته قائلاً: لقد أغلظوا القول «للرَّواة» لأنه لم يحضر إلى المجلس بسبب غيابي عنه. ثم أردف يقول كعادته: سامحهم الله وهداهم سواء السبيل، وما كان أبو محمد يعلم أنَّ الرجل سوف يعتكف في داره لا يبارحها بعد أن تصعد روح صديقه إلى باريها، ويضمُّه ثرى الحجون المبارك بين جنباته، وما كان ـ صديقي ـ يعلم أن أقواماً آخرين سوف يُصيب الحُزن منهم قلوباً وأنفُساً، فلا يحلو بأعينهم مجلس كانوا يألفونه من قبل، ولا يطيب لهم سمر كان الصَّفاء مظهره والطُّهر والنقاء روحه ومجلاه.

(١٠)

لم تكن السيدة الفاضلة التي رعتني كأم في حي الشامية بعيدة في صفاتها وسلوكياتها عن الأم التي تفتحت عيناي على مرآها في حي «العنبرية». هذه الأخيرة كانت تبسط المهاد لي ليلاً في السطح.. الأب يكد ليؤمن لقمة العيش الحلال، والأم ترعى الأبناء في الدار التي إذا ما نظرت من ثقوب نوافذها الخشبية انجلى أمام عينيك المقام الذي يقر العيون، ويفرح النفوس.. تنجلي أمامك القبة الخضراء التي تحوطها السكينة وتحفها ملائكة الرحمة، والأم نفسها لا يبزغ ضوء الشمس وإلا وقد تسللت خطواتها الهادئة إلى مؤخرة الدار لتوقد النار في وسط ذلك (المنقل) الذي تصنعه أيادي أهل الحرفة في حوش (منصور) أو خلف مسجد الغمامة، وإذا ما أبطأت الجمرات في اشتعالها أمسكت بالمنفاخ بين يديها، فيتطاير الشرر، ويبلغ الجمر مداه من الاشتعال والتوقد، عندئذ تهيّيء «دَلَّة» القهوة لربِّ الدار الذي إذا ما قضى صلاته في المسجد المقابل للدار في منطقة «السَّيح» نادى بصوته المحبب إلى النفس طالباً حبات من «التمر» وأقداحاً دافئة من قهوة البن فالرجل عاش طفولته وسني شبابه الأولى بين حارتي «العنبرية» وقباء ثم حملته الأقدار إلى ديار «حرب» فَأَلِفَ من حياةِ «العروبية» ما يألف أصحابها، وانطبعت في نفسه من عاداتهم الشيء الكثير الذي لازمه طوال عمره المديد وحياته المباركة.

المرأة في دار «السيح» لا يرتفع لها صوت، ولا ينكشف ـ كما يقولون ـ منها ظفر، ولا يحل المساء إلا وقد دخلت دارها إن خرجت عند جاراتها في حوش (سيِّد أحمد) المقابل لمسجد سيِّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهي المرأة التي تصنع بيديها الطعام وتتشقق أكفُّها كلما انكفأت على (الطشت) لتغسل الملابس، ثم تنشرها على ذلك (الحبل) الذي يمتد طرفاه في ساحة سطح الدار فلم تكن يومها تكنولوجية العصر قد غزتنا بأجهزة الغسيل و«التنشيف» و«الكي». وهي المرأة التي تقوم مع كل صباح لتنزح الماء من «البئر» لتغسل درج الدار المصنوعة من الحجر المنقوش ولتلتفت بعد ذلك إلى «مرفع» الشِّراب «تملأ» القُلل «بالماء وتُبخر الكؤوس» بالمستكة. وهي المرأة التي تحض الأبناء ليطلبوا رضا أبيهم وليقبِّلوا قَدَمهُ عندما يغضب عليهم، وليستأذنوه إن هم عزموا على الخروج من الدار وقليلاً ما كانوا يفعلون في ذلك الزمن الذي كان كل شيء فيه محوطاً بالبركة، فنسأل الله أن يعيد إلى حياتنا ما نُزِعَ منها من بركة وما افتقدته من رضا وطمأنينة.

جئتُ «الشَّامية» فإذا أنا أمام صورة مشابهة من تلك الحياة التي درجت عليها في أرض المدينة الطيبة، سيدة الدار خفيضة الصوت، طيبة القلب، تفرح إذا ما رأت الأصدقاء يطرقون نافذة «المقعد» الذي كنت أعيش بين أكنافه حياةً هنيئةً ما زلتُ أحنُّ إليها أشد ما يكون الحنين، واشتاق لأوقاتها أعظم ما يكون الاشتياق، وكان رب الدار يهمس في أذني بين الحين والآخر: «أم محمد» هي المرأة التي احتملتني فلطالما أخذتني مشاغل الحارة عن الأبناء، فكانت تقوم مقامي في كل شيء، وكان من سمات صديقي أنه يُقدِّمُ حوائج الناس على حوائج خاصته وقرابته، وكان يهب

جهده ووقته لأولئك الذي يطرقون باب داره من جميع الأحياء، يستيقظ من هجعة الظهيرة، ـ وقد تكون دقائق معدودة ـ على صوت المنادي من أسفل الدار، لا يظهر تبرماً، ولا تبدو على ملامح وجهه المجلل بالمهابة علامات القلق، يبتسم لهم من أعلى الدار، ويحتضنهم عند عتبته، ويذهب معهم إلى حيث يريدون لا يعبأ بتلك الشمس الحارقة التي يهرب منها الناس جميعهم ويحتمون بدورهم، ولا يخرجون منها إلا مع صوت المؤذن لصلاة المغرب، ولكأن صاحبي كان يتلذذ في أعماقه بما يعانيه من أوصاب، وما يتجشمه من متاعب، فلقد كان همه الوحيد أن يسمع كلمة الدعاء من ذوي الحاجات، وكانت سعادته الحقيقية عندما تنقضي مطالب الناس على يديه. إنها أخلاق السَّالكين وشمائل العارفين. إنها المدرسة التي كانت تقوم في حي «الشامية» وكان المُرِّبي الوحيد فيها «عبد الله بصنوي» رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. وكان المريدون فيها من كل حي وبقعة، وكانت خلف ذلك الرجل امرأة عظيمة في كل شيء، أطال الله لنا في عمرها ـ وحفظ لها أبناءها من كل سوء.

(١١)

شهور مضت صرفتني فيها شؤون الحياة عن إكمال حديث الأشجان، وكنت توقفت عند الشيخ حمزة قزاز أطال الله عمره.. وصوته الشجي، ولم يكن القزاز وحده هو مَن يشجيني صوته وتأخذ بمجامع نفسي كلماته، فلقد أدركت من مؤذني مكة ذوي الأصوات الحسنة عدداً كبيراً مثل: حسن لبني وأحمد توفيق وأحمد شحات وصالح فيده وخطاب يعقوب شاكر وكان شيخاً للمؤذنين بعد والده رحمهم الله جميعاً. وخارج إطار الأذان كان هناك الشيخ المقرئ زيني بويان راوية لأشعار العلامة الجليل السيد محمد أمين كُتبي ومُنشداً لها في مجالس المحبة والخير، ثم برز صوت آخر فاق كثيراً من معاصريه فهو سليل بيت علم وفضل وخريج جامعة الإسلام ـ الحرم المكي ـ جده كان يفيض علماً على أهل الحرم وسواهم، وأبوه كانت مجالسه درة مضيئة يتجمع حول شعاعها كل من كتب الله له أن ينظر إلى ذلك الوجه المنير الذي يبعث السَّكينة في النفوس، ينصت إليه الناس وكأن على رؤوسهم الطير ويبلغ صوته مشارف الحجر وتخوم المقام، وأخوه الفاضل جمع فأوعى، أدرك النخبة الصالحة من علماء الحرمين الشريفين: محمد العربي التِّباني وحسن يماني وحسن المشَّاط والسيد محمد أمين كتبي ويحيى أمان ومحمد نور سيف ومحمد مرداد وعبد الله دردوم وعبد الله اللَّحجي وعبد القادر شلبي وعباس قارِّي وحسن الشاعر وأمين الطرابلسي وسواهم.

قال لي الصديق الفاضل الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان: تخصَّصنا في الفقه وفضيلة السيد الدكتور محمد علوي مالكي تخصَّص في علم الحديث وسواه فأجاد وتمكن. . أما صاحب الصوت الذي يحفظ المئات من القصائد حفظاً متقناً، ويؤديها بين الناس أداء مُحْكماً فهو السيد الفاضل عباس بن علوي المالكي، وعَقْدُ قِرانٍ يحضره ـ أبو علوي ـ يأتي إليه الناس في البلد الحرام من كل حدب وصوب، ويغشاه القوم يحدوهم حُبٌّ صادقٌ ووجْدٌ صادقٌ.

الشيخ عبد الله بصنوي أسكنه الله فسيح جناته، يقول لي بصوت منخفض: السيد عباس أصبح في علم الإنشاد علماً يَرْحَلُ الناس إليه، واليوم يا صديقي ـ يا أبا عاصم ـ أبكي أيَّاماً قضيناها بين النقا والشَّامية، وساعاتٍ تنقلنا فيها بين الصَّفا وباب السلام، وحلقات علم جلسنا في رحابها ننعم بتلك الوجوه المضيئة والألسن الذاكرة، والأجفان الدامعة، يا صديقي. . ليالي الحب والصفاء في رحاب الحارة، وقباء وقربان، تستدر مني الدمع غزيراً في سني الكُهولة التي ولجنا أبوابها في دورة هذه الحياة الفانية، ـ يا أبا علوي ـ أتذكر قولك يوم نفضنا أيدينا من التراب الذي حثونا ذراته على قبر أبي محمد ـ في جنة الحجُون وشُعبة النُور. . تقول لي. . وأنت ترى الأسى يتجسَّد في ملامح وجهي أين «المقعد» يا أستاذ؟ وتقصد بيت الحبيب البصنوي في الشامية، لقد صمتُّ يومها لم أجبك. . فلم أكن أتصور أنني سوف أشهد مكة وهي تخرج مودعة رجل الفضل والإحسان والعرفان، كنت أسمعُ صوته رحمه الله يتردَّد بين جرول والشِّعب، والمسفلة وحارة الباب، كان صدى كلمات الحق يتردد في مسمعي «الصَّلاة خير من النوم» كأنه أمامي بعمامته، بجبته البيضاء، بقامته الشامخة، بوجهه المضيء، بصوته الخفيض. . وخرجت يومها ـ يابن

العلم والفضل ـ أمسك بيدك وأحدث نفسي قائلاً: هنا مشيت معه في هذه الدُّروب، هنا لمحتُ طلعته البهيّـة لأول مرة بالقرب من الكعبة، يطوف البيت، يقبل الحجر، يصلي بين الركن والمقام، وأسأل نفسي اليوم كيف تفرَّق جَمْعٌ بعد التئام؟ ولماذا انطفأ القنديل في مقعد الدار؟ ولماذا خلت الحلقة من روّادها وغاب عنها حاديها الذي كان يقودها؟

لم تغب عن ذهني ـ يا أبا عاصم ـ ملامح فَجْر زاهٍ صلَّيناه سويَّةً في رحاب الروضة والصفة، ولم أنس فضلاً هو من دواعي ذلك الحب العميق الذي أحمله للأخوان بين جنبات نَفْسي وأنت أيها الحبيب في مقدمتهم، وأنا فخور بأن الدُّور في الشامية والنقا والعتيبية والمسفلة والمصافي، قد ضمتني يوماً بين جنباتها وإنني جلستُ في «الدَّرْس» بباب السلام مُستمعاً، وقرأتُ الكتاب في الحديث مُريداً، كيف أنسى أيها الحبيب ونفسي ارتوت من مجالسكم كما ارتوت من ماء زمزم، علماً متجرداً، وحقيقة موثقة؟

لقد خاطبني الصديق الشاعر محمد صالح باخطمة يقول ممازحاً: كيف وَصلْتَ في أشجانكَ إلى «الشُّبيكة»؟ ورددتُ عليه: وَصْلتُ إليها بقلب محب ونفس عاشق، وهذا موجز القول لكل من يسألني عن أشجان لم أرد لها أن تكون تاريخاً. فالتاريخ يسطره أهله، ولكنها خواطر محب وأنَّات غريب، فإن أصبت فيها فإنني سائل الدعاء وإن قصرت في شيء منها، فقد يخطئ اليراع، ويعفو الكريم، وتبقى المحبة رداءً يتجَّملُ به الأحباب في غدوهم ورواحهم، وليلهم ونهارهم، وقربهم وبعدهم، فاللهم جملنا بالستر، يا ستار أسترنا بسترك الذي سترت به على ذاتك فلا عين تراك ولا يد تصل إليك. . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

(١٢)

انقضت صلاة المغرب، وخرج الناس من أبواب الحرم مهرولين إلى بيوتهم يطلبون طعام الإفطار، أشار إليَّ صديقي بالانصراف، التقط دورقاً من تلك (الدَّوارق) التي كانت تمتلئ بها الحصوة، كنت أسير بجانبه لا أعلم الوجهة التي يريدها، خرجنا من باب (أم هانئ) إلى السوق الصغير.. ثم إلى الهجلَة.. ما رأيك نشرب قدحاً من الشاي في قهوة (الأسطنبولي)؟ هززت رأسي مرحباً.. لم يكن المقهى مزدحماً (فالمراكيز) عادة لا تستقبل روادها إلا بعد انقضاء صلاة التراويح.. وكانت (الهجلَةُ) و(المسفلةُ) من تلك المتنزهات التي يقصدها الناس طوال العام طلباً للهواء العليل. ومن لا يعرف من أهل (مكة) بركة (ماجد) و(المِسْيال) وغيرهما من الأماكن!!.

فجأة يبرز رجل يرتدي قميصاً ويضع فوق رأسه عمامة ويمسك بالعصا بين يديه.. لقد شعرت أنه لا يحتاج إلى العصا فهو ليس في تلك السن المتقدمة، بل إنني شعرت ـ يومها ـ أنَّ ماء الحياة يجري بقوة في وجه ذلك الرجل، لقد كان حسن المطلع، حاد النبرات عندما يتحدث.. وقف الرجل لثوانٍ معدودة تحدَّث إلى صديقي ثم انصرف، ولكن نظرات صديقي ظلت تتابعه حتى غاب عنا تماماً، وفجأة يهمس (صديقي) في

أذني. . هذا صديقنا من أهل (الشُّبيكة) واسمه (إبراهيم ركَّة) شعرت أن صديقي يعتز به عندما قال لي: (حَرِّيف) يا أستاذ في القِشَاع. . تعلمهُ من أتباع الأغوات في الهجلة وخاله (يَعْسُوب) إبراهيم مرزا ـ رحمه الله ـ ومرَّ الشهر تلو الشهر ولم أشاهد ذلك الرجل صاحب الطلعة البهية. وأخذ صديقي بيدي ـ ذات يوم ـ إلى واحدٍ من تلك المراكز التي تنتشر في الحي الذي يقع خلف السوق (الصغير)، وحين جلسنا على (كُرْسي الشَّريط) كان الرجل الذي لمحته بالقرب من مقهى الأسطنبولي يجلس بالقرب منا، عصاه في يده وعمامته الجميلة تزيد محياه تألّقاً وبهاءً، كان (صاحب الدار) هو العم (أحمد عبد الرزاق) رجل نحيل الجسم، طويل القامة، يكاد يقطر الحياء من وجهه ولا تسمع من فمه إلا عبارات الترحيب. كان قريباً هو الآخر إلى نَفْس صديقي. . ننزل إلى (الهَجْلَة) بعد مغرب كل يوم لنراه، ويصعد هو بعد العشاء إلى (الفلق) ليجلس معنا في مقهى العم (حسن سنوسي) رحمه الله. وكان يَؤُمُّ المركاز رجل قليل الكلام. . سألت أبا محمد عنه فقال: هذا (علي ياقوت) من مشاكلة (الشبيكة) نديد (للبرج) وأبي (ريحان)، ويبتسم الشيخ، ولكن صديقنا (الركة) يعتبره أُمَّةً وحده، ومن المسفلة يأتي إلى هذا المكان المُطِّل على المسجد. . العم (سلمان) من أهل الشبيكة. . يعتز الشيخ بصداقته. . رجل فارع الطول وممتلئ الجسم، يتمنطق (بالحزام) ويلبس (الكوفية) البلدي. ويتابع صديقي حديثه المحبب إلى نفسي: نزلنا أهل (الشامية) ذات ليلة إلى (المسفلة) ويعلق ـ رحمه الله ـ الحلفاء دوماً يحبون بعضهم البعض. . ويوم وصلنا كان (اليابا حسن) يضرب بعصاه في كل مكان، المعلم رجب ـ رحمه الله ـ كان واقفاً. . التفتُ إليه أسأله عن الواقعة!

قال المعلم: الليلة في (الكِدْوَة) وقع ما لم يكن في الحسبان.. لقد خرج من بين الصفوف رجل ولقط بعصاه (ولد الشيخ) فوقع طريحاً بجانب النار، (اليابا حسن) لم يكن موجوداً، أخبروه بالأمر وهذا سِرُّ غضبه، يقول صديقي.. كان (سلمان مُتصَمِّداً بالغَبَانِي)، ولكن من الذي لا يعرف (سلمان) ـ رحمه الله ـ من قِطْعَتِه.

مرت سنون عديدة على سماعي لرواية صديقي.. كنت في حي (النقَا) في منزل السيد الفاضل عباس بن علوي المالكي ـ يحفظ تاريخ العلم والحارة معاً ـ ودخل علينا الرجل الذي ضرب صديق (اليابا حسن) بين الجموع في الكِدْوة، كان يبحث عن مكان للوضوء وكان على عجلة من أمره سألناهُ أنا وأبو علوي، عن حادثة (الكِدْوة) أحسستُ من نظراته أنه لا يريد الحديث وكأنَّ لسان حاله يقول: صفحة من الماضي قد طُويت، رأيت دمعة تنحدر على صفحة خده، وقال بصوت متهدج: رحم الله ولد الشيخ، أما (اليابا حسن) فأنا لست غريمه، كأني أراه أمامي مهرولاً تجاه الحرم لصلاة المغرب، وطوَّحت بي الأيام وعدت إلى البلد الذي أتنفس عبقه الطاهر في حالة القُرْب والبُعْد، أرضه طاهرة لم تتلوث ولن تتلوث أبداً ما توالى الليل والنهار، قصدتُ (مركاز) صديقي الأستاذ محمد نور عبد المقصود، وجدت رجلاً قريباً إلى نفسي، الصديق إدريس عبد الله كَنُو ـ والده من رجالات المسفلة ـ لعلي تعديت على حقوق صديقي المسفلاوي محمد عمر العامودي فهو فخورٌ بانتسابه إلى البلد الطاهر، ويحن إلى مرابع صباه بين الأبطح والمسيال، أعود إلى صديقي (إدريس) الذي كنت أسأله عن الأحباب والأصدقاء، لم يرد أن يُخفي الأمر عليّ: لقد مات صديقك (يحيى مالنتا) هل عرفت بذلك؟ لم أتمالك نفسي..

لقد بكيتُ ليلتها على جليسنا في الحرم وفي حلقات الدرس، وفي دور الأحبة بين النقا والعُتيبية. وفي ليالي الصَّفاء بين (المسفلة) و(الجعرانة) و(ريع أذخر) لم يكن صديقي (يحيى) مشغولاً بشيء في أواخر حياته كانشغاله بالصلاة والذكر، في صحن المسجد الطاهر، وتمرُّ السنونُ ويذهب الأحباب واحداً تلو الآخر، وبالأمس أقرأُ نعي العم (إبراهيم ركَّه) فذرفتُ الدمع مجدداً على واحدٍ من بقية القوم من الذين كان صديقي يأنس إليهم ويسعى للسؤال عنهم.

يا صديقي مفردات قاموسك في الحياة كانت الحب والصفاء ومواقف البر والإحسان، في حياتك ـ يا أبا محمد ـ كنت ـ بعد الله ـ أسندُ ظهري إلى جدار قوي ومتماسك، وبعد انتقالك إلى الدار الآخرة شعرت أنني أقف وحيداً، لقد سارت القافلة وتركتني في العراء.

(١٣)

أثار موت الأخ عادل طيِّب ـ رحمه الله ـ شقيق الأستاذ الكريم محمد سعيد طيب ـ في نفسي كثيراً من الشجون حول الشامية وأهلها، ولم أعرف حارة ـ بعد حارتي في المدينة: العنبرية ـ كمعرفتي بالشامية، أدركت فيها الشيوخ والكهول والشباب تتوزع دورهم ومجالسهم في أنحاء الحي الذي يقصده الناس في البلد الطاهر.

فمجلس الشيخ عبد الله بصنوي ـ رحمه الله ـ كان مقصداً لجميع ذوي الحاجات، وكان المرحوم البصنوي ـ يُؤدي صلاة الفجر مع الجمعة، حتى إذا طلعت الشمس، وضع إزاره على كتفه، أو تعمَّم به، وخرج من باب المسجد إلى موضع البازان، كان هناك صديقه المرحوم حسين غزاوي، وهو رجل سمح الوجه، كريم اليد، يحفظ الأمثال الشعبية، ويرددها فيما يشبه اختبار القدرة على التذكر، وحفظ تلك العبارات، التي تعبر تعبيراً صادقاً وعفوياً عن الحياة وشجونها.

وكان المرحوم البصنوي يحظى باحترام شباب الحي، فهم يخافونه ويُجلُّونه في آن وكنا نصعد ـ سوية «الكدوة» فنمر على الأخ عادل طيب، يجلس أمام منزلهم مع ثلة من أصحابه، وكان الشيخ ـ على قلة كلامه ـ يداعب (عادل) كثيراً، ثم ننصرف إلى حانوت العم سرور باسلوم ـ رحمه الله ـ وهو رجل يشُّع وجهه بنور الإيمان، ولا يغفل لسانه عن ذكر الله،

وكان ذا صوت شجي يحسن به أداء القصائد، وكنا ذات ليلة في حانوته، ننتظر أن ينهي عمله في الحانوت، فلقد كان الناس يصطفون، ليبتاعوا من حانوته «السمبوسة» الشعبية المحببة إلى نفوس القوم في مكة.

وجاء شباب من أهل الشعب، وكان من عادة العم سرور أن يقول قبل انصرافه من الحانوت: باركنا. ولعل الشاب لم يسمع العبارة، أو لم يدرك معناها، فظل واقفاً، ثم استدار إلى العم سرور، يسأله عن نصيبه من العشاء، ولكن في لغة فظة! فرد عليه أبو مجدي ـ رحمه الله: لقد نبهت، ألم تسمع ما قلته؟ وأراد الشاب أن يتطاول في حديثه، فلم نرَ أنا والمرحوم بصنوي ـ العم سرور غاضباً كغضبة تلك الليلة، وهو قليلاً ما يفعل، وشَمَّر عن ساعديه، ولكن الشاب انصرف، وهمس في أذني أبو محمد قائلاً: لو لم ينصرف لرأى في هذه الليلة عجباً.

وأكاد أجزم أنني لم أرَ في حياتي رجلاً قوياً وحليماً في الوقت نفسه كالشيخ البصنوي، ولكنه إذا غضب تفرق الرجال من حوله خوفاً من يده القوية، التي لم تمتد يوماً فيما يُغضب الله، بل سخرهما كما سخر قدمه لخدمة الناس وقضاء حوائجهم في البلد الطاهر.

وجئته صباح يوم، ووجدته فرحاً: انظر يا أستاذ، هذه هدية وصلتني اليوم من واحد من أبنائنا الذين اعتز بهم، إنه محمد سعيد طيب، شقيق عادل، أرسل بهذه العباءة ـ وبالتعبير البلدي: المشلح ـ وكان ـ رحمه الله ـ إذا أُهدي إليه شيء من شخص عزيز يحتفظ به، وإذا أهدى إليك شيئاً يتمنى عليك ألا تهديه لأحد.

كانت «الشامية» تضيء شوارعها وأزقتها برجال وشباب يكرمون النزيل، وينصرون المظلوم، ويقفون مع صاحب الحاجة، وجئت قبل عام لزيارة الحي فلم أر فيه شخصاً أعرفه من قبل، وسألت نفسي في لوعة

وأسى: كيف تفرق الجمع؟ أين ذهب الرجال؟ أين مجالسهم...؟ أين مراكيزهم؟ أين «ابن الحارة» صاحب النخوة الذي يغض الطرف عن منزل جاره؟ ويحرص على أبناء الحي كحرصه على أبنائه؟ أين ليالي السمر البريء التي يُنْشَد فيها الشِّعْر العذب؟

لقد سمعت ـ في الشَّامية ـ نغماً شجيًّا تردِّده جنبات دورها، وسمعت القوم ينشدون الشِّعر، ويروون أحاديث الأدب في فصاحة وبلاغة عجيبتين، أيكون غريباً على من عاش في البلد الذي ولد فيه سيِّد السَّادات، وتنزل فيه الوحي، وانطلقت منه حضارة العلم والإيمان ـ أيكون غريباً عليهم أن يكونوا أفصح الناس؟ لقد صدق سيدي وحبيبي وقرة عيني محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ عندما قال: (أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش) وقال في حديث آخر: (أنا خيار من خيار، من خيار، لم يجتمع أبواي على سِفَاحٍ قط) أو كما قال ـ عليه السلام.

صديقي أبا الشيماء، أعلم كم هو مؤلم أن يفقد المرء شقيقه، وأعلم أني إذا حدّثتُك عن «الشامية» يأخذك الحنين والوجد إلى مرابع الصبا، ومنازل الخير والعرفان، ولو تعلم كم أصاب قلب صديقك من سهام بعد موت أحبابه في الشامية ـ لأشفقت عليّ كثيراً.

وإنني أعزيك اليوم في فقد أخيك، وأعزي نفسي في فقده، فلقد عرفته والابتسامة لا تفارق محياه، والكلمة الطيبة تزين قوله الذي كان يتجمع الشباب من أبناء الحي ليستمعوا إليه، ثم ينصرفون إلى دورهم، وقد طابت منهم النفوس، وقرت منهم الأعين.

اليوم وقبل اليوم ما زلت أردد قول الشاعر الجاهلي:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصَّفَا أنيس ولم يسمر بمكة سامر!!

(١٤)

أعلم أنني لا أستطيع أن أوفيك حقك من الحديث فأنت واحد من أولئك الرجال الذين تجد الكلمة نفسها قاصرة عن الإحاطة بأبعاد شخصيتك، لقد عرفك الناس شيخاً لحي الشامية في البلد الطاهر ولكنك كنت في واقع الأمر شيخاً لكل تلك الجموع التي تحتشد في حارتك من كل مكان.. يحتشدون يا أبا محمد ينتظرون طلعتك البهية ويتشوقون لحديثك العذب وينصرفون من مقامهم وقد رضيت منهم النفوس وقضيت لهم الحوائج على يديك ويكفيك من الصفات حلم يتسع لهفوات الآخرين وصبر على المكاره في سبيل إرضاء القاصدين وحسن خلق يدني الضعفاء قبل القادرين ويتودد إلى المجهولين من الخلق قبل المعروفين.

لقد فقدتك مكة فخرجت تشيعك في جمع لم يشهد الناس له مثيلاً، كانت لحظات إلحادك في الثرى الطيب عرساً يجسد ذلك الحب الذي نما وترعرع في قلوب القوم لك، فلطالما شاطرت الناس أحزانهم وشاركتهم أفراحهم ودفعت عنهم بتوفيق الله ما تستطيع دفعه من الضائقات ونوازل الدهر.

يوم واروك في الثرى كنت أشعر لحظتها أنك تولد من جديد، تولد نوراً يشع ضياؤه على سفوح ووديان البلد الطاهر، تولد حباً يتعمق النفوس

ويرويها من منابع السمو والفضيلة، تولد ذكرى تكتب سطورها تلك الحقائق التي سعيت بسلوكك إلى تجسيدها، لم تتراجع يوماً عن وعد أعطيته، ولم تخذل صديقاً يطرق باب دارك ولم ترفع صوتاً في وجه أحد من الناس حتى لو كان من أولئك القوم الذين اختلفت يوماً معهم ثم أصبحوا أقرب الناس إليك ويحظون بعطفك وتخصهم برعايتك.

الناس جميعاً فقدوك يا أبا محمد ولكنني أحسست في تلك اللحظات الأليمة أنني وحدي الذي فقدتك كما شعرت يوماً أنني وحدي الذي عرفتك، عقدان من الزمن لم يغب وجهك المشرق عن ناظري ولا انقطع صوتك المليء بالحب والشجن عن سمعي، تجمعنا مجالس الحب والصفاء، التي كانت لا تعرف أنساً إلا بحضورك لقد غاب الأنس وفوحت الدار واختفى الحبيب من بين أحبابه، «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(١٥)

لم تكن تلك الكلمات في رثاء الشيخ عبد الله بصنوي التي عبر ـ من خلالها ـ العلماء والمثقفون، من أمثال: معالي الدكتور عبد الله نصيف، ومعالي الأستاذ أحمد زكي يماني، ومعالي الدكتور محمد عبده يماني، وسعادة الأستاذ محمد سعيد طيب، وغيرهم.

لم تكن مجرد كلمات عبروا ـ من خلالها ـ عن حبهم لهذه الشخصية الفريدة، التي عاشت فوق ثرى الأرض المباركة، تدعو إلى الخير، وتحسن إلى الضعفاء والمساكين، وتكرم أهل الفضل، بل كانت ـ إضافة إلى ذلك ـ شهادة صادقة، ودليلاً حياً على أن النفوس تنزع إلى رؤية الومضات الإنسانية، والمثل العليا، وهي تتجسد في هذه الدنيا، التي كثيراً ما تزخر بجوانب أخرى، يمكن وسمها بالانحدار أو الظلمة والقتامة. ولعل في قول الشاعر السيد محمد حسن فقي تعبيراً صادقاً عن هذه الحقيقة والتجربة المعاشة:

إنَّ الذي خلقَ الحياةَ حفيلةً بالشّرِ أنقذنا ببعض خياره

لقد عرفت الفقيد عن قرب، وصادقته لأمد، وكنت كثيراً ما أُحدِّثُ نفسي، كيف تكون الحياة التي نعيشها لو كان معظم الناس فيها على هذا المثال الصادق من الأخلاق، وتلك النظافة من السلوك؟

إنها ـ بلا شك ـ سوف تكون أكثر إشراقاً، وأنضر وجهاً، بل سوف يزداد تعلّقنا بالحياة، حُبًّا لها، ورغبةً في التمتع بمباهجها.

وكانت هذه الخطرات، التي أحس بها تعتمد على ما كنت أشاهده بعيني، وأقف على حقائقه الماثلة بنفسي، فكثيراً ما كان يأتي ـ رحمه الله ـ في وقت متأخر من الليل أو النهار إلى داره في «حي الشامية» بعد أن يكون الناس قد استنزفوا وقته، واستفرغوا جهده، فلا يستقر به المقام في الدار، إلا والمنادي يناديه لقضاء حاجة من الحوائج فكنت، رأفة به ـ رحمه الله ـ أخرج رأسي من النافذة، لأطلب من المنادي أن يعود في وقت آخر، لأن الشيخ قد أخلد للراحة، ولكنه ـ رحمه الله ـ يسبقني للإجابة من الدور العلوي في الدار، وتكون إجابته مقتضبة: سوف أنزل إليك الآن.

وكان هذا يشجع الناس على المجيء إلى داره في أي وقت شاؤوا، ولا يتحرجون في ذلك، لأنهم يعلمون أنه نذر نفسه، وقف وقته للمجتمع، الذي يعيش فيه.

ومن غرائب الأشياء أن البعض كان يطلب منه التوسط لدى أناس لا يرغب في الحديث إليهم، ولكنه لا يرفض الطلب، ويذهب دون أن تشعر بغضاضة منه في هذا الشأن.

وكنت ـ ذات مرة ـ أسير معه في حي الشامية، وكان بينه وبين واحد من أهلها سوء تفاهم، ألقيت السلام على هذا الرجل، ولما تجاوزناه ـ قال لي: لقد أدخلت السرور عليّ بسلامك على هذا الرجل وسوف ينصلح ما بيني وبين هذا الأخ في الله قريباً ـ إن شاء الله ـ في الوقت الذي كثيراً ما يطلب منا بعض الناس أن نحب من يحبون، ونبغض من يبغضون.

لقد أكرم الله «البصنوي» ونزهه عن كثير من تلك الأخلاق الذميمة والسلوكيات المنفرة، فكان نموذجاً منفرداً في أخلاقياته، وصورة ساطعة للسلوك الإسلامي الذي حثتنا عليه آيات الذكر الحميد، ونصوص السنة الشريفة، والمنزهة عن كل هوى.

كان يجزل في العطاء للمحتاجين من الفقراء والمساكين، الذين كانوا يحيطون به ليلاً ونهاراً، لإيثاره لهم بحبه، وعطفه، وقربه.

وكان إذا أعطى ولقد حدَّثني بهذا بعضهم بعد انتقاله إلى رحمة الله ـ كان يقول لهم في حياءٍ وخجلٍ نادرين: عسى أن تكونوا راضين عنا.

ولقد كتبت مرة مقالاً عن صفاته على صفحات جريدة المدينة، فطلب من زوجته الصالحة ـ وهي أم لي لأنها رعتني وربتني كأبنائها ـ طلب منها أن تتصل بي هاتفياً، وتطلب مني ألا أعود إلى الكتابة عنه مرة أخرى، لأنه يعتقد أنه ليس في شخصيته ما يستحق الذكر والإشادة، وأنا وغيري يعلم أن كلمات اللغة وتعبيراتها تعجز عن إيفائه حقه من الوصف والإشادة.

ومع أن أم أبنائه الكرام على خلق رفيع، وزهد نادر، إلا أنه يقول لي: يا أخ عاصم، أم الأبناء لا أسمح لها بدخول الغرفة التي تحتوي على أموال الصدقة التي يأتمنني الناس على إنفاقها على ذوي الحاجات.

ويضيف: الله يعلم أنني لم أصرف على أبنائي قرشاً واحداً من هذه الأموال، ولكنني أنفق عليهم من حر مالي.

وإذا طلبه أحدهم ديناً ـ وكثيراً ما يحصل هذا ـ فهو لا يدينه إلاَّ من ماله الخاص.

ومع أن جاهه كان مقبولاً عند جميع الناس، في هذه البلاد، من

مسؤولين وغيرهم، فهو يرفض التوسط لأبنائه، ويطلب منهم أن يقضوا حوائجهم بأنفسهم، في الوقت الذي كان لا يبخل على الآخرين بجاهه وجهوده.

ولقد أدرك أبناؤه هذه الحقيقة، فرضوا بها، وتعاملوا معها بكل وعي وإدراك، فلقد نشَّأهم ـ رحمه الله ـ فأحسن تنشئتهم وأدبهم فأكرم تأديبهم.

ومن وفائه لأصدقائه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة أنه كان يكثر لهم من الدعاء، في كل ليلة، قبل منامه، ويتصدَّق عنهم من ماله الخاص.

وإنَّه ليذكر جميع أصدقائه، دون تخصيص، ومنهم الذين مضى على وفاتهم أكثر من نصف قرن من الزمن، ولهذا لم يكن غريباً عليّ أن أرى تلك الجموع المحتشدة في مقبرة المعلاة، تنتظر تشييعه إلى لحْدِهِ في تلك التربة المباركة.

ولقد سمعت فضيلة الشيخ محمد بن عبد الله بن سبيل، الرئيس العام لشؤون الحرمين، (سابقاً) وهو يُثني على صفات الرجل الذي رفع الأذان من فوق منائر المسجد الحرام، لأكثر من نصف قرن.

وسمعت أصواتاً يخنقها البكاء، وهي تقول: اليوم يُعزَّى فقراءُ مكة ومساكينها.

يا أبا محمد، يا قارئ القرآن في جوف الليل، يا طائفاً بالبيت في ضحى النهار، يا خفيض الصوت عند الحديث، يا أنس الأحباب في مجالسهم، يا حليماً عندما يستبد بالناس الغضب، ويا فارساً عندما يتراجع الآخرون عن الإقدام على المخاطر.

يا أبي، ويا معلمي، ويا صديقي، مثلك لا يُبكى عليه، فلقد وهبت حياتك للإحسان، وأنفقت عمرك في فضائل الأعمال، ولكنه الفراق، وما

علينا إلا التمثل بقول المصطفى ـ ﷺ ـ وقدوتنا، «إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنَّا على فراقك يا إبراهيم لمحزنون».

عزائي لأهله وأبنائه وأحبابه الذين كانوا يلتفون حوله، ولم يكن لهم من هدف سوى الاستفادة من تلك السجايا النبيلة والنادرة التي اجتمعت في شخصه، وإنهم ليعرفون عن سلوكيات هذا الرجل ـ والتي أشرت إلى لمحات منها في هذه المقالة ـ يعرفون الكثير عن زهده وترفعه وورعه، ولكن وفاته المفاجئة أصابتهم بكثير من الذهول، وأفقدتهم القدرة على التعبير. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

(١٦)

إن تكن كلمة (أديب) تعني مجموعة تلك الصفات الفكرية التي تتوافر في شخصية معينة فتتهيأ لها ظروف المشاركة في البناء الثقافي للمجتمع الذي تعيش ضمن إطاره فهو وصف ينطبق على هذا المرثي الذي أردتُ أن أخصه بالقليل الذي لا يشمل كل جوانب تلك الحياة الإيجابية التي لم يكن فيها فقط أديباً بهذا المعنى المتداول الذي يتسارع إلى أذهاننا عند سماعنا للكلمة نفسها. وهو ـ بلا شك ـ ربط طبيعي ومنطقي لا جدال فيه. إلا أن الصفات الفكرية وحدها لا تكفي في كثير من الأحيان أن تكون المقياس الوحيد الذي ننظر من خلاله إلى ذويها وفي تاريخ الأمم رجال لم يُؤلفوا كتباً أو يدبجوا مقالات ولكنهم تركوا في مجتمعاتهم آثاراً حميدة بما رسموه من منهج إنساني أو خلدوه من عمل نبيل.

وكم هم أولئك الذين يقفون أمثلة شامخة في حياتنا، يستمدون ذلك الشموخ من الصفات الإنسانية التي يتحلون بها والتي تترك آثارها البعيدة في نفوسنا فلا نملك إزاءهم غير هذا الإعجاب الذي هو إحساسٌ غريبٌ يتعمَّق دواخلنا وكم يعجز العقل أن يعطي تفسيراً لما يعتمل في نفوسنا من شعور أو تقدم عليه شخصياتنا من مسلك.

لقد عرفتُ الأستاذ البصنوي ـ رحمه الله ـ في مكة المكرمة في حي

تقرب أرجاؤه من بيت الله الحرام. لقد عرفته في حي الشامية وفي دار أخيه العامرة فضيلة الشيخ عبد الله ـ أمد الله في عمره ـ كنت أستمع إلى أحاديثه العذبة في شؤون شتى منها ما يتعرض لأحوال الفكر ومنها ما يتجاوز الفكر إلى الأدب ومنها ما هو اجتماعي فقط وفي كل تلك الشؤون كنت أجد في شخصه صفات الأديب الذي يناقش بعمق وهدوء وقليلاً ما رأيته يحتد بل كانت أحاديثه مصحوبة بابتسامة عذبة تُومئ إلى تلك الروح السمحة التي كان يتمتع بها. ولا أعلم إذا ما كان لشخصيته الرِّياضية التي عُرِف بها في مطلع حياته أثر في هذا الجانب الوديع الآخر الذي يشكل في حد ذاته مسلكاً أخلاقياً يتفرَّد به أولئك الذين أُعطوا من صفات الحلم والصبر ما يؤهلهم لأن يكونوا في دور القدوة التي تُحتذى والمثال الذي يجدر بالاتباع.

وإنني لأذكر يوماً أن الحديث امتدَّ بنا لنقارن بين الشَّاعرين المرحومين حمزة شحاته ومحمد حسن عوَّاد وكنتُ مُتحمِّساً لشاعرية شحاته ـ رحمه الله ـ وأرى أنه من الخطأ عقد مقارنة بين الشاعرين لانتمائهما إلى اتجاهين أدبيين مختلفين ولقد رأى رحمه الله في تحمُّسي لشحاته إغضاضاً من منزلة العوَّاد الذي كان زميلاً له يوم كان البصنوي سكرتيراً لمديرية الأمن العام فإذا هو يبتسم قائلاً: لو لم يقل العوَّاد في كل ما أنتج إلا هذا البيت لكفاه وإذا هو ينشد بيت العوَّاد المعروف:

من هنا شع للحقيقة نور   من قديم ومن هنا يتجدد

وكان رحمه الله معجباً بصديقه الشاعر الأستاذ إبراهيم فودة ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ دائم الحديث عن ملكته الخطابية؛ التي ظهرت جلية في حفل افتتاح حفل النادي الأدبي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٥هـ على شرف

صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد رحمه الله الرئيس العام لرعاية الشباب آنذاك.

يومها استمعت إلى الأستاذ الفوده متحدثاً ولم يتملكني فقط ذلك الإعجاب ببلاغة عباراته ومدى قدرته على التأثير ولكنها تلك الموضوعات الفكرية التي طرقها في الكلمة الافتتاحية لتلك المناسبة.

وعلمت يومها أنها ليست زمالة العمل المشترك بين الرجلين في الإذاعة السعودية في يوم من الأيام ولا انعكاس علاقة الأستاذ بتلميذه حيث كان الأستاذ البصنوي ـ رحمه الله ـ مدرساً قديراً في علم الرياضيات وكان الأستاذ الفوده ضمن تلاميذه ليس هذا هو ما دفعه أن يضع الفوده في تلك المنزلة بل هي المنزلة التي يعرفها كل أولئك الذين استمعوا إليه مُحَدِّثاً أو قرأوه شاعراً.

هي كلمات قليلة أردت أن أتحدث بكل نزاهة عن شيء من صفات شخصية كان لها عطاؤها المتعدد في المجتمع الذي عاشت فيه. هي كلمات رائدها الوفاء لأولئك الذين يستحقون منا الإشادة يوم كانوا أحياء بين ظهرانينا فلا أقل من الإشارة لما قدموه بعد رحيلهم عنا ففي ذلك استجلاب للدعاء واستنزال للرحمة.

وإنني أدعو بالمغفرة للأستاذ البصنوي الذي فتح في يوم من الأيام هو وأخوه المفضال باب مكتبتهما العامرة فكنتُ أتسلَّلُ إليها يوم كنتُ طالباً في كلية الشريعة أراجع فيها من المصادر ما لم تمكني ظروفي ـ يومها ـ من الحصول عليها.. إنني مدين لهما بهذا الفضل الفكري وغيره فلا أقل من وفاء يتجسَّد في عبارة.. وشكر يتمثل في دعاء.. رحمك الله أبا إبراهيم.. وأسكنك فسيح جنَّاته.

(١٧)

(إبراهيم فوده) الأديب والشاعر والمفكر، الذي برز من عباءة العلم، وألقت به حلقات العلم الشرعي في البلد الحرام في وسط ساحة الثقافة منذ ما يقرب من نصف قرن، كان أبوه «أمين فوده» أحد علماء الحرم المكي، سمعت الأديب المرحوم حمزة بصنوي يقول عنه: كان لا يوعظ الناس بأمر حتى يطبقه في حياته وسلوكه، ومن هنا اتسمت شخصية ابنه إبراهيم بسمات عديدة من أبرزها عفة النفس، وطهارة السلوك، والصراحة المتناهية في قول ما يعتنقه من مبدأ ورأي ولكن في أدب متناهٍ وبلغة مهذبة.

ولج ساحة الأدب في فترة مبكرة من حياته فعندما كانت «جمعية الإسعاف الخيرية» في مكة لا تحتفل إلا بمن هم أكبر سناً منه كشحاته والعوَّاد. كان إبراهيم لا يتهيَّبُ صعود منبرها، وبعد زمن أصبح «إبراهيم» خطيب المحافل والمنتديات، يرتجل القول حيناً ويكتبه حيناً آخر، فكأنك تُصغي لواحدٍ من خُطباء العرب في عصور ازدهار اللغة الخالدة، سمعته يتحدث في حفل افتتاح نادي مكة الثقافي عام ١٣٩٥هـ، فأُخذتُ بفصاحة القول عنده، كنت بصحبة رجل الفضل في مكة المرحوم «الشيخ عبد الله بصنوي» وكانت علاقة وثيقة تربط بين شقيق أبي محمد «الأستاذ حمزة

بصنوي» والأستاذ الفوده، ـ رحمهما الله ـ وكانت صداقتهما مضرب المثل في البلد الطاهر.

ولقد دَوَّنَ المرحوم الفوده في صديقه ـ البصنوي ـ دُرَراً من الشِّعر الذي يحكي قصة صداقة نشأت في دوحة العلم والأدب وتميَّزت بالوفاء النادر، صداقة رُبما أدخلها البعض ـ اليوم ـ في عالم الأسطورة ولكنها كانت حقيقة عايشها كل أولئك الذين كانوا يحيطون بالفقيد من أصدقاء ورجال.

وكان الفوده لا يبخل بعلم يعرفه ولا يمنع جاهه عن ذوي الحاجات والمقاصد، كان يقرأ علينا من شِعْره عندما كان مخطوطاً في مكتبته التي تحوي النفائس من كتب المعرفة والأدب، ولقد عبرت له ذات يوم، عن حاجتي للاطلاع على المصادر الأولية في الأدب السعودي، التي كتبها كل من محمد سرور الصبان، وعبد الله عبد الجبار، والسيد إبراهيم الفيلالي، وعبد الله بلخير، ومحمد سعيد عبد المقصود، وعبد السلام الساسي، فكان يعيرني لبعضها ويهدي البعض الآخر بنفس راضية، ولمحت ذات يوم مكتبة في منزل الشيخ البصنوي بحي الشامية حيث كنت أقيم، فإذا صاحب الدار العامرة يقول لي: هذا جزءٌ من مكتبة أخي حمزة وصديقه الفوده، خُذْ ما شئت منها ثم أرجعه إليها، ومن هنا فإنني أدين للرجلين الفاضلين المُهَّذبين «البصنوي والفوده» بشيء من ثقافتي وفكري، المتواضعين، كما أدين لعبد الله بصنوي، ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ بأبوة روحية لن أستطيع أن أوفيه حقها إلا بالدعاء له بالمغفرة والرحمة.

كان إبراهيم كصديقه «حمزة بصنوي». . أنيقاً في قلبه، رقيقاً في عبارته كتلك الرِّقة التي تنضح بها كتاباته وخُطبه وأشعاره وكانت دارهُ في

كل من «مكة» و«القاهرة» لا توصد أبوابها أمام مُحبِّي الرجل وأصدقائه وغيرهم من عامة الناس. ولقد استطاع الأستاذ الفوده أن ينقل صورة مشرقة عن فكرنا وأدبنا عن طريق تلك العلاقات التي كان يُقيمها مع أدباء ومفكرين من شتى البلاد الإسلامية والعربية، وهو في هذا الدور يشبه إلى حد بعيد الشَّاعرين المعروفين طاهر زمخشري ـ رحمه الله ـ وحسن عبد الله قرشي ـ أطال الله بقاءه ـ ومع هذا الدور الكبير الذي أَدَّاهُ الأستاذ الفوده فلقد كان ـ رحمه الله ـ عزوفاً عن الشُّهرة وأبعد ما يكون عن الرغبة في الظُّهور وهو درسٌ لبعض من يكتبون من الأجيال الصَّاعدة ويتطلعون إلى هرم الثقافة من أعلاه ولا يرتضون أن يصعدوا درجاته في تأنٍ وهدوء، مع أن بعض ما يكتبونه هو شعر ركيك وأدب ممسوخ، وهم يصرون أنهم من سلالة «ت. س. إليوت، وإزرا باوند، ورولان بارت، وميشال فوكو ودي سوسير». ويسأل المرء نفسه في أسى وتحسر هل هذا هو الجيل الذي سوف يخلف شحاتة والعواد وحمد الجاسر وعبيد وأمين مدني ومحمد سعيد العامودي، وأحمد جمال وعبد الله عبد الجبار، ومحمد حسن فقي وعبد العزيز الربيع ومحمد العقيلي وإبراهيم فوده، وحسين سرحان؟ هذه الدوحة العظيمة التي تساقطت معظم أوراقها ولم يبق فيها إلا القليل الذي نستظل به من تلك الأعمال الرديئة التي تُصافح أعيننا بكثرة في بعض صفحات الأدب والثقافة وتحتلُّ موقع الصَّدارة منها، بينما يظل الأدب الرفيع والإبداع الأصيل قابعاً في صدور أصحابه، أو منزوياً في الحواشي من صفحاته وملاحق تدعي الإيمان بتعدُّد مناحي الفكر والثقافة، وترفع صوتها عالياً بوجوب عدم الحجر على الآخر وإفساح المجال له، ولكن أين الادِّعاء من الحقيقة؟ فشتان ما بين القول والفعل.

ذكريات من الحصوة

ملامح من ماضي المدينة المنورة

إلى الأخت العزيزة.. السَّيدة الأديبة المَصُونة، أم لجين سائلاً الله أنْ يحفظ لكما لجيناً ويكفيكما شَرَّ الأعداء والحاسدين:

المؤلِّف

١٠/ ١٠/ ١٤١٩هـ

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى والدي..

إلى ذلك السيف العربي الذي علمني أن للباطل ألف وجه ولكن للحق وجه واحد..

إلى الذي علمني أنه كما للعرض شرف فللكلمة أيضاً شرف.

يا أبا علي..

يوم توقف قلبك عن النبض اسودت الدنيا في عيني وحاصرني الظلام من الجهات الأربع.. ولكن في أول ليلة بعد رحيلك بدأت أرى كل طريق أسير فيه مزروعاً بالمصابيح التي تركتها لي.. تلك المصابيح التي لم تكن داخلة في التركة..

كيف أهدي إليك هذا الكتاب وما فيه من كلام إذا كنت أنت الكتاب وأنت الكلام.

وإلى والدتي.. يا أم عاصم..

يقولون: إن الأم (نهر من الحنان). فإذا كان الأمر كذلك.. فأنت

أطول أنهار العالم. .

ويقولون: إن لكل نهر منبعاً ومصبًّا. فإذا كان الأمر كذلك. فكل الأنهار تنبع منك وكلها تصب فيك. .

لو كان البر بك شجرة. . لزرعت الدنيا أشجاراً. .

ولو كان الوفاء ماء لحملت كل المحيطات ووضعتها بين يديك. .

حين أسمع منك كلمة رضى تتحول غابات حزني إلى فرح لا ينقطع. .

فكيف أجازيك إذا كنت فوق الجزاء؟. .

يكفي أن تكون الجنة تحت قدميك. .

فدعيني يا أم عاصم أكون تحتها. .

عاصم

هــذا الكتــاب

بقلم: عبد المحسن حليت مسلم

هذه أول مرة أكتب فيها مقدمة لكتاب..

ولا أنكر أنني خائف ومضطرب..

كأنني أشبه ما أكون بشاب يلمس يد امرأة لأول مرة..

أو طالب يدخل قاعة الامتحان لأول مرة..

أو طبيب يمسك بالمشرط لأول مرة..

وقد سألت نفسي أكثر من مرة.. لماذا؟

ورغم أني لم أجد الإجابة إلا أنني أحسست أن خلع عباءة الشعر وارتداء عباءة النثر أمر صعب علي.. إن علاقتي بالشعر كعلاقة السحاب بالمطر.. وعلاقة الوردة بالأريج.. وأسماك السلمون بمياه الأنهار..

فعباءة الشعر ملتصقة بجلدي ولو نزعتها فلسوف أنزع معها قطعة من جلدي.. لذلك فأنا لا أقابل الناس إلا بها، أما عباءة النثر فأستطيع أن أرتديها وأخلعها ألف مرة في اليوم ولكنني لا أقابل الناس بها لأنني لو فعلت فلسوف يسألونني عن اسمي واسم أبي واسم جدي.

قد يتصور البعض أن كتابة مقدمة ما، أمر هين، أما أنا فلا أراها كذلك.. خصوصاً حينما يكون الكتاب الذي بين يديك موغلاً في الروحانية، غائراً في الوجدان، ومحلقاً في أفق واسع من الشفافية والصفاء.

أول ما استوقفني في هذا الكتاب أنه كتاب خارج عن الصف.. سابح ضد التيار.. متمرد على المألوف!!

أريد أن أسأل القارئ..

هل سبق لك أن قرأت كتاباً أكثره حديث عن البسطاء والفقراء؟

هل سبق لك أن سمعت عن «الزين» أو «ابن جبل» أو «ابن عيسى»؟

هل سبق لك أن رأيت صورة أحدهم في صحيفة أو مجلة أو شاهدتهم على شاشة التلفزيون أو قرأت عن أحدهم خبراً يقول: سافر فلان أو وصل فلان أو قال فلان؟

هل سبق لك أن رأيت أحدهم يدخل أو يخرج من باب كبار الشخصيات؟

لقد جرت العادة أن تقصر الكتب على المشاهير أو شبه المشاهير من مؤرخين ومفكرين وشعراء.. الخ. ولكن أن يظهر كتاب معظمه حديث عن الفقراء والبسطاء، فهذا شيء لا نراه كثيراً. هذه هي أبرز سمات هذا الكتاب.. لقد كان خارجاً عن الصف لأن «الزين» و«ابن جبل» و«ابن عيسى» وغيرهم، لم يكونوا من علية القوم..

كانوا دائماً يدخلون من «باب السلام» لا من باب «كبار الشخصيات»..

لم تكن تسعى إليهم أضواء الكاميرات بل كانوا هم يسعون إلى تلك

الأضواء المنبعثة من القبر الشريف. .

لم يكونوا يطربون لـ «موزارت» ولا «شتراوس» ولا «هايدن» بل لعبد الستار بخاري وعبد الملك نعمان وحسين هاشم. .

وقبل الحديث عن هذا الكتاب، أود أن أحدد مسار المؤلف في معظم كتبه التي صدرت له: (ذكريات من الحصوة)، (حارة الأغوات)، (حارة المناخة) و (أشجان الشامية) وهي جميعها صور أدبية لبعض المواقع في المدينة المنورة ومكة المكرمة في عصور مختلفة، فالذي يقرأ كتبه هذه يذهب به الظن إلى أن هذا هو المحور الوحيد الذي تدور حوله اهتمامات المؤلف وكتاباته. صحيح أنه يرى أن من البر بهاتين البلدتين الطاهرتين أن يحاول أن يؤرخ لهما، وأن ينفض الغبار عن وجه تلك المواقع، وأن الوفاء يفرض عليه أن تكون مكة والمدينة هاجسه وهمه، ولا سيما أنه يرى انصرافاً شبه كلي وغياباً شبه مؤكد من قبل الكثير من الكتاب عن ربط أغصان اليوم بجذور الأمس لكي لا ينخر سوس النسيان جذع الذاكرة، فنحن معشر العرب أصبحنا نعرض ذاكرتنا للبيع في مزاد النسيان بأبخس الأثمان.

ومع تركيزه الشديد على هذا الجانب، إلا أن له كتباً أخرى تعكس ثقافته المنفتحة على أكثر من صعيد، فنجد كتابه «نحن والآخر» الذي يتناول في معظمه قضايا يدعو من خلالها لتأصيل الثقافة العربية والإسلامية موضحاً ذلك التهافت الذي نشهده على كل ما يرد من الغرب من فكر دون تمييز بين الجيد والرديء منه، إضافة إلى كتب أخرى مثل «التآمر الصهيوني ـ الصليبي على الإِسلام»، و «المدينة المنورة بين الأدب والتاريخ».

ولكن هذا المؤلف الحاصل على شهادة الدكتوراه في «الفلسفة» من جامعة «مانشستر» ببريطانيا «الصغرى»، يجد نفسه في «حوائر» المدينة ومكة مع البسطاء والفقراء، ولم تستطع شهادة «الفلسفة» يوماً ما أن تجعله يتعالى على «حارة الأغوات» ولم تمنعه من الحديث عن «الشامية» ولا الكتابة عن «حارة المناخة»!!

وها هو اليوم، يلتفت ـ في هذا الكتاب ـ للحديث عن قوم لم يكونوا من علية القوم نسباً، ولكنهم كانوا من علية القوم ديناً وأخلاقاً وسلوكاً وقيماً.

أما «الزين» و «ابن جبل» و «ابن عيسى» فقد كانوا أصدقاءه بالأمس، وأقول بالأمس لأنهم جميعاً رحلوا إلى جوار بارئهم وبقيت ذكراهم تدق في ذاكرته التي لم تقفل نوافذها عنهم بعد رحيلهم.

ويؤكد المؤلف أنهم كانوا أصدقاءً جمعهم حب المعلم الأكبر والمخلوق الأطهر ﷺ، ذلك الحبيب الذي تفنن العشاق في حبه بدءاً بأبي بكر وعلي رضي الله عنهما، ومروراً بباقي صحابته الذين كانوا في «بدر» و«أحد» يصدون بصدورهم عنه رمح قريش وسهامها، ووقوفاً عند الأنصار الذين خرجوا إلى مشارف المدينة يغنون له «طلع البدر علينا».. هؤلاء الأنصار الذين شاء الله يوماً أن يعاتبوا نبي الرحمة، فقدر الله أن يكون ذلك العتاب مناسبة كبيرة أعلن فيها سيد الخلق عن حبه الكبير الكبير لهم.

كان يوم العتاب، يوم حنين، وكان يوماً عظيماً، لا لأن الله نصر فيه رسوله وجنده فحسب، بل لأن «المعلم» محمداً ﷺ كان يعطي فيه المسلمين «الحق» في أن يحاسبوه ويسائلوه ويعاتبوه، كان يعطيهم ذلك

الحق وهو «نبي» لا ينطق عن الهوى، وكان بإمكانه أن يستخدم هذه الآية ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ (النجم: ٣) سلاحاً في وجه كل من يريد أن ينتقده أو يحاسبه أو يعاتبه، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه «المعلم» محمد ﷺ.

وكان يوماً عظيماً أيضاً لأن الأنصار رأوا وسمعوا كم يحبهم محمد ﷺ، وكم يذكر فضلهم وصنيعهم حين استقبلوه بأحضانهم بعد أن أثخنه قومه جراحاً وأذى.

في هذه الأبيات التي نظمها حسان بن ثابت، تكمن شكوى الأنصار وعتبهم:

وآتِ الرسولَ فقل يا خيرَ مؤتمنٍ
للمـؤمنينَ إذا مـا عُـدّدَ البشـرُ

علامَ تُدعى سُليمٌ وهـي نازحـةٌ
قدّامَ قومٍ هُمو آووا وهمْ نصروا

سَمَّاهمُ اللَّه أنصـاراً بنصـرهُـمُ
دينَ الهُدى وعوانُ الحربِ تستعرُ

وسارعوا في سبيل اللَّهِ واعترفوا
للنائباتِ وما خاموا وما ضجروا

خلاصة القصة أنه بعد انتصار المسلمين في غزوة حنين، رأى الرسول ﷺ أن يوزع الغنائم على المؤلفة قلوبه والمحتاجين من المقاتلين، ولم

يعط الأنصار شيئاً، وحين نظم حسان تلك الأبيات، وسمع «سعد بن عبادة» أن باقي الأنصار يشاركون حسان الرأي، ذهب إلى المعلم محمد ﷺ ووقف أمامه وقال:

«يا رسول الله.. إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، لقد قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء».

فسأله الرسول ﷺ قائلاً:

«وأين أنت من ذلك يا سعد؟»..

فقال سعد:

«ما أنا إلا من قومي»

وعندها قال الرسول:

«إذن فاجمع لي قومك».

وفعل سعد، وجاء ﷺ إلى الأنصار ورأى في عيونهم الحزن فقال لهم:

«يا معشر الأنصار.. ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله؟.. وعالة فأغناكم الله؟.. وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟

وظل رنين السؤال يغوص في أفئدتهم إلى أن قالوا:

«بلى.. الله ورسوله أمن وأفضل».

وكرر نبي الرحمة السؤال:

«ألا تجيبونني يا معشر الأنصار»؟

فقالوا: «بم نجيبك يا رسول الله.. لله ورسوله المن والفضل؟.

ويكاد الندم يعصف بكل واحد منهم، فقد وضع الرسول ﷺ أمامهم حقيقة لا يستطيع أن يفر من أمامها عقل ولا منطق ولا وجدان، نعم كانوا ضُلالاً قبله، وعالة قبله، وأعداء فألف به الله بين قلوبهم..

ولكن هذا العظيم محمداً ﷺ لا ينسى اليد البيضاء التي آزرته، ولا القلوب التي احتضنته، ولا الصدور التي تلقت عنه الضرب والطعن منذ أن قدم إلى المدينة.. وبينما كانت رؤوسهم منكسة، وأفئدتهم دامية ندماً على ما قالوه للرسول، تأتي كلمات محمد ﷺ لتجبر الكسور وتداوي القلوب الدامية وترفع لواء الوفاء والعرفان.. ويبدأ الرسول:

«أما والله لو شئتم لقُلتم، فلصَدَقتْم وصُدقتم:

أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وعائلاً فآسيناك، وطريداً فآويناك..».

وهنا بدأت منابع الدموع تستيقظ من شدة فرح الأنصار بما سمعوه من رسولهم، ولكي تنفجر المآقي ويهدر طوفان العبرات كان لا بد أن يسمعوا بقية ما لدى المعلم العظيم:

«أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعاعةٍ من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله إلى رحالكم؟

وهنا سقطت آخر نقطة مقاومة في قلوب الأنصار، وبدأ طوفان الدمع يهدر، وتابع الرسول: «فوالذي نفسي بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من

الأنصار.. ولو سلك الناس شعباً، لسلكت شعب الأنصار.. اللَّهم ارحم الأنصار.. وأبناء الأنصار.. وأبناء أبناء الأنصار».

وبكى الأنصار بكاءً لم يعهدوه.. وتكلمت دموعهم، وصاحوا جميعاً بصوت واحد:

«رضينا برسول الله قسماً وحظاً»..

هذه إحدى صور الحب العظيمة لذلك النبي الذي قال عنه ربه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، وهناك صورة أخرى لهذا الحب، بل هي صورة فريدة لامرأة من بني الأشهل يقال إنها «هند بنت عمرو بن حرام» أخت الصحابي الجليل «عبد الله بن عمرو بن حرام»، وزوجة «عمرو بن الجموح»، ذلك الصحابي الذي قال عنه الرسول ﷺ إنه سيد بني سلمة، وكان عبد الله بن حرام، وعمرو بن الجموح، صديقين حميمين، وكلاهما استشهد يوم أُحد، وحين كان المسلمون يدفنون شهداءهم، رآهما الرسول ﷺ وقال «اجعلوا عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد فإنهما كانا في الدنيا متحابين متصافيين».

وحين عاد المسلمون إلى المدينة من «أُحد»، خرجت هذه السيدة تسأل عن المعركة، فقال لها أحدهم:

«احتسبي الأجر في أبيك وأخيك وزوجك»..

وكان أول سؤال تلفظت به:

«وماذا فعل رسول الله»؟

فقيل لها:

«هو بحمد الله كما تحبين»

فقالت:

«أرونيه حتى أنظر إليه»

وحين أتى الرسول ﷺ قالت:

«كل مصيبة فيما سواك تهون يا رسول الله»

أي حب هذا.. وأي إيمان.. وأي فداء..

ولكن هذا الحب لم ينقطع على مر القرون والدهور، فما زال محمد ﷺ سيد البشر وأكبر محبوب وأعظم معشوق.. وليس هذا فحسب بل إن هناك قلوباً تآخت، ونفوساً تآلفت تحت مظلة حبه دون أدنى اعتبار للون أو لعرق أو لسان.

وهذا الحب هو الذي جمع قلوب هؤلاء الأربعة: المؤلف و«الزين» و«ابن جبل» و«ابن عيسى»، الذين نجد في ثنايا الكتاب أسماءهم وقصصهم كلما دقت أجراس الذكريات في ذهن المؤلف، هؤلاء وغيرهم من البسطاء، هم نجوم هذا الكتاب الذي نستشف من عنوانه (ذكريات من الحصوة)، إنه كتاب يشد الرحال إلى الماضي لينزل بين عبقه وجماله ونقائه.

أما الجزء الأول من الكتاب فهو عن المؤذنين في الحرمين، وفيه رحلة جميلة إلى تلك الأصوات التي كانت تستوقف الماشي وتفتح للخشوع في القلوب ألف باب وباب.

ومع أنني لم أدرك كثيراً من رموز الأذان كالريس عبد الستار بخاري والشيخ حسين بخاري، إلا أنني أتذكر ـ حينما كنت صغيراً ـ الأخوين عصام وعبد العزيز بخاري حينما كان صوتهما ينساب في كل المدينة، وحتى حين أكون خارجها، وأسمع صوت أحدهما، أشعر بيد خفية تنقلني

إلى باب السلام، وتعيدني إلى سوق القَمّاشة وشارع العينية، وأعتقد أنهما قد خلقا تميزاً واضحاً للأذان في المدينة.

والمتأمل في هذه الحلقات عن الأذان والمؤذنين في الحرمين، يجد أن هذا الموضوع يجب أن يكون جزءاً مهماً من تاريخ البلدتين العظيمتين، ويجد أن المؤلف لم يقصر ارتباطه بهاتين البلدتين على حاراتهما وأماكنهما الموغلة في القدم، بل إنه يضع أمام الأجيال القادمة سفراً لمظهر من مظاهر التميز في مكة والمدينة، ويسجل في دفاتر الوفاء صفحات عن قوم رحل جلّهم عن هذه الدنيا ليبقى ذكرهم امتداداً لأصواتهم التي طالما بللت القلوب والآذان، وجعلت من المنابر قطعاً من المشاعر.

والكتاب، وإن كان في إطاره العام ينبش في ملفات الماضي القريب، إلا أن الإيقاع في الحديث عن الماضي، جاء إيقاعاً روحانياً وجدانياً، وحتى الصور الأدبية فيه لم تستطع أن تفلت من قبضة ذلك الإيقاع، ويتضح هذا في مجموعة «أشواق الطريق» و «روابي قباء».

ففي هاتين المجموعتين، وبالأخص «أشواق الطريق»، نجد نبرة عالية جداً من التأمل والمناجاة لخالق هذا الكون سبحانه، واستهانة بالدنيا وبالذين يركضون خلف بريقه الذي ما انفك يأخذ مريديه إلى نهاية أهون ما فيها الندم وأشد ما فيها الهلاك.

وحديث المؤلف عن الماضي، تضمن أيضاً حديثاً عن أيام صباه حين يتذكر مكان نشأته والأماكن التي كان يتردد عليها ليطلعنا على مشاهداته في أسلوب لم يكن يريده أن يكون قصصيًّا، ولكنه كان كذلك. وكان يرمز إلى نفسه بكلمة «الفتى»، ويرمز إلى والده ـ رحمه الله ـ بسيد الدار، أما سيد الدار هذا، فهو رجل أعرفه، ولا أدعي أنني أعرفه جيداً وذلك لفارق

السن، ولكنني أعرفه ويعرف كل أهل المدينة أنه كان رجلاً «عمرياً» فقد كان في الحق كالرعد، وفي سلوكه كالسيف، كان صديقاً حميماً لوالدي ـ رحمه الله ـ وكان «عمدة حارتنا» في قباء، وكان نعم العمدة، وكان شعاره في عمله قول الرسول ﷺ «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». كان جل همه، في ذلك العمل، رضا الله، وبالرغم من كونه موظفاً، إلا أن اهتمامه «بالناس» كان يسبق اهتمامه بـ «أي جهة أخرى».

لم أشأ ـ في هذه المقدمة ـ أن أستعرض مع القارئ الكتاب، فذلك يتنافى مع ما أعلمه عن التقديم لأي عمل، ولكنني حاولت استجلاء هويته ولاسيما أنها هوية مختلفة لا نرى مثلها كثيراً في هذا الزمن.

ذكريات من الحَصْوة
(١)

أغراني الصديقان الأستاذ القاص محمد صادق دياب والأستاذ الشّاعر عبد المحسن حِلِّيتْ مسلّم بأن أكتب شيئاً عن ذكرياتي في طيبة الغراء، والعنوان يحمل دلالة «المكان» فالحصوة هي الأرض المكشوفة المغطاة بشيء من الحَصَوات الصغيرة المجلوبة من قاع التربة الطاهرة في بلد رسول الله ﷺ، وكانت الحصوة تفْصلُ بين موقع الحرم القديم والتوسعة الأولى للمسجد، وفيها كنا نجلس صغاراً لحفظ شيء من كتاب الله.

وفيها أيضاً كنا نستمع لمن وهبهم الله الأصوات الندية لترتيل كتاب الله، وكنت قد أدركت جملة من القراء بحكم تحصيلي العلمي في مدرسة (دار العلوم الشرعية) وجلوسي في حلقات العلم لعلماء أفذاذ قضى معظمهم، وبقيت حلقة واحدة من الحلقات التي أدركتها في مطلع العُمْرِ، وهي حلقة الشيخ «عمر محمد فلاّته»، وهو رجل يجمع مع العِلْمِ حُسْن الخلق، والذي عندما أراه، تستعيد ذاكرتي وجوهاً عديدة كانت تنقل خطواتها بين الروضة والمقام، ووجوهاً أخرى كانت ترتل القرآن في محراب صفوة البشر وسيد العالمين ﷺ وأخرى يأتي صوتها ندياً من (الطوف) في المنائر الشامخة كشموخ تاريخ هذه البلدة الطيبة المرتفعة في

عنان السماء كارتفاع قامات رجالها الكرام المزدانة بالأهلة في أعاليها كما ازدانت نفوس القوم الذين عرفتهم بالعفة والطهر وكريم الصفات.

كانت الأصوات الحسنة من الكثرة بحيث لا تستطيع إحصاءها.. فالشيخ «حسين بخاري» كان ذا صوت قوي وندي في الوقت نفسه. سمعته في أوائل الثمانينات الهجرية وهو يلقي قصيدة ترحيب في «عقد نكاح».. كان صوته يملأ المكان ويصل إلى المسيل في قباء فتتجاوب معه أصوات «النغارى» التي تسكن أعالي النخيل «الشجرة الأصيلة في التربة الزكية». وكان مجايله «الأستاذ عبد الستار بخاري» قد اجتمعت له مواهب عدة فهو من أشهر حفظة كتاب الله، وكان نقيب القرّاء في حلقة الشيخ الفاضل حسن الشعر ـ رحمه الله ـ وكان يحفظ الشعر قديمه وحديثه ويترنم كثيراً بشعر شعراء المدينة في العصور المتأخرة: إبراهيم الأسكوبي، عبد الجليل برادة، سعد الدين برادة، محمد العمري، عبد الحق رفاقت علي، وبعض هؤلاء كان يجيد إبداع الشعر في اللغتين العربية والفارسية. وكان «عبد الستار» يجيد أداء المقامات المرتبطة بالصوت التي جمعت في قولهم «بحمر دسج» فحرف الباء يشير إلى مقام «البنجكا» والحاء «للحراب» والبعض يقول إنها «للحجاز» وهو نغم أصيل لا يجيد أداءه إلا القلة من المنشدين، والميم «للماية»، والراء «للرصد»، والدال «للدوكا»، والسين «للسيكا»، والجيم «للجاركة». ومقام «البيات» مصطلح مرادف «للحسيني» وهو المصطلح المعروف في البيئة المحلية وبين «الرصد» و«الجاركة» وشيجة، ومن يجيد أداء «السيكا» يجيد في نفس الوقت أداء «البيات» و«الصبا».

وكان «الريس عبد الستار» يجيد هذا كله وغيره، وصعد ذات يوم

المرحوم عبد الستار لأداء أذان صلاة الظهر، وكان الأذان ينطلق من المكبرية، ورأيت رجلاً يجلس غير بعيد من المنبر، وهو الشيخ «عارف براده» رحمه الله، رأيته يرفع سبابته ملتفتاً إلى الريس عبد الستار، ولم أفهم مغزى تلك الإشارة، وكنت ملازماً للأستاذ ملازمة كاملة حتى إذا نزل بعد انقضاء الصلاة، وجهت إليه سؤالي الفضولي: ترى ما الذي كان يقصده الشيخ عارف برادة بإشارته؟ فقال: سمع مني يماني الرصد أو يماني السيكا ـ لا أتذكر ـ فأراد أن أستزيد منه.

وقادتني الأيام إلى «مكة» ولازمت شيخ المشايخ المرحوم «عبد الله بصنوي»، وأقام الصلاة لفرض المغرب، وبعد انقضاء الصلاة، فتح أبو محمد باب المقام ونزل درجات السلم وكان رحمه الله ممسكاً بيدي، وعند آخر درجة وجدنا «محمد باجودة» ـ رحمه الله ـ و«محمد خياط»، أطال الله عمره، في انتظارنا وقبَّل كلاهما جبهة الشيخ، وكان جواب الشيخ ابتسامة صادقة ورضية، وقال الشيخ باجودة متسائلاً: هذا «يماني السيكا»؟ فهز الشيخ رأسه، والتفت إليَّ قائلاً: كان عبد الستار بخاري في المدينة يجيد أداء هذا المقام، وأردف يقول: ولكنني كنت أحب سماع صوت حسين بخاري.

ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة
(٢)

تتوالى أحاديث «الريس عبد الستار» عن الأذان وشجونه في المدينة قائلاً: جاء الحادي المعروف «أمين بكر» من الطائف وبالمناسبة فالحديث ـ هنا عن حقبة تمتد إلى ما قبل سبعين عاماً على الأقل ـ وصعدت معه ـ أي الأستاذ عبد الستار ـ للأذان في صلاة الظهر، ولم تكن هناك مكبرات للصوت، ولم أستطع أن أجاري «راحلته» (مدى الصوت وقوته) وعندما نزلنا من «الطَّوفْ»، قابلني حسين بخاري وعلى وجهه تبدو علامات الغضب، فابتسمت في وجهه وقلت له: «العصر» موعدك معه، وصعد الشيخ حسين وأذن، ومع أنه كان أقوى صوتاً مني، إلا أن «البَكَّر» تفوق عليه.

وعرفت فيما بعد الشيخ «عمر بكر» ـ وهي أسرة معروفة في الطائف ـ وكان صاحب صوت حسن يأتينا في منزل المرحوم «محمود كظَلِّي» في «زقاق الطُّوال» وممن كان يؤم هذا الدار من المنشدين المتميزين الشيخان «حمزه ومحمد ألفت» ورديفهما الشيخ «أحمد عسيلان» والد المرحوم الأستاذ حمزه ـ وأخيه مصطفى وكانوا ينادونه بـ «الشاووش»، ولم يبق في المدينة أحد يعرف ذلك النهج في الموشحات الدينية لأنه نهج صعب، ولكنك تشعر بكثير من الدهشة كيف تم لهذه الفئة من الناس الخروج بهذا

الضرب من الإنشاد الممتع الذي يطرب الأذن ويهز الوجدان؟

ولم أدرك الشيخ «عبد الإله خطيري» ولكن ابنه محمداً ـ رحمهما الله ـ أخذ عن والده شيئاً كثيراً، وتختزن ذاكرة أستاذنا «عبد الله خطيري» الكثير عن تاريخ الإنشاد في المدينة وهو يعرف الأصوات الحسنة وكذلك في «الشبيكة» بمكة.

أعود إلى الأستاذ عبد الستار الذي سألته عن السيد «عبد الرزاق نجدي» صاحب الصوت المعروف في المسجد النبوي، فعرفت منه أنه أكبر من الريس عبد الستار سنًّا، وروى الريس قائلاً: عدت من مكة وقد قضيت فيها فترة من الزمن صديقاً وجليساً للوجيه الشيخ «عباس قطان» ـ رحمه الله ـ عندما كان رئيساً لبلديتها، وعندما وصلت المدينة سمعت أن السيد النجدي قد توفي قبل أيام، وكان هذا في المستشفيات الهجرية.

قال السيد حبيب محمود أحمد: لقد سمعتُ صَوْتَه في زمن ماضٍ لم يكن فيه البناء قد تطاول ووسائل النقل الحديث قد انتشرت.. لقد سمع صوته كما قال بالحرف الواحد من منطقة «آبار علي». ويضيف السيد حبيب: إنك إذا سمعت صوته لا بد أن تقف حتى يتمم الأذان لحلاوة صوته، وروحانية أدائه.

أما الشيخ «محمود نعمان» فكان أصغر سناً من الشيخين حسين وعبد الستار، بخاري، ومع أن قاعدة حسين بخاري لم يأخذ بها أحد سوى ابنه عصام أطال الله عمره، فإن قاعدة محمود نعمان كانت الأكثر انتشاراً وقد أخذ بها الشيخ عبد العزيز بخاري. ولقد سمعت هذا الأخير في أوائل الثمانينيات فكان أداؤه للأذان مثالاً للروعة والدهشة التي تأخذ بمجامع القلوب المؤمنة والمطمئنة.

أما المشايخ الكرام «حسين عفيفي» و «ماجد حكيم» و «عبد الرحمن خاشقجي» فقد استفادوا ممن ذكرنا وكذلك من المرحومين «يوسف عينوسة» و «أبي السعود ديولي».

وكان التقليد السائد ألا يصعد للأذان الثاني يوم الجمعة إلا من تتوافر فيه صفات معينة كالتقدم في السن والأداء الجيد، وفي مكة المكرمة كان الشخص الوحيد الذي يقيم صلاة الجمعة وصلاة العيدين هو المرحوم الشيخ عبد الله بصنوي وعندما صعد نجم الشيخ «علي أحمد ملا» ترك الشيخ البصنوي هذه المهمة للشيخ علي، فلقد كانت صداقة قوية تربط بين الشيخين البصنوي وعلي أحمد ملا، هذا صنيع الرجال وهذه أخلاقهم وشمائلهم الكريمة وصدق الشاعر حين قال:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المحافل

ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة

(٣)

كانت المدينة وحرمها الشريف وأحياؤها القريبة من مثوى رسول الله ﷺ تمتلئ بالزائرين طوال العام وخاصة من جيران بيت الله الحرام، وكان المكي ـ بدءاً من العالِم ومروراً بطالب العلم وانتهاءً بابن الحارة ـ يلتزم بكل سلوكيات الأدب إذا دخل بلد رسول الله ﷺ، وهذه ليست مجاملة مني للإخوة المكيين فالأخ أبو علاء الأستاذ الأديب «محمد عمر عامودي» وأستاذي معالي الدكتور «عبد الوهاب أبو سليمان» يعلمان أني قضيت ردحاً من الزمن بين «الشامية» و «المسفلة» و «الشعب» و «النّقا»، وعرفت من أخلاق القوم في مكة وشهامتهم ونبلهم شيئاً كثيراً، وهذا ليس غريباً على من تفتحت عيناه على مشهد تنزل عليه الرحمات في كل لحظة من لحظات الزمن، ليس بغريب على من يفتح عينيه ويغمضهما على رؤية بيت الله أن يتجسد الأدب في أخلاقه وسلوكياته إذا ما جاء لمسجد رسول الله ﷺ ولمقامه الشريف زائراً.

كان حرم المدينة موئلاً لسادتنا من علماء مكة من أمثال الشيخ العلامة «حسين المشاط»، والمشايخ والسادة، «علوي عباس المالكي»، و «محمد أمين كتبي»، و «محمد نور سيف»، وقد درس هذا الأخير في حرم المدينة

بالقرب من خوخة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقرأت عليه في بداية التسعينات الهجرية أبواباً من كتاب (رياض الصالحين).

وكان مؤذنو «مكة» يطيب لهم أن يرفعوا الأذان من فوق منائر المسجد النبوي الزَّاهر، لقد سمعت في المدينة في زمن ماضٍ أذان «أحمد شحات» و «صالح فيدة» و «حمزة بصنوي» و «عبد الله بصنوي»، رحمهم الله جميعاً. وكان الشيخ البصنوي يتهيب صعود المقام في المدينة ليقيم الصلاة ورعاً منه، رحمه الله، وتقوى، ولقد رأيت الشيخ «عبد الرحمن خاشقجي» يأتي به من المكان الذي اعتاد أن يصلي فيه بالقرب من «دكة الأغوات» ويطلب منه الصعود إلى «المكبرية»، ولقد حدثني الشيخ البصنوي، رحمه الله، قائلاً: إذا كبَّرْتُ وراء الإِمام تكبيرة الإحرام تجسد أمام عيني تاريخ هذا المقام الطاهر فأحس بقصور ذاتي أمام عظمة وروحانية هذه الأماكن التي شرفها الله بحبيبه ﷺ وصحابته وآل بيته والتابعين ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ورُوي عن الشيخ البصنوي أنّ الريّس عبد الستار كان يؤذن في الحرم المكي أحياناً أثناء إقامته بمكة، أما السيد الفاضل «عباس المالكي» ـ الذي يعتبر اليوم مرجعاً في الأناشيد الدينية ـ فقد أكد لي تأثر السيد «سعيد أبو خشبة» بقاعدة الأستاذ عبد الستار. ومما يؤسف له أننا لا نحتفظ اليوم بشيء من تراث الاثنين، وحتى قصيدة «ربّاه» التي أبدعها الشاعر الرومانسي «طاهر زمخشري» وأنشدها السيد «سعيد» لا تكاد تسمع إلا نادراً، مع أن هذا تراث أصيل يتوجب على إعلامنا الاحتفاء به ونقله للأجيال التي تكاد تفقد ذاكرتها... فنحن نعرف عن شوقي وحافظ وخليل مطران وعبد الرحمن شكري والشابي أكثر مما نعرف عن شحاته والعوّاد وقنديل والسيد الفقي والسيد عبيد مدني ومحمد العامر الرّميح ومحمد علي السنوسي، والأمر ينطبق على فنون القول الأخرى.

ولقد أحسّ المرحوم عبد الستار بخاري ـ بعد أن تقدم به العمر ـ بشيء من النكران والجحود الذي لم يعد ـ للأسف الشديد ـ غريباً على بيئتنا التي يفترض فيها أن تكون رائدة في قيم الوفاء التي تمثل الوجه الحضاري لأمة قدمت لأمم الأرض جميعاً خير شريعة وأكرم تراث، وما زالت مقصداً لمن يحرصون على معرفة المنطلقات الحضرية والفكرية والأدبية لتراث الأمتين الإسلامية والعربية، مما دعا الأستاذ المرحوم «محمد حسين الزيدان» أن يطلب من الناشئة ـ قبل حوالي ربع قرن من الزمن ـ أن يجلسوا إليه ويفيدوا من معارفه الواسعة.

وتجسد هذا الشعور عند المرحوم عبد الستار بخاري في موقف له مع معالي الشيخ «محمد عمر توفيق» رحمه الله، وكان الشيخ محمد عمر قد طلب العلم في المدينة على رجل من خيرة علماء البلدة الطاهرة وهو الشيخ «أمين الطرابلسي» رحمه الله، الذي جمع بين علوم الشريعة بكل أبعادها ومقاصدها وبين علوم الرياضيات والفيزياء والفلك، وكان مرجعاً في هذا الحقل الأخير من العلوم العقلية، ولكنه كان زاهداً في الشهرة وعازفاً عن الظهور. أعود إلى الموقف ذاته، فلقد ذهبنا لمقبرة المدينة «البقيع» لنودع جسد الشيخ «سالم أبو عوف» إلى مثواه الأخير، وكان الشيخ سالم صهراً للشيخ محمد عمر توفيق، وبعد أن سوّى القبر وذرف الأقارب والأباعد الدمع على المتوفى مدّ الشيخ محمد عمر توفيق ـ وكان وقتها وزيراً للحج والأوقاف بالنيابة ـ يده بأدب ليصافح الرّيس عبد الستار الذي كان بارزاً بين الناس لطول قامته، وحين سأله الشيخ عن حاله أجابه الرّيس «أنت تعرف أنني الأفضل بينهم ثقافة ومعرفة باللغة وبالموسيقى أيضاً. .» ويقصد بـ «بينهم» المؤذنين، وبـ«الموسيقى» إتقانه لمقامات

الصوت، حتى إنّ بعض أشهر الحفظة لكتاب الله اليوم هم من طلبة الريس عبد الستار، فابتسم معالي الشيخ محمد عمر، مع أن الموقف كان موقف حزن، وردّ بكلمات تنم عن معرفته لمقام الرّيس.

ومضت الأيام وسار قطار الزمن سريعاً ووصلني نعي الرّيس، وأنا أتنقل بين «لانكستر» و«مانشستر» للدراسة، فكتبت في صحيفة المدينة أرثيه، لقد كان القلم يرثي علماً وتاريخاً وأدباً، ولقد كانت الكلمات تجسد شيئاً من حب تلك الأرض التي احتضنت بين ذرات ترابها أكرم ذات وأطهر جسد وروح ـ عليه صلوات الله وسلامه.

ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة

(٤)

لا أعرف صوتاً من خارج دائرة «المؤذنين» كانت لديه القدرة على جذب الأسماع وإثارة الشجن في النفوس كصوت السيد «حسين بن إدريس هاشم». كانت مجالس الإنشاد عامرة بالرجال وهي مجالس تقوى وطهر يرعى فيها الكبار صغار السن من أبناء البلدة الطاهرة ويوجهونهم من خلالها توجيهاً حميداً، وكانت في مقدمة هذه الدور، دار الشيخ الفاضل «محمد شقرون» التي كانت تقع بـ «الجديِّدة» بحيّ التاجوري. وهناك سمعت السيد حسين ينشد الروائع من شعر المديح النبوي، وهو شعر يتغنى بمواطن المدينة المنورة، تلك المواطن التي مشى فوق ثراها سيد الخلق ﷺ فهي تنطق بالتاريخ المجيد لهذه البقعة الطاهرة، وهذا التاريخ هو الذي كان وما زال يستحث المبدعين من الشعراء ليتغنوا بها حباً وهياماً.

وكانت دواوين المديح النبوي تنتشر بين أبناء البلد الطيب، وكانت لدى السيد حسين نظرة فاحصة فيما يتصل باختيار الروائع من هذا الشعر الجميل، كما هو الشأن في قصيدة الشاعر المعروف الأستاذ «حسن مصطفى الصيرفي» التي يقول مطلعها:

أنا دار الإيمان والمُثل العليا　　ورمز الخلود في كل مجد
أنا إن بدد الزمان شعاعي　　لن ترى النور هذه الأرض بعدي
أنا خير البقاع كرمني اللَّه　　بخير الأنام في خير لحد

ولقد تشرفت بأن أكون أحد المشاركين في حفل تكريم الأستاذ الصيرفي في اثنينية الصديق الأديب الأستاذ «عبد المقصود خوجه»، وقرأ الشاعر الصيرفي مقاطع من قصيدته وذكر أنه بدأ في نظم أبياتها وهو على سفح جبل (الرُّماة) في منطقة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأن تلك المواقع أثارت فيه الشجن وكان برفقته ـ على جبل الرماة ـ الشاعر السيد محمد هاشم رشيد، أحد مؤسسي (أسرة الوادي المبارك) والتي كانت النواة الحقيقية لانطلاقة (نادي المدينة الأدبي) في فترة لاحقة.

ومن يقرأ قصيدة الشاعر الكبير حافظ إبراهيم في مصر، يجد أن الصيرفي قد عارضها في قصيدته عن المدينة، ولا شك أن الأستاذ الصيرفي قد أبدع في رائعته التي تعتبر من الشعر الخالد، ولقد شاهدت دموعاً تهمي، ونفوساً تطربُ، وآذاناً تصيخ عندما كان السيد حسين هاشم يشدو بهذه القصيدة، ومع أن المرحوم حسين هاشم ينتمي لأسرة عرفت بالعلم والفضل وكان والده منشداً وأخوه الأكبر السيد «ياسين» صاحب صوت ندي، إلا أن السيد حسين قد أفاد ممن سبقه من المنشدين في المدينة كالسادة «آل الرفاعي»، والشيخ «محمد علي النجار» الذي كان يطلق عليه «بلبل المدينة المغرد».

وفاجأ السيد حسين هاشم ـ ذات يوم ـ الأستاذ «عبد الستار» بمحاكاته له في الإنشاد، وكان «حسن بخاري» ـ ابن الأستاذ عبد الستار ـ معجباً

بصوت السيد حسين هاشم وملازماً له، ولم يكن هناك شبه بين صوت الأستاذ عبد الستار وابنه حسن.

وكان السيدان الكريمان علي وعثمان حافظ ـ رحمهما الله ـ وهما من رواد الأدب والثقافة والتعليم في البلدة الطاهرة ـ يطيب لهما سماع صوت السيد حسين، ورأيت السيد مصطفى عطار ـ قبل ربع قرن من الزمن ـ يطلب من أبي «طلال» أن يترنم في حضرة وجهاء البلد الكريم. وتعود بي الذاكرة إلى سنين تصرمت وأيام ولت، فلقد رأيت السيد حسين وأخاه ياسين وبصحبتهما مصطفى الحموي ـ رحمه الله ـ والشيخ فضل الرحمن ـ أطال الله عمره ـ يسيرون في إحدى الليالي بزقاق الطوال، كان السيد يبتسم قائلاً: لم يتفوق عليّ أحد إلا «فلان» في مقام الحجاز، ولربما كان يقصد الشيخ المؤذن «حسن لبني» ـ رحمه الله ـ أحد الأصوات المعروفة في البلد الحرام.

في نهاية التسعينيات الهجرية كنت أقطع المسافة بين «الشامية» و«المسفلة» سيراً على الأقدام، وبالقرب من السوق الصغير الذي كان يقوم على مقربة من بيت الله الحرام، استوقفني الأخ «محمد أمان» وقال لي: هل سمعت الخبر؟ فقلت: أي خبر تعني؟ فرد علي وشيء من الحزن في كلماته: لقد توفي صباح هذا اليوم «السيد حسين» في دار صهره الشيخ أمين قطان، لقد أحيا ليلة في منزل «سعيد قطب» بالعزيزية وكانت آخر قصيدة ينشدها في تلك الليلة التي يفرح فيها المؤمنون بمولد الرسالة النبوية، من شعر الأستاذ السيد علي حافظ ـ رحمه الله ـ والتي يتشوق فيها إلى مدينة الهدى والنور قائلاً:

سقاك اللَّه يا تلك المغاني   بطيبتنا فما أحلى رباها

ومن أبيات القصيدة التي كان يطيب للمتعلقين بالأرض المباركة سماعها:

فيا طيب المدينة كل شبر   يضيء بها ويرفل في سناها
ويا طيب المدينة كل نفس   تود لو أنها نالت رضاها
ويا طيب المدينة كل قلب   يطير لها ويخفق في لقاها
ويا طيب المدينة زملوني   بتربتها لأنعم في حشاها
دعوني ألثم الترب احتراماً   لما في الترب من طهر تناهى

ونام منشدنا الفريد ليلته في البلد الذي كثيراً ما رددت جنبات دوره صدى صوته الشجي، وعندما استيقظ من هجعته ـ صباحاً ـ أسند رأسه إلى الحجر الرؤوم وأسلم الروح إلى عالم الملكوت.

ويؤكد صديق عمره ورفيق دربه الشيخ فضل الرحمن أنه لم يكن هناك من يجاري «حسين هاشم» في موهبته الصوتية إلا المرحوم المؤذن حسن لبني، ولكنني كنت ألحظه ـ رحمه الله ـ يصغي بإعجاب إلى الشيخ الكريم «زيني بويان» والسيد الفاضل «عباس المالكي» وهما رائدان في فن الإنشاد الديني.

كان حسين هاشم الأخير في سلسلة الحداة والمنشدين المتنوعة المواهب من أمثال: محمد علي نعمان، البناني، إبراهيم سمان، أحمد سمان، إبراهيم صباغ، عيد صباغ، عبد الستار بخاري، حسين بخاري، ياسين هاشم، عقيل توفيق، إبراهيم نجدي، هاشم نجدي، حمزة نجدي، محمد سعيد حبش. وقد أدركت قليلاً من هؤلاء، والآخرون عرفت عنهم من والدي ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ والشيخ جعفر فقيه، والأستاذ عبد

الستار بخاري، والشيخ حليت بن مسلم ـ رحمهم الله، والأستاذ الأديب عبد الرحمن رفه، وشيخ المؤذنين حالياً الصديق عبد الرحمن عبد الإله خاشقجي.

واختفت ـ بمرور الأيام ـ كثير من الأصوات الندية في بلد الإيمان، والعلم والثقافة والأدب ـ بمختلف فنونه ـ وبقي القليل الذي يشعرنا بومضات من الماضي الزاهر لفن راق بينه وبين فن الشعر وشيجة قوية، خصوصاً ذلك الشعر الذي ترنم بالعقيق، والرانوناء، والساحة، والمناخة، وقربان، وقباء.

ذكرياتٌ مِنْ الحَصْوة

(٥)

أتيت «مكة» في أواخر الثمانينات الهجرية ـ ولي فيها من القوم صديق أثير هو الشيخ «عبد الوهاب خياط» ـ والد الصديق الأديب الأستاذ فوزي خياط ـ والصهر للأساتذة الكرام عبد الرحمن وعبد الله ومحمد عمر خياط.

كان الشيخ عبد الوهاب واحداً من الرجال القلائل الذين تجتمع في شخصياتهم مواهب عدة، فهو متحدث سريع الحاضرة، وإذا تحدث فحديثه أقرب إلى الهمس، يعرف عن الأدب وفنونه ما يجعلك تنصتُ إليه في إعجاب وإكبار ومع هذ فهو لا يدعي أنه أديب، وهو حين يُحدّثك عن الموسيقى تسمع منه ما يجعلك تعتقد أن الرجل قد تعمق في هذا العلم فلا يضاهيه فيه أحد.

كنت أسمع بالدكتور هاشم ونديده سعيد شاولي. وذات يوم صعدت «طَلْعةَ» الشامية وطرقت باب الدار، فأطل الشيخ عبد الوهاب وحَيَّاني مبْتسماً، وقضيتُ سحابةَ ذلك اليوم في داره.. وفجأة سألني: هل تريد أن تسمع «الدكتور»؟ وقبل أن أجيب، لاحظ أن الوقت لم يكن فيه متسع وذلك لقرب حلول صلاة المغرب، فتوجهت إلى بيت الله الحرام، وحين

وصلت، وجدت في نفسي الرغبة والجرأة على طرْق باب المقام (المكان المُخصص للأذان)، ووجدت الشيخ صالح فيْدَة رحمه الله، وكُنْتُ على معرفة به، ووجدته متهيئاً للأذان، وبعد قليل دخل علينا رَجُلٌ في مُقْتبلِ العُمْر تبدو عليه علامات الذكاء والفطْنة، فهمَسَ الشيخ الفَيْدَة في أذني قائلاً: هذا الشيخ «خَطّاب شاكر»، وعَرفْتُ فيما بعد أنّ والده الشيخ يعقوب شاكر كان شيْخاً لمؤذني «مكّة»، وكان لكلّ مؤذّن قاعدة ولكل صوْت ما يميزه عن غيره.

وأدركتُ في البلد الحرام كبار المؤذنين وعرفتُ الكثرة منهم، وجلَستُ إلى رِجَال تخرجوا في مدرسة الحياة. عرفْتُ عبد الله وحمزة بصْنوي وأحمد شحّات وعبد الرحمنُ مؤذّن، وعبد الحفيظ خوجه وأحمد توفيق، وعبد اللطيف مُلاّ وغيرهم من أهل البلد الحرام، ولكن مَعرِفتي كانت الأوثق بصاحب الوجه الحيّي والنّفس الكبيرة ـ عبد الله بَصْنوي.

رحمك الله يَا أبا محمد، تُرَاني ماذا أنا قائلُ عَنْك بعد عمرٍ قَضَيْته في طاعَة الله، وجَبْر النفوس الكَبيرة؟.. صَدَى كلماتِك لا يزال يرن في مسمعي في كل لحظة، تقولُ لي: والابتسامة الوقورة على محياك: ليتنا تعارفنا قبل هذا الوقت. لقد بكيتُك في الحجون ونحن نوسدك الثرى، وأبكيكَ في كل يوم أرى فيه جحود بعض من كنت أعرف، فإذا هم قد نسوك.. أخذتهم عنكَ ضجة هذه الحياة، وعندما تسلطت عليهم نفوسهم الضعيفة واحتواهم الغرور وأخذهم زهو المكان الذي ارتقوا إليه، خالوا أنفسهم أنهم في موضع لا يحتاجون معه إلى صداقة أو إخاء.

كان من أقرب الناس إلى نفسي رجل عرفته في «سُوق الليل» يرتدي عمامَتهُ في أناقة أبناء الحارة، ويحييك فلا تشعر أنه يتصنع المودة. كان

يجلس معنا في درس العلامة الشيخ «حسن مشاط» رحمه الله، وكان رجلاً شديد التواضع والأدب، فقد كان «سيد القوم وخادمهم» وكان مؤذناً مميزاً، فإذا صعد المقام وأذَّنَ، أخذك جلال صوته، ذلك الرجل هو «إدريس عبد الله كُنو». وكما كان الشيخ «عبد الله نعمان» ـ في بلد المصطفى ﷺ يستحث النفوس الغارقةَ في لذة النوم بنداء «الصلاة خيرٌ من النوْم» فتترك مضجعك لتتوجه إلى الرّوضة المشرّفة، كان صوت إدريس كنُو في البلد الحرام يترك مثل هذا الشعور في نفوس يحملها الصوتُ الندي لتتدافع في سيْرها لتحظى بركَعَاتٍ بين الحجْر والمقام.

وجئْتُ مرة الحرم في مكة زائراً ـ وكنت بصحبة الصديق الأستاذ محمد نور عبد المقصود، وسَمِعْتُ صوت «إدريس» يَرْتفِعُ مِنْ المقامِ، وبعد انتهاء الصلاة جاء «إدريس» يتوكأ عَلَى عَصاهُ، وعندما رآني ابتسم، فسألته عن حاله، وأجابني وفي صَوْته شيءٌ مِنْ الحزن: «ماشين في هذه الدُّنيا»، وحينها شعرْت بأنني أودع واحداً من الرجال المهذبين.. ولم تطل المدة حتّى جَاءني الصّوْتُ عَبْرَ أسلاك الهاتف «يُعْطيك عُمْرُهُ» مات إدريس. وحكى لي الصدّيق الأستاذ هاشم فلاته قائلاً: طلب مني إدريس أن أصحبه لزيارة «الحجُون» قبل وفاته بأسبوع واحد، ويوم وَقَفَ بالقُرْب من «الربوة الطاهرة» سمعه رفيقه يقول بصوت ملؤُه الشجن والشوق: متى أيّتُها التّربة الزكيّة تحضنينني؟ لقد كان صَديقي يَرْثي نَفْسه، وبكيْتُ إدريس، ذلك الرجل الذي جَمَعَ في شخصيته بين شهامة ابْن الحارَة، ووداعة طالب العِلْم.

كُنْتَ لا تملُّ حَديثه، ولا تريد أنْ تفارقه، أما وقد خُلقنا للموت، فالأمَاني هنا ضرب من الوهْم والمستحيل.

وكان إدريس يقطن حي «المسفلة» الذي إذا دخلته ظَنَنْتَ أن الحزن لم يعرف طريقه إلى قلوب أولئك القوْم الذين يَفْرحون بالحياة ويَصْدحُون بأصواتهم منشدين. هناك كان يجلس «التّيِجاني» شَيْخ الرّكْب، وتلك الدور العامرة لآل «الفارسي»، و«الفيلالي»، و«أبو رزيزة»، و«العطّاس».

وذات يوم، سألني الأخ جميل فارسي إذا كنت أعرف العم «سلمان فوال». كنت أعرفه جيداً، فقد كان من رجال الشيخ محمد علي فارسي وكان يعتز بصداقتِه لآل الفارسي، وقد أكرموه بالحب حياً وميتاً، وكان من أنداده «اليابا» رجَبَ، و«أمين أبو ظلام»، و«عثمان سَادَة»، و«خضر ولد الشيخ».

ولن أنسى مناسبة حضرتها في «جُدّة» قبل حوالي عقدين من الزمن كان سلمان فوال حاضراً فيها، وكان يرتدي لباسه البلدي، ممسكاً بعصاه متمنطقاً بحزامه، ويُغطِّي رَأْسَه ذلك الغَبَاني والأصْفَر، كان معالي الأستاذ محمد سعيد فارسي حاضراً تلك المناسبة، وحين رأى سلمان، ترك مَجْلِسَه واتجه إليه مسلماً وأخذه بيده ليجلسهُ بجانبه.

هذا الموقف طالما كان ذكرني بمواقف مماثلة لمعالي السيد أحمد زكي يماني، الذي كان إذا رأى الشيخ عبد الله بصنوي رحمه الله، يسرع إليه محيياً إياه في أدب وإجلال كبيرين، وكان يناديه وكأنه يتفاخر به «عمي عبد الله»، وطالما سمعت هذه العبارة من أبي فيصل ـ ذلك الصديق الصدوق ـ وهو يَجْلس على كرسي الوزارة.. ورأيته يحتفي به ويقول له: «كم رعيتني صغيراً في الحارة»، وقد كان الشيخ عبد الله شيخ «الشامية»، وهي الحارة التي نشأ فيها الشيخ زكي يماني.

آخرُ الكلام:

إلى من طلب مني ـ وهو عزيز على نفسي ـ أنْ استمر في الكتابةِ، وأقول: القليل من هذا يكفي، لقد حَملني الوفاء أن أقول شيئاً، فقد فرقتنا دروب الحياة وجمعنا حب الكلمة فلنحَلّق في آفاقها ولعلّ الأرواح تلتقي في عالم الطهْر والجلال والجمال.

سائح في ديار الأنس

لن تغيب عن ذهن الفتى صورة ذلك الرجل الذي كان يتنقّلُ بين بَابيِ الرّحمة والسلام، تتدلى من عنقه حقيبة يبدو أن القدم أدَّى إلى تآكل أطرافها، وكان الرجل بقية أولئك القوم الذين صفت نفوسهم فلا يلتفتون إلى شيء من أمور الدنيا، إنهم يستشرفون أفق الحياة من عَلٍ فيبدو كل شيء لهم تافهاً وحقيراً، وكان الفتى لا يجرؤ على الاقتراب من هذه الشخصية الغريبة، إلا أنه كان شديد التعلق بها، فلا ينسى ذلك اليوم الذي صلَّى فيه الناس صلاة الصبح، وكان اليوم من أيام الصيف التي يشتد فيها الحر فيهرب الناس إلى «الحَصْوة» الفاصلة بين جزئي المسجد فيصلون فيها، وما إن انتهت الصلاة حتى انتصب الرجل قائماً.

لقد أدى صاحبُنا رسالته وتهيأ للانصراف من المسجد فازداد تعلّق الفتى بسلوك الرجل وعزم على أن يتبعه في مسيرته، فسلك الطريق المعهودة: سُويقة، ثم باب المَصري، ثم سوق الحبّابة، ثم المنَاخَة الصغرى، ثم واصل سيره إلى درب «قباء» والذي كانت البساتين تنتشر على جانبيه، النخيل وأشجار الرمان والليمون، ولما كانت الشمس لم تطلع بعد، فلقد كان صوت «السّاقية» يختلط بأصوات الطيور التي كانت تنتقل من شجرة إلى أخرى حرة طليقة كنفس هذا الرجل تُحلق في آفاق الحب والصفاء.

كان الرجل يسير وحقيبته في عُنقِه، وعمامة متميزة في تَـكْويرها فوق رأسه ومسبحة أقرب ما تكون إلى القصر منها إلى الطول تتحرّك بين أنامله ولا يصعب عليك وأنت ترى حركة السبحة أن تلحظ تحرّك شفتيه بشيء من الذكر.

وفجأة يلتفت الرجل يمنة ويسرة ثم يسلك طريقاً ضيقاً ومتعرجاً من تلك الطرق التي كانت تصل البساتين بعضها ببعض. وكان على الفتى أن يكون حَذراً لكي لا يُبصره الرجل، فيُفسدُ عليه ما هو فيه من «صفاء»، وتضيع على الفتى تلك اللحظة التي يعتبرها منحة إلهية تمكّنه من معرفة شيء مما تنطوي عليه تلك الشخصية من أسرار. واستقر المقامُ بالرجل في ناحية نائية من نواحي أحد البساتين، ثم إذا به يَخْلعُ تلك الحقيبة من عُنقه، ثم يفتحها ويخرج منها «سجّادة» ويستقبل القبْلةَ ليُصلِّي.

وكانت صلاته صلاة العارفين.. فقد كان مُستغرقاً فيها كل الاستغراق، عَيناهُ متجهتان صوب الأرض وروحه مُحلقة في السماء وجوارحه مطمئنة لا يشغلها شيء مما يشغل أهل هذه الدنيا من أمور، وكأن لسان حاله يقول: وهل في الدنيا شيء يستحق أن نهتم به ونأسى عليه؟ وقضى الرجل صلاته ورفع يديه إلى أعلى.. كان يناجي الإله بصوت منخفض، وقلب منكسر، وعين تنهمر، كانت الدموع تتساقط حَبّات على لحيته البيضاء وكانت «الساقية» بجانبه تجري بمائها، وكانت دموعه تشكل نهراً تسبح فيه نفسُ ذلك العارف وتحترقُ به هذه الحواجز التي تقوم بين الناس وبين عالم الروح الباقي، وكان الفتى يحدِّث نفسه قائلاً: أين أهل الدنيا من هذا النعيم الخالد؟ وتذكّر قول أحد العارفين: «لو علم أهل الدنيا ما نحن فيه من لذة لجالدونا عليها بالسيوف».

يا صديقي يا من استوحش من صحبة الخَلْق وأنس صحبة الخَالق.. أيها الغَارق في عوالِم التجرّد والسّابح في آفاق الروح والطائر في دنيا الأسرار.. يا من تُضيء دموعه ظلمة الليل البَهيم.. أنت تُناجي رَبّ الملكوت وغيرك يُناجي الفاني من دنياه، أنت تبكي شوقاً لعالم الخلود، وغيرك يبكي ديناراً خسرهُ، ودرهماً أضاعهُ، أنت تتعذّب ألماً باحثاً عن لحظةِ الرّضا والقبول، وغيرك يتعذبُ بحثاً عن ساعة الكَسب الدنيوي، يا صديقي يا من يشهد الفجر مُتألقاً في نفسه قبل أنْ يشهدَه في عالم الحقيقة، يا رفيقي يا من شهد لمحة الضياء في عالم الظلام فبقي هناك مبهوراً بما رأى مستغرقاً في ما شاهد يا من واتته لحظة الرضا وأُكرم بمنحة المناجاة، إنني أبحث عنك اليوم في منعطفات «الساحة»، وأترقّب مجيئك إلى ديار كانت نفسك تأنس إليها، وأقول غداً في صلاة الفجر يبرز وجهه المضيء بين الوجوه، غداً يُذكِّر الناس بحقيقة دنياهم عندما يضرب الأرض ويُخاطبهم بلغة الحقيقة التي تعجز عقولهم عن إدراكها، غداً أرى شبحه بين الأشجار، وأشهد دموعه وهي تروي الأرض الظّامئة لكلمات الوجد الإلهي، المتطلّعة إلى الحياة المتمرِّغة في التُّرب شوقاً إلى الله وحبًّا فيه، وأظل أمني النفس.. ولكن الأمد يطول دون أن أجدكَ، إنك يا صديقي تعيش في وجداني لا تُفارقه أبداً، وأرى طيفك الجميل في منامي فأستيقظ من نومي وأنا أردد قائلاً: يكفيني طيف الرفيق إذا ما عزّ لقاؤهُ.

في روابي قباء
(١)

كلما حاولت الاقتراب من الكتابة حول هذا الحي في المدينة، يستجد في حياتي ما يصرفني عن مثل هذه الكتابة وما أكثر الشواغل في دنيانا هذه وما أعجب النفس في التعلق بها!.. واليوم وجدت النفس غارقة في ذكريات تتصل بهذا الحي وأهله. فلقد تفتحت عيناي في هذا الوجود، أو قل إنني أبصرت نور الحياة بين موقعين متقاربين هما «حوش عميرة» و«زقاق السيد أحمد» الذي كانت دارنا تقع في أوله، وكنت كثير التردد على حوش عميرة لوجود دور بعض الأقارب فيه، وكان مما يجذبني إليه وجود بعض أندادي في السن بين منعطفاته المتعددة، فكان ذلك كافياً بإغرائي لمشاركتهم فيما كانت تتطلع إليه النفس، في مرحلة الطفولة، ومن ضروب اللعب والتسلية، التي اختفت في عصرنا الحاضر تماماً ولم يعد لها وجود البتة.

وكنت أشعر في تلك المرحلة المبكرة من حياتي بأن أهل ذلك الحي يعيشون حياتهم كأسرة واحدة، كباراً أو صغاراً، رجالاً ونساء، دورهم يا صديقي متشابهة، ونفوسهم متآلفة، ومائدتهم واحدة يعيش في هذا الحي الغني إلى جانب الفقير، ولا تشعر الأرملة فيه بغربة لأن طبيعة الحياة فيه

تجعلها تشعر أن جميع أبناء الحي هم أبناؤها، وأن رجاله هم سندها وعضدها بعد أن غاب عنها الراعي واختفى من حياتها الأنيس.

أسلك الطريق من تحت السقيفة التي كانت تعتبر مدخلاً لهذا الحوش، وكانت هذه السقيفة أيضاً تشكل جزءاً من دار الشيخ الكريم أمين شيخ أمد الله في عمره وكان العم أمين يجلس أمام الدار بعد صلاة العصر، ولقد كان مما يلفت نظري ويشد انتباهي ذلك الرجل الأنيق في ملبسه، الرقيق في عبارته، لا يخلع عباءته السوداء حتى عندما كان يأخذ مجلسه أمام دار الشيخ أمين، ولم يكن ذلك الرجل صاحب الهيئة المتميزة سوى شقيق صاحب الدار وهو الشيخ أحمد شيخ ـ رحمه الله، كثير من رجال تلك الحقبة كانوا يهتمون بما يلبسون ويولون جانباً كبيراً لهيآتهم عندما ينصرفون من دورهم ويبرزون أمام أعين الناس.

في دارنا كنت أرى سيد الدار يقضي وقتاً كبيراً في لف عمامته الصفراء التي كانت تسمى بـ«الغباني» وهو لا يضعها فوق رأسه إلا بعد أن تكون سيدة الدار قد عالجتها «بالنشا» معالجة دقيقة وهيأتها بـ «المكوى» كأحسن ما تكون التهيئة، ووضعتها في المكان المخصص لها بحيث لا تخطئها عيناه عندما يعزم على الخروج من الدار في الصباح الباكر أو عندما تدنو الشمس من المغيب، ويبدأ الناس في الخروج إلى المسجد لأداء صلاة الجماعة مع أهل الحي في أحد المسجدين المعروفين «مسجدي سيدنا عمر وبلال، رضي الله عنهما» وما إن يتأكد من ذلك الوضع الأنيق الذي أضحت عليه عمامته، حتى ألحظه يمد يده لتلك الجبة البيضاء الطويلة نسبياً فيرتديها، والجبة هي ما كُنّا نطلق عليه في المدينة اسم «الكوت» ثم يتلفت حوله فيرى العباءة المطرزة جوانبها «بالزيق» وهو خيط

ذو لون ذهبي ناصع، ثم يتناول العباءة من اليد التي تحملها له، يلبسها ولكنه يتعمد رفع أحد طرفيها على كتفه، فتبدو للناظر تلك الصنعة المتقنة في ذلك اللباس، والتي كانت الأيدي الماهرة تحيكه في الجزء الأخير من سوق «القفاصة» المعروف بحي سيدنا مالك ـ نسبة إلى مالك بن سنان والد الصحابي الجليل بي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ والذي جرح في معركة «أُحد» وقضى في داره التي أصبحت مدفناً له، وكان يقيم فيها الحقبة الماضية كُتّاب الشيخ محمد علي الحلبي ـ رحمه الله ـ ولعلّ الزميل الدكتور بندر حمزة حجار الذي درس معي في هذا الكُتّاب يتذكر جيداً هذا الموقع، الذي أصبح أثراً من آثار الماضي.

تمتد يد الطفل الصغير «لدفة» الروشان، فيرفعها برفق ليشاهد والده على تلك الهيئة وهو ينقل خطاه برفق وتؤدة بين «السيح» و«المناخة».

ما أروعه يا صديقي من منظر! وما أجمله من وقت يوم كان الأنس يملأ الحياة بجميع جوانبها، الصوت الشجي يرتفع من فوق منارة المسجد، والماء يسيل في وادي «بطحان» والأطفال يحملون بين أيديهم «نُبيلاتهم»، جمع نُبيلة يصيدون بها العصافير التي كانت تحط فوق أغصان شجرة «النبق» في فناء المسجد، وأهل الحي يطرقون أبواب بعضهم يحملون ما صنعته سيدات البيوت من طعام، وكأنني أسمع صوت سيدة الدار، كيف تأكل وأهل الحوش لم يذوقوا شيئاً من هذا الطبق الذي صنعناه اليوم؟ أطرق باب دار العم ناجي، أو حسين البكري، أو محمد بن مسلم ـ رحمهم الله جميعاً ـ وأفاجأ بأن أطباقاً من هذه البيوت يحملها أبناء الحي ممن أحسبهم أنداداً لي، ولعلّهم قصدوا بها دارنا والدور الأخرى في زقاق «السيد أحمد» الذي لا تتجاوز منازله عدد أصابع اليدين.

يا صديقي.. جارنا الذي كان يسكن بالأمس بالقرب منا، لا أعلم في أي مكان بعد رحلة العمر ألقى رحله. لقد شغلتني الحياة فلم أعد أسأل عنه، وهل ذلك يشفع لي، أم هو عذر أستر به تقصيري في حقه، وابن الحي الذي ألهو معه، في مرحلة الطفولة بالقرب من المسيل، لا أكاد أتبين ملامحه أو أعرف سماته عندما تجمعنا الصدف، والعناية ـ كما يقول نشيد القوم ـ صُدَفْ.

رجال الحي الذين كانوا يتجمعون أمام الحي ويلعبون «الكبوش» ضمهم الثرى بين جنباته، واختفى معهم ذلك الأنس الذي تحياه بكل «معانيه» نفوسهم الطاهرة وقلوبهم النقية التي لا تعرف غشاً وخداعاً، وشجرة «النبق» امتدت إليها يد إنسان هذا العصر فاجتثتها من كل موقع كانت تحس بالأمان والطمأنينة فيه، هذا الإنسان الذي أضحى يفضل رؤية الزهور والأشجار القادمة من عواصم الغرب، لم يعد في حاجة لأن يمتع ناظريه بمرأى المياه وهي تنحدر في ذلك المجرى الذي يمتد بين «قربان» وبستان «أم هانئ» أقام في منزله ـ عوضاً عن ذلك ـ حوضاً للمياه تعيش فيه أسماك الزينة، وهل يعيش السمك حياته الحقيقية إلا في المكان الذي خصصه الله له بين بحر يتماوج ونهر يتدفق.. لقد سجن إنسان هذا العصر نفسه بين هذه الحوائط الإسمنتية التي صنعتها يداه، وهو يتطلع لأن يسجن معه حتى تلك الطيور التي لا تستعذب الغناء إلا فوق أغصان الأشجار التي تنتقل بينها في حرية وهبها الله لها، وتحزن عندما يحاول هذا الإنسان اغتصاب ما وهبه الله إياها، وهل تملك من وسيلة أخرى سوى الحزن؟ ولكم داوى الحزن نفوساً عندما عجزت الحياة عن أن تشيع فيها أجواء المسرة والهناء.

في روابي قباء
(٢)

كان القوم في المجلس ينشدون والصبي منصت لهم، إلا أنه ما يلبث أن يغادر المجلس الذي أحب، وهو إذ يفارق مجلس القوم، فإنما يفارقه كرهاً لا طواعية، فإن الدنيا لتضيق به ولا يعلم لماذا ضاقت به و ضاق بها، وإنه لزاهد فيها لكنه ـ في الوقت نفسه ـ يطمع أن يمتد به هذا العمر وتطول به هذه الحياة فيراه أبواه وقد حقق شيئاً من أمانيه، وكان أكثر ما يؤلمه أن يرى والدته وهي تجلس إلى جانب رأسه تسأله عن حاله، ولكن الصبي يلوذ بالصمت ويفضل السكوت، فهو في سن لا تؤهله لتفسير ما يرد على نفسه من ضيق وما يعتريها من تبرم، وهو لا يملك إزاء سؤالها إلا أن يدني رأسه من الأرض ثم يبكي، تبتل الأرض بدموعه ودموع أخوته الصغار الذين يشاركونه البكاء وإن كانوا لا يعلمون لماذا تغشى أخاهم مثل هذه الحالة؟

لماذا اختار لنفسه هذه العزلة فلا يشارك أنداده لهوهم الطفولي وعبثهم البريء؟

تنتابه رغبة ملحة في الخروج من الدار، فتراه يسلك الطريق الذي يفصل بين الزقاق والمسجد، يقصد شجرة (النبق) القائمة في فناء

المسجد، إنه لا يعلم لماذا نفسه متعلقة بهذه الشجرة الخضراء التي لا يعلم الناس عمرها الحقيقي، فجميع أهل الحي نشأوا وهم يرون هذه الشجرة قائمة في هذا المكان، وأن أغصانها لتتمايل بين الحين والآخر حتى تكاد تغطي نوافذ تلك الدور التي تطل واجهاتها على مجرى السيل.

يجلس الصبي في الفسحة الواقعة أمام الباب الخلفي للمسجد، يقلب بصره في تلك السماء الصافية ويحس بتلك النسمات الندية القادمة من حي قباء الذي كانت في الماضي تنتشر البساتين على جانبيه، فوقتها لم تُبن بعد البيوت! ولم تُعَبّد بعد الطرق، ولم تقتلع بعد الأشجار! ولكنه وهو على حالته تلك التي تتراوح بين رفع بصره إلى السماء المشعة بالنجوم وبين استمتاعه بتلك النسمات، ويرى ذلك الرجل القادم من الشرق وقرص الشمس يوشك أن يحتضنه ذلك الأفق البعيد.

الرجل لا يتحدث إلى أحد ولكنه ينطق بكلمة واحدة إن هو اضطر إلى الحديث. ورفع الصبي رأسه فنظر إلى ذلك الوجه المنير، ابتسم «سِرُّ» الحي وقال له الكلمة التي طالما حاول الناس انتزاعها من فم الرجل، «مقضيّة» قال الرجل عبارته الثمينة ثم تابع سيره إلى الحوش الكبير حيث كان يقيم، ولقد شعر الصبي بعد سماع كلمة «السر» بشيء من الرضا، وترك هو الآخر موقعه وسار إلى الدار وأمسك «بحبله» المتدلي، فجره برفق، لينفتح الباب ويصعد الطفل درجات المنزل ليجد والدته تنتظره في «الصفة». . تأخذه بين أحضانها وتشير بيدها إلى الغرفة الصغيرة التي ينام فيها أخوته الصغار الذين ينتظرون قدومه، يتفحص الصغار وجه أخيهم فيلحظون أن الدمع قد اختفى والحزن قد فارق ذلك المحيا البريء ثم يعبرون عن فرحهم بهذا كله بطرق شتى لا يزال صبي الأمس يتذكرها. وإنه ليبكي اليوم بكاءً يفوق بكاء تلك الأيام التي تصرمت من عمره،

ويسأل تلك النفس المؤرقة سؤالاً لا يجد له جواباً: أترانا نبكي أنفسنا أم نبكي زمناً قضت علينا الأقدار فيه أن نرى أقواماً يبتسمون في الوجوه ويطوون النفوس منهم على نزعات الحقد والكراهية، ويتصنعون الخلق الرفيع وهم غارقون في النقائص وكأنهم لم يقرأوا قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تُعلِم

فالطبع كما يقولون يغلب التطبع، ويقول أهل المعرفة: «نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال العادة إذا تمكنت في النفس».

أيها السر الذي اختفى من حياتنا واختفت معه إشراقات النفوس، أتراك تعود ومعك «البشارة» في كلمة الحب، تسمعها في نشيد الوجدان الذي يسري نغمه شجياً في أجواء الليل ليبعث في النفس أشواقها إلى عالم تحسه ولا تراه، إلى آفاق يشع منها النور، ويشيع فيها الأمان الأبدي.

أيها السر لطالما ارتفع الصوت منك متأوهاً وتعالى نداؤك في حلقة القوم حلواً ندياً:

شعر:

غيري على السلوان قادر ... وسواي في العشاق غادر
يا ليل مالك آخر ... يرجى ولا للشوق آخر
يا ليل طل، يا شوق دم ... إني على الحالين صابر
طرفي وطرف النجم فيك ... كلاهما ساه وساهر
يهنيك بدرك حاضر ... يا ليت بدري كان حاضر
حتى يبين لناظري ... من منهما زاه وزاهر
بدري أرقُّ محاسناً ... والفرق مثل الصبح ظاهر

في روابي قباء
(٣)

كانت دنيا الفتى تنحصر في المسجد وشجرة «النبق» ومجرى السيل، ثم اتسعت قليلاً فإذا هو يعرف مكاناً آخر اسمه «حوش منصور» ويسمع بشباب الحي يتهامسون بأن مدرسة تقوم في هذا الحي، ويحاول أن يدرك مفهوم الكلمة من أنداده فيجيبونه بأنها مكان تقصده الأطفال إذا ما غادروا «الكُتّاب» والصبي عرف كُتّاب الشيخ «الحلبي» في سوق «القفاصة» وكتاب الشيخ «البيحاني» في «العنبرية» بجوار «دكة الترجمان» ويأخذه والده ذات يوم إلى الكُتاب الكبير فيتهيب الفتى دخوله فليس هناك شيخ واحد بل شيوخ عدة وأطفال أكبر منه سناً وأقوى منه ساعداً ـ فإذا هو يبكي لأن نفسه ألفت الهدوء والسلام في الكُتّاب فإذا الهدوء صخب وإذا السلام من نصيب تلك الفئة التي تقوى على الدفاع عن نفسها ولهذا فهي تخرج من ذلك البناء إذا ما عنّ لها الخروج وتعود إليه متى ما وجدت نفسها راغبة في العودة إليه.

و «المسيل» أرض غبراء يسير فيها الناس على أقدامهم أو على ظهور الدواب، والهدوء يظلل كل شيء، والقمر يرسل أشعته التي تضيء ظلمة الطريق للسالكين الذين يبحثون عن طريق آخر إذا ما أرعدت السماء ونزل

المطر وسمع هدير المياه المندفعة من وادي «بطحان» والتي لا يحجزها سد ولا يقف في طريقها حاجز. وكم سلك الفتى هذا الطريق على قدميه وسلكه رديفاً فوق الدابة إلى بستان كان يعرف باسم «الطيبية» وكان يفلحه رجل من أهل المدينة اسمه الشيخ عبد العال رحمه الله، ثم سلكه فيما بعد على قدميه وحيداً يذهب كل يوم للمدرسة التي كانت تقوم في أوله، ثم سلكه في مرحلة لاحقة مع صديقه «الزين» يبحثان عن مكان يأويان إليه. لقد كان الزين يميل إلى الاختلاط بالناس ومجالستهم.. وكان الفتى يفضل العزلة وتأنس نفسه إليها.

اليوم يا صديقي، ساوت الأقدار بيننا، فكلانا يعشق العزلة بعد أن كانت تهفو إليها نفس أحدنا وتستنكرها النفس الأخرى.

اليوم يا صديقي، كلانا ينظر من نافذة الدار ويمد بصره بعيداً إلى ذلك الأفق المترامي ويجد نفسه سابحة فيه مستغرقة في أنواره المحجوبة عن الأبصار وممتلئة بذلك الحب الذي يفيض مدده وتلوح أنواره، ينبعث الصوت وينادي المنادي أين محبو جمال هذا الكون؟ وأين الباحثون عن كلمة السر فيه؟ تلك الكلمة التي تعجز الحواس عن فهمها ويدركها الوجدان وحده من دون تلك الوسائل التي تعودت النفوس على الأخذ بها والاشتغال بأسبابها.

اليوم يا صديقي، ينأى كلانا بنفسه عن ما كان بالأمس يألفه، ومجلس كانت نفسه تهفو إلى السعي إليه، وقوم كان يتوق إلى مجالسهم. وكلانا يا صديقي يتحرق شوقاً لرؤية الليل، لقد غدا الليل يا زين، الصاحب والأنيس، وأضحى ضوء البدر مطمع القلب الحزين ومجلي الوجدان في مراتب الصفاء والتجلي، وتحادثني وأحادثك يا أبا السمائح خاطراً وشعوراً بالقول «عندما يأتي المساء تسكن الروح ويرتفع عن البصر ذلك الحاجز الكثيف».

في روابي قباء
(٤)

يتذكر الفتى في صباه ذلك الميدان الفسيح في مسيل «قباء» الذي يقصده الناس عصراً لرؤية لاعبي النادي العريق في المدينة «أُحُد» ويؤمه ليلاً «المطاليق» من أبناء الأحياء المختلفة ليؤدوا لعبة المزمار الشهيرة، بعضهم يعتلي شجر الأثل ليقتطع منها الأخشاب التي تصلح أن تكون وقوداً للنار، والآخر بالتعبير البلدي «يدم»، والبقية يخرجون من الصف على نسق واحد وهم يبرزون قدرتهم على التلويح بالعصا.

صديقي المخضرم ابن جَبَل حدثني قائلاً: خرجنا ذات يوم إلى خارج المدينة، لا يعلم إن كان المكان هو «المسيل» أم «السكة» أو «الحفيرة»، وتجمع ليلتها المطاليق من كل حي وكان الشرر يتطاير من عيون الناس والخوف يسكن النفوس، ولكن الرجال يحاولون الظهور بمظهر من لا يخاف غريمه بل ربما قصد إلى استثارته وتحديه.

فجأة يبرز من وسط الصفوف رجل دقيق الجسم، أسمر السّحنة، حسن المظهر، «السَّليمي» على كتفه، وحذاؤه المزركش يسمع الكل وطأته المتميزة على الأرض فالسكون يُجللُ ذلك الوادي العميق والجبال من حولهم تردّد صدى (الزّومال) المعروف:

«من دار سليمان جينا. . يا منجي تنجينا»

يقف الرجل في منتصف الحلقة يضع عصاه «المزقرة» بالقرب من موضع النار المشتعلة ثم يبتعد قليلاً ويقول: يا أبا قدور، اليوم يوم عيد ونريد أن نعود إلى أهلينا بالملابس النظيفة التي أتينا بها إلى الحلقة فمنظر الدم لا يلائم يوماً كهذا اليوم. لقد عرفت نِدّيدَه في اللعب والمَشْكَلَة «أبو قدورة» عرفته وجسمه ينضج بالعافية وكان إذا خرج الصبي من الصف بغير إذن الكبير، لمس الكبير بعصاه عصى الصبي لمساً خفيفاً فإذا هي تتكسر قطعاً، إنه ناموس اللعب وتجربة السنين. ثم رأيت ذلك الجسم يذوي كما تذوي الأغصان من أشجارها، سبحان من يعطي العافية ثم يسلبها وله في ذلك حكم تدق عن الفهم وتجل عن الإدراك.

يواصل الراوي حديثه قائلاً: يقترب «ابن الساحة» من نديده رجل «المناخة» ويجيبه مبتسماً: لك ما تريد يا «أبا ساعد». ولوهلة تذرف عينا صديقي بالدمع وهو يقول «رطن» أبو قدور حذرنا من الاعتداء على أحد، وقال الكلمة رجال. . ثم لعبنا واختلط أهل المناخة بالساحة وذهبنا بعد منتصف الليل إلى دورنا ولم تتسخ ثيابنا بما كانت تتسخ به من قبل وتعجب الناس من ليلتنا تلك التي سادها الصفاء وكان الفضل فيها للرجل الذي تمرس بشؤون الحياة وشجونها ولم تغب عن ذهنه عواقب الفرقة والتشتت حتى عندما يخرج الناس ليلهوا ساعة من ليل أو نهار ثم يعودوا أدراجهم وقد امتلأت نفوسهم من جديد بحب الحياة والتمتع بما أحله الله لعباده فيها.

وعرفت الرجل الحكيم يجلس في المناخة وهو يرتدي ثوباً زينت فتحاته «بالقيطان» ولكنه لا يغشى لعباً ولا يذهب إلى حلقة، بل يمد بصره

بين الحين والآخر إلى ذلك الشارع المستقيم الذي يصل المناخة بساحة المسجد ـ شارع العينية ـ فصديقي يتعجل موعد الأذان وانطلاقته من منارة المسجد ليسلك شارع الجلال والجمال في طيبة، ويهبط إلى تلك الساحة الكبيرة التي كانت تقوم أمام المسجد وأبوابه المتعددة التي كان صاحبنا يختار من بينها باب الرحمة.

كان ينظر إلى ذلك العقد الجميل الذي يرتفع فوق الباب، هو لا يقرأ، ولكنه يسمع من الناس أن الآية التي نقشت حروفها فوق ذلك العقد هي قوله تعالى ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

وفي طلعة يوم جميل من أيام المدينة المشرقة بالنور كان الرجل ينام تحت تلك الشجرة الكبيرة ذات الأغصان الكبيرة بالقرب من باب «الكومة»، وهناك صعدت روحه إلى بارئها وهو يردد الشهادتين، يومها أدركت لماذا يصر الناس في البلدة الطاهرة على الدعاء لأنفسهم ومن يحبون بحسن الخاتمة.

روى صديقي روايته ثم انصرف ودمع غزير يروي لحيته الكثة التي جللها الشيب وسمعته يردد هذا القول البديع من الشعر:

يا قرينَ السُّوء مَا هَذا الصِبا ... فنَى العُمر كذا في اللعبِ
شَبَابي بَان عنّي فمضى ... قبل أن أقضِ منه أربي
ما أُرَجى بعَده إلاّ الفَنَا ... ضَيقَ الشّيْبُ عليّ مطلبي
وَيْحَ نفسي لا أراهَا أبداً ... في جميلٍ، لا ولا في أدب
نفسي لا كنتِ ولا كان الهوَى ... راقِبي المْولَى وخافي وارهبِي

فقير في ديار الرحمة

(١)

وطأت قدماه ذلك الكثيب المرتفع في القرية.. لم يخرج الناس بعد من دورهم، ولكن الطيور غادرت أوكارها ووصلت إلى هذا الكثيب الذي نمى «الربيع» حول كل شواهده التي ظنها في البداية جزءاً من التكوين الطبيعي للأرض، فإذا بها أحجار أودعها أهل الدنيا مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء من رحلوا إلى عالم الخلود، وسأل نفسه لماذا تختار هذه الطيور عالم الأموات وتنأى عن عالم الأحياء، أتراها وجدته أطيب مقاماً وأكثر أمناً.. أم لأنه لا يزاحمها أحد هنا على قوت يومها ولا يترقب الآخرون وصولها فتفقد حريتها التي وهبها الله لها وجاء الإنسان ليسلبها هذه النعمة وينتزع منها هذا العطاء.

كان من قبل يخشى (المقابر) ولكنه في هذا الصباح وجد نفسه قد تحررت من مثل هذا الشعور.. ولفت نظره وجود بناء وسط ما يسميه أهل القرية بـ «الروضة».. وعندما اقترب من البناء الحجري القديم وجد رجلاً يتخذ من حائطه مسكناً له.. إنه كوخ من الأخشاب يقيم فيه ذلك الرجل الذي أشعل النار في الربيع، ووضع إناء الشاي وكأنه لا يملك من متاع هذه الدنيا سوى هذا الإناء.. ودثاراً يفترشه حيناً ويتغطى به حيناً

آخر. . أليست هذه الدنيا أرضاً نمشي اليوم ـ عليها ـ ويمشي الآخرون فوق أديمنا عندما تحتضننا ذات يوم؟

دفعه فضوله للحديث مع الرجل الذي اختار عالم الأموات ليقيم فيه مع تلك الطيور التي تغشى هذا المكان صباح مساء، وعندما حدّث هذا الرجل ـ الذي عُرف باسم «الفقير» في أرجاء القرية ـ بما تفيض به نفسه من أشجان كان جواب «الفقير» مقتضباً: كل شيء في هذه الدنيا يسير في حاله. . نعم كل شيء إلى زوال!

لقد عرف هذا الفقير بفطرته الحكمة التي عرفها الفلاسفة والمفكرون. لقد عرفوها عن طريق العقل. . وعرفها صاحبنا عن طريق الوجدان. . وعندما سأل الزائر واحداً من أهل القرية عن هذا الرجل ابتسم الأخير وقال: لقد ولد هذا الرجل بين أكناف هذه القرية وكان في طفولته جميلاً. . خشيت عليه والدته كما يقولون من أعين البشر. . وحفظته داخل صندوق وعندما كبر قليلاً أصبح لا يستطيع السير على قدميه لطول الوقت الذي أمضاه داخل الصندوق. . ولم يبق في القرية من يحتضنه، فاحتضنته أرض المقبرة يقضي فيها صيفه وشتاءه، لا شدة الحر تؤذيه، ولا نزول المطر عن هذه الديار يقصيه، ثم قال: عجيب أمر هذا الرجل. . لقد كان لأحدهم حاجة فذهب إلى الجبل وقضى فيه دهراً يعبد الله ويسأله قضاء حاجته. . وفي نومه جاء الهاتف يقول له: أين أنت من فقير القرية؟ ونزل الرجل من صومعته وجاء إلى الروضة يطلب الدعاء من الفقير، وتذكر صاحبنا الأثر المشهور «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي». . تذكر «الكامل» و «عاكف» و «الرشيدي» وهم يجوبون أسواق المدينة يجري خلفهم الناس. . وهم يجرون لتلك الغاية التي تتطلع إليها الروح، وينشدها

الوجدان، ويلهث الناس في دنياهم. وهم يلهثون ليواسوا محتاجاً، ويفتحوا طريقاً أوصدت وينتزعوا الأشواك من دروب الحياة.. يروون الأرض الظامئة بماء الحب.. يجلبونه بلا طلب، ويسكبونه بلا ثمن، ثم يختفون في المنعطفات حتى لا يصيبهم حجر من جاهل، ولا تنالهم كلمة سوء من مكابر.

يا صديقي، يا أبا الفيض، اشتاقت إليك الرحبة، قدماك لا تفارق المقام.. وشفتاك تتمتم بكلمات الذكر، ونفسك يرتقي بها الشوق إلى عوالم الروح فينعكس ذلك الشوق على الوجوه فإذا هي مستبشرة، وعلى القلوب فإذا هي مطمئنة.

صديقي في القرية يتحدث عنه الرجال والأطفال و «الهجالات» (النساء الطاعنات في السن). «الزاهية» تخرج من خيمتها في الدار.. ترتدي خمارها.. تحضر له الشاي الأخضر.. ثم تعود لخيمتها ولا تحدث أحداً، ولكنني أنصتُّ إليها وهي تودعه وكأنها تقول له: أخي يا أبا شعيب لا تنسني من دعوة بحسن الختام.

ولم يفتح الفقير باب كوخه لأحد أياماً معدودة، جاء «الحفيد» وفتح الباب الموصد، فوجد الفقير وقد استقبل القبلة وارتفع إصبعه بالشهادة، ونادى المنادي في القرية «مات ولد الحمان».. ترك الناس في القرية الأرض التي يزرعونها وتفرقوا من حول فوهة البئر التي يستقون منها ونزل الأطفال من فوق الكرمة التي يجمعون من أغصانها حبات التين.. وجاءت الزهراء «مولاة المقص» تمشي منحنية الظهر، دامعة العينين، تقدمت النعش وهي تقول: لقد مات «أبو شعيب» وبقيت القرية من دون فقير.

وجئت إلى القرية كعادتي في كل عام.. صعدت على ظهر الدابة إلى

الكثيب، وأجلت نظري في جميع نواحي الروضة.. لقد ذهب الكوخ الذي كان يقوم قبل عام واحد في الأرض، أين ذهب الفقير؟ إنه واحد من تلك البقية التي تأنس نفسي إليها، بل إنه أكثر من ذلك السر الذي يجذبني للقرية وأهلها، وجدت (الزهراء) تقف أمامي تقودني إلى الخيمة وهي تقول: لم ينسك الفقير فلقد سأل عنك قبل أيام من رحيله، وأحسست بيدها تربت على كتفي وأنا أبكي فراقه، كانت يدها كتلك اليد التي تحتويني عندما أستيقظ من نومي في صغري وأنا في حالة من الذعر والخوف.. كانت في عطفها عليَّ مثل ذلك القلب الكبير الذي احتضنني بحبه صغيراً وكبيراً، لقد تصورت الفقير في خاطري.. وهو قول: كل شيء يا حاج في هذه الدنيا يسير في حاله!! كلمة من عالم الطهر والصفاء والروح.

فقير في ديار الرحمة
(٢)

دخل الخيمة، كان كل شيء بسيطاً وجميلاً في الوقت نفسه، أحب الجلوس في تلك الرحبة القائمة أمام الغرفة الوحيدة في خيمة «الطويل» ولعلّ الوقت الذي كان يفضله للنظر إلى ما وراء تلك الخيمة هو وقت الغروب، الشمس يحتضنها الأفق البعيد، المرأة تقيد الدواب وتنثر أمامها ما جمعته بيديها من «الربيع» الذي يسقيه مطر الشتاء، فتاة في مقتبل العمر تحمل إناء الماء قادمة من حائط البئر حيث يستقي أهل القرية، ثم تفرغه في ذلك الإناء الفخاري الذي يقوم تحت شجرة صغيرة زرعها أصحاب «الخيمة» منذ زمن بعيد.

تذكر الفتى والدته عندما كانت تنزح الماء من البئر عندما كان سيل «أبي جيدة» يغمر «وادي بطحان»، وتذكر «الزير» الذي يقوم بالقرب من بئر دارهم في المدينة.. يحتفظ فيه الناس بالماء في أوقات الصيف الشديدة الحرارة، حتى إذا دعتهم الحاجة إلى استعمال الماء وجدوه بارداً.. يتوضأون منه لصلاتهم.. أو يرشون به الرحبة التي كانت تقوم أمام الدار حتى لا يفسد الغبار المتصاعد مدخل الزقاق الذي كان يعيش فيه الناس كأسرة واحدة، لكن الأمر الذي لم يألفه هذا الجهد الكبير الذي تبذله

المرأة الكبيرة في عجن «الحنطة» وصنع الخبز، ثم الوقوف أمام الفرن حتى ينضج الخبز فوق تلك النار التي تشتعل في أعواد الحطب والقش، ويسأل نفسه: ألا يضايق المرأة التي قاربت السبعين ما يتطاير من تلك النار من شرر، ألا تشعر بألم في أقدامها من طول الوقوف؟

إنها امرأة تقوم مع أذان الفجر.. لتمسح على ضرع «البقرة» ثم تبدأ في حَلْب الحليب من ذلك الضرع بطريقة لا تنزعج معها هذه الدابة التي تسرح بها «الفتاة» صباحاً في الوادي ثم تعود بها قبل أن يعود رب الدار من السوق، تذكّر الأجسام المترهلة، وحدث نفسه في همس قائلاً: تلك ضريبة الحضارة المعاصرة التي ذهبنا في الاعتماد عليها إلى أقصى حد، «رشاقة» الجسم لا تكون بالرياضة كما نعتقد.. الرياضة جاءت لتصلح ما أفسدته الحضارة.. الرياضة الحقيقية هي ذلك الكد المتواصل من شروق الشمس إلى غروبها، وهذه الحركة العفوية التي يجد الجميع فيها راحتهم الحقيقية.

وطرح السؤال.. لماذ لا تأتين من القوم «إلى المقام؟ وقبل أن تجيب سألته: هل أعجبك ذلك المنظر البهي؟ فقال: نعم، فقالت: أنا لا أذهب.. لست «مسالية» (ليس لدي وقت فراغ)، وانطلق وحيداً يمشي بين المنعطفات الضيقة التي يصعب عليك المشي فيها لوجود أشجار «التين الشوكي» وهو منظر لم يعهده في بيئته التي نشأ فيها، وقف أمام البناء الجميل.. جاءت «الحفيدة».. فتحت الباب قائلة: أأنت ضيف في هذه القرية؟.. هز رأسه وابتسم في وجه العجوز التي جاوزت السبعين من عمرها، ثم عقبت قائلة: والدي كان من أهل العلم، كان يحدث أهل القرية ويعلمهم أمور دينهم.. الله يرحمه.

ثم مسحت دمعة طفرت من عينيها بطرف الخمار، لقد كانت امرأة طاعنة في السن، لكن الخمار كان يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها. تذكر حديث والدته التي عاشت طفولتها في بادية المدينة: «جدتك لأمك الله يرحمها عاشت وماتت لم يكن أحد يرى شعرها ويدخل في هذا بناتها وأخواتها» إنها الفطرة التي تفسدها فلسفة المدنية، وإنه «مفهوم» الشرف الذي أصبح البعض يعتبره تخلفاً، وإنه «الستر» الذي كان الناس يدعون الله أن يكرمهم به كلما قاموا وقعدوا!

أضرمت «الحفيدة» النار في «الفاخر» ووضعت ماء في «المقراج» كانت قد نزحته من بئر «الشريف»، وهو ماء عذب ونظيف، جلبت النعناع «الأحرش».. نظفته من الأعواد، ووضعته في إناء خاص به، سكبت الماء من المقراج في إناء الشاي المصنوع من المعدن بعد أن وضعت حبات من الشاي الأخضر في داخله ثم رفعته بيدها لتضعه فوق «المجمر»، تركته يفور، ثم أضافت إليه أوراق النعناع وعدة قوالب من السكر، «السكر» تعادل أهميته في الدوار «الحنطة» و«زيت الزيتون»، يأخذونه هدية في الأفراح، ويأخذونه مواساة في الأحزان، وعندما سكبت الشاي في «القدح» ظن أنها سوف تناوله إياه، ولكنها أعادته إلى الإناء ثانية.. فعلت ذلك عدة مرات قبل أن ترفع الإناء إلى أعلى ثم تجعله ينزل مباشرة إلى القدح.. كانت «الرغوة» أول ما أثار فضوله عن «الشاي» وكيفية صنعه في قرية «الفقير» الذي كان يدفع الفتى لقضاء يوم كامل هناك ثم يعود أدراجه إلى المدينة الصغيرة، مع حلول الظلام وعلى وقع أقدام العربات التي تجرها الدواب قادمة من سوق «جمعة مطل».

فقير في ديار الرحمة
(٣)

طلب الفقير أبو شعيب من «الحفيدة» أن تهيئ له مكاناً بالقرب من بئر «الشريف» التي لا يمكن لأحد أن ينزح منها حتى تأتي «بنت البخاري» وتزيح الغطاء عنها، ثم يبدأ أهل القرية في أخذ الماء إلى دورهم، لكن الحفيدة لم تعبأ بطلب الفقير. . خرجت «مولاة القص» من خيمتها تقودها حفيدتها الوحيدة فهي تعطف على الفقير، ولا تريد أن يؤذي أحد مشاعره، ولكن «الحفيدة» لم تقبل وساطة أحد، وعندما اقتربت «الزهراء» من الفقير لتطلب منه أن يبحث عن مكان آخر في «الدوار» ليأويه، كانت الكلمة الوحيدة التي نطق بها «الله يعلم من أطول عمراً من الآخر» في إشارة لاعتراض الحفيدة على بقائه لأنه مقعد ولا يستطيع القيام بشؤون نفسه، تجمع أهل القرية طلبوا من «حميدو» و «الرايس» «والفقير عبد القادر» الذي سكن الدوّار بعد أن هجر قريته «خريبقة» طلبوا منهم أن يحملوا «أبا شعيب» لمكان قريب من الروضة، أحسست أن «الزهراء» تريد أن تقول كلاماً «للحفيدة» ولكنها آثرت السكوت.

التفتت الحفيدة إليَّ قائلة «هم لا يعرفونني»!! تراني يا ابني «مخلخلة». لم يتبين معنى الكلمة في عبارة الحفيدة التي أعادت «الغطاء» إلى مكانه

فوق البئر وذهبت إلى خيمتها مع «رجلها» الذي فقد سمعه منذ زمن طويل.

غبت أياماً عن «الدوار».. أحسست بشعور غريب للهروب من المكان الذي أقيم فيه والعودة إلى القرية، أوقفت «غندرياً» ركبت خلفه.. الطريق إلى القرية غير ممهد، ولكن عليّ أن أصبر.. ولما وصلت إلى خيمة «الطويل»، قابلتني «مولاة الخيمة» كان وجهها ينبئ عن أن شيئاً ما حدث في القرية.. في البداية ترددت عن إخباري ولكني أصررت على أن أعرف ما تحاول أن تخبئه عني.. بدأت المرأة التي تقدم بها السن تحكي لي ما شهدته القرية من حدث مدة غيابي عنها.. لقد خرجت الحفيدة كعادتها إلى «البئر» حتى يتمكن أهل القرية من نزح الماء البارد من (بير الشريف)، لقد كان من عادتها أن تتحدث كثيراً ولكنها في ذلك اليوم كانت صامتة، وعندما أرادت نديدتها في العمر وجليستها في رحاب «المقام» «الزاهية» أن تداعبها، اكتفت بالنظر دون أن ترد على كلامها، وعندما دنت الشمس من المغيب وانصرف الناس إلى خيامهم في «الدوار».. دخلت الحفيدة على زوجها في «الخيمة» الذي بادرها قائلاً: ألا تصنعين لنا كأساً من الشاي، كانت تنظر إليه بعينين زائغتين ولكن فكرها كان في مكان آخر.. أخذت «الوقيدة» وبدلاً من أن تشعل النار وضعته في وسط «المقراج».. استنكر الزوج صنيعها.. ولكنه لم يتمكن من سؤالها.. فلقد سقطت أمامه على الأرض يسألها ولا تجيب.. يحركها بيده فلا تلتفت إليه، صاح بأعلى صوته.. تجمع أهل «الدوار» في خيمة «الزنزون»، ولكنها لم تشعر بوجودهم حولها، كانت تهذي بكلام لا يفهمونه.. وبعد ثلاثة أيام أخبر «الحفيد» القوم أن حفيدتهم قد فارقت الحياة.

«مولاة المقص» تذكرت الحكمة التي نطق بها الفقير قبل مغادرته رحبة المقام والبئر وانتقاله للسكن في «الروضة» وحيداً، حملوها إلى مثواها الأخير.. وعندما فتح أحدهم باب الكوخ الذي أضحى الفقير يقيم فيه وجدوه منشغلاً بإيقاد النار في «الربيع» ليصنع كأس الشاي وهو الشيء الوحيد الذي كان الفقير يستطيع أن يقوم به، وكانت تمر الأيام ولا يطلب شيئاً آخر سوى هذا القدح الساخن من «شاي» القرية «الأم حبيبة» هي الإنسان الوحيد الذي نظر إليه الفقير من مقعده في الكوخ وبادرها بالقول «العافية يا والدة ما تجيء نوبتين.. والحياة لا تستحق كل هذا العناء».

الآخرون الذين انصرفوا من تشييع جثمان الحفيدة لم يلتفت إليهم الفقير فلقد قال كل ما عنده لوالدة «الدار».. فهي الوحيدة التي تدرك ما ترمي إليه أقواله. مد رجله اليمنى التي يقوى على تحريكها وأوصد الباب في وجوه بقية القوم الذين يدفعهم فضولهم لمعرفة أسرار حياة من يعيش بين أكتاف «الروضة»، ثم ينصرفون ليتندروا بما شاهدوا، قليل من القوم يحفظ السر، وقليل منهم من يعتبر من حوادث الدهر، وقلة تمتلئ قلوبها «بالرحمة» فهي إكسير الحياة، ومتعة النفوس المؤمنة، وسلوى القلوب المطمئنة.

فقير في ديار الرحمة

(٤)

دخل الخيمة.. سمع صوت الفقير «عبد القادر» الذي يسكن هو وزوجته وابنته الوحيدة في غرفة واحدة، «الطويل» قال لي: هذا رجل «براني» وغريب الأطوار، ثم سكت، لأن «المختار» دخل علينا وفي يده جهاز راديو قديم، يسمع منه أخبار العالم، والمختار يجمع أخبار «الدوار» ويأتي للخيمة كل صباح قبل أن ينطلق «الطويل» بعربته إلى السوق ليخبره بما يجري في «الكدوة» التي تبعد عن «الروضة» التي تحد خيمة الطويل من الناحية الجنوبية. «المختار» ليس كعادته.. لا بد أن أمراً غريباً جرى في الدوار، وقبل أن يسأله نسيبه وصديقه عن بضاعته من الكلام، ابتدره «المختار» قائلاً: لقد وجدوا اليوم زوجة الفقير «عبد الله» ميتة في الكوخ الذي يسكنه الفقير، ولكن «أهل الحي» لم يعرفوا بالوفاة إلا في وقت متأخر، جاء أهلها وقاموا بتجهيزها وزوجها لم يبد أي اهتمام إزاء من حضروا لتعزيته، بل إنه أغلق باب «الكوخ» على نفسه بعد الوفاة، ولم يستقبل أحداً من الزائرين الذين جاءوا لتعزيته في زوجته.

وعندما جاء الطويل طلبت منه أن يأخذني إلى دوار الفقير عبد الله فأنا لا أعرف لماذا أضحى الرجل موضع اهتمامي وخصوصاً بعدما سرد

المختار شيئاً من أخباره الغريبة على مسمعي، في البداية لم يتحمس صديقي «الطويل» لطلبي، ولكن زوجته الطاعنة في السن، شجعته على مرافقتي حيث يسكن الرجل الغريب، طلب منها أن تخرج له العصاة الطويلة التي يحملها معه في الليل لأن أهل الدوار لا يبصرون طريقهم في ذلك الوقت إلا على ضوء الشمع ويعيشون ليلتهم في خيامهم على ضوء القمر.

طلب مني الطويل أن أتبعه وأن أكون حذراً فالكلاب التي تحرس الدور في الليل قد تهاجم الغريب وتفتك به. وسار بي «الطويل» في دروب متعرجة بين خيام أهل الحي.. وعندما اقتربنا من خيمة الفقير عبد الله، التفت إليّ الطويل وقال: هناك «سر» لا يعرفه إلا الخاصة من الناس، وقبل أن يبوح لي بالسر، أحسست بفضول شديد لمعرفة شخصية الرجل نفسه! وما هو السر، يا «سيدي محمد»، فقال: الفقير عبد الله هو شقيق لوالدتي ولم يبق في الدوار من أقاربي سواه فلقد نزحوا جميعاً إلى أماكن أخرى يبحثون عن لقمة العيش، وبقيت وحيداً في هذه القرية حتى تزوجت بأم الأبناء، ولكن «خالي» يرفض الإتيان إلى خيمتي، ويعيش منذ زمن في هذا «الكوخ» الذي تحرسه مجموعة من الحيوانات المفترسة، وكنا كلما اقتربنا من الكوخ تعالت أصوات هذه الحيوانات التي ألف الفقير العيش معها.

وحين وصلنا ناداه الطويل بلقبه الذي عُرف به في القرية، فتح الفقير باب الكوخ.. كان شكله مختلفاً عن بقية الناس في القرية، كان يلبس عصابة فوق رأسه، ذكرتني بالعمامة الصفراء التي كان يضعها والدي فوق رأسه في أيام شبابه.

نظر عبد الله إلينا بغرابة فالوقت كان ليلاً، وكنت أحمل «خنشة» السكر في يدي، وقدمتها إليه فأشار إلينا بالدخول.. تقدمني الطويل ثم تبعته وفي نفسي شعور من الهيبة والخوف معاً، كان الماء يغلي في «المقراج» فوق «المجمر».. كنت أسمع حركة المقراج فوق النار الملتهبة، تذكرت «بنت البخاري» عندما أجلستني في ذلك المقام البهي واستعادت ذاكرتي كلماتها.. كنت أعد الشهور أنا و «الزاهية» ثم نقول: متى يأتي الغريب إلى القرية متى نضيء الشمع؟ متى نضرب الدف؟ متى ترتفع أصواتنا بأنشودة القوم؟ متى يلتئم شمل أهل الدوار في ظل تلك الشجرة التي كان يقصدها الفقراء فيستظلون بظلها ويذكرون الله في صمت وينطلقون مع «غلسة» الفجر وقد صفت منهم النفوس، وامتلأت بين جنباتهم بالحب القلوب. كان «الذكر» يجتث ظلمة النفس والأرض معاً، وكان «التهليل» يشيع في أرض القرية شعوراً بقرب الإنسان من خالقه، وإقراره بوحدانيته، واعترافاً بنعمه المتعددة على هذا الإنسان الذي كثيراً ما ينسى الفاعل الحقيقي وراء كل حركة وسكون في هذا الكون، فتتعاظم نفسه، ويتسلل الغرور إلى داخله، فينسى الجار، ويضيع حقوق القريب، وظلم الآخر، ويعد ذلك عدلاً، ويعتدي على من يلتقي به ويعد ذلك «شجاعة» يفتخر بها بين القوم فلا يجد بينهم من يذكره بالله، ويعيده إلى رشده ويرده إلى المنهاج القويم.

وعندما قام الفقير «عبد الله» بتقديم قدح الشاي، ظل واقفاً على رأسي حتى أفقت من تلك «الرحلة» الطويلة في عالم تختلط فيه الحقيقة بالرؤيا، ويمتزج فيه الحاضر بالماضي، وتنثال فيه على النفس الإنسانية ومضات من ذلك العالم الآخر الذي نحسه ببصائرنا وتعجز أبصارنا عن اقتحام آفاقه،

وذلك أكبر دليل على محدودية قدرة الإنسان وعجزه الذي يحاول أن يخفيه تحت ستار من الوهم والزيف الكاذبين.. وأمسكت «القدح» بيدي وسمعت الرجل الذي وجد في عالم الحيوانات ما يؤنس وحدته ويغنيه عن الاختلاط ببقية القوم في دوار الرحمة سمعت لسانه يتمتم بكلمات الذكر والاستغفار.

إنه «الأنس» الحقيقي الذي تمتد لحظاته وتطول، في حين تقتصر لحظات كل أنواع «الأنس» الأخرى! إنه «الأنس» الذي تعقبه الفرحة، في حين تعقب الحسرة كل أنس آخر في هذا الوجود.

تذكرت وأنا أنظر إلى وجه الرجل المضيء بذكر الله قول أحد العارفين: «لو علم الآخرون ما نحن فيه من لذة لجالدنا عليها بالسيوف».

غريب في حوش النورة

حوش «النّورة» واحد من تلك الأحوشة الكبيرة التي كانت تقع بالقرب من المسجد الذي يؤمه الناس مصلين في روضته وزائرين ضريح صاحبه ﷺ، وكان الحوش يقع بالقرب من البستان المعروف باسم «الصافية» نسبة إلى آل الصافي إحدى الأسر العريقة والكريمة في البلد الطاهر.

كنت ألمح هذا الرجل الذي يخرج من بوابة هذا «الحوش» في أوقات مختلفة، أسمر اللون حاد الملامح دائم التفكير ولهذا فهو لا يحدث أحداً، ولا يجرؤ أحد على إيقافه في الطريق بغرض الحديث معه، وكثيراً ما كان الناس في تلك الأيام يقفون مع بعضهم يتحدثون في شؤون دنياهم، وهي شؤون بسيطة لا تكاد تتجاوز دائرة المأكل والمشرب والملبس.

يدخل صاحبنا «السوق» الذي تختلط فيه أصوات بائعي الخبز مع أصوات أصحاب الحرف الأخرى، ويبقى صوت بائع خبز الإفطار هو المتميز بين تلك الأصوات التي تنطلق في عفوية متناهية تشبه العفوية التي كانت عليها أخلاقيات الناس وتصرفاتهم، البائع أمامه «طاولة» ذلك الخبز المتميز ينادي عليها قائلاً: «الشريكة.. ستة هلل.. قرش ونص»، يمد صاحبنا يده لتلك الطاولة.. يتناول رغيفاً ويقلبه ثم يدعه إلى رغيف آخر.. حتى إذا عثر على الرغيف المناسب وضع ثمنه أمام البائع ثم

انصرف، يذهب إلى الناحية الأخرى من السوق حيث تنتشر حوانيت «البقالين»، يشتري «تلقيمة» (قليل من السكر وقليل من الشاي) اليي يضعها البائعون في قصاصات من ورق الصحف، ويلفونها بطريقة هندسية عجيبة فقد كان الناس يستخدمون أيديهم في كل شيء، لم يعرفوا الآلة بعد ولم يفرطوا في الاعتماد عليها كما نفعل نحن الآن، خطوات قليلة وإذا الرجل أمام باب كبير يلج منه الناس إلى مكان متسع تنتشر فيه تلك الكراسي الخشبية والمعروفة باسم «كراسي الشريط»، ودلف إلى «مقهى» سمعت أنه كان لرجل من أهل مكة ثم تركه لرجل آخر تعهده بالرعاية، لم أعرف المالك الأول الذي عاد إلى مسقط رأسه بعد سنين قضاها بين أصدقائه من أهل المدينة ولكن عرفت الرجل الثاني.. كان شيخاً لإحدى الحرف.. يقف والسكين في يده، والخروف أمامه ليس من قطرة دم تصيب ذلك الثوب الأبيض الذي يرتديه كان أنيقاً حتى عندما يخرج صباحاً من مدخل «باب قباء» إلى «الخان» وأراه كذلك عندما يعود أدراجه على قدميه في وقت متأخر من النهار، وليس في هذه الصورة أي مبالغة في الوصف، فكثير من أصحاب الحرف كانوا على هذه الشاكلة من الناقة في الشكل والسماحة في الخلق.

وجلس صاحبنا على أحد كراسي الشريط يتناول «رغيفة» مع الشاي الذي تفوح منه رائحة النعناع «الحساوي» ثم غادر المكان إلى ساحة «الحرم» وربما إلى حارة «الأغوات». كانت تصرفاته هادئة، ولكن من يدري ماذا خلف هذا الهدوء ووراء هذه السكينة؟، وذات يوم وقبيل صلاة العصر، خرجت من باب «جبريل» ووجدت صديقي «الزين» شارد الذهن، سألته: ما الأمر؟ قالي لي: «الله سلم» صاحب الحانوت الصغير ـ الذي

كان يقوم بالقرب من بيت «البالي» ـ كاد يقضي على يد الرجل إياه ساكن حوش النورة والسبب بسيط، لقد كان الرجل الهادىء يهم بدخول الحارة ثم تراءى له أن يحمل «تنكة الجاز» ـ والتي يضعها صاحب الحانوت بالقرب منه ـ من مكانها ثم يضعها في مكان آخر، وحينما اعترض صاحب الحانوت واسمه «البركة» على فعلته هذه، ما كان من صاحبنا إلا أن أمسك برقبته، وبدأ الرجل يستغيث بالناس ولكن لم تستطع أن تنزع قبضة الرجل القوية من عنق هذا المسكين.. وعندما أخفقوا جميعهم دعوا بعض رجال الشرطة الذين تعاونوا جميعاً وأنقذوا صاحب الحانوت من موت محقق.

وسألت الزين وأين ذهب البركة؟ «لقد ذهب إلى داره بعد أن تمزقت ملابسه وسالت الدماء من وجهه». وحين حدّثت صديقي «ابن عيسى» رحمه الله بالقصة ـ وكان يمسك بمسبحته ويجلس بالقرب من بيت المرحوم ـ عابدين سندي، ابتسم ثم قال: الناس لا تعرف هذا الرجل الهادئ.. كثيرون كانوا لا يستطيعون أن «يُعَلّموا» عليه بالعصا.. كان نمطاً فريداً من الرجال الشجعان، ثم صمت صديقي ابن عيسى فهو لا يحب الحديث عن الماضي كثيراً، وضع عمامته على رأسه ثم غادرنا إلى «الرباط» ولم يخرج منه قط ولم ندخل إلى الرباط إلا في صباح ذلك اليوم الذي نعاه «الزين» إلينا في المنام ثم في اليقظة ووقفت بين «ابن جبل» والزين نبكي رفيق دربنا.

ومرت سنون عدت بعدها إلى الأرض المباركة، وحين سألت صديقي ابن جبل ـ وهو أحد البقية من أصدقائي: كيف حال فلان؟ أعني صاحب حوش «النورة» أدار صديقي حبات مسبحته وأغمض عينيه ثم مسح دمعة جرت على خده، لم يتحدث هو الآخر غادر المكان وتركني وحيداً.

كم يلوذ أصدقائي بمنازلهم يعتصمون بها، وألوذ أنا بالماضي أنقب فيه عن صبح وليل بهي وأصوات يتسلل نغمها الشجي من فتحات «الرواشين» لتستقر في نفوسنا التي لم تكن تشقى بما تشقى به اليوم من هموم هذه الدنيا الفانية:

آخر الكلام:

والشهر في كل أرض عشره قمر ... والشهر في أرض طه كله قمر
وكل أيامها عيد يجد كما ... أن الليالي بها في سعدها غرر
البدر فيها جلي لا استتار له ... والبدر في غيرها يبدو ويستتر
تلك المعاني التي شاهدتها رسمت ... عندي لها سيرة تحلو بها السير
يا طيبة الخير أشواقاً معجلة ... إلى متى أن أستأنى وأنتظر
يا قائد الجو أنزلني إذا لمعت ... لعينك القبة الخضراء والحجر
فوقفة عند أبواب المدينة لا ... تبقى من الشوق مطوياً ولا تذر

جليس الخوخة وأنيس الرستمية

عندما دخلت ذات يوم من «خوخة الصديق»، رأيته يجلس وبين يديه مصحف يقرأ فيه، وعندما حان وقت صلاة الظهر رأيته يقطع المسافة بين الخوخة والصفة مسرعاً، ثم يسلك ذلك «الزقاق» الضيق الذي يصل المسجد بروضة البقيع، ولعلّ فضول النفس قادني لمتابعة رحلة هذا الرجل.

لقد توقف برهة من الزمن عند «العين» ثم دخل إلى بناء عتيق واختفى خلف سور ذلك المكان المتميز في هيئته الظاهرة من بين جملة الأشياء التي تحيط به، ولكنها لحظات عاد بعدها الرجل أدراجه إلى «الحرم» واتخذ فيه موقعه السابق الذي أصبح معروفاً به ودالاً عليه، إنها رحلته اليومية المعتادة بين الحرم والحارة، ولكن رحلتي معه استمرت أعواماً طويلة سمعت فيها من القصص حول شخصيته شيئاً كثيراً واحتفظت لنفسي بكثير مما عرفت، فلقد أصبح الرجل صديقاً حميماً لي، ولكنها صداقة من طرف واحد، وتلك حالة ليست شاذة في هذه الحياة، فقد تكون الصداقة غير متكافئة ويكون الود كذلك.. وكثيراً ما ترضى النفس البشرية بهذا الحيف في حقها، ولا تتجرأ على إعلان شكواها أو البوح بتباريح وجدها، ففي الشكوى شيء من المرارة ومن البوح ما يعد خيانة للنفس فيما رضيت به أو استمرأته وتعودت عليه.

دخلت البناء العتيق في الحارة فرأيت صاحبي يجلس أمام غرفة صغيرة في ذلك الفضاء الواسع الذي تتناثر فيه الغرف التي يرضى ساكنوها من دنياهم باليسير من العيش، فهم إذا خرجوا إلى هذا الفناء من دورهم صبحاً أو عصراً، انكشف أمام أعينهم ذلك المنظر الذي يبعث في النفس طمأنينة وسكينة لا يعادلها شيء في هذا الكون، إنه منظر القبة الخضراء التي تحتضن ذلك النور الذي أخرج الله به هذه الدنيا من الظلمات التي كانت غارقة فيها، وهدى الله به قلوباً كان يرين عليها الكفر وتمزقها شكوكه وظلماته.

يجلس صديقي وحيداً أمام غرفته.. لا بد أنه يتلذذ بتلك الوحدة وتحقق نفسه أقصى حالات وجدها من خلال تلك العزلة التي عرف بها بين بقية القوم الذين كانوا يستوطنون ذلك المكان ولا يطيقون البعد عنه فضلاً عن النزوح منه، يجلس وعيناه ملتصقتان بذلك اللباس الذي يحمله بين يديه، يقلب أطرافه ثم يبدأ في حياكته، تُرى لماذا يصر على هذه الحياكة عصر كل يوم؟ لقد سمعت أنه كان في مطلع حياته يمتهن «الخياطة» وكان بارعاً في صنعته، هل يستعيد بهذا الصنيع شيئاً من ماضيه «الغامض» أم أنه ينأى بنفسه عما يقع فيه الآخرون من حديث، ولهذا فهو يوهمنا بأنه منشغل بشيء من شؤون هذه الحياة.

عبد الرحيم ـ وهذا الاسم الحقيقي لهذا الرجل ـ يبتسم في وجوهنا بين الحين والآخر، ولكنها ابتسامة باهتة لا تعبر عن مشاركة حقيقية منه لمجلسنا الذي كان ينعقد بين العصر والمغرب، ويؤمه أهل الحارة ثم ينصرفون عنه مع مغيب الشمس، فـ «الرستمية» يسودها الظلام ليلاً فهي لا تعرف شيئاً من تقنيات الحضارة المعاصرة التي لم يسلم منها موطن في

هذه الأرض، لربما ابتسم «عبد الرحمن» وفي نفسه شيء من هؤلاء الناس الذين تركوه لمعاناته دون أن يظهروا التعاطف معه أو يحاولوا التخفيف من مأساته، ولربما ابتسم لأنه يريد أن يقول لهم إنه يعيش «نعيماً» لا يعرفونه الذكر والتدبر، وحلاوة اليقين والرضا، ولقد اقتربت منه مرة حيث يجلس في المسجد، فلم يزد على أن قال لي: متى نذهب إلى دكة جلال؟ والدكة ـ الشيء الوحيد الذي أتذكره من حديثي معه ـ هي موضع في جبل «سلع» المعروف.

وسألت نفسي هل تتوق نفس صاحبي بين الحين والآخر لمخالطة الناس ومجالستهم ـ وهي الشيء الطبيعي الذي فطرت عليه نفوس جميع الناس ـ ولكن الحنين شيء وواقع الحياة شيء آخرـ ومع هذا فقد كان صديقي يحب الحياة والناس حتى وهو بعيد عنهم عندما رضي بتلك العزلة التي لا يعلم أحد لماذا اختارها منذ أكثر من ثلاثين عاماً وحتى وقتنا الحاضر بعد أن كان يُدعى بالأنيس بين جلسائه من أهل الحارة أو نظرائه من أهل حرفته.

لقد كان صاحبنا يستيقظ مع آذان الفجر الأول، يتسلل مع فناء الرستمية.. يسمع أصحاب الدور المجاورة للعين وقع أقدامه.. يملأ «القلال» بالماء حتى يشرب منها الناس صباح اليوم التالي ماءً عذباً بارداً، ثم يقوم برش تلك البرحة التي يؤمها الناس من كل مكان للاستمتاع بالجلوس وشرب الشاي فيها عصراً، وكأنه أراد أن يقول لهم: لقد افتقدتم حضوري بينكم، وجلوسي إلى جواركم، ولكن روحي تطوف بالأمكنة التي أحببتها وتعلقت بها، وإن كنتُ قد حبست لساني عن الحديث معكم فلقد وجدت ما أشتغل به خيراً من ذلك.

لقد تذكرت شيئاً هاماً يخص صديقي الذي عرفت أنه ما زال يعيش في مكان لم يختره هو بنفسه، لقد كان «عبد الرحيم» يميل إلى اللون الأسود في لباسه، ولكنه لم ينجز إلى هذا اللون إلا في تلك المرحلة من حياته التي اختار فيها ألا يُرى إلا في موضعين اثنين فقط، وهما «الخوخة» و «الرستمية» وفضل أن يشرب من ماء الحياة المتدفق من تلك العين قبل أن يصيب الآخرون منه نصيبهم.

لقد شرب «عبد الرحيم» من نبع الصفاء ولكنه لم يبخل على الآخرين بما يحبون أن يصيبوه من دنياهم هذه، أو يشتغلوا به من شؤونها، فترك لهم ما يحبون.. واكتفى بما انشغلت به نفسه واستغرقت فيه روحه، وهام فيه وجدانه.

طيف المنام وصوت النعمان

لم تكن «الحارة» هي المكان الوحيد الذي يقصده الرجلان في الأمسيات الجميلة من ذلك الماضي الذي يبدو الآن كنجم يسطع في تلك الآفاق البعيدة من السماء، بل كانت برحة «البقيع» موضعاً آخر يشعران فيه بطمأنينة النفس، وسكينة الروح، وبالقرب من هذه البرحة كانت تقوم «غرزة» المعلم «بكر» وكانت «الغرزة» تمتلئ بالناس بعد انصرافهم من صلاة المغرب، وتخلو إذا ما انصرف الناس إلى دورهم بعد انقضاء وقت «العشاء».

وكانت «الغُرزة» آخر نقطة تفصل بين مواطن الحركة في البلدة ومواطن العزلة والهدوء حيث البساتين الي يميزها ذلك الطلع من «النخيل» غير المثمر الذي يطلقون عليه اسم «الصيران»،وكان صاحب «الغرزة» يعرف أسماء رواد أماكنه، ويعرف ما يطلبونه من أكواب الشاي أو القهوة، وبهذا فقد اعتاد الناس أن يأخذوا مواضعهم على كراسي «الشريط» وينتظرون حتى يأتي «المعلم» لهم بما يرغبونه من أصناف «الشاي» الذي كان يفضل شربه في ليالي الصيف الساخنة.

يضع المعلم «الطلب» ثم ينصرف ليأتي بشربة «الماء» المصنوعة من «الفخار» والتي كادت تختفي تماماً اليوم، ولا يمكن «للمعلم» أن يخطئ

في الوقت الذي دخل فيه الزبائن غرزته، فهو يعرف تماماً من الذي أتى أولاً ومن الذي قدم لاحقاً، وهو شيء مهم بالنسبة للرجل الذي لا يتحدث أبداً، فالرجل بفطرته لا يفرِّق بين الناس مهما كانت منازلهم، ولعلّ حب الصنعة وعشقها يدعوه لهذا النظام الذي سار عليه مدة طويلة من الزمن في تلك «الربوة» التي يأتي إليها الشباب ليلاً ليمارسوا رياضة «القشاع».

وكان صاحبنا شغوفاً برؤية الشباب وهم يلوِّحون «بالعصى المزقرة» فيما يسمى بالتمرين، ولكن الذي أثار فضول هذا الصبي هو أن «الحكم» في هذا الصنف من «الرياضة» لم يبصر نور الحياة أبداً، فإذا ما اختلف شباب «الحارة» عادوا إليه فقضى بينهم وكأنه كان يبصر «بعينيه» ما يجري في ساحة اللعب. وتذكر الصبي أحاديث صديقه ابن جبل كيف أنهم خرجوا ذات ليلة إلى «المائدة»، وكانوا قلة وجاء القوم من «حارة» أخرى أعداداً كبيرة، فأصاب الخوف البعض من هذا النفر القليل، فأحس «ابن عيسى» بذلك الهلع الذي مس قلوب جماعته، فأمسك بعصاه، وكان طويل القامة، و «ساق» على صفوف الآخرين فتراجعوا، ويتنهد صديقي «ابن جبل» بعمق ويقول: لو عاش «ابن عيسى» لتفوق على بعض الذين يكبرونه سناً، ويضيف، لقد انقضى «اللعب» وخلت «المائدة» من «المفاتيح» وكأن عصا «البطل» أصابت رجلاً من الحاضرين الذين أتوا لممارسة هذا الضرب من «الرياضة» التي لم يبق لها سوى اسمها، أما مضمونها الحقيقي من نظام والتزام وأدب فلقد ذهب كل ذلك مع من رحلوا من القوم.

وذهب «ابن عيسى» حيث يقيم في واحد من شوارع الحارة الضيقة المقابلة للقبة الخضراء التي تحتضن سيد البشر ﷺ، وعندما غمضت جفناه، وكان الوقت متأخراً رأى طيفاً في المنام، يخاطبه، كيف تمس

عصاك رجلاً مسلماً مثلك؟ . . واستيقظ «صاحبنا» على صوت «المؤذن» من المنارة «الرئيسة»، وكان الصوت الندي هو صوت محمود نعمان رحمه الله، (الصلاة خير من النوم)، فأسرع صاحبنا بعد أن تهيأ للصلاة وقصد «الصفة» وبعد أن انقضت الصلاة لمحه صديقه «ابن جبل» وهو يبكي، اقترب منه، سأله عن سر بكائه، انتحى به جانباً وأخبره بما شاهده في منامه ثم قال: إنها آخر ليلة أسري فيها مع القوم، واعتزل ابن عيسى الناس.

كان يخرج في الليل ويقف أمام «القبة» يتملى ذلك المنظر البهي، يصلي على سيد البشر ﷺ ثم ينصرف إلى الدار.

وسافر «ابن جبل» بعد أسابيع قليلة من ذلك الحدث إلى خارج المدينة، ويوم رجع، في «فرش الحجر» وسألته: إلى أين أنت ذاهب يا صديقي؟ فأجاب: أريد رؤية «ابن عيسى» صديقي في الله، لقد اشتقت إليه كثيراً، لم أجبه ولكنه أحس بشيء ما ربما أخفيه عنه، رفعت رأسي، نظرت إليه في حزن، لقد ذهب صاحبك إلى «الربوة» ولكن ليس لتلك «الربوة» التي كنتما تقصدانها ليلاً، لقد ذهب إلى «ربوة» البقيع محمولاً على الأعناق، وحثونا عليه التراب كما نحثوه في كل مرة على أقرب الناس إلى قلوبنا، وربتُّ على كتف صديقي «ابن جبل»: لقد ختم الله لصاحبنا بالخاتمة الحسنة، ألا تتذكر قوله لنا في ليلة من ليالي «فرش الحجر» سوف أسبقكما، وسوف تبقيان بعدي دهراً ولكن مع شيء من النّصَب؟

وما زلنا يا صديقي نعيش نَصب هذه الحياة، ولكنها المسيرة التي كتبها الله لعباده، والدرب الذي لا بد من اجتيازه، ونسأل الله أن يعيننا على اجتياز العقبة، والله المستعان على ما نقول.

حديث الزين عند السارية

صديقي «الزين» يرى في منامه الأعراس، كنت ألقاه بعد صلاة كل فجر عند سارية من سواري المسجد، سجادته فوق كتفه، شفتاه تتحركان بذكر الله، ويقبض على مسبحته ولا يستطيع أن يسير بدونها، أومأ إلي ـ وكم كان أدبه عظيماً وكبيراً في جوار الرسول ﷺ.

همس مرة في أذني: بشرى أيها الحبيب لصديقنا «ابن عيسى»! وجذبني حديثه فاقتربت من السارية وهززت رأسي دلالة على استماعي له. لقد رأيت البارحة امرأة ضخمة الجثة في المنام ورأيت صديقنا يسند رأسه بجوارها، كان في المنام أطول منه في الحقيقة، سألت المرأة ما شأن صاحبنا؟ رفعت رأسها إليّ وقالت: لقد أصابته رحمة الله ثم صمت واستمر في الذكر.

وحين طلعت الشمس، قام صديقي فصلى صلاة الضحى، نظر إليّ باستغراب وقال: ألا تريد مصاحبتي لمسكن ابن عيسى نبشره بالرؤيا؟، من عادتي أن أتبعه في كل طريق يسلكه، وأجلس بجواره في كل مكان يؤمه، لم أجرب عليه كذباً، ولم أره إلا في مواقف الخير، وتعلقت روحي به فنحن سوية في مجلس الذكر، وتقودنا أقدامنا مع صباح كل يوم أربعاء، إلى حي سيد الشهداء، ومع عصر كل خميس إلى المساجد السبعة وتضيق

بنا الدنيا ليلاً فنؤم «فرش الحجر»، لا نرى فيه إلا «أبا الفيض» يقف على قدميه أمام المقام مستغرقاً في عوالم الحب والوجد، ويمسنا شيء من وصب هذه الدنيا فنحن في الحضرة حضور، وأمام الضريح تحفنا بركات أشرف بقعة في هذا الكون، وأكرم تربة تزكى بها هذا الوجود.

خرج «الزين» مطمئناً من باب «جبريل» وحين انعطفنا إلى الطريق الذي ينتظم موقع دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الدار التي تشرفت بحلول الحبيب فيها ﷺ عند قدومه إلى المدينة، ينتظم ذلك الطريق تلك الدار إلى يسار الذاهب إلى «الحارة» كما ينتظم موقع عارف حكمت إلى يمينه.

شاهدنا رجلاً صالحاً قد جاوز الثمانين من عمره، هذا العم «علي رنقا» واحد من المجاورين المتأدبين في بلد المصطفى ﷺ وأكاد أجزم أنني لم أر متأدباً في حياتي مثله، كان إذا دنا من الطريق الموازي للضريح المحمدي، حمل حذاءه بيده فلا يلبسه حتى يتجاوز برحة «باب السلام»، كان العم «رنقا» قليل الحديث، إذا قابلك أكثر من الدعاء، وإذا انصرف عنك شاهدت تمتمة لسانه بالذكر، ولقد عمر الرجل إلى حوالي التسعين وأكثر، أذكر حديث والدي، رحمه الله، عنه، لقد شارك «الرنقا» في بناء محطة سكة الحديد ومسجدها المتميز في بنائه من الحجر بباب «العنبرية».

صديقي «الزين» روى منامه على مسمع من الشيخ «الرنقا» صمت الرجل الحكيم وقال: خيراً إن شاء الله. وتابع طريقه إلي برحة «باب السلام» وسلكت وصديقي الزين الطريق الذي ينتظم على جانبيه الدار والمكتبة وقادتنا خطواتنا إلى «الرباط» الذي يسكنه صديقنا.

كنا أربعة جمعنا الحب في الله ورسوله ﷺ الزين، وابن جبل، وابن عيسى، والعبد الفقير إلى مولاه، الرباط وموقعه وغرفه ليست غريبة علينا،

ولكن ضحى ذلك اليوم كان غريباً جداً، النساء الطاعنات في السن يجهشن بالبكاء، الأطفال يتجمعون حول مدخل «الرباط»، صاحب الحانوت أغلق حانوته وانتحى جانباً، ما الأمر يا عم «يحيى»؟ لقد خرج ابن عيسى على قدميه هذا الصباح. . كنت أسمع الدعاء الذي يتلوه عند خروجه من الدار، ثم لم يمض وقت قصير حتى عاد من العمل سقيماً، دخل على أهله وأبنائه وتمدد، رفع بصره إلى السماء، وابتسم ابتسامة الرضا. . ومع تلك الابتسامة كان صعود السر الإلهي إلى مولاه، عندما أتت زوجته بكوب الماء له ليشربه وجدته يرفع سبابته وينطلق بالشهادتين.

كان ابن عيسى يحدثنا عن القوم الذين سبقوه إلى الدار الأخرى، يراهم في منامه ويحن للقائهم، لم يمرض، لم يزعج أحداً، لم يثر موته ضجة، ولكنه ذهب كمثل الطيف الذي رآه في منامه، نظرت إلى «الزين» أنت يا صديقي دوماً تحمل بشارة الأعراس، ولكنها أعراس من نوع آخر.

قال لي الصديق السيد الفاضل عباس بن علوي المالكي: يدخل الإنسان في هذه الدنيا بأوراق ويخرج منه بأوراق، ولكن الأهم من ذلك تلك الأوراق التي دوّنت عليه قولاً وسمعاً وعملاً»، ووجدت حكمة في قول أبي علوي، وتذكرت عند تربة سيدة الوادي، أحباباً ضمهم الثرى في التربتين المباركتين، وكان جليسنا «ابن عيسى» من بين القوم الذين تذكرت، فلم أجد شيئاً أقدمه له سوى الدعاء، إننا في دار نعمل، ولا نعلم، وهم في دار يعلمون ولا يعملون، فاللّٰهم ارحم ضعفنا، وآمن خوفنا وبارك في أعمارنا، واجعل خير أيامنا يوم نلقاك، وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي الحبيب العالي القدر، العظيم الجاه وعلى آله وصحبه وسلم.

هاتف الربوة

(١)

عندما ودعته في طيبة وفي أيام العيد المبارك كنت أجهش بالبكاء، لم أطق أن أراه على تلك الحالة التي كان عليها، كان صوته يملأ المكان ولكنه اليوم لا يقوى على تحريك شفتيه، كان دائم الحضور في المجلس، ولكنه اليوم حاضر بجسده وغائب عنا بروحه، وأمضيت أياماً لا تفارق مخيلتي صورته، هناك في الحصوة كان يجلس متدثراً بردائه، لا يفارق «الدرس»، يقول لي: الحياة من دون علم لا تساوي شيئاً، وكان يحفظ من الأحاديث ما يجعلني أتساءل كيف تسنى لهذا الرجل الذي لم تطأ قدمه عتبة مدرسة أو جامعة، كيف تسنى له أن يصبح مرجعاً لمن هم في عمره أو دون عمره في علوم شتى ومعارف متنوعة، وتذكرت مقولة أحد مشائخنا الأفاضل في مكة شرفها الله: «لو علم الناس ماذا عند صديقكم «معاذ» من علم لم يتركوه قط».

كنا يا صديقي أربعة من «الخلان» جمعهم الحب في الله ورسوله ـ ﷺ ـ وضحى يوم من أيام الربيع الأزهر ـ وقبل ثلاثين عاماً ـ بالتحديد تركنا جليسنا «ابن عيسى» ومضى إلى الدار الآخرة وظللنا نتذكره في كل يوم، لا يغيب عنا في نوم أو يقظة، وأتذكر قولك أيها الحبيب الراحل وأنت

تقول: لو عاش «محمود» لبزَّ كثيراً من أنداده، ثم تعقب مذكراً، لقد ذهب خفيفاً! وكنت تعني: إنه لم يتلوث بشيء من مظاهر هذه الحياة الفانية، أترانا تعلمنا من الدرس شيئاً؟ أتحسبنا قد حاسبنا هذه النفوس كما يجب أن تحاسب؟ أتحسبنا كنا أكثر حظوة منه ونحن نمشي في دروب الحياة؟ وما بين اتزان وتعثر، وصحة وسقم، وصفاء وكدر، وطمأنينة وقلق، ما بين ذلك كله قطعنا دروب الحياة، ومع كل يوم ينصرم وليلة تنقضي، نشعر بأن الأمس كان أكثر بساطة وأشد صفاء وأحلى عيشاً وأطيب مذاقاً، وأزهى صورة.

لم نتعلق بالأمس برغد العيش وطيب المأكل والملبس، بل تعلقت قلوبنا بذلك «الصفاء» الذي كان يغمر منا النفوس فإذا بالعين تبصر ذلك الجانب المضيء من الحياة، وتنفذ إلى أعماق الأشياء فينجلي لها من آفاق الدنيا ما يجعلها تتيقن أن «الإيمان» هو خير ما يحوزه الإنسان، وأثمن ما يملكه، إنه إكسير الحياة حقاً وما سواه ظل لا يلبث أن يزول وما غيره خيال يتبدد، ولذة لا تدوم.

يا صديقي.. يا من رحلت عن دنيانا طامعاً في رحمة الله ومثوبته، بالأمس كنت أرفع سماعة الهاتف رغبة في أن تنزه النفس مني في رياض العلم التي كنت تملك شيئاً من مفاتيحها وحباً في سماع الصوت الأخوي الذي يخفف عني شيئاً مما أجده بين جنبات هذه النفس من ضيق أو حزن، واليوم أعلم أن قضاء الله قد نفذ ولا نملك إلا الرضا بحكمه وأن الصوت الذي ألفت الأذن سماعه وتعلقت بصاحبه أيّما تعلق، ذلك الصوت قد أخذ نصيبه من هذه الحياة ومضى إلى دار أخرى لا كدر فيها ولا حزن، ولا تشوبها بغضاء ولا إحن، إنها الحياة الخالدة التي نسأل الله

لك فيها أيها العزيز الراحل نصيباً كبيراً من الحياة الخالدة التي نسأل الله لك فيها أيها العزيز الراحل نصيباً كبيراً من مثوبة الله ومغفرته ورضوانه ونسأله ـ عزّ وجلّ ـ أن يحفظ علينا نعمة الإسلام والإيمان وكفى بها من نعمة.

هتاف الربوة

(٢)

ينقل الفتى خُطاه بين العنبرية والساحة الممتدة بين (دار العلوم الشرعية) و(مقرة المدينة) والتي أضحى اسم «بقيع الغرقد» علماً عليها، من هذه الساحة تنطلق «الجنائز» إلى دار الفناء، هذه ساحة «الفناء» فيها يلعب الأطفال قبل حلول موعد انطلاق «صافرة» مراقب المدرسة صاحب الصوت المتميز بقوته وجسارته بين بقية المدرسين، وفيها مع الصباح الباكر، وعند حلول شمس الأصيل ينتشر «الباعة» ولا ينسى الفتى وقوفه عند بائع «الأقر» وهي قطع من الحلوى ذات اللون الأحمر والمذاق السكري، وعندما يسكب البائع من ذلك الإبريق الصغير ذلك الشراب الذي لا يختلف في مذاقه ولونه عن الحلوى نفسها تتسابق أيدي الأطفال لأخذ نصيبهم من هذا الطعام الذي يبدو أنه اكتسب اسمه من لغة أخرى، ولا يستبعد أن تكون اللغة الأندونيسية هي الأصل في تسمية هذا النوع من الطعام الذي اختفى في هذا الزمن.

ومن هذه الساحة ينطلق الفتى مع أنداده إلى المقبرة التي لم تكن تقفل أبوابها، الحياة هادئة إلى درجة السكون ولا يستوقفنا في الطريق إلا ذلك البناء الخشبي الذي يشبه «الكوخ» ويجلس فيه رجل يرتدي زياً عسكرياً

قديماً، ولا أعلم إن كان هذا الكوخ هو من بقايا باب الجمعة الذي يعتبر في الماضي باباً من أبواب سور المدينة؟ ربما كان الأمر كذلك فالذي أعرفه أن الناس وخصوصاً صغار السن منهم لا يستطيعون تجاوز «البقيع» إلى ما خلفه، فهناك منطقة «الصيران» طرق ضيقة توصل إلى بعض البساتين المنتشرة، ومنها بستان «الأَخَويْن».

الأنداد كانوا لا يستريحون إلى مرأى الرجل القابع في «كوخه» الخشبي ولا إلى مداعباته الغليظة، ويسأل الفتى نفسه هذا السؤال: هل يحس هذا الرجل بكراهية هؤلاء الأطفال له؟ ولكن السؤال ظل دون جواب حتى بعد أن اختفت معالم تلك الحياة البسيطة، وحلت محلها مظاهر من تلك الحياة الصاخبة التي أعطت الإنسان هذا الترف المادي وسلبت منه هدوءه وعفويته وبساطته.

لم يكن مرأى منازل الآخرة يثيرُ رعْباً في نفس الفتى، ولم يكن الوقوف على حافة القبر والناس يودعون أغلى وأعز أحبابهم الثرى, لم يكن ذلك الوقوف مما يخشاه الفتى أو يخافه، ولكن السؤال كان يلح عليه كثيراً هو: لماذا يمسك الناس بحفنة من التراب ثم يرمون بها داخل هذه «الحفرة» التي يُلحد فيها الإنسان؟

ويجيبه صدى منبعث من أعماق ذلك السكون وهتاف تردده تلك اللبنات التي تُقفل بها فتحة هذا «المنزل» الذي لا يملك الإنسان حقيقة من مفاتيح الدنيا سوى «مفاتيحه» سواء طال به المقام أو قصر! فرح في دنياه أم ترح! اغتنى في أيامه أم افتقر! حاز متاعاً أم رضي بالقليل، وقنع بالحطام واكتفى بكسرة خبز وشربة ماء يجيبه الصدى: هذا عجز الإنسان أمام حقائق الكون الأزلية والمطلقة، هذا ضعف الإنسان أمام قضاء الله

وقدره، هذا موقعه كذرة تائهة في ملكوت السموات والأرض لا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا يقوى على رد ما يكره، أو جلب ما ينفع إلا بإرادة من خلق فسوى وقدر فهدى.

في البقيع، ترتفع مساحة من الأرض الطيبة اللدنة عما سواها، تلك هي «الربوة» تحيط بها منازل الصحابة وآل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ وزوجات المصطفى ﷺ، وكان الفتى يرى كثيراً ممن يصحبون ذويهم لدار البقاء، يشيرون إلى تلك الربوة وشيء من الدمع ينحدر من مآقيهم، وكثير من الشوق إليها تبين عنه سرائرهم، ودفين من الوجد لمعانقتها ـ أي الربوة ـ تحسه في وجيب قلوبهم، ونبض صدورهم.

بالأمس يا صديق العمر أودعناك على مقربة من الربوة، لن أنسى حديثك إليّ في «فرش الحجر» وأنت تقول بصوت خافت: «أنا يا أخي مُبشّرٌ بحسْنِ الخاتمة»، كنت في الدنيا تسير والناس يسيرون خلفك ليس لمال تملكه أو دنيا تحوزها، ولكن لذلك الصفاء الذي يتبطن أعماق نفسك ولتلك البهجة التي تبثها على من حولك من الإخوان والخلان، بهجة يحسها الآخرون في صدق حديثك ومتعته وطرافته، ويوم ودعك الناس، وصلّوا عليك بالقرب من أشرف بقعة وأكرم مقام، تزاحم الناس ليلقوا عليك النظرة الأخيرة ويأخذوا حفنة من التراب ممزوجة بالدمع، ومعجونة بالشوق ثم يرمون بها كريحانة من رياض بساتين المدينة، كوردة يفوح شذاها وينتشر عطرها، كنسمة ندية من نسمات صبح أغر، كنداء الفجر من «باب السلام» كهتاف الوجدان من «باب الرحمة» كطيف زاهٍ يقترب من «القباب» ثم يستقر في الحجرات، يا صديقي الذي ودعني «بالدمع» بعد أن كان يختم حديثه معي بصوت ملؤه الحياة والحب والصفاء، لقد استقررت

أخيراً حيث كانت منك النفس تتشوف، والقلب بين الضلوع يتشوق والنفس في مستودعها تطمئن وتسكن، وتركتني بعدك أذرف الدمع سخياً بين ليلي ونهاري، عارفاً عما كانت تهفو إليه متطلعاً ليوم تحتضنني فيه الربوة كما احتضنتك بالأمس القريب، فإنني لأحس بهذا الحنين المتنامي بعد أن أصبح طعم الحياة في فمي مراً، وكثيراً ما ولدت القسوة مرارة، وربما جنت الجفوة من حيث لا ندري، على حب للحياة ولد بالأماني غضاً طرياً.

فاصلة:

من شعر الشاعر الإنجليزي «وليام شكسبير»:

ربما جئت خاطراً في فؤادي   فإذا جئت بدل العسر يسرا
فأغني كالطير طارت صباحاً   نحو باب السماء تسبح شكرا

أشواق الطريق
(١)

جئتك يا سيدي بعد زمن كنت فيه عنك قصياً، ووقفت على بابك أحمل على كتفي هموم دهر تلاشت في مداه أمانٍ كنت أخالها بين يدي، جئت أطرق باباً يلتمس الناس نداه بكرة وعشياً.

أنا واحد يا سيدي ممن طوحت بهم الأيام، وضللتهم الأوهام، وتشعبت بهم دروب الحياة، فهل من ظل أتفيأ. ومن شعاع عينيّ تتبعه، من ضياء يسلك بي طريقاً طالما الأيام أوصدته؟ ومن نظرة تُنيل هذه النفس شيئاً من أمانيها وتقضي عنها وحشتها وتملؤها حباً ويقيناً.

لن ينيلنا يا سيدي ـ سواك ـ تلك اللذة التي أنفقنا العمر بحثاً عنها، وكلما ظننا أننا أمسكنا بها فرّت من بين يدينا، ولن يمنحنا يا مولاي ـ سواك ـ ذلك النعيم الذي وهبته لأولئك الذين وهبوا أنفسهم لك، يقضون ليلهم ذاكرين ويمسكون عن اللغو المشين، ملأت قلوبهم بحبك وأسقيتهم من بحور معرفتك وفضلك، فتيقنوا من حقيقة هذا الوجود الزائل وتطلعت منهم النفوس إلى ما وراءه، إلى اللذة التي لا تفنى والنعيم الذي لا ينتهي، وتَعشّقوا ذلك الجمال الأبدي الكامن في عوامل الطهر والصفاء، والمتخفي خلف هذا الستار الكثيف من الأماني الزائلة والرغبات

المتلاشية، يا من أكرمت أحباءك باليقين الصادق فعاشوا في هذه الدنيا عابري سبيل، يتحرقون شوقاً إلى لقائك ويسيرون سراعاً إلى مرضاتك، يقطعون المسافات بقلوب تجردت من هموم طالما شقيت بها قلوبنا، واستأثرت بها أحاسيسنا وعشنا أسرى لها وبين يديها، يا من أسعدت أقوامك بأوقات الصفاء فناجوك بألسنة لا تعرف الكذب، وقلوب لم يتوطنها غش أو خداع، فمناجاة الألسن ذكر وتبتل، ومناجاة القلوب خشوع وتكفر، ومناجاة الجوارح تمعن وتدبر.

إنهم يناجونك ونحن نيام على فراش وثير، نتقلب ويدعونك والنفوس منا تلهو، والجوارح منا تعبث، فأوقاتهم تنقضي في مرضاتك وأعمارنا تتصرّم في هذا اللهاث الأبدي خلف هذه الألوان الزاهية كألوان الطيف الناعمة في ملمسها والخشنة الفارغة في جوهرها.

لقد فازوا يا سيدي برضاك فرضي الناس عنهم، وطلبوا نداك وحدك فطلبهم الناس ولم يجدوهم، وعرفوك وأنكروا ما سواك فعرفتهم السماء قبل الأرض، وتعلقت منهم القلوب بالقدرة التي تقبل على كل قلب مخلص يتوجه إليها لأنهم عرفوا أن نفوس البشر تمل ممن يمعن في التعلق بها، وتهرب ممن يحاول التقرب منها.. لقد عرفوا هذا يا سيدي.. لأنهم حقيقة عرفوك، وتكشفت لهم طبائع النفوس التي فطرت على النقصان لأنهم توجهوا بالآمال نحوك فتيقنوا أنك ـ وحدك ـ الذي تفردت بالكمال في كل شيء، ووحدك الذي تقر بفردانيتك وصمدانيتك كل الموجودات في هذا الكون.. تقر بذلك حقيقة وغيباً، ظاهراً وباطناً، سراً وجهراً.. ومن هنا كان الإيمان هو الفطرة والجحود هو الشذوذ، فإن جحدت ألسنتهم فالفطرة تكذبهم وإن طغوا فالجوارح تنعي عليهم ضلالهم وتخبطهم

لأن الفطرة لا تتنكر لخالقها والجوارح لا تنكر فضل بارئها، فاللَّهم اجعلنا من الشاكرين واسلك بنا سبل الآمنين.. ارحم ضعفنا.. واهدِ حائرنا وتقبل توبتنا وأصلح ما فسد من أمورنا إنك على كل شيء قدير.

آخر الكلام:

قل للمدينة إن حللت بأرضها ... أو زرتها بشراك بالمختار
بشراك بالروح الأمين وبالهدى ... والوحي في الآصال والأبكار
كم كنت فيها ناعماً مستبشراً ... بالمصطفى وبأهلها الأخيار
أمسي وأصبح لا أرى في حيهم ... إلا حبيباً أو كريم جوار
نور الجوار يلوح في قسماتهم ... فتضيء منه جوانب الأسحار
ملكوا علي بعطفهم وبلطفهم ... رقى فصرت لهم رهين إساري
ورأيت أشياخ المدينة سادة ... يبنون في العليا أجل منار
ورأيت شبان المدينة فتية ... يتسابقون إلى هدى وفخار
إني رسمت لهم جزاء جميلهم ... رسم الوداد بريشة الأشعار
لو أنني خيرت كل مدينة ... ما اخترت غير مدينة المختار

أشواق الطريق

(٢)

لئن تنكبت يا سيدي يوماً الطريق فلم يكن تعمداً مني ولكنه جموح النفس، وطغيان الهوى، وفقدان الدليل.

لقد ركبت، يا سيدي، البحر فلم أجد لي فيه موضعاً وتطلعت إلى الأفق فارتد إليّ بصري كليلاً، واقتحمت صحراء هذا الوجود وظللت ألهث وحيداً بين جبالها ووديانها تمزقت مني الأقدام، وظمئ فؤاد طالما سقته سحب الرحمات.. ولم أكن أعلم من قبل كيف يظمأ فؤاد كان من قبل ريانا.. كيف تجدب أعماق النفس بعد أزمان الخصب والنماء.. كيف يفقد هذا الجسد قدرته على التواصل مع عالم الروح.. كيف يكل البصر بعد طول مضاء.. كيف تطل نوازع الهوى فتطفئ ذلك الضياء الذي كان ينير للنفس دروب الحياة المعتمة.

يا سيدي، كنتُ في رحلتي حافي القدمين حاسر الرأس.. أمسك بكسرة خبز بين يدي وأتعلق بذلك السراب الذي يتبدى لي في وضح النهار في آفاق تلك الصحراء الشاسعة، أتعلق به، وأقول غداً ترعد السماء..

غداً ينسكب ماء الحياة..

غداً أقف تحت ميزاب الرحمة وأفتح فمي لتلك القطرات الندية القريبة العهد بعوالم الطهر والجلال.

غداً تتسلل تلك القطرات إلى قلب أظلم فتنيره.. إلى نفس تصحرت فتنمو فيها أزهار الحياة من جديد..

غداً تعود إليَّ سبحات الروح أو أعود إليها..

غداً تغمر كياني تلك الومضات التي أحسها عندما كنت أقف بين يديك مناجياً ولك طالباً.

غداً يتصل ما انقطع، ويعود من غاب أو اختفى ويطلع الفجر، ويشرق ضياء الحياة، غداً استنشق ذلك العطر الذي يفوح من الأرض التي كانت منها قبضة النور وإليها عادت ومنها تنبعث..

يلومونني، يا سيدي، لأنني أحب الأرض وأعشق ذلك التراب الزكي.. يلومونني لأنهم لم يعرفوا الأرض كما عرفت، ولم يصب نفوسهم شيء من عشق ذلك التراب.

التُرب.. شَهِدَ تنزّلَ كلمة الحق من السماء إلى الأرض..

التُرب.. تشرف بخطوات سيد الأنام وصفوة الخلق ﷺ.

التُرب.. امتزجت به نسمات طاهرة، وسالت فوق أديمه دماء زكية.. وتوسدته أجساد أقوام عرفوا الله حق معرفته، وناجوه بألسنة لا تعرف الغش والخداع..

ذكروه والناس في غفلة من شؤون دنياهم.. وتعلقوا به وتركوا ما سواه من الخلق.. وعندما تعلقوا به لم يخذلهم ووجدوه في كل لحظة طلبوه فيها.

يا سيدي، متى أكف عن هذا اللهاث، وأحظى بفيض الحب الذي كان يتدفق على هذه النفس ويتوالى عليها في لحظات الصفاء.

يا سيدي.. متى يرتفع عن كاهلي ذلك الحمل الثقيل الذي أحس به كلما سرت في دروب هذه الحياة وتشعبت بي مسالكها.. أحس به عندما أغمض عيني في دجى الليل.. ولا أكاد أتخلص منه عندما تبصر غلس الصبح وضياء الفجر.

يا سيدي.. متى أبصر نور المعرفة يضيء جوانب نفسي.. يفترش الساحات المظلمة منها كما يضيء نور الشمس هذا الوجود ويبعث الحياة فيها فتسبح الكائنات بحمد بارئها وتشكره على نعمه وآلائه.

أشواق الطريق
(٣)

أين يا صديقي يوم كنت فيه ملء السمع والبصر؟.. تعرفك ساحات المسجد ولا تنكرك سواريه وصفته.. كان صوتك يا صديقي يرتفع في آفاقه.. وينجذب إليه القاصي والداني.

تقول الشعر في المنتدى فلا يلبث القوم إلا أن يعجبوا من حال هذا الفتى الذي يقتطع الكلم من وجدانه ويصوغه عذباً من ذوب حشاشته. يا صديقي ـ والحال في دنيانا عجب ـ أراك اليوم والكلمة تنحبس على شفتيك ثم يمنعك مانع من رفع ذلك الصوت بها، وينحبس مع الكلمة دمع غزير تسعى لإخفائه عن أعين الناظرين.

لقد أبكتك الحياة صغيراً، وأحزنتك شاباً وأنت لم تبلغ من أمرها شيئاً بعد، وداهمتك الأحزان لا تعرف لها سبباً ولا تجد لها تفسيراً. ولكنها كانت قادرة على أن تقصيك عن موضع كنت تهفو للقاء الأحباب فيه، وضربت بينك وبين رفاقك حجاباً ليس بمقدورك أن ترفعه بعد أن أسدلته يد الأقدار.. وأقامتك من خلفه تعيش ما تبقى لك من أيام لا يؤنسك فيها سوى صدى الذكريات التي عايشتها نفسك يوماً ثم ولّت هاربة من بين يديك وانسلّت كما ينسلّ الطيف الجميل من بين عيني النائم.. وتسأل

نفسك: أتراني عشت ذلك اليوم وازدهرت فيه نفسي بمباهج الحياة؟ أترى تنقلت خطواتي بين الربى والمعاهد؟ أتراني سمعت صوت الحادي منشداً تردد صدى كلماته جمّاوات العقيق وسفاح أحد. نسيم الصبا يهدي إليّ نسيماً من بلدة الحبيب مقيم؟ أتراني شهدت الفجر حلواً ندياً في روضة المختار وشيخ وقور يرتل لآي من الذكر الحكيم.

أتراني سمعت الأذان تصدح به الأصوات الخاشعة من فوق منائر المسجد، وشهدت الركب يحط رحاله في ساحة الفضل والجود وتمرغ الدابة العجماء خديها على الأعتاب؟ وكنت تحدث نفسك قائلاً: عجباً كيف لا يطلب الإنسان شفاعة هذا الحبيب ما دام الجماد يحن إله والحيوان يتطلع إلى رؤيته بل هو يمرغ جبهته في موضع وطأته الأقدام الشريفة ولامسته الأنامل المباركة؟

يا صديق العمر، كيف ألقاك بعد أن ساقتك الأقدار إلى هذه «العزلة» التي لم تكن يوماً هي مطلبك الذي تسعى لنيله؟ ولكني أعلم أنها ـ بلا شك ـ خير من خلطة أقوام هم إلى الجهل أقرب، وبسبل الكراهية والحقد أعلم.

تقول لي والحزن يملأ منك نفساً كانت تفيض بالبشر وتمتلئ بحب الآخرين، تقول لي والحيرة لا تخفيها ملامح وجهك الذي جلل الشيب جوانبه وأبرزك في صورة الشيخ الذي تكبد من صنوف الحزن والأسى ما تكبد وركب أمواج الحياة التي لم ترحم له قلباً ولم تترك له ملجأً، تقول لي: يرن صوت الهاتف ولكن يديّ تمنعاني من أن أجيب، أقول لها: هذا حبيب عن الحال يسأل. أقول لها: هذا صديق دفعه الشوق فأتى يسعى أقول لها أيتها النفس كفاك وحشة فميلي للعزلة. أقول لها: دعيني فهذ

الوثاق أدمى مني القلب والمعصم!

أقول لها: دعيني فالصبح عندي مثل الليل حجابه لا يكشف، أقول لها: أطلقيني فأنا والحزن غدونا توأمين كلانا ينظر إلى الآخر. وهو يقول: إلى أين يا مولاي المفر والمهرب.؟!

دعـــــاء:

اللَّهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أوفِ لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطني فيه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت عليّ فاستعنت بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أذنبته في ضياء النهار أو سواد الليل في ملأ أو خلاء أو سر أو علانية.

أشواق الطريق
(٤)

تحين لحظة السعادة وليلة السرور، ويولد بين شعاب مكة وبطاحها الهادي الأمين، يسعد به الجد الذي أجرى الله على لسانه تلك الكلمة البسيطة في حروفها، العظيمة في معناها ومغزاها: «أنا رب إبلي وللبيت رب يحميه».

تلك كلمة تنبئ عن إيمان فطري استقر في نفس عبد المطلب بن هاشم، وترمز إلى ذلك القول الذي أثر عن المصطفى ﷺ «أنا خيار من خيار، لم يلتق أبواي على سفاح قط»، وفي تلك الليلة أراد الله لهذا الكون أن يعود إليه النور بعد أن تشعبت بالناس طرق الغي واستهوتهم نزعات الشر والضلال، في تلك الليلة اهتزت صروح الكفر.. ونعى البطل نفسه في كل مكان، في تلك الليلة تلعثمت ألسن كانت تقول الشعر فصيحاً وضل الكلام طريقه إلى منتديات القول وأسواق الخطابة، في تلك الليلة تجمعت في سماء كلمات الوحي الإلهي التي تريد أن تمطر بعد السنين العجاف، الأرض أجدبت، والنفوس ألمت، ولم يعد يروي أسنة رماح القوم إلا الدماء.

الكعبة تعيش أشواقها لذلك الذي سوف يطهر ساحتها من رموز

الكفر.. وغار «حراء» يتهيأ لتلقي الكلمة من عالم الغيب.. والحَنفاء يقضون ليلهم يقرأون الطروس التي تنبئ بظهور نبي آخر الزمان. لم تر أمه الآمنة متاعب في حمله، ولا حسّها ضيم ساعة وضعه.. وكيف يعتريها ألم أو يصيبها نصب وقد حملت باليتيم الذي ملأ الله قلبه بالرحمة على كل شيء في هذا الوجود.. سوف يعيد به للنفوس طهرها، وللعقول رشدها، وللحياة نظامها.

لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون سوى الشعر ولا يجيدون سوى فن القول ويوم نزلت الرسالة على سيد ولد عدنان، أصبح الشعر نقطة صغيرة في خارطة علوم الحضارة التي فجر ينابيعها هذا الدين الخاتم.. ولم تصبح المعلقات هي كل ما تفاخر به هذه الأمة نظراءها الآخرين، وكان العرب في تلك العصور المظلمة يتلوّن بعضهم، فجاء الإسلام ليضع حداً للسفه الذي عاشته الأمة قروناً، ماذا يتذكر العرب من جاهليتهم؟ حرب البسوس، أم يوم بعاث، كانوا يوجهون الرماح إلى أنفسهم.. كانوا يسلبون أموالهم ويسفكون دماءهم.. ويغيرون ليلاً ونهاراً على بعضهم، ويوم أكرمهم الله بالإسلام أصبح لهم بدر، والقادسية، واليرموك، والزلاقة، وكانت البطولة لا تتعدى مضارب أنديتهم.. ثم خرجوا للعالم بأولئك الأبطال الفاتحين.. الرحماء.. خالد بن الوليد.. وأسامة بن زيد.. ومحمد بن القاسم، وطارق بن زياد، وعبد الرحمن الغافقي.. وصلاح الدين الأيوبي، وكان همهم في الجاهلية جمع المال وحيازة الأرض التي تنبت الكلأ والعشب.. ويوم أكرمهم الله بالرسالة أصبح همهم إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

لقد حرر صحابة النبي ﷺ ذلك الإِنسان الذي كان يرقب طلوع الفجر وانبثاقة النور.. حرروه فأخرجوه إلى ذلك العالم الفسيح من الحرية والعدالة والتسامح.. وأطلقوا تلك الطاقات الكامنة فيه فشارك في صنع الحضارة وبناء العلم وتشييد الكيان.

واليوم في هذه المناسبة الإيمانية، علينا نحن المسلمين أن نتعظ فلا نجعل الجاهلية المنقرضة تفجر فينا أدواءها، وتصيبنا بعللها.. وتلاحقنا بنعراتها.. إن الإسلام أخرجنا من تلك الدائرة الضيقة ودفع بنا إلى تلك الدائرة المتسعة.. سعة في الأفق.. وسعة في الإخاء.. فلنبق حيث أراد الله لنا ففي ذلك الخير كل الخير والأمان كل الأمان.

أشواق الطريق

(٥)

كان الكون غارقاً في ليل داجٍ من الشك والغواية والضلال، وكان الإنسان ينحني أمام مظاهر الطبيعة ظَناً منه أنها تتحكم في مصيره وتؤثر في حركته وسكونه، كان يخيفه صوت الرعد وتدهشه أشعة الشمس، ويأخذ بمجامع قلبه ضياء البدر، وكان يقف حائراً أمام النهاية المحتومة له على وجه هذه الأرض، وكان يجنح في سلوكه لأنه لا يعرف لوجوده غاية، لذا فهو يعب من شهوات الدنيا عبًّا لا يفرق فيه بين حلال وحرام، وحسن وسيئ، وجميل وقبيح. وكان الإنسان العربي لا يختلف عن أي إنسان آخر في تصوراته عن الكون والحياة، باستثناء فئة قليلة عرفت باسم الحنفاء، وكان هذا الإنسان يتفرد عن أمم الأرض الأخرى بصفاء السريرة ونقاء الضمير، ولهذا شواهد وعليه تقوم أدلة، فلقد بنت قريش في جاهليتها الكعبة، من المال الحلال، وعندما لم تجد كفايتها من هذا المال لم تكمل بناء البيت على قواعد سيدنا إبراهيم عليه السلام، واكتفت ببناء حائط الحجر حجر سيدنا إسماعيل عليه السلام، وهو جزء من البيت المعظم، وأقر النبي ﷺ بعد البعثة النبوية قريش على فعلها كما حدثت بذلك أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، واختلف القرشيون عند بنائهم

للبيت على من تكون له الحظوة بوضع الحجر الأسود في موضعه، ولكن الله هداهم إلى حكمة بالغة عظيمة الدلالة، فأول داخل من باب السلام سوف يتركون له الأمر، وتركزت الأبصار على ذلك المدخل، ولم يطل الانتظار، فجأة يدخل الأمين بطلعته البهية، بالنور المشرق من محياه الذي شاهدته المرأة الخثعمية في وجه والده عبد الله بن عبد المطلب وحملته السيدة المصونة آمنة بنت وهب في أحشائها والأثر بالغ الدلالة لكل متردد وحائر ومتقول.. قوله ﷺ «أنا خيار من خيار لم يلتق أبواي على سفاح قط».. والأبوة هنا ما تقارب منها وما تباعد، لا يشك في ذلك مؤمن، ولا يختلف في ثبوتيته مسلم، نعم.. لقد دخل «الأمين» ـ كما كان قومه يسمونه في الجاهلية ـ فتوجهوا إليه، وألهمه رب البيت الحل.. بسط رداءه في الأرض المباركة.. وطلب منهم أن يضعوا الحجر الأسود، وأخذ فرداً من كل قبيلة ليشارك في حمل هذا الشاهد السماوي في الأرض، ثم التقطه بيده المباركة ووضعه في مكانه الذي هو ما زال عليه حتى الآن.

ولم تكن قريش تعلم يومها أن من جمع الله به شمل الأمة في اختلافها عند بناء البيت، سوف يجمع به قلوباً متنافرة ويقضي به على ثارات دفينة وأحقاد موغلة في الزمن، ما كانت قريش تعلم أن الداخل من باب السلام هو الذي سوف يرفع راية الأمة التي انتكست حقباً طويلة لأنها كانت تتقاتل على قطعة أرض، ومنبت عشب، ومرعى دابة.. وهو الذي سوف يعلمهم أن النسب هو العمل، وأن المقياس هو التقوى والفيصل، هو العطاء الصادق والسلوك النزيه يتعبد الأمين في غار «حراء» يطل من ذلك المرتفع على وديان مكة وشعابها، يأسى لحال قومه ويرفع بصره إلى السماء، يقلبه يمنة ويسرة ثم يرتد منه البصر إلى الأرض، ولكن قلبه

الشريف كان معلقاً بالعالم العلوي، وروحه كانت ترفرف في عوالم الملكوت، تأتي لحظة السعادة ويبزغ فجر جديد على الإنسانية تنزاح معه تراكمات الغي والضلال، وتتبدد معه كل الشكوك التي كانت تتشابك خيوطها في داخل النفس الإنسانية، ينزل الملك جبريل عليه السلام بالوحي يهزه مخاطباً ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ. ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ. ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ. عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ ـ ٥).. ينفتح لب السيد المصطفى لكلمات الوحي.. لقد وعى لغة الوحي، وخطاب السماء، أسرع إلى السيدة المصونة خديجة الكبرى رضي الله عنها خائفاً وجلاً، دثرته، زملته، ثم خاطبته بلغة الحب والحنان والإيمان «لن يخزيك الله أبداً يا ابن العم».

وعندما أفاق من تلك اللحظة التي حملت إليه الخطاب الإلهي، أخذته إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» الذي طأطأ رأسه إلى الأرض حين سمع منه ما سمع.. «إنه الناموس الذي أتى موسى وعيسى والرسل من قبلك ـ عليهم السلام.. ليتني فيها جذع عندما يخرجك قومك»، ويأتي السؤال بغرابة على لسان الحبيب ﷺ: أوهم مخرجي منها؟ وتأتيه الإجابة باقتضاب: نعم.

نعم.. لقد أخرجوه وهم جاهلون، ثم استقبلوه وهم مؤمنون فخاطبهم يوم الفتح قائلاً: ما تظنون أني فاعل بكم؟! يجيبونه بلسان الحب... أخ كريم... وابن أخ كريم.. فيهتف فيهم وقلبه ممتلئ رحمة وعطفاً: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ما أروعه من مشهد.. وما أعظمه من حدث، وما أجدرنا في شهر الربيع الأنور أن نستلهم تلك المثل العليا التي جسدها صلوات الله عليه

وسلامه في سلوكه رحمةً ورفقاً وليناً وحلماً، كان يناقش الناس بصدر رحب ونفس مطمئنة وكان إذا رأى من غريب خطأ قال لأصحابه رضي الله عنهم موجهاً علّموا أخاكم فقد أخطأ، أو كما قال:

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديداً في الحق، وكان يأتي البعض فيغلظ القول أمام الحبيب الأعظم ﷺ أو يخاطبه بلغة تعوزها الرقة، وكان الفاروق من حبه للنبي ﷺ لا يطيق رؤية من يغلظ القول أو يسيء الأدب في حضرته الشريفة، ولكن الرسول الذي خاطبه مولاه قائلاً «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» كان يهدئ من روع الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه وأرضاه، ويستمع للقول أياً كانت لغته ويوجه صاحبه إلى الطريق الأقوم، فيعود ذلك الإنسان وما على وجه هذه الأرض أحب إليه من هذا النبي الكريم الذي وصفته آيات الكتاب العظيم بالرأفة والرحمة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، وتجسدت أخلاقه السامية والرفيعة الشأن في القول الإلهي الصادق ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

يا شباب الإسلام، أين أنتم من أخلاق صاحب الرسالة؟ أين أنتم من تيسيره لأمته التي لا يرضى بأن يكون أحد منها في النار؟ أين أنتم من ذلك الأفق الواسع، وتلك الوداعة المحبوبة التي جذبت قلوب الخلق من كافة الأمم حوله؟ ولما نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي الإلهي في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) قال رسول الله ﷺ لجبريل: ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع فقال: «إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو

عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك» ذكره الإمام البغوي.

يا أمة الإِسلام، لقد أتى المصطفى ﷺ بالدين الخاتم الذي ارتضاه لعباده وأكرم به هذه الأمة لحمل رسالته العظيمة، ويوم حملها رجال هذه الأمة في حياته ﷺ، وبعد مماته سادوا في هذا الدنيا، وانتصروا على كل عدو وحاقد، وعندما يترك البعض هذه الرسالة التي أعطت للعالم حضارته، وللوجود نقاءه وطهره، وللفرد حريته وكرامته وعندما يوجهون أنظارهم إلى نظريات بائدة، ومناهج بشرية متغيرة، ومفاهيم مادية بحتة، يوم يفعلون ذلك، فإنما يتركون الرفعة والسؤدد وراء ظهورهم، ويستقبلون حياة الذل والهوان والضعة، فاللَّهم ارزقنا حسنة، واسلك بنا مسالك النجاة التي عبر عنها ﷺ بقوله: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»، أو كما قال.

(فداك أبي وأمي يا سيد الخلق، ورحمك يا ربي).

أشواق الطريق

(٦)

أمطريني يا أماه بفيض الحب ودثريني برداء الصبر، واسكبي في النفس أناشيد الليل المجلل بصفاء الروح حيث كان القوم يسمرون ليرتلوا آية، أو يشقوا هدوء السماء المظللة بملائكة الرحمة، يشقونه بترانيمهم التي يصدحون بها ابتهالاً إلى الله، وشوقاً إليه، وخوفاً منه، وأملاً في رحمته، إنني لأسمعهم يرددون جميل القول، ويخاطبون هتاف الروح، ويستدرون الدمع غزيراً من مآقيه.

«شعـــر»:

مولاي كتبت رحمة الناس عليك فضلاً وكرمْ

فالمرجع والمآل إليك عرب وعجمْ

مالي عمل يصح للعرض عليك، بل صار عدمْ

ارحم ذلي، ووقفتي بين يديك إن زل قدمْ

الحب « يا أماه» كان صناعة القوم حيث ولدنا ونشأنا، أتذكرين «يا أماه» مجلساً كان يتصدره عزيز القوم، أتسترجعين ـ صدى صوته ـ كما استرجعه بين جلسائه فإذا غضب لم يفحش في قول، وإن هو رضي جرى

الذكر على لسانه، وإن أصيب بمكروه لم يتضجر.

أتذكر مناجاته لخالقه في دجى الليل، وأتذكر وقع أقدامه وهو يغادر الدار مع فجر كل يوم، ليعود مع نهاية النهار يحمل أقراص الخبز.. لقد كانوا يفتخرون في البلدة الطاهرة بحمل غذاء فلذات أكبادهم، يعتبرون ذلك عبادة، إنهم يكدون، وبأيديهم يعملون حتى تتشقق وتدميها مداومة الكفاح العصامي في هذه الحياة، لقد سمعتهم يقولون عن ذلك بأنه «العيش الحلال» فهم يتورعون عن أن يأكل أبناؤهم ما يدخل في باب الشبهة، ويمرون على الذهب والفضة فلا تمتد أيديهم إليها، لقد قنعوا بما كتب الله لهم فلا تتطلع أعينهم إلى ما في أيدي الناس، ولهذا حفظ لهم أسماعهم وأبصارهم ونضارة وجوههم، وجوههم التي تضيء بنور الإيمان، وهم يدلفون في سني حياتهم إلى التسعين والمائة، لقد كشفت «يا أماه» القناع عن وجهه «يوم طلع السر» إلى بارئه، لقد رأيت الدم يجري في عروق جبهته، ورأيت النور ينبثق من فم كان يتورع عن الخوض في أنساب الناس، وخصوصياتهم، وطبعت قبلة على ذلك الجبين الذي لم يكن يحنيه طوال حياته إلا لله وحده.

أتذكّر وقفته يوماً.. أمام رجل صاحب «مكانة»، لم يجلس على أي من تلك المقاعد المتناثرة أمام مكتب المسؤول الكبير الذي سأله: أين كنت البارحة «يا شيخ»؟ فيجيبه وهو يتكئ على عصاه. كنت «أجابر» قوماً من جيراننا في الحارة، وحين خرج لقيه رجل من سراة القوم في المدينة..

ـ لماذا هذا الوجه غاضب في هذا الصباح الباكر؟ يأتيه الجواب سريعاً..

ـ أتحبني يا سيد «حسن»؟

ـ نعم..

ـ إذهب إذاً إلى صهرك ليقبل استقالتي فلا أريده أن يطلبني بعد اليوم.

وذهب المسؤول وذهب صاحب الموقف إلى رحمة الله وبقيت الذكرى تعاودني بين الحين والآخر، فأحدث نفسي قائلاً: أولئك قوم لا يسكن دواخلهم إلا الخوف من الله، وتمتلئ قلوبهم بحبه وحب رسوله ﷺ سكنوا البقعة الطاهرة رغبة في الجوار، وهل هناك شيء أشرف من جوار الحبيب ﷺ، تركوا المتاع الفاني حيث كان آباؤهم وأجدادهم، ورضوا بالقليل من متاع الدنيا، ليصلوا ركعة في الروضة، ليقفوا في أدب أمام أشرف مقام في الكون، أمام أفضل بقعة في الأرض، البقعة التي حوت مسجده ومصلاه، ومنبره، وحجراته الشريفة، ليلقوا السلام على سيد ولد آدم، وشفيع الأمم يوم الميعاد، وهنيئاً لمن تأدب في بلده، وسعادة لمن تشرب قلبه حب رسول الله ﷺ وصحابته وآل بيته ـ رضوان الله عليهم أجمعين.

يا صديقي، إن النبع يفيض دوماً ولا ينضب، والنور يسطع فلن يخبو يوماً، والنفوس المحبة تصفو فلا يخالطها كدر ما عاشت دهراً، والناس، يا سيدي ويا حبيبي ويا قرة عيني، يمدحونك فلن يستطيعوا أن يبلغوا شيئاً من ذلك القول المعجز الذي مدحتك به آيات الكتاب الحكيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) وصدقت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها حين وصفت خلقه قائلة: «كان خلقه القرآن» عليك صلوات الله وسلامه.

أشواق الطريق

(٧)

في حقبة تختلط فيها الرؤى، وتتعدد فيها مناحي التفكير تمر على الأمة الإسلامية ذكرى من الذكريات التي يحسن التوقف عندها والإفادة من معطياتها الخيرة.. تلك هي الذكرى التي أكرم الله نبيه ورسوله محمداً بن عبد الله. ﷺ ـ فيها بالإسراء إلى أرض الإيمان والقداسات، ومن تلك البقعة الطاهرة عُرج به إلى عالم الغيب ـ والذين تقع نفوسهم في شيء من الشك حول هذه المعجزة الخارقة ـ عليهم أن يتذكروا أن الله سبحانه وتعالى قد فتح ـ في هذا العصر ـ للإنسان باب العلم والمعرفة فكان قادراً على التحليق في الفضاء والوصول إلى قدر معلوم من تلك المسافات الشاسعة في فضاء عالم السموات، فهل بعد ذلك ينكر قلب مؤمن قدرة خالق هذا الكون ومبدعه على تسخير القوانين التي أودعها ـ عز وجل ـ في ملكه، لتكون طوعاً للعبد الذي اصطفى، والنبي الذي اختار والرسول الذي أكرمه بأن يكون خاتماً لدائرة النبوة والرسالة، كثيراً ما ننسى أن القوانين الدقيقة التي يجري بها نظام هذا الكون.. أودعها الله في كونه ليفيد منها الإنسان الذي كلفه الله بحمل الأمانة وعمارة الأرض بعبادته والتفكير في ملكوته، والتدبير في عظمته وإن من يعمر هذا الكون ولا

يتعرف على خالقه ولا يعترف له بالعبودية فقد طمس الله على قلبه وعقله معاً العلم الذي لا ينير البصيرة، ولا يضيء معه القلب، ولا تسكن معه الجوارح.. هو علم يقود إلى المهلكة ويؤدي إلى الدمار.

هذه القوانين التي تحدثنا عنها آنفاً يتصرف فيها الخالق بحسب إرادته كما يتصرف في بقية مخلوقاته، فيكون خرق هذه القوانين ليعرف الإنسان كم هو ضعيف أمام القدرة الخالقة والمبدعة. لقد سخر الله الزمان والمكان لرسول هذه الأمة فكان الإسراء إلى الأرض التي بارك الله حولها، ثم كان المعراج إلى عالم الملكوت، وهناك أُكرم الحبيب ـ ﷺ ـ بما لم يكرم به نبي من قبل، وأُعطي من مقامات القرب التي زادته نوراً على نور، وأهلته لمقاومة تيارات البغي والضلال فوق هذه الأرض... وفي تلك الليلة المشعة بأنوار المعرفة الربانية فرض الله على نبيه (الصلاة) الركن الثاني بعد شهادة التوحيد واليقين، وفرض هذا الركن في هذه الليلة العظيمة دليل على أهمية هذا العمل التعبدي الذي يشعر معه الإنسان بعظمة خالقه ويستدل من خلاله كيف أن هذا الإنسان ضعيف أمام القدرة الربانية.. وكم هو بحاجة إلى المدد الإلهي ليكون قادراً على الاستمرار في مسيرته الحياتية القصيرة جداً بالنسبة إلى الحياة فوق هذه البسيطة، ولكن الإنسان كثيراً ما ينسى ـ بفعل الهوى ـ عجزه فيقوده غروره إلى التسلط والتكبر والعناد، ثم تأتي لحظة من لحظات الضعف البشري فيتيقن كم هو عاجز ومحدود القدرة ومشلول الإرادة.. ويبقى باب العودة إلى رحاب الله مفتوحاً أمام العبد حتى لو تنكّب عن طريق السوي، فرحمة الله أكبر من كل شيء وأعظم من كل تصور! وهي تبحث عن المتعرضين لنفحاتها الطامعين في بركاتها.. أولئك القوم الذين يقتلون بواعث الهوى والكبرياء

في نفوسهم بذكر الله وعبادته ومحبته. تمر ذكرى الإسراء والمعراج.. مرات ومرات والأرض المباركة التي أسْرِيَ منها النبي الطاهر ـ ﷺ ـ تدنسها الأيدي القذرة التي ترتكب القتل، وتقدم على إراقة الدماء. والمؤمنون يقفون صفاً بين يدي الله.. ثم يأتي من يقول لنا: «إن بني صهيون أمة متحضرة» فإذا كانت هذه حضارة، فبئس القوم الذين يعتنقونها. وحسرة وندامة على عالم يدّعي العلم والمدنية ثم يغمض عينيه عن وحشية القوم الذين يُعتبرون وصمة عار في جبين الحضارة الإنسانية المستنيرة، تلك الحضارة التي أتى بها الإسلام الذي حرم انتهاك دور العبادة وقتل الشيوخ والأطفال والنساء، وحذر من مغبة التعرض لمن انصرفوا لعبادته حتى لو كانوا على دين غير الإسلام، فانظروا أيها المبهورون من قومنا بحضارة الغرب، كيف يتسامى الإسلام عندما يسقط الآخرون وتتلوث أيديهم بالدماء البريئة والأنفس الطاهرة؟

آخر الكلام:

طافت مواكبه بكل سماء وتزينت أرجاؤها بسناء
ما ليلةُ الإسراء إلا غُرة في جبهة الإصباح والإمساء
فلقد رأى فيها من الآيات ما تسمو مداركه على الفطناء
يا ليلة الإسراء ماذا كان في مسراكِ من فيض ومن إعطاء
فالمسلمون تزينت أعيادهم بالمصطفى وبنورك الوضاء
فإذا قرنت اسم النبي بليلةٍ شعت جوانبها من اللألاءِ

شكر وتقدير

إن هذا العمل المتواضع الذي حاولت من خلاله أن أرسم صورة حقيقية للأرض المباركة التي درجت على ثراها وتنفست عبق مسجدها وروضتها ومقامها، ما كان ليخرج على هذه الصورة لولا توفيق الله بداية، ثم بجهود أخوة كرام، آثر بعضهم ألا أذكر اسمه فأسأل الله أن يجعل عمله وقاءً له من شرور الدنيا وعذاب الآخرة، أما النفر الآخر فإنني لا أستطيع مكافأته ولكن لا بد من الإشادة بما قدم، فالشكر للزميل الكريم الأستاذ الدكتور محمد خضر عريف على مراجعته للعمل في صورته النهائية، وللابن الزميل الأستاذ مروان قماش الذي جمع أصول هذا العمل الذي كان متفرقاً في مطبوعات عدة، وللأستاذ الكريم أحمد أمين مرشد الذي زودني بالصور التي ازدان بها غلاف هذا الكتاب، وللأخوين السيد سعود علي حافظ والدكتور ماجد طاهر عثمان لحرصهما على نشر هذا الكتاب حباً في الأرض المباركة.

والله ولي التوفيق..

عاصم حمدان علي

هتاف من باب السلام

لمحات من تاريخ المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

وصلَّى الله على سيد المرسلين النبي الأمي الهادي الأمين

حينما أفضل الزميل الدكتور عاصم حمدان ورغب إلى أن أكتب مقدمة لكتابه (هتاف من باب السلام) شعرت بشيء من الحرج في أن أقدم لعمل وضع بذكاء كبير ليواجه جدلاً عالمياً حول القيم والأخلاق وسلوك الإنسان فيما يسمى بالعالم القرية أو إن شئت القرية العالمية أو باختصار شديد (العولمة).

قراءة بين سطور الكتاب:

يستنفر العالم المسيحي قواه ويستعد لولوج قرن ميلادي جديد وهو ختام ألفي عام على ميلاد سيدنا المسيح، نبي الله عيسى عليه السلام. وهي مناسبة ذات أهمية ليس للعالم المسيحي بل للعالم أجمع حيث يحتفل الإنسان بما وصل إليه من علم خلال القرن الميلادي الأخير. ولا شك أن ما أحرزه في المجالين العلمي والتقني له تأثير كبير على القيم والأخلاق التي عرفها الإنسان من الأديان السماوية وفي الوقت نفسه تحكم سلوكه ودوافعه.

هذا التقدم الكبير علمياً وتقنياً أدى إلى أن تصبح الكرة الأرضية قرية

واحدة، يسعى فريق واحد للسيطرة على هذا العالم القرية فارضاً قيمه وأخلاقه، ويحاول أن يجعلها قرية استهلاكية تعمل على زيادة رفاهية الفريق المسيطر.

الكاتب الدكتور عاصم حمدان يأخذ بيد القارىء إلى القرن الميلادي القادم واضعاً في يده سلاحاً هاماً يعينه على (مصادمة) التأثير القادم، وإعداده ليستوعب ذلك التأثير، يأخذ منه الذي يفيده، ويضع للقارىء (مرجعية) هامة يستشعر بوساطتها السمين ويترك الغث.

الكاتب يجعلها رسالة تصدر من أرض النبوة تُذَكِّرُ بما جاء به المصطفى عليه السلام من أخلاق وقيم وسلوك، وأوجزها عليها السلام في العبارة البليغة (إنما بعثت لأتمم مكارم الخلاق).

شخصيات الدكتور عاصم حمدان:

بأسلوب رشيق يقدم الكاتب عدداً من الشخصيات يستعرضها واحداً إثر الآخر. لأول وهلة يبدو الأمر وكأنه لا رابط بين الشخصيات، وقد يخيل للقارىء أحياناً أنها شخصيات متنافرة ولكن في حقيقة الأمر فإن القراءة المتأنية تشير إلى غير ذلك.

شخصيات الكاتب ليست شخصيات وهمية من نسيج الخيال يؤلف حولها قصصاً، يجعل واحداً بطلاً فارساً مغواراً ويجعل الآخر غرًّا أحمق.

وشخصياته ليست رمزاً تعبر عن دخيلة نفس الكاتب وما يريد هو أن يكون في الحياة عالماً فذاً، أو ضابطاً مغواراً، أو غنياً مترفاً.

وشخصياته ليست منتقاة من شريحة واحدة في المجتمع قد تعكس نظرة ضيقة وفي اتجاه واحد، سواء كانت تمثل قمة المجتمع أو قاعه.

شخصياته من المجتمع ـ مجتمع المدينة المنورة ـ بكاملها ومن جميع شرائحه واتجاهاته. إنهم أناس عايشهم الكاتب واختلط بهم وعرفهم وهو يقدمهم بمعرفته لهم معرفة شخصية. وهي شخصيات تمثلت الخلق الإسلامي القويم الذي يؤدي طبيعة نقية صافية.

خذ مثلاً: استعراضه لشخصية (الخستة) ذلك الحلاق البسيط والذي كان يؤدي، أيضاً، عملاً طبياً أحياناً إلى جانب عمله الأصلي وهو الحلاقة. وكان الخسته ـ رحمه الله ـ من أشهر الذين يجرون عملية (الطهارة) للأولاد. وفي تلك الأيام ـ آخر الأجيال التي مارستها هو جيلنا ـ كانت عملية الطهارة تجرى للأولاد في سن متأخرة والطفل عمره سبع أو ثماني سنوات، وكانت (العملية) بدون بنج، ولذلك فإن جميع الذين عاشوا تلك الأيام يذكرون ذلك ولا ينسون إطلاقاً.

«الخستة» رجل بسيط في حياته، بسيط في عمله ولكنه كان غنياً بأخلاقه وشهامته وانضباطه السلوكي فأحبه الجميع.

وإذا انتقلنا بين دفتي الكتاب نجد الكاتب يعرض صورة مشرقة جليلة هو فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف لما يقرب من أربعين عاماً. وقد كانت وفاة الشيخ ـ رحمه الله ـ خسارة كبيرة لأهل طيبة لما عرفوا فيه من شهامة وخلق رفيع وانضباط يثير الإعجاب فلم يعرف عنه أنه تقاعس عن فرض من الفروض الخمسة... وَقَّرَ الكبير وعطف على الصغير فأحبه الجميع.

بمثل هذه الصور التي تتماثل في تعبيراتها الخلقية كما تعلَّمَها من دينها الحنيف، يهتف الكتاب من باب السلام إلى العالم: أن هاكم ما إن تَمَسَّكتم به فلن تضلوا أبداً.

الكاتب الدكتور عاصم حمدان ينقلنا من شخصية إلى أخرى منها العالم ومنها التاجر ومنها المثقّف ومنها الأمي، وهو، أي الكاتب يبرهن أن الجميع وكأنهم نسيج واحد نسجه خيط واحد. هذا الخيط الواحد غزل بتعاليم النبي المصطفى الهادي الأمين الذي لا ينطق عن الهوى. وهذه نتيجة طبيعية لأن هذا النسيج الواحد يقرأ كتاباً واحداً يرتله يومياً، وفي الوقت نفسه يؤدي شعائر واحدة الكل يجتمع عليها. ولاَ غروَ أن يصبح الكل رجل واحد يدين بدين واحد ويتحلى بما غرسه المصطفى عليه السلام.

الكاتب وهو يعرض هذه الحقيقة التي عليها مجتمع المدينة المنورة، ينقل إلى العالم صورة حية عن النمط السلوكي المبني على تعاليم الإسلام. هذا السلوك كما كان في الماضي يجب أن يكون في المستقبل، وهو المرجعية للمسلم، وهو الذي ينبذ أي نمط سلوكي أجنبي غير حميد.

بهذا التمثيل الجميل للمجتمع فإن شخصيات الكاتب تبرهن للقارىء أن المجتمع المسلم الصحيح لا يخشى العولمة، ولا يخشى الثقافات الأجنبية مهما كانت.

لأنها مسلحة بالإيمان العميق... الإيمان النقي... الإيمان القائم على الفهم الصحيح لشريعة الله الخالدة السمحة كما علمها رسولنا محمد عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام.

بهذا الأسلوب الهادىء والطرح الذكي لموضوع صعب ومعقد وجدلي، يأخذ الدكتور عاصم حمدان بيد القارىء في ثبات وطمأنينة إلى

المستقبل. ومهارة الكاتب أنه لا يقول للقارىء صراحة أنه يريد أن يأخذ بيده بل يترك له استنباط ذلك فتأتي القناعة عميقة مقنعة، خاصة وأن الصور التي تمر أمامه صور حقيقية.

أ.د. غازي عبيد مدني

جدة في ١٤٢٢/٨/٢٥

هُتَافٌ منْ باب السَّلام؟

(١)

من باب المصري تنتقل خطوات الفَتَى إلى موضع آخر يحفل بحياة صاخبة... هذا الموضع هو (سُوقُ الحراج)، يتذكر كيف أن والده كان يأخذه ليحلق رأسه عند واحد من الأخوين «الخَسْتة» وكان يوم «الحلاقة» يوماً صعباً عند هذا الفتى فالمعلم شديد حتى عندما يمسك برأسه فلا يتركه إلا وقد اجتث شعر الطفولة الفاحم اللون، وهو لا يجد تفسيراً لما يسمعه من والده بأن تربية «الشَّعْر» أمر غير محبب، وأن إمالة الكوفية إلى الأمام لا يفعله إلا المطاليق من الرجال، وكان صاحب حانوت الحلاقة أبو الحسن الخَسْتة وشقيقه الآخر الذي يقوم حانوته على طرف شارع المناخة وبالقرب من سوق «المتخضرة» حيث بائعو السمن والعسل والمضير كان الأخوان من مطاليق المدينة، وكان الأخ الأكبر منهما يسكن في دكَّة التّرجمان بحي الشيخ، ويخرج والده ذات يوم وكان الفتى ينتابه شيء من الحزن إن لم يرافق والده عند خروجه عصراً، وكان الوالد يحمل قلباً عطوفاً على الرغم من قسمات وجهه التي تبدو عليها سمات الشدة والصرامة، وكانت عيناه تدمعان إذا ما أنصت لصوت المؤذن أو المنشد، أو يتذكر رفقاء دربه الذين سبقوه إلى دار المثوبة والغفران.

يأخذ الوالد بيد الابن الذي يشتد عليه حيناً ويرفق به أحياناً أخرى، يسلكان الطريق من «المُدرَّج» إلى السيح، وكان على الابن أن يلاحظ خطواته فلا تسبق الخطوات منه خطوات والده الذي يقول له: يا بني يا من قدمت إلى هذه الدنيا في خريف العمر، هل ستتسع الحياة لأبيك ليروي على مسمعك سيرة «جدك» أناقته في لباسه، صراحته في قول الحق، مجلسه الذي لم يوصد حتى آخر يوم من أيام حياته، دعاؤه لأبنائه بالتوفيق حتى وهو في أشد حالات غضبه، أحبابه الذين كانوا يتفانون في محبتهم الصادقة له، وإن لم يتسع خيط هذه الحياة فلعلك تجد من يروي لك سيرة الرجال والرجولة في البلد الطاهر.

يصل الفتى مع والده إلى منتصف الدكة التي تواجه مجرى سيل أبي جيدة. دقات خفيفة على الباب الخشبي العتيق، يأتي صوت الرجل من المقعد: من الطارق؟ وعندما يجيبه الصوت من الخارج، يرتفع صوت صاحب الدار: «مرحباً بك يا أبا علي».

يتكلم الرجلان عن أشياء عديدة، ثم يدعو الزائر لصاحب الدار بحسن الختام، وهي دعوة عظيمة الدلالة لو تمعن الناس فيها كثيراً وفجأة يرى الفتى ذلك الرجل الذي كان مستلقياً على فراشه وقد تحامل على نفسه وجلس، شارباه الكبيران والمتميزان كوفيته البلدي، حزامه المشدود على وسطه بإحكام كل ذلك أعاد إلى ذهن الفتى مرأى الرجل وهو يجلس أمام حانوته المخصص للحلاقة وربما كانت بجوار الحانوت تقوم شجرة كبيرة من تلك الأشجار التي كانت تظلل شوارع المدينة وأحياءها ومساجدها. ينظر «البطل» إلى وجه زائره ثم يقول له: وكم مضى؟ أحسستُ أنه ينطقها بشيء من الفخامة وهي نبرة الخطاب العروبي الذي عرفه وسمعه الفتى عند

أخواله من الأحامدة من قبيلة حرب، ثم أدرك في مرحلة لاحقة أن والده يحفظ من أنساب هذه القبيلة، ويعرف عن رجالها وأيامها، ويحفظ من شعرها النبطي الأصيل شيئاً كثيراً، لقد حفظت يا أحمد القليل وضاع مني ما هو أكثر فلا يأخذك شيء من العجب إذا ما رأيتني كثير التلفت.

(٢)

لم يكن يا بني يُغري أباك في صِبَاهُ ما كان يُغري أنداده من لهْوٍ بريء، كان يَرَى شباب الحي يؤْمُون بالمقْلاع، وينْقُرُون بأصابعهم على الأواني الحديدية الفارغة، ويرفعُون أصواتَهم بـ «الزُّومان»، ثم يحركون أرجلهم في الأرض ـ وكانت لم تعرف بعد التَّمهيد والتَّشييد ـ بل كان الغبار تتطاير ذرَّاته أمام الأنظار ومن فوق الرؤوس ـ حتى إذا ما لامست الأقدام هذه الأرض ازداد تطاير وتصاعد تلك الذرات حتى ينشأ من ذلك كله هالة تشبه السَّحاب، فلا يكاد الإنسان يرى صديقه أو يتبين ملامحه، وسمعهم في «السَّيْح» «وحوش عَميرة» «وحوش منَّاع»، وزقاق «سيد أحمد» يتغنون باسم شاب اسمه «علي البدوي»، ولقد كان التغني ـ يا بني ـ يتصل بشجاعته وقدرته على القشاع بكلتا يديه، وطوحت الأيام بـ «يَعْسُوب» «المناخة» ثم عاد وقد فقد شيئاً من نظره، ويوم عاد كنت يا بني قد شددت الرحل إلى «مكة» ووجدتهم في «الشِّعب» و«المسفلة» يسألونني عنه، فأروي لهم ما أسمعه عنه، وجئت المدينة ـ زائراً ـ وكان ـ اليوم ـ يوم جمعة، استجمعت شجاعتي وهمست في أذن أحدهم: كيف حال علي؟ خفض رأسه وأغمض عينيه وقال لي بشيء من الأسى والحزن: يعطيك ـ عمره ـ لقد حملناه قبل أيام وواريناه الثرى، وأردف يقول عندما خرج من الدنيا ـ كان ـ نقياً وصافياً، وتذكرت ـ يا بني ـ صديقي ـ معاذ

ـ وكيف أن قناديل الحب والرحمة أشعلت في الليلة التي ارتفعت الروح منه إلى عالم الملكوت، لقد كانت الليلة ـ يا صغيري ـ ليلة جمعة. وكان الوقت وقت سحر، وتذكرت حديثه لي في «فرْش، الحجر»، وفي «دكة الأغوات»، وفي «الحصوة الحمراء»، كان يتنهد والدمع ينسكب من أجفانه ثم يتمتم قائلاً: سوف يكرمني الله بحسن الختام.

لقد طُويت مراحل حياة أبيك في مرحلة واحدة، هي مرحلة الصرامة في كل شيء، وكثيراً ما كان يحس بقسوة الحياة وهو يطوي الدرب بين السيح وحارة الأغوات أو بين الشامية والهجلة، أو بين النقا والدحلة في الشعب، لقد كانت خطواته تُسرعُ به حتى ليحس أنه في سباق مع الزمن، وكان قلبه يخفق بحب الحياة، ولكن الطريق طالت به، والدروب تشعبت أمامه فما أدرك شيئاً مما كان يخفق له القلب وأدرك أن هذه المضغة منه لم تخلق لشيء من هذه المتعة.

ولعلّك سائل نفسك ـ يوماً ـ هذا السؤال، لماذا اتشحت حياة أبيك بهذه الغلالة من الحزن؟ وما وراء هذا الأنين، وذلك التنهد، وتلك العبرات؟ ولماذا لم يطب العيش له كما طاب لرصفائه؟ وكيف اختفت الأقمار من سماء حياته، ليشع نورها في مواضع أخرى؟

سوف يضيع السؤال في صخب الحياة التي عاشها بقلب فُطر على طبيعة سوية يغلب عليها شيء يدعونه بـ «الطَّيبة، وتتغلغل في حناياها بواعث الرحمة ودواعي الشفقة، لقد كان من الصعب عليه ـ يا بني ـ أن يرى قلباً كسيراً، أو جناحاً مهيضاً، ولكن كثيراً ما يتذكر عندما يأوي إلى فراشه كيف أن الآخرين كانوا لا يتورعون عن الإساءة إلى المشاعر في غمرة الزهو بالنفس اللوامة، والاعتداد بسراب القوة ثم يسيرون في دروب

الحياة لا يبالون بما صنعوا ولا يتذكرون في تلك الغمرة، وذلك الزهو أن قوة في هذا الكون هي أشد من قوتهم، وأن هناك بأساً لن يطيقوا تحمله إذا ما نزل بهم، فاللهم أرنا رحمتك ولا ترنا عذابك وأشهدنا لطائف الصنع منك فنحن ضعاف يقودنا الهوى إلى هذا الدرك السحيق وذلك الشعور الكاذب.

(٣)

كمْ أثقلت الهموم كاهل والدك في صباه ـ يا بُنَي ـ كم بَكَى حُرْقةً وألماً ـ وتلفَّت حوله فلم يجد من يُجفِّفُ تلك الدموع ولا من يشاطره تلك الأحزان التي لم يعرف بدايتها فهو إلى يومه ـ هذا ـ وربما إلى غدٍ الذي في ظهر الغيْب لا يجدُ تَفْسيراً لها وتأويلاً، وسأل والدته ـ أو القلب الكبير في حياته ـ ذات يوم ـ عن هذا السِّر المَدْفُون في الأرض التي شَبَّ فيها بين السَّيْح وباب جديد، فكان الصَّمْتُ وكانت الدُّمُوعِ ـ أيضاً ـ فرمى برأسِهِ في حضنها الصابر، وهو في كل لحظة من لحظات حياته يتذكّر صَبْرَها، حنانها طيبة قلْبها، إحسانها حتى إلى أولئك الذين قسَوْا ـ يوماً ـ عليها، وقد نشأ يرى المثال فيها لكل امرأة.

أغلق على نفسه الباب، وارتمى على الأرض، دخلت عليه لتُشاهِدَ مَأْسَاته، واستفسرت كعادتها ـ بشيء من القَسْوة لماذا فعلت ذلك؟ أجابها بصوت خافت ـ فلقد تعلَّم من أبيه أن رفع الصوت في المنزل ضَرْبٌ من ضُروب الأخلاق السيئة ـ أجابها ـ يا بُني تذكَّرْت المرأة الصَّابرة ـ التي لا تَعْرفُ في حياتها سوى منزل ـ الجَدّ ـ في تلك البقعة النَّائية في أرض السِّكة، ويعاودهُ صَدَى صوت أبيه الأجش، عندما يصل برفقة أخوته إلى دار جَدِّه ـ يا أبا سُليمان ـ الأبناء ـ اليوم ـ في ضيافتك، وإذا ما ارتفع

صَوْت المؤذن لصلاة المغرب يجب أن يكونوا في دارهم برفقتك ولا يكون إلا ما يُريده ـ سيِّد الدار، فكلمته نافذةٌ، وقوله فَصْلٌ، ونظراتُه حادة، وخطواته أدب ووقار.

وجاء طارقٍ يطرق الباب يَحْمِلُ معه نبأ اهتزَّ له كُلُّ من في الدار، يَحْمِلُ الفتى صاحبة القلب الصَّابر إلى منزل والدها فيجدونه وقد أسْلم الرُّوح لبارئها، كانت الناس ـ يا بني ـ تمْشي إلى الأفراح في شوارع البلدة الطاهرة ـ على أقدامها ـ وتتقدم مَوْكب المسرَّات القناديلُ المضيئة، والأهازيج الشَّجية، وفي ساعة الحزن لا تخون الأقدام أصحابها، يتذكر قول والدته له. وهي تروي له كيف حملوا خَالَة أَبيه من حوش «سنان» في «العنبرية» إلى المسجد الطاهر حيث يأنسُ الجثمان للحظات بجوار صاحب المقام الطاهر ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ لقد حملوا ـ يا بُنيَّ ـ النَّعْشَ تتقدمهم «الأتاريك»، فلم تَسْرِ طاقةُ الكهرباء في الشوارع والمنازل ـ بَعْدُ ـ لقد نظرتْ من «الروشان» فعرفتْ ـ بفطرتها ـ أن. . . شاهينية «قد سقطتْ ورقتُها في غيبة ابنها الوحيد الذي لم يجدوا وسيلةً لإخباره بذلك ـ، عفواً يا أبا مُحمَّد علي ـ فلم أرد استثارة أحزانك في هذه الحقبة من حياتك ولكنه ـ سياق الحديث ـ فكثيراً ما أخبروني عن وفاء ونُبْل المرأة التي نشأْتَ في أحضانها ورقة مُخضرَّة

ولم يُدهشني وفاؤك لأهلك فأنت ابن امرأة عظيمة.

كان الناس في البلدة المحبوبة يتسابقون عند رؤية الجثمان المَحْمول على الأكتاف، ثم يسيرون خلفه إلى ما بَعْد ذلك الباب الذي يَفْصل بين حياتين، واحدةٌ نَزْرَعُ فيها يا بني، والأخرى نحصد تحت أطباقها ما قد زرعناه، ولكم سهروا يا بُني في الدُّجى يناجونه والناس نيام، وكم ذرفوا

الدمع على أيام وليال بعدوا فيها عن خالقهم، وإنه يفتح أبواب رحمته أمامهم ليعودوا إليه بقلوب راضية ونفوس مطمئنة. وعجيب ـ يا بني ـ أمر هذا الإنسان فكيف يتجرَّأُ على بارِئه بسوء الأدب وقبِيح الذَّنْب، وعظيم الإثم؟، فاللَّهم اغفر لهذه الجوارح آثامها، ولهذه النفس غفلتها، ولهذا المخلوق الضَّعيف غطرسته وغروره وحماقاته.

(٤)

توقظه المواجع من نومه، لم يُؤْذِن الفَجْرُ ـ بَعْدُ ـ بالطُّلوع ولكن ـ آلاتُ ـ جَلْب المياه من الآبار تنبعث في صوت متميز من بين غابات النخل الكثيفة والممتدة على الضفة اليمنى من مجرى سيل «أبي جيدة» والفتى يعرف من بين أسماء تلك الحدائق الغناء، بستان «الطَّيبيَّة».

الحدائق أو البساتين وبالتعبير البلدي «البلدان» تُثْمر أرْضُها رُطباً جنياً، وفاكهة طيبة، ووردا يتغنى برائحته وحمرته أصحاب القلوب الرقيقة، وفُلاً نَاصِعاً ونديّاً تمتزج فيه الصُّفرة بشيء من البياض المُحبَّب إلى النَّفْس وكثيراً ما رَأَى «الفَتَى» أهل الأرض الغزلة يصنعون عقوداً تتعانق فيها حُمرة الورد مع نصاعةِ الفل، ثم يضعونه في جيد عروس تُزَفُّ بالدُّف.

الجدة (. . .) المرأة الصالحة و الكاملة والكريمة ـ رحمها الله ـ والتي كانت تسكن «حوش المغربي» في زقاق الطيار ـ كثيراً ـ ما ارتفع صوتها بمديح المصطفى ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ في السالمية، والفيروزية، والمصرع، وبستان أم الشجرة، وعُرس لا يتوج بحضور تلك السيدة التي تغذَّيتُ من حنانها، وارتويتُ من لَبنِ «السِّعْن» المنتصب من باب دارها، ذلك العرس أو هذا الفرح يعد ناقِصاً.

أتعلمينَ ـ يا جدَّتَاه ـ أن ابنك طوَّحَتْ به أيَّامٌ قاسيةٌ ونأى به دَهْرٌ عن

الأهْلِ والرِّفاق، ويسترجع صدى الأيام التي كنت تَهْمسين فيها بسمعه عن شيء من هذا ورائحة عبقة تنبعث من رحبة الدار التي يعمرها تهليلٌ وتكبير ينطلق من روح صفت، ونفس تطهرت ولسان عف وزكي.

الشهر شهر الرحمة «رمضان» واليوم «جمعة» والمكان مسجد المصطفى ـ ﷺ ـ، يرتفع التكبير من المقام لصلاة «الميت» تتزاحم الأقدام لحمل جثمان أحد رجالات البيت الحرام، ولا تسعفني الذاكرة إذا ما كان الرجل الذي حملوه إلى بقيع الغرقد في ذلك اليوم المبارك هو الشيخ سالم جان شاه ـ رحمه الله ـ عمدة أهل «السلمانية»، ذلك الحي المطل على شعبة النور، ومقام السيدة في الحجون، أم هو رجل آخر.

رآهم الفتى ـ يومها ـ ينثرون شيئاً من الوَرْد حَوْل الرجل الذي أحبَّ التُّربةَ المباركة كبقية أهل الحرم فاحتضنته الذرات الطاهرة من أجل ذلك الحب الإيماني العميق، إنه الحب الذي تعبدت به دروب هذه الحياة واستقام به شأنها، واغتسلت به النفوس التي سرى في شرايينها وامتزج بعروقها، وعكست الوجوه والحياة صفاءه وإشراقته.

اليوم ـ يا بُني ـ لا تزال المواجعُ ـ نفسها ـ تدْفَعُ الكرى عن عيني أبيك اللَّتين فقدتا من حدة النظر ما فقدتا، وأنه ليتطلع على يوم يهنأ فيه بالقليل من النَّوْم الذي لا يُعكِّر صَفْوَه عبء يحس أنه يقيد منه الخطى ويثقلها، ويَذهَبُ بجمالِ الحياةِ ودهْشَتِها التي أمضى أيامه ولياليه متطلعاً لنيْلها وراكِضاً للإمساك بها، وكلما شعر أن طيفها الجميل اقترب منه، باعدتْ بينه وبينها مواجعُ الروح، ومتَاعِبُ النفس، وجفوةُ الدهر كثيراً ما أحس بقسوته ووطأته، إلا أنه يبقى لأبيك ـ دوماً في رحمة الله مَطْمَع، وفي كَرمِه وعَفْوه ملاذ وملجأ.

(٥)

كم طال الليل ـ يا بني بأبيك ـ، إنه ليترقَّب طُلُوعَ الفَجْر حتى يسلك الطريق على قدميه من «التَّحسينية» في قُباء، ويمر بتلك البساتين التي تُشكِّلُ غابةً كثيفةً في حَيِّ «قُربان»، ولا أعلم هل كان لقوة الماء النابع من الأرض أثره في إرواء النخيل فأضحى الناظر إليه من بعد يُخيل له وكأن ماء الأرض المباركة يَسْرِي في كُلِّ جُزْء من أجْزاءِ الشجرة التي تغنى بها الشعراء في كل عصر، كما تغنوا في الأرض الغزلة بالورد والفل والفاغية، وعاشوا يجدون في ظلال أشجار «السِّدر» و«الرُّمان»، وتحت «عريشةِ» العنب متكأ لهم ومتنفساً، واليوم يبكي النخل وينتحب من قسوة الإنسان الذي يحبس الماء عن عروقه حتى يسري في نسغه الموت البطيء، إنه يريد الأرض ليشيد عليها بناء مُسلَّحاً، ويقيم عليها أسواقاً هي أبعد ما تكون في تصميمها عن طبيعة البناء الذي يتلاءم مع روح الأرض التي بدأ منها وتشكل في ثناياها تاريخ عريق وحضارة متأصلة حتى إذا ما أتى على نهاية درب باب العوالي، انحرفت مسيرته على الحارة، وبعد أن يتجاوز «ذروان»، يقف ـ قليلاً ـ أمام «رباط الشيخ عبد القادر»، يُتمتم ببضْع كلمات من الدعاء لخالقه وإنه ليتلفَّت حتى لا يتنبه أحد إلى ما يصنع فهو يَخْشَى من سوء تفسير الآخرين لما يقوم به، أتعلم يا بني أن سوء ظن

أتْباع أمة الإسلام ببعضهم البعض أوْرث هذا التباغض الذي نخر في كيان الأمة فكان الداء العضال، والفتنة العمياء وإنني لأنصحك بأن تُحسن الظن في الآخرين، ولن يفيدك شيء في أن تتقصَّى عما في دواخلهم، فالله ـ وحده ـ المطلع على سرائر النفوس وإليه مصير العباد ليحكم بينهم في يوم الميعاد.

يطرق باب ـ صديقه ـ «الزَّيْن»، يأتيه الصوت ـ مرحِّباً ـ من سَطْحِ الدَّار، ينفتح الباب في رفق، لم يَضَعْ صديقي ـ بعد ـ عمامته على رأسه، حتى تجاوزا تلك الدور الصغيرة المتلاصقة جدرانها ـ معبرة ـ عن تلاحم الناس ومحبتهم، وتوادهم، ومجسدة نقاء سرائرهم وصفاء نفوسهم.

أسمع كلماته ولا يزال صداها ـ مع مرور الأيام ـ تردده جوانب النفس. فكلام القلب الصادق تعكسه جوانب النفس المصغية إليه والمتأثرة بنبراته، والمتفاعلة مع إيحاءاته، يقول «الزين»: إذا طلبت الصديق فسألك إلى أين نحن نسير؟ فهو ليس بصديق. وأصدقك القول ـ يا بني ـ أنني كنت أسير بمحاذاته ولا أعلم أين تلك الأقدام التي تكاد تنهب الأرض تتوجه أو تسير، ولا أخالني ـ أعرف ـ حتى هذه اللحظة ما الذي يدفع هذه النفس ـ السؤول ـ بأن تترك ـ مخدعها ـ فتنطلق في نواحي الأرض حائرة وتائهة، وهل سأخفي عليك ما سوف تعلمه ـ يوماً ـ بأن أشد ما كان يضيق به صدر أبيك أن يقيده الآخرون بما يريدونه، ولا ترضى به نفسه، أو يسعون لإلزامه به وهو غير مقتنع ومطمئن لما ينطوي عليه هذا الإلزام أو ذلك القيد، ولقد رزقك الله عقلاً فاعرض على هذا العقل ما يصادفك من شؤون حياتك، ولينفتح القلب منك على نفحات الإيمان فهو القادر على إضاءة دروب هذه الحياة أمامك، ويبدد ـ عتمتها ـ عن

ناظريك. وما أتعس القلب الذي لا يصغي إلى نبضات الإيمان في كل ما وهبه الله من سمع وبصر، وما أضيق الحياة من دون ذكر يردده اللسان وعبادة لرب العزة والجلال تؤديها في انقياد وطواعية هذه الجوارح وتلك الجباه.

(٦)

ترسل الشمس أشعتها المحرقة في سماء البلدة الطاهرة ولكن ما كان يَحُسُّ به الفتى من حرقة ويعتمل في داخله من ظمأ، وما تستشعره روحه من ألم كل ذلك يا بني ـ كان يجعله يطوي المسافات غير عابىء بما ينبعثُ من تلك الأشعة من حرقة، ولا بتلك الأنظار التي تتابع خطواته بشيء من التساؤل وكثير من الدهشة والاستغراب، فلقد كان ظمأ النفس وما يستتبعه من ألم وجَوَى هو الأشد عليه، وإذا كنا يا بني ـ قادرين ـ في هذه الحياة على أنْ نتَّقي حَرارة الأرض بما تهيَّأ لنا من أسباب فإن قدرتنا على اتقاء آلام النفس قد تصطدم بما يدخل الأمر في دائرة الصعب أو المستحيل.

كان الفتى يرفع رأسه إلى السماءُ متدبِّراً في هذا الملكوت البديع، راجياً من الله ـ أن يخصه بشيء من رحمته وينيله من عطائه، وتمضي الأيام تباعاً فإذا الغيث ينزل، وإذا هو في مجلسه في حصوة المسجد ـ يُصغي إلى صوتٍ نديٍّ ينبعث من بين القباب التي تشكل بينها القبة الخضراء التي تحتضن في فنائها ذلك الجسد الطاهر والنور الساري والنفس الزكية، تُشكل ذلك الرمز الذي عجزت الكلمة عن تصوير حنين النفوس ووجدْها إليها، ولقد تسابق الخطباء وتنافس البُلغاء في حضرته الشريفة ـ

عليه صلوات الله وسلامه ـ فإذا هم يُعْلنُون في غير حياء أن شاعره أشعر من شاعرهم وأن خطيبه أبلغ من خطيبهم، وكيف يَتَسَاوى مَنْ أمدَّه الله بروح القُدس، ونصَره بجنْد السماء، وأسرى به يقْظَةً إلى عالم الملكوت، مع مَنْ سِواهُ مِنْ البشر ممَّن لم يخصُّوا بشيءٍ من ذلك كله، فلينكر المنكرون، وليجحد الجاحدون، ويبقى ما أراده الله وشاءتهُ قدرته، ونفذ به أمره ـ عز وجل ـ.

لم تفرح الأرض ـ وحدها ـ يا بني ـ بنزول الغيث، فقد فرحت به نفوس تتطلع لأن تزيل الرحمة ما علق بنفوسها من أدران هذه الدنيا وكدوراتها، وكان همّ الفتى أن تصفو نفسه ويشرق عليها ضياء الحياة من جديد، وكان يتطلع ـ لليوم ـ الذي يستيقظ فيه من نومه وقد تخلص من تلك الآلام التي يحس أنها انغرستْ في داخله كما تنغرس عُروق الأشجار في أعماق الأرض، وتشعَّبت في أرجاء النفس كما تتشعب تلك العُروق وتتمدَّد، وإذا كانت الأرض قادرة على أن تتحمَّل ذلك التشعّب الذي يتزايد مع مرور الأيام فإنَّ نفس ـ الفتى ـ كانت تفتقد إلى اليسير من تلك القدرة ـ واليوم ـ يا بُني ـ فقد هذا الأب الذي يرى فيك أمله وعاطفته ذلك الشيء اليسير من القدرة، وإنه ليحس بوطأة الهموم ولا يستطيع لها صدًّا، وإنه ليصوِّرَ ـ نفسه ـ بذلك الإنسان الذي لا يمتلك في حياته غير قطعة محدودة من الأرض كان يتطلع بأن يجني منها ثمار ما زرع، فإن هو لم يحصد من ورائها إلاَّ ثمرة فجَّة، وإنه ما زال في حقبة معالجة التربة، وأنَّى للأرض البَوار أن يكون في طَلْعِها ما يفيد وينفع؟ إنه الجحودُ والنُّكران ـ يا بني ـ، وإذا لم تسمع ـ يا صغيري ـ العبْد يَشْكُرُ ربه على ما أعطاه، فإنه من المستحيل أن يكون ذات يوم معترفاً بجميل أو متحدثاً بإحسان، أو ناطقاً لسانه بكلمات العرفان.

(٧)

وقَدْ تَعْجَبُ ـ يا بني ـ كيف نثَر والدك على الطِّرْس ما انحبس عن أعين الآخرين من عواطفه، وما انكتم عنهم من زفَراته، وما اختلج ـ بعيداً ـ عنهم من أحاسيسه. والكلمة في حضورها كالدَّم عند سيلانه، كلاهما إذا نُثِرَ وتفرَّق صَعُبَ جمعه واستحالت رؤيته على النَّسق الذي كان عليه، ولتعلم ـ يا بني ـ أن لهذا المسلك أسبابه ودواعيه، فالقوم الذين عرفنا وعايشنا في أرض النبوة كانوا على قدرٍ كبير من سماحة الخُلُق، وسعة الصدر، وإنك لواجد في ثنايا الشعر الذي أبدعوا، والنثر الذي كتبوا والإنشاد الذي به في دُجى الليل ترنَّموا، إنك ـ واجدٌ ـ يا بني ـ في ذلك كله ما يُومئُ إلى تلك الشمائل، ويشير إلى ذلك الأفق، وتلك الذروة التي ارتقوا إليها بأخلاق سامية، ونفوس رقيقة، وأيادٍ تتصافح في نقاءٍ وقلوب لا تتلاقى على ضغينة.

لم تطل الطريق بالفتى كما طالت به ظُهْر ذلك اليوم، هذا مسجد «الغَمَامَة»، وهذه بقايا من السوق القديم الذي ترسَّخَتْ معالمه في النفس، وتغلغلتْ رسومُهُ في مساربها العميقة، وهذه البوابة التي دأب على الدخول منها «للحرم»، إنَّه (باب جبريل)، لم يبق من أهله إلا (حسن برقاوي)، تذكَّر في تلك اللحظة العم (حسب الله) وهو يدقُّ مِسْماراً في هذا

الكرسي، أو يصلح بالمطرقة اعوجاج أبواب غرف «الرُّسْتمية»، وأين عبد الرحيم (سَحْلَبجي)، وهو ينزح الماء من عين «الأغوات»، ثم يسكُبه في البرحة التي كان يطل عليها منزل شيخ الأغوات (عبد السَّلام)، والمعلم (طَيْفُور) وهو يتحدَّثُ كيف كان يحمل التراب صغيراً مع المعلم الكبير (عيدبَنَّا)، وكانت عصا المعلم تصل إليه لتذكِّرُه بأن شيخ «الصَّنْعة» يراقبُ حَرَكَته صُعوداً ونزولاً من دَرَج الدار، أما العَم (حسن البيشي) فقد كان لآخر أيام حياته ـ يذهب إلى «المناخة» ليبتاع السَّمن البرِّي، ليضعَهُ فَوْقَ طبق «الفول» من حانوت العم «فَرْغلي»، ثم يتمدد في ساحة الرَّستمية ليروي أحاديثه وذكرياته عن الشامية في مكة، وأعمامه فيها من بَيْتَ المحجوب.

انقضت صلاة الظهر، أحسَّ في تلك اللحظات بشيء من التعب، سلك الدرب إلى باب العوالي، طرق باب صديقه «الزَّين»، أجابه صوت بأنه غير موجود!! وسأل ـ نفسه ـ متى يستريح صديقهُ من هذا التّجوال في أماكن متباعدة من البلدة الطاهرة؟؟ واليوم ـ يا صَديقي ـ أضحى النزوح إلى داخل النفس، ولم يعد يروي الظمأ ذلك الماء الذي كان يسكبه الرجل الذي كان يحمل «جَحْلَتَهُ» ويسقي بها المُصلِّين عند باب السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ماء تفوح منه رائحة «الكَادِي»، وثياب تتضمَّخ برائحة «العود» المشتعل في مجْمرة «الشريف حسن طاهر» ـ رحمه الله ـ.

لم يَطِبْ له المقام في دار «الزَّيْن» ـ كعادته ـ قَطَع الطريق بين باب العَوَالي وسوق «الخضار» في شيء من الترقب والحذر، وعندما تجاوز «السُّوق» أطلَّ رجل يعرفه من أهل «الجِلَّة»، هذا «محمد سلاَّية» رجل طيِّب وظريف، سأله عن أحوال والده، حاول أن يُنْهي الحديثَ فلقد أحسَّ

برعشةٍ تَسْري في جسدِهِ، أحس أن أقدامه لا تَقْوى على حَمْلِهِ، تذكَّر ابنته التي لم يتجاوز عمرها بضعة شهور، تمتم بشيء من الدُّعاء وطلب من الله أن يحفظه حتى يتمكن من تربيتها، وكان الموقف من الشدة حتى إن أبواق السيارات لم تُفْلح في إيقافه عن قطع الطريق بتلك العشوائية التي لفتت الأنظار إليه، أحسَّ برغبة في الركض ـ ومع أن المنزل أضحى غير بعيد عنه ـ إلا أنه تصوَّر وكأن حواجز الدنيا ـ جميعها ـ تقوم بينه وبين الدَّار التي تَعوَّد الانطلاق منها وإليها لمدة تقارب العقد من الزمن، ولكن أنَّى له أن يَرْكضَ وقدماه قد أصابهما ذلك الثِّقل، واعتراهما من «الوهَنْ» ما يعتري السَّقيم في حالة إصابته بالحُمَّى. مَرَّ بصاحب الحانوت الذي رغب في الوقوف معه فهو لم يشاهده منذ أمد، ولكنه كان يسير على غير هُدىً، ويتحرَّك في كثير من الاضطراب، دخل الدار، ورمى بنفسه على الأرض في ذلك «المقعد» الذي كان يقضي والده فيه ليله ونهاره، أحسَّ الرجل الكبير بحالة الفتى، فرفع يده إلى السماء، وذرف دمعة واراها عن الابن، وكان الدَّمْعُ هو اللغة التي يلجأ إليها سَيِّدُ الدار في المواقف الصعبة، وكانت يا بني الدعوات التي انطلقت من فمٍ طاهر لا يعرف كذباً ولا نميمة هي ما أنقذ أباك ـ بقدرة الله ولطفه ـ حتى بلغ به العمر ما بلغ فكان قادراً على أن يَرْوي على مسمعك شيئاً من هذه السيرة التي تنضح الكلمات من خلالها بشيء مِنْ الحزن، لَم أكن قادراً على دفْعه أو العيش من دونه. ولعلك تُدْرك في مستقبل الأيامِ ما خَفي عليك من هذا الأمر مما يجعلك تبرر لهذه العبارات دموعها، ولتلك الكلمات شجنَها، ولهذا السَّرْد شكْوَاه وأنينَه، فليس اليراعُ الذي كتبتُ به هذه السطور هو الذي انغمس في مداد الحزن ولكنها النفس التي كان من حظها أن تعيشَ شيئاً من سوء الطَّالع، هناك يا بني، ولا أعلم عن هناك شيئاً، وفي انعطافه من

انعطافات دُروب الحياة الطويلة، كان «الميْسم» الذي توجَّه إلى أعماق النفس، فتلظَّت به فما تصفَّد الجبين عرقاً، ولا التوى اللسان ثقلاً، ولا ارتجف القلب فرقاً إلا وأحسَسْتُ بوخز ذلك «الميسم» بين الضُّلوع، وكثيراً ما اكتوتْ النفوسُ، وكثيراً ما صبَرَ الرِّجالُ، ولكن تلك الوخزة في حدتها ـ كانت أكبر من قُدْرةِ الفتى على الصُّمودِ، لقد قال له صديقه «الزَّين» في لحظة صفاء: إنني لأتصوَّر ذلك العبء الذي تُلقي به الأيامِ على كاهلكَ ولو أُلقِي على الجبال الرَّاسيات لاعتراها كثيرٌ من الوهن، ومع أنّ رفيقه «الزَّين» هو الذي يعرف من خفايا أحواله ما لا يعلمه غيره، لكنه يُصغي إلى صَوْته الحنون وابتسامة حزينة تكسو مُحيَّاه ـ ولو كان في مقدورها أن تنطقَ ـ لأجابته، بأنَّ عينيك لم تنفذ إلى أعماق هذه النفس التي تكسَّرت فوقها النّصال ـ تباعاً ـ فأيُّ رمح تريدها أن تَصُدَّ؟ وأي السِّهام تتلقَّى؟ وأي الكؤوس تتجرَّع؟ ومع هذا فرفيقُك لا يزال يرقب طَلوع الفجر وانبثاقة النور، وفيضاً من لُطْف الله ورحمتِهِ ورِضوانه.

(٨)

لا يأخذنك الظن ـ يا بني ـ في أن أباك يرسم صورة أسطورية عن المرأة المثال (والدته) في حياته، بل هي الحقيقة التي قد ينظر الآخرون إليها برؤية تغاير الرؤية التي أحملها في داخلي، وأحاول ـ ما استطعت ـ التشبث بها قبل أن تفلت تفاصيلها من الذاكرة التي وهنت، فهذا خريف العمر، وسن المهلكة وحقبة يرجو العبد الفقير إلى الله من مولاه أن تكون خيراً مما سبق، وأحسن مما تولى وانصرم.

تدخل عليه في صومعته حيث يقيم فهي تعرف أنه اختار الوحدة سبيلاً ومنهجاً له في هذه الحياة، يحس بخطواتها وهي تسعى إليه، يرفع نظره إليها، هو لا يزال ذلك الطفل الذي طالما ارتمى في أحضانها باكياً ومنتحباً من قسوة الحياة، وإنه في حاضره أشد حاجة إلى حنانها، فلقد اشتعل الرأس منه بالشيب، ولقد كان من قبل ـ يا بني ـ يحصي الشعيرات البيضاء التي تختفي في حياء بين غابة كثيفة سوداء ويدفعه زهو الحياة وشيء من رعونة الشباب للتباهي والتفاخر بها.

رمت ـ بنفسها ـ فوق ذلك الكرسي الخشبي العتيق، نظر إليها وهي متحجبة، وتذكر أنه طيلة ما يقرب من أربعة عقود من الزمن وربما تزيد على ذلك قليلاً ـ أنه طيلة هذا الزمن الذي قضته في عبادة ربها وخدمة

سيد الدار وتربية أبنائها، لم يتحرك هذا الحجاب من فوق رأسها، وكان إذا دخل عليها في مجلسها ـ على غفلة ـ سعت لتغطية ما تبدي من شعر رأسها، وأنها في أشد الأوقات ـ تعباً ـ لا تتمدد على فراش، ولا تتكىء على وسادة حتى وإن كان الذين يجلسون بين يديها هم ممن حملت، وأرضعت وربت، وهذا سر من أسرار إعجاب أبيك بالمرأة المثال.

تبسَّمَ في وجهها وهي غارقة في التأمل، طلب منها الدعاء له، نظرت ـ بعينيها ـ إلى الأفق البعيد، ثم نطقت بكلمات معدودة: «الله يُريح خاطرك!»، تذكَّر فجأة والده الذي رحل عن دنياهم والذي حدثه أن والدته قبل رحيلها دَعَتْ له بمثل هذه الكلمات الصادقة من الدعاء، وعَرِفَ أن المرأة المثال في حياته تعرف مُعاناته التي يحجبها عن الآخرين ويواريها خلف هذا السرور المصطنع والبهجة الكاذبة.

يسود شيء من الصمت الحزين حتى ليبدو المكان الذي يجمعهما أصغر ما في هذا الوجود، وتأتي الكلماتُ منها لتكْسرَ حِدَّة هذا الصمت: «مين زيَّك يا ولدي؟؟» لهجة مدنيةٌ وعبارة متداولة بين أهْلِ الأرض الغَزِلة والعاشقة، أعادتْ على مسمعه حكايات الطفولة، فأرهف السمع لحديثها: «أصابتك الحصْبة أنت وأخواتك، كان الوقت قائظاً ووالدُكَ نائياً عن المدينة يبحث عن لقمة العيش الحلال، أسبوعان لا أعرف فيهما الطريق على المطبخ، خالاتك عبَّاسية وسعيدة من جيران زُقاق «سيد أحمد» يدخلان كل يوم عليَّ بالطعام جيرة حلوة ولَّت مع زمنها جسمك لم تتضح منه حُمْرةُ داء الحَصْبة، وقضيْتَ أياماً لا تعرف عن الدنيا شيئاً، فجأة يدخلَ جدُّك ـ [والدُها] علينا في ـ المقعد ـ، يُذْهلُه مرآك ويهمس في أُذني: من الضروري أن أخبر أباه، ثم يخرج مسرعاً ويعود بعد قليل

يحمل دواءً من العطار، يُحرِّك اللمبة التي كانت الشَّاهد الوحيد بضيائها على الوحدة والألم والشِّدة، ويضعها بالقرب منك، أُحضر له إناءً ليضع فيه المَغَر، عُشْبٌ معروف ويُدْهنُ به جسْمك الذي أوهنه الدَّاءُ، يقفل الباب خلفه، نتركه طوال الليل على ـ الحبْل ـ لا نخافَ شيئاً ـ بحمـد الله ـ، كانت الوحدة تُمزِّق داخلي، وتتركني نهباً للمخاوف من المجهول، وقضيت الليلة حتى مطلع الفجر ألمس مِعْصَمك بين الحين والآخر خشيةَ من أنك قد فارقت هذه الدنيا، وعندما غطَّت عيني في النوم، سمعت صوتك يأتيني كالطَّيف، «أريد ماءً!»، نظرت إلى جسدك فإذا هو مَلِيءٌ بالحبوب ـ وكانت هذه علامة الشفاء ـ بإذن الله ـ من داء الحصبة، نظرتُ إلى مئذنة مسجد سيِّدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ وكانت شجرة النَّبق تُغطي ساحة المسجد بأوراقها المخضرة ـ، توضأتُ وصليتُ ركعتين حمداً لله ـ على خروجك إلى هذه الدنيا ـ ثانيةً».

لم ينس الفتى بعد ذلك صنيع جدِّه لأمه وشفقته عليه، وتقدير سيد الدار لمواقفه النبيلة، وفي اليوم الذي حملوا جثمان جده على أكتافهم من موطن «الحرَّة» رأى والده وهو يذرف الدموع، ثم يقول وهو يضع الآلَةَ الحَدْبَاء على كتفه. على العزِّ يا أبا سُليمان. رحم الله الرجلين، وبقيت يا صاحبة القلب الطيب، واللِّسان العفيف مِرآةُ أنظرُ من خلالها إلى ذلك العالم المليء بالمشاهد والصور العظيمة التي قلما أن يجودَ بها الزمن، أما أنت ـ يا بُني ـ فاعلم أنك قد خُلقت لزمان غير زماننا، ولكن هذا لا يعني نسيانك لهذا التراث الذي حاولت أن أضعه من خلال هذه الكلمات بين يديك، فلعلك تجد فيه صورة صادقة وأصيلة من صور ذلك الماضي الجميل الذي عايشه والدك ويتذكره اليوم بعد أن أوهنتْ حوادثُ اللَّيالي ما كان منه قوياً، والبقاء والديمومة لربِّ هذا الكون وخالقه وحده.

(٩)

يستيقظ الرجل من نومه بعد أن ألقى ذلك الجسد المنهك على الأرض في «حلة» المناخة، وبعد يوم طويل في المعاناة قضاه في جمع حفنة «من القروش» لقاء حمله في عربة «الكرو» لشيء من متاع الناس في أحياء المدينة. يسكب الماء على وجهه من ذلك الإبريق الذي كان يصنعه أرباب المهنة في مكان غير بعيد عن سوق «التمارة»، يتوضأ من ذلك الماء الذي أصابه طل من سماء الأرض المباركة. ثم يصلي ركعتي الفجر على (حصير) يخصصه ـ أبناء الحارة ـ للجلوس والوقاية من حرارة الأرض، و(الحصير) رمز في حياة القوم التي هي أقرب إلى الزهد والكفاف منها إلى أي شيء آخر. ينظر إلى (رفاقته) يبتسم في وجوههم ويمازحهم في براءة، ثم يحمل عصاه في يده، فهو على موعد ـ صباح كل يوم ـ مع رجل من رجالات «السوق». يقطع الطريق بين «الحلة» وباب المصري، هذا حانوت لأحمد إسماعيل، وثان لعبد المحسن رشوان، وآخر لعبد القادر الشعاب وصديقه البري، وكانت هذه الحوانيت وغيرها تقوم على الجانب الأيمن للقادم من المناخة لشارع «العينية»، ثم يسلك ذلك الشارع المتوسط في مساحته ـ حيث كان يقوم مسجد يحمل اسم السيدة فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ويصل هذا الشارع بين العينية من جهة وسوق «الحبابة» و«باب المصري» من جهة أخرى، يتلفت «صاحبنا» في شيء من البهجة للرجال

الذين كانت تقوم حوانيتهم على طرفي هذا الشارع، هذا ـ العم ـ عبد الله مناع يقدم الحليب البقري الساخن وزبادي اللبن لرواد مكانه، وهذا العم «يوسف صيادة» يقف أمام حانوته، وقد شد الحزام في وسطه، وأمسك بـ (الشوت) واتكأ على طرفها الأعلى، وهذا شيء يدخل في باب «يعسبة» أهل الشهامة والمروءة ـ في حقبة مضت وولت مع أهلها.

لا يمر رجل إلا ويود الجلوس إلى أبي ـ محمد ـ، وكان العم يوسف ـ رحمه الله ـ لا يضيق بالناس فعذوبة لسانه وسخاء يده تحمل الآخرين على احترامه وتقديره.

يصل ـ صاحبنا ـ إلى الموقع الذي يفصل بين سوق «العياشة» وباب «المصري»، يسمع الرجل الصالح يناديه ـ مداعباً ـ على بعد «يا أبا. . .» يسرع صاحبنا فأبناء الحارة كانوا يجيبون النداء، ولا يتأخرون عن «الفزعة» يمد يده في أدب ويأخذ «تلقيمة» الشاي من الرجل الكبير، ثم يدخل إلى مقهى «محمد سلطان»، ينتظر دوره بالقرب من «المنصة» الخاصة بصنع الشاي، يتكىء في طمأنينة على الجدار المبلل بشيء من الرطوبة، حتى إذا ما أتى دوره نادى عليه صاحب الشأن وأعطاه «براد» الشاي، يحس بنكهة النعناع (المديني) التي إذا ما تسللت إلى أنف الإنسان بعثت فيه شيئاً من حيوية الحياة وزخمها بل وجمالها، وكان الناس يرون الجمال في كل شيء قد أتقنت صنعته، وازدان مظهره، وحلا مذاقه.

يصل ـ صاحبنا ـ إلى حانوت الرجل الصالح، يسكب قليلاً من الشاي في واحد من الأقداح، ثم يعيده ثانية إلى «البراد»، ويبدأ في تذويب حبات السكر وبالمقدار الذي يتلاءم مع حاجة الرجل الكبير الذي يحظى بتقدير الناس في السوق، يشربان الشاي ـ سوية ـ وربما تحدثا في شيء من

شجون الدنيا. يرفع صاحبنا بصره على السماء، فقرص الشمس هو ساعته ودليله، ينصرف من جلسته هذه حاملاً عصاه تحت ذراعه، يتوجه ـ ثانية ـ إلى حلقة حديدية صغيرة في الأرض، يداعبه صديقه ـ مساعد «كردش» بلغة أهل الحلة، يودع جماعته كل صباح ويستقبلهم مع غروب الشمس، وكأنه قد نصب ـ قيماً ـ عليهم، «كردش» ولد الحارة، الذي لا يقرأ ولا يكتب، وجدوه في قهوة «الفار» في صباح يوم أغر، متمدداً على حصيرته رافعاً سبابته بالشهادة، وترك الناس ـ حيارى يتحدثون عن الخاتمة الحسنة لكبير الحارة الذي أضحى في أخريات أيامه، لا يفارق ـ حصوة المسجد، يدخل المسجد ليؤدي «الفرض» من باب الرحمة ويخرج من باب السلام.

تمضي الأيام ولا تتغير عادة الرجل الذي تنحصرُ حركتهُ صباح كل يوم بين الحلة وباب المصري. وجاء يوم خرج فيه صاحبنا إلى السوق ـ كعادته ـ ولكن الرجل الصالح لم يناده بذلك اللقب الذي اعتاد أن يسمعه كل من يلج السوق أو يخرج منه. اقترب «ابن الحارة» من الرّجل ذي اللحية البيضاء والوجه الإيماني المستدير، وبصوت فيه شيء من الحزن جاء السؤال منه مجلجلاً: هل أنت غاضب مني يا عَمُّ؟، ويرد الرجل في هدوء: لا لا بُنيَّ ولكنني ـ اليوم ـ قد رُزقتُ بمولود في جَبْهته علامة كتلك العلامة التي أصبحت تحمل لقبها، وآليت ـ على نَفْسِي ـ ألاَّ أُناديكَ اللَّقبْ، وامتدت مع الكلمات يدٌ حانيةٌ ترْبتُ على كتف ولدِ الحارة الذي افتقد عزيزاً عليه، فلقد كان يحسُّ في صَوْت الرجل الكبير حناناً وعطفاً، ولكن سلوك الأدب الذي فُطر عليه أهل الجوار ـ حَمَلَ رجل السوق على النظر لابن الحارة نَظْرَة الأبوة وما أجْمَلَها من نظرة يا صديقي.

واختفى ولدُ الحارة في زحمة الحياة، وتوارى عن أنظار ـ رفاقته ـ من

أهل الحلَّة، وافتقدته رحبة باب المصري، ولم يُرَ إلا في اليوم الذي حملوا الرجل الصالح إلى ـ مثواه الأخير ـ في ضُحى يومٍ أغرٍ يتذكرهُ ـ العبد الفقير إلى الله ـ ويزداد حنينُه ـ كل يوم ـ للأيام الخوالي التي قضاها في كثيرٍ منْ الحبُورِ بَيْن المناخة وباب المصري.

(١٠)

المرأة المثال «يا بني» هي التي حدثتني كيف أنها كانت بعد انقضاء أسبوع على وضع حملها، تطوي فراشها بيديها لتستيقظ مع كل فجر لتوقد النار في (الوجَاق) ثم تضع الإناء المُخصَّص لصنع القهوة العربي (الدَّلة) وبالأصح فإنها تغرزه داخل أكوام الرماد الذي يغطي وجهَ حبَّات الجمر الملتهبة، وتترك كل ذلك على حاله، عيناها مغروزتان في روشان المجلس تنتظر بكثير من التلهُّف عودة سيد الدار من مصلاَّه حتى إذا ما بدأت خطواته تأخذ طريقها إلى سُلَّم الدار الحجري، أسرعتْ إلى ذلك المكان الصغير الذي لا يكاد يتسع لأكثر من (الوجاق) و(الكانُون) وقطع متناثرة من آنية الصيني والشاي.

تُسْرِعُ ـ يا أحمد ـ سيِّدةُ الدار إلى ذلك المكان، فتُمسك بـ «الدَّلة» وتزيلُ عنها ما لحق بها من ذرَّات الرَّماد، ثم تضعها ـ بشعورُ المحبَّة والرِّضا ـ مع شيء من التَّمر أمام والد أبنائها، وكان «التَّمر» يا بني طعام الناس في الرخاء والشدة، ولقد سمعت جَدّك الذي أدرك ـ سفَربَلك ـ في حقبة ـ فَخْري باشا ـ يَرْوي ـ رحمه الله ـ: يرسلني والدي من «السَّيْح» إلى باب «العنبرية» حيث كانت تقوم «التِّكية» أدفعُ للجندي «مجيدياً» فيعطيني «قرص الخبز» ويُوزِّعُه الجَدُّ الأكبر على أبنائه السِّتة ووالدتهم. أما

بقية الوجبات فحبَّات من التمر مع كأس من الماء، ثم كان الخروج إلى مكّة بدلاً من «التَّهجير» إلى الشام، وكان الفضل في هذا ـ بعد الله ـ لوالدة الشيخ أحمد نور ـ رحمه الله (الخؤولة) واحدة في بيت علي سليمان ـ رجل حوش عميرة ـ، وهو والد عباس وعبد الله وعلي وعبد العزيز ـ رحمهم الله ومحمد سعيد وصالح أطال الله بقاءهم ـ، ولقد كانت هذه السيدة تجيد اللغة التركية فخاطبت فخري باشا وشرحت له ظروف العائلة فسمح لهم بالسفر إلى «مكة»، وهناك نزلوا في «شِعْب عامر». صنيع أهل الشِّعْب خلال هذه المأساة يُماثل صنيع أهل حلب، كلاهما أكرم جيران المصطفى ﷺ، وقد روى لي جدُّك ـ يا بني: أن رجلاً من آل ظافر ـ وإن لم تخني الذاكرة اسمه غازي ـ يركب الفرسَ حتى إذا ما رآني ـ لم يزل جَدُّك ـ عن ذاك ـ في سِنّ الطُفولة ـ نزل من فوق الدَّابة وحملني على ظهرها ـ تعبيراً عن المحبة للقادمين من المدينة المحبوبة.

لقد أدركت يا بني رجلين كريمين من رجالات الشِّعْب في تلك الحقبة: الشيخ أحمد غَبْرة ـ رحمه الله ـ والد محمد وإبراهيم وخليل وأخواتهم ـ ولآل الزقزوق خؤولة في هذه الأسرة المعروفة ـ ولعل شاعرنا الرقيق مصطفى زقزوق يُحدِّثنا عن ذلك وغيره ـ، وكان الشيخ «الغَبْرة» صديقاً لوالدي ـ رحمه الله ـ أما الرجل الآخر فهو الشيخ العارفة ـ عبد الله بن ظافر ـ، وكان على صلة برجل الفضل في البلد الحرام ـ الشيخ عبد الله بَصْنوي ـ رحمه الله ـ ولم أدْرِك الشريف عبد الله بن مسعود، فلقد كان رجلاً من رجالات هذا الحي، وكلا الشِّعْبين ـ يا بني ـ عزيز على نفس جدِّك، فله من الأحباب فيه الشيخ محمد سَفر ـ رجل الفضل والمعروف والإحسان ـ أسكنه الله فسيح جناته، وكنت أزوره مع المرحوم

البصنوي في منزله العامر ـ بشِعْب علي ـ حيث مولد سيد الخلق ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ كما كان الشيخ صديق دمنهوري ـ رحمه الله ـ قريباً إلى نفس جدك، كان يمشي متعمِّماً ـ في وجاهة ـ بالغباني الأصْفَر ـ من منزل آل الدبور في شارع العينية إلى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ وكنت أسير بجانب والدي، فإذا بالرجلين يتعانقان، وتخرج الكلمات الصادقة من الشفاه في وقت واحد ـ أنا أحبك في الله ـ يا فُلان ـ.

وإذا ما خَطوْتَ ـ يا بني ـ خطوات قليلة عن الشِّعْب كانت منازل القُشاشية بـ «رَوَاشينها» المتقنة الصنع تناديك في حب وكرم، وهناك في الصَّفَا ـ كان يقوم منزل الرجل الذي أَحَبَّه الناس في كل بقعة، في كل موضع، في كل حي، وهو الفريق طه حُصيفان ـ يرحمه الله ـ وكان إذا قدم الصَّيف والزائر من ديار الحبيب ـ ﷺ ـ وجدَ دار آل «الحُصيفان» مفتوحة له ـ وكان يا بُني ـ جدّكَ واحداً من صفوة الأحباب لهذا الرجل الذي ترك ذُريةً صالحَةَ أسَّست لها في قُلوبِ الناس منازل من الحب والعرفان.

تسألني ـ يا أبتَاه أيها الصالح وكل له من اسمه نصيب ـ، ماذا قالت سيِّدة الدَّار ـ في المدينة ـ عندما أتاها الناعي يخبرها برحيل سيد الدار، أقول لك. . . وفي النفس أسىً وحسرة، لقد قالت هذه العبارة التي نُحتت كلماتُها من فصاحةِ حَرْب وبلاغتها: «طاحَ الجمل». وفي كل مرة تجمعني الأيام بك، يحلو لك أن تسمع هذه الكلمات، وليس بغريب أن تُطْربكَ الفصحى، ويهتز الوجدان ـ مِنْك ـ لسماعها، فأنتم غَرْس الوَادي، ونَبْت الشِّعْب حيث شهدت السيدة آمنة بنت وهب، انبثاقة النور التي بدَّدت ظلام هذا الكون وما زال هذا النور يَسْري في أرجاء الدنيا ثم يعود للشِّعْب ثانية، فهناك المطلعُ والمَوْلِدُ.

(١١)

لا أعلمُ يا بني إذا ما كنت قادراً ـ يوماً ـ على الإمساك بيديك ـ كما فعل جدُّك مَعِي ـ في طفولتي وشبابي، وسرت بك حول رسوم المواضع التي عبَقَت أرجاؤها بذلك التاريخ المشرق الذي كانت بدايته عندما اختار الخالق ـ عز وجل ـ تلك الأرض المباركة لتكون مُهَاجراً ومَوْئلاً لحبيبه وصَفْوة خَلْقِهِ ـ سيِّدنا ـ محمد عليه صلوات الله وسلامه ثم ضمته أحشاؤها متباهية ـ ويحق لها أن تتباهى واحتضنت جَسَده الشَّريف ذرَّات تُرْبها الزكي متفاخرةً ويحق لها أن تُفاخر، ومنذ ذلك اليوم، أو تلك اللحظة في تاريخ هذا الكون، والأرواح تنجذب في شفافية إلى ذلك المقام حتى إذا ما وقفت متأدِّبةً في حَضْرتِهِ تيقنتْ كم هو عظيمٌ ـ ذلك النبيِّ الهاشمي الذي خُتمتْ بنبوته الرسالات، عظيم في خلقه، في رحمته، في عطفه، في وفائه، في مسلكه الذي صاغه رب العزة والجلال عليه، وصدّقتْ آيات الذكر الحكيم التي وصفته في قول بليغ، وبيان معجز «فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظّاً غليظَ القلبِ لانفضُوا من حولك، فاعفُ عنهم، واستغفر لهم وشاورهُم في الأمر فإذا عَزَمتَ فتوكَّل على الله إن الله يحب المتوكلين».

تلك روح الإسلام الصافية التي لمحَ آثارها والدُك في أخلاق الجيل

الذي لم تكن هناك وشيجة تربطُهُ سوى وشيجة الدين، لم يسمعهم يا بُني في مجالِسِهُم يفاخِرُون بأنسابهم، أو يتباهون بشيء من حُطام هذه الدنيا، كان الفتى يشبُّ في أحياء البلد الطاهر حتى إذا ما رآه مَنْ هم أكبر سناً منه، سألوه في أدب: من أبوك؟ حتى إذا ما رفع رأسه في حياء وأجابهم، سمع تلك العبارة المألوفة والجميلة: «وانْعِمْ بأبيك» وربما حدَّثوه في شيء من الاقتضاب عن أخلاق أبيه وجَدِّه ومَسْلكهم، وأفسحُوا له في مَجْلسِهم فكان الابن والصديق لهم وكان هذا يا بني كافياً للفتى آنذاك لأن يتلقَّن دُروسَ الحياة وتجاربها من تلك النفوس المليئة بحب الآخرين، والقادرة على البذل والعطاء في أريحية، ولعلك تجد شيئاً من الصعوبة في إدراك سرَّ تلك التقاليد التي جَذَّر الفَهْمُ الواعي لأخلاقيات الإسلام تعميقها في نُفُوس الناس، فهي أبعد ما تكُون عن التَصنُّع، وأقرب إلى الفطرة السَّوية التي خلق الله عباده وجبلهم عليها.

لقد كان الأبناء ـ يا بني ـ لا يرفعون أبصارهم ولا تتعالى أصواتُهم في حَضْرةِ الوالدين أمَّا كان أو أباً، وكان لصديق الأب وجليسه في منزله ما كان للأب نفسه، وكانت الأجيال تُخاطِبُ بعضها في الدِّيارِ الطاهرة بصيغة الجمع احتراماً وتقديراً، وكان الصغير لا يأخذ مجلس من هو أكبر منه مَقَاماً وسناً، وكُنا إذا ما ضمَّنا مَجْلِسٌ مَعْ أهل العلم والفضل أصغينا في أدب، وسألنا في رقة ووداعة، ولقد أدركنا من أهل العلم نفراً كريماً ونادراً في علمه وخُلقه ومسلكه كفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ رحمه الله ـ الذي صعد منبر مسجد رسول الله ـ ﷺ لأكثر من أربعين عاماً ـ فلم تخرج منه كلمات الكُفر والشِّرك في حق أحدٍ من أتباع الديانة السماوية الخاتمة وكان ـ يا بني ـ رفيقاً بجيران المصطفى ـ ﷺ ـ ومحباً لهم، وكم

دخل والدك دَارَه التي كانت تقوم بجوار مسجد المصطفى ـ ﷺ، ومقامه الطاهر، فوجد أبناءه قد تأدَّبوا بذلك الأدب الرفيع الذي عمل ـ أبو محمد ـ رحمه الله ـ على أن يأخذه منه الأبناء والأحفاد، وعندما نادى المُنادِي في أحياء «طيبة» بأن الشيخ الموقر ـ ابن صالح ـ قد غادر الدنيا، خرجت المدينة ـ جميعها ـ شُيوخاً وشباباً وأطفالاً ليواروه في التُّربة التي أحبَّ وتأدَّب مع صاحبها وصحابتِهِ وآل بيته ـ رضوان الله عليهم ـ وجيرانه الذين رأوا أن المحراب والمنبر لم يملأهما أحد كما فعل «ابن صالح».

وكان يوم تشييعه شبيهاً بذلك اليوم الذي شيَّعتْ فيه هذه البقعة الحبيبة إلى قلب كل مسلم، ذلك العالم الرَّباني الزَّاهد الشيخ محمد علي التركي ـ رحمه الله ـ، الذي مات وهو يسكن في دار تعود ملكيتها للأسرة الكريمة ـ آل الخُريجي ـ، وعندما سألتُ مُريدَهُ الرَّجلَ الحافظ لكتاب الله والممتلىء وجهه نوراً وجلالاً الشيخ محمد منصور عمر ـ أطال الله بقاءه: هل كانت وفاة الشيخ ابْنُ تُرْكي في عام ١٣٨٠ أو ١٣٨١هـ لم يجزم بشيء، ولكنه خاطبني في أدب ـ يليق بعلمه وفضله قائلاً: يا ابن الخال، إنهم انطلقوا من هذا السجن الدنيوي إلى عَالِم المَلكُوت الذي لا تحده الحدود، لقد ودعته ـ يا بني ـ في شيء من الأسى فكم كنت أتمنى أن أجلس إلى رجل من بقية الناس في البَلدِ الطاهر، يذكِّرني بتلك الوجوه التي كانت تُضِيء بها ساحات باب السَّلام، والخَوْخة، والصُّفة، والرَّوضة التي شَرَّفها الله بمواطىء أقدام سيِّد الخلق وشفيع الناس ـ عليه صلوات الله وسلامه.

(١٢)

يحمل الفتى كتبه كل صباح من دار أهله في السَّيْح إلى الموضع الذي انتقل إليه ـ فجأة ـ إنها المدرسة يا بني، يذكر بكاءه ونحيبه مع مطلع كل يوم، فلقد تعود أن يقضي ذلك الصباح متنقلاً بين «الصفة» و«الروشان»، لم يعرف لماذا كان يصر والده على ألا يتأخر الابن يوماً واحداً عن الذهاب إلى مدرسة في حوش «منصور» تُدْعى «المحمديّة»؟ ولكنه اكتشف السر ـ فيما بعد ـ عندما خاطبته «أمه» قائلة: لقد اكتفى أبوك في صغره بالذهاب إلى «الكتاب» فَتَحَ الحَرْف، وحفظ شيئاً من سُور القرآن. ومسحتْ دمعة انحدرتْ من عينيها ـ حاولت أن تخفيها عنه ـ وقالت له بشيء من الحزن: إن أباك يريد أن يراك «رجّال» أما سمعتَ عن ولَد «عُبيد» ـ تَقْصِد معالي الدكتور رضا محمد سعيد عبيد، ـ كيف أصبحت ـ خالة (. . .) ـ تفتخر به عندما يجتمع نساء الحي في حوش «عميرة» ويضربن بالدُفوف في وقار وأدب في ساحة بيت الشيخ «عُمر» كُل بيت في المدينة كان يعرف الإنشاد، الأصوات ندية ترتفع في آفاق سماء الرحمة، وأهل المجلس ينتقلون من حي إلى آخر، يا صديقي الذي كان يترنَّم بصوته الشجي في «عروة» و«الأخوين» و«المصرع»، أتعلم أن القلوب توطَّنها الحزن؟ لقد شاخت، كأن شيئاً من المسرَّة لم يتسلل إليها ـ في زمن الحب والألفة والأنس لقد اغتالت الشِّدة والقسوة الطائر المغرد في

«الطُّوف»، وأضحى الليل من دون «شجن» وضل شعاع الشمس طريقَهُ إلى الكوة التي كان يتسلل منها إلى مجلس القوم، أتعلم ـ يا صديقي ـ أن المجلس خلا من رُوَّاده، فقفلوا نوافذه، وأوصدوا أبوابه، ولم تعد الوجوه المشرقة تطل من ثنايا «المراكيز» في «المناخة»؟ لقد شكا «المركاز» وحدته، وشكوتُ إليه غُرْبتي، لقد نعيتُ بين أرجله قيَمَ الوفاء ومعاني الحب الطاهر، وأحاديث الودِّ الصَّادق عند سَفْح «أُحد» في «حِلَّة المناخة». . . عند هدير المياه في مَغَانِي «العيون» وأثيلات النَّخيل في بساتين قباءِ.

لم يكن الفتى يشارك أقرانه لهوهم البريء وعبثهم الطُّفولي الجميل، ولكن كثيراً ما طلب من والدته أن تأذن له فيخرج إلى السَّاحة الممتدة بين حوش «عميرة» وزقاق «سيد أحمد» فيشاهد لعبة «العُصْفُر» و«اللِّيري» ولكن نظرَه لا يفارق مرأى شجرة «النبق» المغروسة في ساحة المسجد، وكانت كلما هبت نسمة هواء على أغصان تلك الشجرة في اليوم الممطر، يحس أن قلبه يخفق مع هذه النسمات، بل إنه ليشعر بأن هذا القلب يكاد يفارق مكانه، ترى أي شيء كان هذا النسيم يحمل في ثناياه هل هو الإنذار بحياة لاهثة، ومسيرة ظامئة في دروب هذه الحياة؟ أمْ إنه إحساس خفي بأنه سيكون أقل ـ أقرانه ـ حظاً في الاستمتاع بمباهج هذه الحياة؟ وانغرس في داخله هذا الشعور، حتى سمع والده ـ ذات ليلة ـ يخاطب سيدة البيت قائلاً «يا. . .، . . .» يكفي هذا الولد أنه قليل الحظ يحتمي بالمجلس «الجُوَّاني» يتمددُ في هدوء ويقضي الليل يذرف الدمع، وأصبح الدمع اللغة التي يلجأ إليها كلما حملته ظروف الحياة على أن يرى أو يسمع ما لا يحب رؤيته أو سماعه، وعندما رأته مُدلّلته الصغيرة وهو يزيح الدمع

بأطراف أصابعه، صرفها عن سؤالها المحير بأنه تَعَبُ القراءةِ، ثم ابتسم في وجهها قائلاً: كُوني صلبةً في مواجهة أحداث الحياة يا بُنيَّتي، . . . تذكر حديث والدته له: لم أكن أتوقع أن تعيش إلى اليوم؟ لقد اعتراك شيء من السقم في صغرك، وأنت اليوم في كهولتك أشد حاجة إلى العطف والحنان، ولم تعلم أنها القلب الوحيد الذي يبثه شكواه، أي شكوى ـ يا أماه ـ تريدين أن أروي فصولها على مسمعك؟ وأي حزن تجرعت مرارته وذقت وصبه؟ لقد كان الأقسى يا سيدتي جحود بعض رفقاء الدرب، وأصدقاء الأمس القريب لقد أعطيتهم من نفسي الكثير فإذا هم يشيحون بوجوههم ويتركونني أسيراً لهذه الحرقة وذلك الألم الممض.

(١٣)

تسترجع ذاكرة الفتى الحي الذي نشأ فيه، هذا هو «المُدرَّجُ» طَرِيقٌ يَفْصِلُ الدور عن مجرى السيل وإذا خرج الفتى رأى أمامه بيت العم أمين شيخ، ثم بيت السَّادة آل ـ الزُّهدي ـ هنا تسكن المرأة التي احترق قلبها على فتاها الذي ذهب في ميعه الصبا، وريعان الشباب، وكثيراً ما ردد شباب الحي أنشودته المغناة:

(الدنيا حلوة وجميلة.. والمدة ما هي طويلة)...

ترى هل كان ـ خَالد زُهْدِي ـ رحمه الله بهذا القول يَرْثي نِفْسَه؟؟ بعض أصحاب الأصوات الجميلة الذين يمتحون من داخِلهِم لم يُعمِّروا طويلاً، سمع بموت «عقيل توفيق» ويذكر الفتى منزل ـ العم حامد توفيق ـ في حارة الأغوات، البيت الذي احتضن (ثابت) و(عاطف) أبناء عقيل ـ رحمه الله ـ وكم ربت الأمهات الأطفال فأصبحوا رجالاً، صديقه في مطلع العمر (هلال طرابيشي)، قال له ذات يوم إن أباه مات شاباً، انكفأت عليه «المرأة» الصالحة ربَّته وإخوةً له فأحسنت تربيتهم، العطف في قلبها عليه أغناها عن النَّظرة إلى الدنيا حتى وإن هي انقادت إليها بكُلِّ مَسرَّاتها ومباهجها، أما الثالث من أصحاب الأصوات الحسنة الذي انطفأت فيه جذوة الحياة فجأة: فهو السَّيد المرحوم «حسين إدريس هاشم» ودَّع الدنيا

في الخمسين من عمره وهو مُتكىء على حِجْر السَّيدة الفاضلة كان يحتسي كأس «الشاي» في منزل أصهاره من آل القَطَّان في مكة، وشيعته ـ المدينةُ ـ وشيّعَتْ معه تَارِيخاً طويلاً في فن الإنشاد، كان لوفاته وقع محزن في نفوس أهل البلد الطاهر، مثل ذلك الوقع الذي حصل عند موت «الرَّيس محمود نعمان»، يتذكَّر الفتى خبراً في صحيفة «المدينة» ـ لا يدري هل هو في عام ١٣٧٩ هـ أو ١٣٨٠هـ عن وفاة هذا المؤذن الذي تحدثت عنه «الركبان» في غدوها ورواحها بين بابي السلام والرحمة، مات «محمود» في مُقتبل العمر وبقيت قاعدته في الآذان عند عبد العزيز وعصام أبناء الشيخ حسين بخاري ـ رحمه الله ـ يوم يصعد «حسين» المنارة الرئيسة كانت جموع الحجاج تقف بالقرب من ساحة ـ فرش الحجر ـ تسمع لهذا الصوت القوي والشجي، تأخذها الخشية فتبكي. وكيف لا يبكي من يسمع «نداء» الحق وهو يرتفع بالقرب من القبة الخضراء؟ سوف تبقين رمزاً حياً فالبهاء الذي تتوشحين به هو من بهاء صاحب المقام الذي حن إليه الجذع، واهتز «أحد» عندما صعد عليه مع صاحبيه الصديق والفاروق ـ رضي الله عنهما ـ.

وإذا كان الجذع حن، والجبل اهتز، والسماوات تزينت عند إسرائه إليها، و«البراق» انحنى بين يديه ليمتطيه في رحلة المعراج إلى عالم الملكوت فكيف لا تحن قلوب المؤمنين الصادقين في حبهم، وكيف لا تنسكب الدموع في تلك الحضرة الشريفة.

لقد قطع الصحابي ـ رضي الله عنه ـ المسيرة من الشام إلى المدينة ليزور البقعة التي ضمت أطهر جسد، وأكرم نفس، وأشرف مخلوق، وسيد الخلق أجمعين ـ عليك صلوات الله وسلامه يا سيدي يا رسول الله.

(١٤)

يجد الفتى ـ نفسه ـ فجأة ـ في مكان يدعونه «الكتّاب» مخصص لتحفيظ القرآن، شيخ جليل اسمه محمد علي الحلبي هو المسؤول عن هذا (الكتّاب) الذي يتخذ من الجزء الخلفي من مسجد سيدنا مالك بن سنان ـ رضي الله عنه ـ الصحابي الذي جرح في موقعة «أحد» وحمل جراحه إلى داره التي كانت تقع في سوق «القفاصة» ومات هذا الأنصاري بعد أمد قصير، ودفن في داره، وانمحى هذا المعلم كما انمحت بقية المعالم، وبقي جيلنا يرى المناخة، وسويقة، والساحة، والعينية، والأغوات في منامه بعد أن كان يشاهدها في يقظته، ويتوقد الحنين في نفسه ـ يوماً بعد الآخر، ويزداد توقه كلما استحضرت ذاكرته تلك الوجوه النضرة التي كانت لا تفارق الابتسامة محياها، ابتسامة تنبعث من قلوب تعمقها الحب وأثمرت غراسه من ذلك الصفاء، واخضرت أغصانه من منبع الحب الذي أمد النفوس السوية بذلك الحنين إلى مواطن شهدت تنزل الرحمات، والتقاء الأرض بالسماء ولا تزال سماء تلك الأرض الطيبة محملة بذلك الأريج الذي تتناثر قطراته نعمة ورضا على قلوب قوم تأدبوا مع صاحب المقام وسيده.

في طريقه إلى الكتاب يسلك الفتى الطريق من المدرج، إلى الغمامة،

ويتوقف في سوق الحبابة لا يزال يتذكر مرأى ذلك الرجل الذي يزين وسطه بـ«الحزمة» ويمسك بكلتا يديه بما يسمى «المنخل» الذي يستخدم في تنقية الحب الذي يتكدس أكواماً أمام الحوانيت، وفجأة يضع الرجل «منخله»، لا تزال عينا الفتى تراقبه، لقد مر جسد محمول على الأكتاف، فتستيقظ النفوس من غفلتها، وتدرك نهاية هذه الحياة المتمثلة في الموت، يرفع الرجل صوته، وكأنه يذكر من حوله: «الموت يا غافل». ثم يعود إلى صنعته، كلنا في هذه الحياة نتلهى بصنعة «ما»، كلنا في هذه الحياة تلمع الحقيقة أمام أبصارنا «كالبرق» ثم تختفي، ثم نعود لنمارس لهونا وعبثَنا، إن اللهو لا يخصُّ الصِّغَار ـ وحْدَهم ـ ولكن الكبار هم يلهون ـ أيضاً ـ ولكنهم يغلِفونه بوجوه مختلفة، ولكنه يظل في النهاية لَهْوًا، ونستمرىء اللهو أحياناً فنغفل عن حقيقة هذه الحياة، تأخذنا مباهجها فننسى أخاً اضطرته ظروف دنياه لأن يَختفي عن الأنظار، ونلهث ـ يا صديقي ـ في دروبها وتشيح منا الوجوه، وتلتوي الأعناقَ فننسى صديقَ الطفولة، وحبيب الأمس، ورفيقَ الدَّرْب، فاللهم غُفرانك ورحمتك ورضوانَك على هذا الضَّعف وذلك النِّسيان.

(١٥)

أصوات ترتفع من هنا وهناك في سوق العياشة، كأنني أسمع صوت ذلك الرجل الوديع ـ محمد علي خراز ـ رحمه الله ـ «مبسطه» يقابل حانوت الشيخ أحمد حوالة ـ رحمه الله. وهذه مناسبة أذكر فيها الدكتور أنور ماجد عشقي، بأنه في ذلك الزمن الذي لم يدركه أي منا، كان هنا ركب يدعى بركب «الحوالة» وآخر باسم الداغستاني، وأن حمزة لبان ـ الذي كان شيخاً للحي الذي نشأت فيه المعروف باسم «العنبرية» انفصل عن ركب «الداغستاني» ولكن «اللبان» لم يعمر بعد ذلك طويلاً فسار بعده بالركب ابن أخته «إبراهيم سيف» وجاء بعد ذلك عبد القادر ـ المنشد ـ شيخا للعنبرية بعد «اللبان» وإن لم تخني الذاكرة فهو ـ أي المنشد ـ كان يرتبط بعلاقة نسب مع ـ آل بشير ـ والدهم المرحوم «حسن بشير» كان إماماً لمسجد بهرام آغا ـ بجوار التكية المصرية، وظهر اللبان في وقت كانت «العنبرية» تباهي بالرجال المطاليق فيها من أمثال «الدوي» الدودي، هو والمرحوم مصلح هويدي من أسرة واحدة، وكان الهويدي نسيباً لواحد من أشهر رجالات العنبرية والمناخة وهو ـ درويش سعد. ولقد أدركته في مطلع العمر هو وأخ له يدعى ـ محمد علي سعد ـ رحمهما الله ـ شيء يا صديقي الدكتور سمعته عن والدي، فرويته منسوباً له، وآخر شاهدته فالذاكرة ما زالت تعينني على تصويره، أحاول أن ألتقط صوره قبل أن تفر

من بين يدي، والتاريخ الحقيقي لأي مجتمع هو هذه الأشياء اليومية الصغيرة والمتناثرة. لم أشاهد الركب المدني فرجاله طواهم الزمن قبل أن يشتد العود مني، ولكنني شاهدت الركب المكي يدخل المدينة في مشهد بهي ومؤثر، تدخل الركائب حتى تصل إلى آخر شارع العينية، يصلي على الحبيب ـ ﷺ ـ الرجال من فوق ظهورها، ثم يعودون أدراجهم إلى الحلة في المناخة، أو إلى زقاق الطيار أو إلى باب الكومة حيث مقهى ـ الفار ـ رحمه الله ـ ويمشي كثير من أبناء «الحارة» القادمين للزيارة على أقدامهم حفاة إجلالاً لمقام الأرض التي وطئتها قدما النبي الخاتم ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ وبقي في مكة من أهل الركب غير الشيخ عبد العزيز محضر، ثلة من الرجال يأتي في مقدمتهم العم (عبد الله آدم) المزهد المعروف من أهل الشبيكة أما الحبيب «السيد عباس المالكي» فهو من أسرة علم وفضل، ولكن في جعبته الكثير عن الركب، ويعرف أبو عاصم عن فن الإنشاد ما لا يعرفه غيره، فحبذا يا صديقي لو سمع منك جيل اليوم ما كان يتمتع به جيل الأمس من رجولة وشهامة ونبل.

يا جليسي في حصوة المسجد، ويا من كنت أشكو إليه هموم الغربة، ووطأة الزمن وقسوته، فإذا هو يرسل ابتسامته الدائمة ليزيل ما حل بالنفس من وحشة وما اعتراها من قلق، أتذكر يا ابن الأرومة الطاهرة حديثنا ضحى في «نقا» الأحباب، وسهرنا عشية في «خيف» الرواجح،وجلوسنا بمقعد الصفاء «بشامية البصنوي»، ويوم رحل الرجل وهو ينطق بكلمات الحق وهو على كرسي الطبيب، لقد أذن وأقام وكأنه لم يخرج من المقام، خرج من هذه الدنيا وترنيمة «الحب» على لسانه وأنشودة الطهر والجلال تسري من بين شفتيه في سهول مكة وبطاحها وأوديتها، ويبقى الصدى

يعاود آذاننا بين الحين والآخر، فنلوذ بالصمت، ونحتمي بالماضي من عجائب دهر ذهب أجمله وبقي أشده وأصعبه.

ـ آخر الكلام:

شـكـراً لـكـم والـشـكـر يـو م، الـديـن في الـحـسـنـات يـوزن
ولـقـد تـأذن ربـنـا لـلـشـاكـريـن بـمـا تـأذن
إن الـذي صـاغ الـفـضـا ئـل، صـوغ مـقـتـدر تـفـنـن
حـلاكـمـو وحـبـاكـمـو مـنـهـا بـأجـمـلـهـا وزيـن
أخـلاقـكـم أبـدأكـمـا شـاهـدتـهـا ورد وسـوسـن
الـديـن والـنـسـب الـزكـي الـطـهـر والـحـسـب الـمـعـنـعـن
والـنـاس لـو وزنـوا بـكـم كـنـتـم بـفـضـل الله أوزن

(١٦)

كأنني بالرجل الوديع المبتسم ـ في سوق العياشة ـ ينادي الغادي والرائح ليشتري شيئاً من ذلك الخبز المتميز الذي يدعونه في البلدة الطاهرة بـ«الشريك» ويعرف في مدن أخرى مثل مكة شرفها الله ـ بـ«السحيرة» يقول الصوت «الشريكة... سته هلل... قرش ونصف».

الأجيال الصاعدة قد يأخذها شيء من الدهشة إذا ما عرفت أن «أقة» اللحم كانت ببضع ريالات، وأن «الشريكة» المخرومة من وسطها «المطرز وجهها بالسمسم لا يدفع في ثمنها أكثر من قرش وأن «زبدية» الفول «المدمس» تملأ من عند «العم عامر» في سوق «الحراج» القديم ببضعة قروش زهيدة، وكذلك تلقيمة «الشاي»، وكان أهل السوق يأخذون هذه «التلقيمة» إلى ذلك المكان الذي يؤمه الناس ليستمتعوا ببرودة الجو المنبعث من الأرض «المرشوشة» بالماء، وكذلك كانت «المقاعد» والقياع في منازل البلدة الطاهرة.

عرف ذلك المكان بمقهى «الشبراويشي»، واسمه الصحيح إسماعيل شبراويشي، خاله عبد الله شبراويشي ـ رحمهم الله ـ من أهل البلد الحرام، وكان «إسماعيل» واحداً من الرجال الذين لم تقع عيني ـ بعد ـ على من يماثلهم أناقة، وظرفاً، كان شيخاً لمهنة «الجزارة» في المدينة، وأجزم أنه

كان يقف على باب حانوته مبتسماً، يقطع «اللحم» في أناقة، لا يصيب ثوبه المصنوع من «اللاس» شيء من دم الذبيحة.

رأيته يأتي في سكون الليل إلى «العنبرية»، بجوار «دكة الترجمان»، ينتحي بوالدي ـ رحمه الله ـ جانباً، ويهمس في أذنه ببضع كلمات، وكان الوالد لا يستطيع حبس الدمع، ولكنني أتحسس انطلاق الدمع من جفونه، أتمنى لو كنت قادراً لأسأله ـ حينئذ ـ لماذا تبكي يا أبتاه؟ ولكنني أنتمي إلى جيل آخر، فرفع النظر إلى الأب نعده من سوء الأدب، فليقل أخواني وأبنائي من جيل اليوم ما يشاؤون، ولهم الحق في ذلك، أما نحن فهذا الذي نشئنا عليه وكفى، أعود إلى المشهد، أسمعه يتمتم ـ رحمك الله ـ يا علي ـ، وتنبهت لقد مات واحد من الرجال المطاليق ـ علي كاموخ ـ هذا لقبه، أما هو فينتمي إلى أسرة «المناع» في المدينة، ابن عمه عبد الله مناع، يقع حانوته غير بعيد من حانوت العم حجازي ـ رحمه الله ـ ومركاز الشيخ السمكري الذي كان عمدة لزقاق الطيار، كان «الكاموخ» ودرويش سعد، وأحمد محرم، وحسن سفر، وعباس بلاجي، رجالاً وأبطالاً وأهل نبل وشهامة في المناخة، وكان «الكاموخ» الأقرب إلى نفس والدي. . . أعود إلى الرجل الأنيق و«الذوق» إسماعيل شبراويشي كان كالابن لواحد من أهل مكة المجاورين وهو الشيخ محمد سلطان، هو والشيخ حسن موسى ـ صنوان ـ رحمهما الله ـ تضيق الدنيا بالرجل الكريم، يسمع بذلك الشيخ عمر بوقري يقطع الطريق من مكة إلى المدينة، شهامته ونبله تحمله على أن يسدد ديون ابن أرومته ـ محمد سلطان ـ ثم يطلب منه ـ أن يرافقه إلى الجوار الكريم في مكة، لم ينس «إسماعيل» فضل «الشيخ» سلطان عليه، ويسلك هو الآخر الدرب إلى مهبط الوحي، وفي دار البوقري يقول الشبراويشي وعلى مسمع من الناس: حتى هذا الثوب الذي

ألبسه، أدين فيه لفضل الله بداية، ثم لخير «محمد سلطان» يتعانق الرجلان وتطيب النفوس، صنيع البوقري الذي سمعته موثقاً عن والدي ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ ليس ببعيد عن صنيع واحد من الأخوين صدقة وسراج كعكي، فلقد سمعا بوفاة ابن عمهما في المدينة الشيخ عبد المعين كعكي ـ والد العم بادي، يسرع أحدهما الخطى إلى البلدة الطاهرة ليسدد ديناً وقع فيه الرجل الكريم والشجاع، كأني بوالدي ـ يقول: أبحث عن رجل في أناقة ووجاهة وظرف ـ عبد المعين كعكي ـ رحمه الله ـ فلا أكاد أجد من يشابهه في شيء من ذلك. وسمعت والدي يقول لحفيده ـ حمزة: لو كان جدك حياً لأتى بالخبز إلى سيارتي. ويعرّف والده بالمودة التي تجمع بين الرجلين، فيحث الحفيد الخطى إلى «قباء» وقبل أن ينطق الشاب بكلمات الاعتذار، كأنني بلحية الرجل المحب لأبناء أصدقائه، وأحفادهم، وقد تبللت بالدموع، ثم يربت على كتف الحفيد المهذب ويقول له في شيء من الأسى، كان لا يطيب لجدك ليله ونهاره حتى يطمئن عليّ.

ترى ـ يا صديقي ـ ماذا تقول لبعض قوم في زماننا ـ يسددون السهام الجارحة إلى أصدقائهم في غيبتهم، ثم يعانقونهم على مشهد من الناس!!

ترى ماذا أنت صانع بأناس يحملهم هوى النفوس على أن يركبوا مركباً صعباً مع من يأتمنونهم على أعز وأنفس ما في دنياهم، وإذا كان تلون الوجوه، وتذبذب المواقف لا يليق بسلوك المسلم، فماذا أنت قائل عن ما يمكن أن يدخل في باب الغدر، وسوء الطوية؟، ثم ألا تجد لي شيئاً أو قليلاً من العذر لأسرد على مسمعك شيئاً من سيرة أولئك القوم الذين طواهم الثرى، وضمتهم اللحود، بعد أن كانوا بدوراً يضيئون بسلوكهم دروب الحياة المعتمة؟!

(١٧)

تحمل الفتى قدماه ليلج «سويقة» من باب المصري، رووا لنا أن المحمل المصري كان يحط رحاله هنا. على بابك يا سيدي كم وقف المحبون، وبين يدي حضرتك كم ذرفوا الدموع، أيها النور المشع في أرجاء هذا الكون لقد طال بي البعاد وطوحت بذاتي المنهكة الأيام، يسألونني: متى أعود؟ أقول لهم (بكرة)، ويأتي (بكرة) وبعد (بكرة)، ولا أزال نائياً عن مواطن الطهر والجلال، حاملاً «مزودتي» أجوب هذه الدنيا فلا أجد مثيلاً لساحة باب السلام، ولا شبيهاً لفرش الحجر، وصفة الأحباب، وحصوة الذاكرين، و«رستمية» الأنقياء من المجاورين.

هذا باب المصري، وهذا حانوت العم «عثمان أبو عوف» لم يكن هناك في المدينة من لا يحب هذا الرجل، ويستأنس بحديثه، شاهدني ـ ذات يوم ـ وكان صديقاً حميماً لوالدي ـ رحمهما الله ـ وأنا أغادر المنزل بعد الإفطار مباشرة في شهر رمضان، فابتسم في وجهي قائلاً: عندي من العذر ما يجعلني أغادر «البيت» في هذا الوقت، فما هو عذرك يا بني؟ هو يتوجه إلى «المناخة»، و«الفتى» تثقل الهموم فؤاده فتنهب الأرض خطواته إلى «الحارة» و«الصيران» فهناك من تعشقت أرواحهم جمال هذا الكون، فاستغرقهم ذلك الجمال الأبدي، فصفت منهم نفوس، وتهذب القول في

ألسنتهم، واستقام منهم السلوك، ولم يحيدوا عن «المنهل» الذي أرشدتهم إليه بصائر مضيئة، وقادتهم إليه خطوات واثقة نهجت طريق السالكين ودروب المحبين.

بجانب ـ العم عثمان ـ يقع حانوت العم «صالح دردوم» وكان ابنه «محمد» يجلس في ذلك المكان، يبتسم في وجوه الناس من أعماق قلبه، عندما بدأت «روحه» تتفتح على ينبوع الحياة انطفأت جذوة الحياة فيه، فافتقده المكان الذي كان يزدهي به، وكان والده الأكثر حزناً على فقده، وكلما جمعني محفل بالعم «صالح» تبدى لي ذلك الحزن العميق من عينيه. وذات ليلة ـ هاتفني أخي عبد المحسن حليت مسلم، وروحه الشاعرة ـ دوماً ـ تشف عما في داخله، وصفاؤه جعله الوريث لشهامة ونبل والده ـ زينة أهل المدينة في قباء ـ الشيخ حليت بن مسلم ـ رحمه الله ـ يسري صوته الحزين عبر أسلاك الهاتف، يحمل إليّ خبر وفاة العم «صالح». وفي كل مرة ينعى إلى أبو الحسين رجلاً من رجالات البلد الطاهر أحس بأن الوجوه التي ألفنا رؤيتها في تلك البقعة المقدسة، قد اختفت، ومعها اختفى ذلك البهاء والشحن الذي كان ينبعث من أسواق المدينة، وحاراتها، وأشجار النخيل فيها.

في الجهة الأخرى من باب المصري يقع «حانوت» العم حسين نافع، خؤولته في آل «أبو عوف» وابن أخت القوم منهم. من هذه الحوانيت وغيرها تنبعث أصوات الريالات الفضة والجنيهات الذهب، وكما سكن الشعر دور المدينة منذ عصور سحيقة، فلقد استقرت في نفوس أهلها صفات الرقة والوداعة. يولد الطفل، يحملونه إلى المقام الطاهر عندما يبلغ «الأربعين» يوماً ـ وسمعنا من جيل مضى عبارة «ابن الحجرة» وإذا

استقامت خطوات هذا الطفل زينوا رأسه بكوفية مقصبة تتدلى منها الجنيهات. وإذا كبر حملوه إلى العقيق، والعاقول، وسيدنا حمزة، وقربان، ليبصر الماء وهو ينساب في مجاريه. وإذا شب سمع نداء ندياً يرتفع من جوار القبة الطاهرة، ومن هنا تعشقت أرواح الأجيال في طيبة الجمال في كل شيء، يهمسون بالقول فإذا هو الشعر ويرفعون أصواتهم فإذا الكلام منهم كحد السيف القاطع. ذلك يا صديقي ـ شيء ـ من تاريخ أرويه، ونفحات من الأدب أسردها.

(١٨)

«سويقة»، هذا الاسم الذي يطلق على الطريق الذي تنتشر على جانبيه الحوانيت ويعيش أهله كأسرة واحدة، يرضون بالقليل من متاع هذه الدنيا ويتجسد هذا الشعور في انتفاء ما يمكن أن يدخل في باب الحسد والغيرة وما شابه ذلك من الصفات الذميمة، بل إن القوم كانوا يرتفعون في سلوكياتهم إلى آفاق قد يعتبرها البعض من جيل اليوم مما يدخل في باب الأسطورة، وهنا لا أروي عن أحد ولكنني أنفض عن الذاكرة غبار السنين، فأتذكر جلوسي في حانوت الرجل الصالح السيد عارف طرابيشي ـ رحمه الله ـ بحكم مودة وأخوة تربطني بحفيده السيد هلال طالب طرابيشي.

كان السيد عارف يمسك بالمصحف الشريف بين يديه، وتفيض الأنوار ـ دوماً ـ على وجوه القوم الذين امتلأت قلوبهم بمحبة الله ورسوله ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ فهم بين منازل الحمد والشكر والذكر وكان الوقت ضحى، فجاء رجل وأخذ يقلب فيما يحتويه الحانوت من بضاعة «القماش» وسأل عن السعر، فرفع الرجل الوقور رأسه مبتسماً وكانت إجابته في كلمات موجزة ولكنها عجيبة ومدهشة: يا أخي ـ لقد استفتحت ـ ولله الحمد ـ انظر إلى جاري فلديه مثل هذا «القماش» وهو لم يستفتح بعد. صنيع الرجل الصالح، كلماته الهامسة، إجابته الصادقة تذكر بالآية الشريفة

«والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتو، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون».

رائحة البخور من «المجامر» تمتزج برائحة الأرض الطيبة التي تشرفت بخطوات سيد الخلق ـ وهو يتنقل بين أسواقها، وبساتينها، وأوديتها وجبالها. وصوت «الريس» تردد صداه قمم أحد، وسلع، والجماوات. ونداء الحادي يخترق هذا السكون المهيب في ليلها المضيء، إنه النداء الذي عرفته سماؤها منذ أن فتحت ذراعيها للحبيب الأعظم ـ ﷺ ـ يرددون في نشيد عذب، لم يستطع الزمان بكرّه وفرّه أن يأتي على شيء من حلاوته وطلاوته، بل هو يتألق مع مرور الأزمنة بهاء حين ترتفع به الأصوات المسكونة بالحب والشجن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع... وجب الشكر علينا ما دعا لله داع.

وطوى الزمن «سويقة» ولكنه لم يطو صفحات الذكريات الجليلة التي شهدتها حجارتها العريقة، ومنعطفاتها التي طالما أورق فيها حب صادق امتزج بدماء وعروق القوم الذين أكرمهم الله بالجوار وخصهم برؤية الروضة والمنبر، والمقام، إنه حبك الساري ـ يا ابن عبد الله صلى الله عليك وسلم ـ في أرجاء هذا الكون وسوف يظل كذلك إلى الأبد.

(١٩)

كانت تجلس أمامه على الكرسي الخشبي العتيق. هذا ذكرى أبيك عندما أتى بي إلى هذه البلدة الطاهرة من قريتي الصغيرة في الفِقِرة نَظَرَتْ إلى الشُّعيرات السوداء وسط تلك الغابة الكثيفة من الشيب المتناثرة في أماكن متفرقة بين رأسه ووجهه، وكانت عيناها لا تفارق تلك الغلالة من الحزن التي تركت آثارها العميقة تحت عينيه حتى لم تكد تفرق بين سواد عينيه، وتلك السحابة السوداء التي تركت الوجه النضير نهباً للآلام والأحزان منذ طفولته المتعثرة، وحتى كهولته التي جعلت منه شيخاً في زمن الاستواء والقوة.

تركت مقعدها ثم عادت تحمل شيئاً في يديها، رأى حركة أرجلها المتأرجحة، ثم وقف وارتمى على قدميها ـ باكياً ـ ورفع نظره إلى الوجه الملائكي قائلاً: كان يفترض أن أحمل «طبق» العشاء لك فإذا أنت تتجشمين العناء وتحملينه إلى ابن يبحث عن الرضاء تحت أقدامك وما أجمله من بحث وما أكرمه من موضع، وما أعظمه من جهاد.

كانت إجابتها دموعاً صادقة، ونظرات نحو الأفق البعيد ورددت أصداء كلماتها الصادقة جدران المنزل وأبوابه ونوافذه: «أنا مسامحتك» من كل قلبي يا بني سوف أذهب مع الصباح لزيارة مسجد المصطفى ﷺ والتمتع

بأجواء الروضة الروحانية. أشفق عليها من حرارة النهار، وكاد يقول شيئاً فإذا هي تسبقه إلى القول: لا تحرمني من زيارة سيدنا رسول الله عليه صلوات الله وسلامه.

تطل عليه من فتحة الباب وهو منكب على هذه الأوراق يدون فيها ما يدون ويكتب فيها ما يكتب، وكثيراً ما التهمت نيران الحياة ما دون وكثيراً ما ضاقت نفسه بهذا الداء المزمن، وكثيراً ما سأل نفسه لماذا نكتب؟ وبعبارة أخرى لماذا نحترق؟ ومتى يؤذن الفجر بميلاد يوم الحب والوفاء والطمأنينة؟

لا تريد أن تشغله عما هو فيه ولكنها تمطره بكلمات الدعاء فإذا هو أشد الناس سعادة في هذا الكون، وأكثرهم حظوة.

شاهدته في وقت متأخر يفتح الباب برفق، إنه يعاني من «القاتل الصامت»، وعندما يعود إلى فراشه يسمع وقع أقدامها تطرق الباب برفق لتسأله عن حاله؟؟ لم تتعلم «والدته» هذه العروبية «القادمة من أعماق الصحراء ومن بين أثيلات النخيل في «ريمة» و«عرقوس» و«أم ذيان» لم تتعلم في مدرسة ولا تزين غرفتها بشهادة جامعية ولا تلوي لسانها بألفاظ غربية ولكنها تحمل نفساً تأدبت منذ نشأتها، وأخلاقاً حملتها معها من تحت الوسادة التي كانت تضع عنقها عليها في بيت أبيها وجدتها لأمها.

ليتك تعلمين يا أماه أنت وأنداد لك من جيل ذلك الماضي الذي يمتح من أخلاق «الإسلام» الفطري كم هو عظيم ذلك الإرث الإنساني الذي تحملنه في دواخلكن وكم هو رائع ذلك الوفاء الذي كان يلمسه أباؤنا منكن في الغيبة والحضور! وكم هو نادر ذلك القاموس من الكلمات

الرقيقة والحنونة التي تسكبونها حباً وصفاء وشذى في آذان متعطشة ونفوس ظمأى، فقد اكتوى جيل ألماً وحرقة من ليل بهيم تبدلت فيه المثل والأخلاق وارتفعت من حوله أصوات تخال نفسها الأشجى والأجمل فإذا هي للأسف ـ الأكثر دمامة وقبحاً.

شكر وعرفان

إن هذا العمل المتواضع الذي تمتزج فيه السيرة الذاتية بملامح الماضي الذي تتشكل منه صور حقيقية ومضيئة عن إنسان ذلك الزمن في ذلك المكان الطاهر الذي تحن إليه النفوس المؤمنة حباً وعشقاً وهياماً، هذا العمل الذي أطلقت عليه منذ البداية في حارة الأغوات مسمى (الصورة الأدبية) ولم أدَّع أنه يدخل ضمن دائرة الإبداع الروائي، كما أنه أبعد ما يكون عن التاريخ بمفهومه المتداول أو الشائع، ولكنه إبداع له نسقه وصورته الخاصة به، نعم إن هذا العمل ما كان ليخرج على هذه الصورة لولا توفيق الله ـ بداية ـ ثم بمجهود أخوة كرام يأتي في مقدمتهم الأخ الأكبر معالي السيد الدكتور غازي عبيد مدني الذي قرأ العمل وتفاعل معه فكانت مقدمته التي اعتز بها من قلم أديب ومفكر كبير، أما الأخ الكريم والشاعر المبدع الأستاذ عبد المحسن حليت بن مسلم فلقد بذل من الجهد لإخراج هذا العمل ما يجعله جديراً بالدعاء والامتنان له من الأعماق لإخلاصه ووفائه ومحبته، كما أشكر الزميل الأستاذ الدكتور محمد خضر عريف على مراجعته للعمل في صورته النهائية، أما الزميل الدكتور والكاتب المعروف راكان حبيب فحبه للأدب والعلم يجعله يضحي كثيراً فيحتضن أعمال زملائه ويتابعها بجهده حتى ترى النور.

رحلة الشوق في دروب العنبرية

الإهداء

إلى التي شاركتني نصف عمري، فكان معها نصف العمر جميلاً. . .

والتي شاركتني نصف همي، فكان الهم معها قليلاً. . .

والتي أحبها والدي. . .

وتحبها أمي. . . وسارة، وسحر، وأحمد، وأسيل. . .

أما أنا. . . فكل هؤلاء. . .

تقديم

الشاحنة التي ستقلنا من جدة إلى مدينة رسول الله ﷺ تقف بجوار بيتنا منذ الصباح الباكر، وصوت «المزهَّد» جميل قمري يتصاعد في تلك الدروب العتيقة:

«شدّوا الرحال اليوم... والشوق ناداهم

وتجمعوا الأحباب... من بعد فرقاهم»

والدي يزهو بعمامته «الغباني» أمام باب الدار، ووالدتي وجدّتي قد فرغتا لتوهما من ترتيب الكعك والمعمول أو «زوّادة السفر» كما يقولون... كنت طفلاً لم أبلغ الحُلم بعد، أشعر بفيض من الفرح لزيارة مدينة المصطفى ﷺ، تلك المدينة التي شهد ثراها خطاه، وعانق ليلها قيامه، وألف فجرها قرآنه...

تتحرك الشاحنة ببطء شديد، وكانت أحلام يقظتي تستبق الشاحنة والزمان والمكان... هذه (ذهبان) أولى محطات الطريق، تتوالى بعدها المحطات (ثول) (القضيمة)، (صعبر)، قبل أن تلوح لنا من بُعد (رابغ) بنخيلها، ومقاهيها، وبيوتها الطينية... ليبدأ الجدل بين أبي وسائق الشاحنة، فأبي يفضل أن نستريح في رابغ بينما راح السائق يغري أبي بأسماك «مستورة»، وقهوة «عليثة» التي لا يُعلى عليها من وجهة نظر سائق

الشاحنة، لكن أبي حسم الجدل بإصدار أوامره للسائق بالتوقف، معللاً أوامره بتعب المسافرين، إذ لم نكن وحدنا على ظهر تلك الشاحنة، فلقد كان يشاركنا الرحلة عدد من الأسر (الجدّاوية) التي لم تكتف بجوار الحارة، فآثرت أن تجاورنا على ظهر الشاحنة أيضاً!

وفي أحد «المراكز» البعيدة في ذلك المقهى العتيق تجمع الرجال من رفاق الرحلة، بينما ضمت النساء إحدى الغرف الطينية المجاورة للمكان... وقد كان لوجبة السمك تلك مذاقها، ولأحاديث المسافرين عذوبتها...

ولم يطل بنا المقام هناك، فسرعان ما عدنا من جديد على ظهر الشاحنة، تطوي بنا المزيد من القرى «مستورة»، «الواسطة»، «بدر»، «الفريش»، «المسيجيد»، ثم «أبيار علي» التي لاحت لنا من بعدها مآذن الحرم النبوي الشريف، ليرتفع صوت الأطفال بالنشيد:

«طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع»

كان الليل قد تجاوز منتصفه حينما وصلنا إلى «عروة» وهي المحطة الأخيرة في الطريق إلى المدينة المنورة، ولم يكن ثمة خلاف بين المسافرين في أن يكون دخولنا إلى المدينة فجراً، لذا كان علينا أن نقضي ما تبقى من الليل في «عروة» نفترش الأرض، ونستقبل النجوم صدراً بصدر.

في الصباح كانت الشاحنة تعبر باب «العنبرية» مروراً بحي العنبرية الذي تصدر عنوان هذا الكتاب «رحلة الشوق في دروب العنبرية»، ولعل

المؤلف حينها ـ بحسب تقدير د. محمد خشيم ـ كان طفلاً يطل من إحدى تلك النوافذ المشرعة على الطريق، حينما راحت الشاحنة المنهكة تدخن وتصفر وتزمر قبل أن تتوقف بالقرب من باب المجيدي، حيث كان الدليل في انتظارنا ليقودنا إلى السكن الذي أقمنا فيه بعد ذلك أياماً لا تنسى، ننطلق خلالها مع صياح الديكة إلى الحرم النبوي الشريف لأداء صلاة الفجر، ثم السلام على نبينا المختار محمد ﷺ، قبل أن يحتضن خطانا شارع «العينية» بحوانيته الأنيقة، نلتهم شراب «السحلب» الساخن في تلك الصباحيات الباردة، ونمضي يومنا بعد ذلك بين بساتين (بضاعة) و(الصافية) ومقاهي المناخة، ومنعطفات «سويقة» الضيقة، قبل أن تضمّنا من جديد حصوة الحرم بين المغرب والعشاء، لننعم بالتنقل بين قارىء للقرآن ومتحدث بحديث خير الأنام، في أجواء روحانية لا عهد لنا بها من قبل.

ذكريات عمرها عشرات السنين تنسكب في لحظة إثارة منحني إياها مؤلف هذا الكتاب الأديب والمؤرخ الصديق الدكتور عاصم حمدان، فلقد تفضل علي بطلب كتابة مقدمة هذا الكتاب الذي أخذني عنوانه إلى دروب التاريخ ورائحة الزمن الجميل... فعاصم حمدان لا يكتب تاريخاً. ولا يسجل واقعاً فحسب، ولكنه يرسم بالكلمة صوراً إبداعية لا يتقنها إلا مصور فنان يلتقط صوره بعدسة القلب والعقل والوجدان.

هذا المدني الجميل المحيّر بثقافته الاجتماعية ما حل بمدينة قط إلا وأصبح جزءاً من ذاكرتها الاجتماعية ونسيجها العام، يجمع كل هذا في تناغم فريد مع مرجعته «المدينية». فلقد قصد مكة المكرمة طالباً، فغدا خلال سنوات معدودة خبيراً بأهلها وشعبها وحكايات رجالها، فإذا ما

قرأت كتابه (أشجان الشامية) ظننته ذلك الأنيس الذي افتقده الشاعر في الزمن القديم بين (الحجون) و(غليم) ذلك الأنيس الذي لفحته مكة برياح سمومها، فامتزجت في شخصيته رجولة أهل مكة، ودماثة أهل طيبة.

وتطوّحه المعرفة بعيداً في بلاد الاسكتلنديين سنوات طويلة، ولكنه عاد بعقله وعقاله، فلقد أخذ من الإنجليز والاسكتلنديين علومهم التي تحت القبعة، ولم يأخذ القبعة، كما فعل الكثيرون.

وفي جدة التي يستوطنها الآن معلماً في جامعتها، لم يعزل نفسه قط في برجه الأكاديمي، فلقد بسط علمه على قارعة المدينة، يكتب في صحفها، ويتحدث في أنديتها، ويسامر أهلها في برحة «المظلوم»، ودروب «العلوي» ومجالس البيوت العتيقة العامرة في حارات اليمن والشام وأطراف المدينة المتناثرة.

أصدقاؤه خليط من خلق الله الطيبين، وولائم داره تضم العالم الجليل مع ولد الحارة النبيل، كما تجمع الثري الكريم بالفقير العفيف، فليس لصداقته اشتراط غير الحب، وليس لحبه اشتراط غير النقاء.

ولعلكم تلاحظون أنني تحدثت عن الكاتب ولم أتحدث عن الكتاب، فإذا كان من مألوف القول أن «الكتاب يُقرأ من عنوانه» فإن من صدق التجربة أن «الكتاب يستمد أهميته من قيمة كاتبه»، وعاصم حمدان قيمة علمية وإبداعية، وذاكرة انتمائية، لذا لا أنصحكم بقراءة هذا الكتاب، ولكن بالسير معه وجدانياً في «رحلة الشوق في دروب العنبرية».

محمد صادق دياب

رحلة الشوق بين العنبرية والحارة

مع شروق شمس كل يوم أغر من أيام البلدة الطاهرة التي هاجر إليها سيد الخلق وشفيعهم إلى الله مأموراً من رب العزة والجلال، واحتضنه ثراها الذي تطيب بوجوده فيها عندما لحق بالرفيق الأعلى وقد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حق جهاده، عندما تطلع الشمس بهية في سماء البلدة الطاهرة يحمل الفتى دفاتره وكتبه بين يديه، ويقبض على قروش محدودة تدسها والدته في أحد جيوب ثوبه. ولم تعلم المرأة التي قدمت من ديار حرب وتعلقت نفسها بديار الحب والإيمان لم تكن لتعلم أن أطفالاً في سن ابنها سوف يسطون على تلك القروش أو الهللات ويظل هو وحيداً في فناء المدرسة ينظر إلى زملائه وهم يأكلون نصف «الشريكة» مع الجبن من مقصف حاج موسى ـ رحمه الله ـ في دار العلوم الشرعية... يتلفت يمنة ويسرة في دروب يسلكها هائماً أو عاشقاً ومتأملاً... هذه أشجار السدر تظلل منحنيات الطريق الذي يسلكه وهذه العربات تجرها البغال تحمل أمتعة الناس وأشياءهم وهذه أصوات الباعة تنطلق من السوق أو الخان تريد أن تستفتح كما يحكي اللسان الفصيح هنا في معقل الإيمان هذا طريق (الشونة) يتوقف الفتى لينظر إلى ذلك الوجه الإيماني الذي يسكن في ربوة عالية، يخرج الرجل من الربوة ليسكب الماء على أطرافه، لا بد أنه يريد أن يؤدي صلاة الضحى... خطوات قليلة

يقطعها ثم يقف الفتى أمام فرن المعلمة (وحيدة) امرأة تطلب لقمة العيش حلالاً من عرق جبينها ليس في هذا الفعل ما يشين بل إنه الشرف الأكبر والمنزلة الرفيعة التي كانت تتبوأها المرأة في البلدة الطاهرة، تذكر حديث والده ـ رحمه الله ـ تنصب الكلمات في أذنيه وتظل هناك في الذاكرة إلى الأبد. . . «رأيت يا بني الفتيات يحملن على رؤوسهن التراب عندما هدم فخري باشا ـ غفر الله له ـ أسواق المدينة لمآربه الخاصة حين كان والياً على المدينة، وأذاق أهلها من صنوف العذاب ما أذاق»، يتابع الفتى مسيرته يلمح رجلاً مهيباً يدخل من باب السلام قادماً هو الآخر من حي الشونة، وخلفه طلاب يرتدون العمائم ويسيرون في أدب، إنهم من حفظة القرآن الكريم، ولم يكن ذلك الرجل المهيب الطلعة سوى عباس قاري أحد حفظة كتاب الله في بلد المصطفى ـ ﷺ ـ وأزعم أنه من القلائل الذين كانوا يرتلون القرآن مجوداً كأحسن ما يكون التجويد. . . وتحضرني الآن أسماء المشائخ من أمثال الشيخ حسن الشاعر، وأحمد ياسين خياري، وحسن بخاري وحسين عويضة، والسيد أحمد السنوسي، وعبد العزيز بن صالح رحمهم الله.

يدخل الفتى المدرسة يأمل ألا يكون متأخراً وإلا فعصا الأستاذ سليمان سمان الغليظة تكون في انتظاره، ونظرات حادة من وكيل المدرسة الأستاذ المربي بكر آدم رحمه الله كفيلة هي الأخرى بإدخال الرعب إلى نفسه المرهفة جداً، في الساحة التي تقع أمام مبنى المدرسة ينتشر الباعة، ولكن بائع (الأقر) ـ وهي حلوى إندونيسية الأصل ـ أعتقد أن له النصيب الأوفى من القروش التي حملها الطلاب في جيوبهم، وفي بعض الأيام تكون هناك فسحة من الوقت قبل الدخول إلى المدرسة، يسير الفتى خلف بعض

الزملاء قاطعين المسافة بين المدرسة وبين ما كان يعرف قديماً بباب الجمعة، والذي لم يبق منه إلا ذلك الكركون ـ بناء من الخشب ـ يجلس في داخله رجل ثقيل النكتة باهت الابتسامة لا يلتفتون إلى حديثه، وكان باب البقيع ـ والذي أول من دفن فيه ـ أخو الرسول ﷺ من الرضاعة سيدنا عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

وحين ندخل البقيع نبدأ بالسلام على من ضمتهم الربوة الطاهرة من آل بيت المصطفى ﷺ وزوجاته وبناته، وننتقل إلى آخر المقبرة حيث يقع قبر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهو الذي استحت منه ملائكة السماء، ثم قبر فاطمة بنت أسد رضي الله عنها والدة الرسول من الرضاعة وأم سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي التي لحدها الحبيب ﷺ بيده ودعا لها مستغفراً ومتوسلاً. وبين القبرين مساحة تغرينا بالوقوف فيها برهة من الزمن، حيث تهب النسمات الندية التي تبعث في الروح نشوة إيمانية مميزة، كيف لا والرحمات تنزل من السماء على أكرم من مشى فوق الثرى وصلى وقام وحج واعتمر؟

كان مراقب المدرسة عطوفاً على الفتى، فقبل مدة يسيرة من حلول موعد الظهر يسمح له مع عدد يسير من الطلاب بالصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، إنه يوم تظلل فيه سماء المدينة سحب الرحمة، ويأخذ الفتى موقعه في مؤخرة الجزء القديم من المسجد، هناك يجتمع شمل المؤذنين. وقبل دقائق من حلول الأذان يقطع هؤلاء الرجال المسافة بين هذا الموقع ودكة الأغوات ويستلم كل واحد منهم مفتاح المنارة التي سوف يؤدي نداء الإيمان من طوفها، ويلمح الفتى شاباً في مقتبل العمر يقوم مع والده الذي يمسك (ببسطونه) كما يقولون، يلبس طاقية بلدي منشاة، وثوباً تكاد تلمح من أعطافه كيف يكون كي الملابس متقناً من قبل سيدات الدور آنذاك

وأكاد أزعم أنني لم أعد أرى ذلك الهندام الجميل والأناقة الطبيعية. . . ولم يكن ذلك الفتى إلا الشاب عبد العزيز بخاري، ولم يكن الرجل الذي تهذبت أعطاف ملابسه سوى والده الشيخ حسين بخاري رحمه الله، وأتذكر أنني سرت في ذلك الوقت من عام ١٣٨٣هـ، أي قبل حوالي أربعين عاماً وكنت يومها في المراحل الأولى من الدراسة، سرت متتبعاً خطى ذلك الشاب الذي لم أره من قبل في ساحة المؤذنين حتى وصل إلى باب المنارة التشكيلية نسبة إلى أسرة معروفة كانت تؤدي الأذان في القرن الثامن الهجري كما ذكره مؤرخ المدينة ابن فرحون. وارتفع الأذان من المنارة الرئيسة المجاورة لمثوى سيد الخلق ﷺ، وكان الشيخ بكر خوجة رحمه الله يؤذن في منارة السلام، وارتفع صوت الشاب من التشكيلية وكان حسين بخاري رحمه الله صاحب صوت قوي وشجي يستدر الدمع من العيون حتى وإن كانت عصية على انسكاب الدمع. وخيمت على سماء المدينة يومها أجواء الخشوع والطمأنينة وتسابق الناس من العينية والساحة وسويقة يستمعون لنداء الحق من جامعة الإسلام الأولى، وانتظر الناس خروج الشاب الذي تجاوز العشرين من عمره بسنوات قليلة، وقطع المؤذن الشاب عبد العزيز بخاري المسافة بين آخر المسجد في البناء الجديد إلى ساحة المؤذنين وكان والده أكثر ما يكون فرحاً، واستقر صوت عبد العزيز في نفس الفتى فمتى سمعه عادت به الذكرى إلى الماضي، يعيشه شوقاً وحباً وحنيناً في أعماق نفسه إلى أيام مضت في الرحاب الطاهرة قضاها متنقلاً بين السيح والحارة، وقرأ الدرس في حلقات العلم على أيدي رجال لهم ألسنة طاهرة وقلوب صافية ووجوه نضرة وأمني النفس بالعودة أقول لها (بكرة) و(بعد بكرة) يجي بكرة وبعد بكرة ولا أزال في البعد قصياً فمتى يا حبيبي وسيدي يكون اللقاء في الروضة سوياً. . .؟؟

ذكريات من باب العنبرية

(١)

ينقل الفتى خطاه في شيء من الحنين والشوق من المدرج في العنبرية، هذه دكة الترجمان والتي كان الناس يقصدون هذا المكان لأمرين كان لهما دلالتهما الاجتماعية في تلك الحقبة الماضية من تاريخ البلدة الطاهرة. ففي الدكة كان يقوم كُتَّاب المعلمة زينب مغربل ـ رحمها الله ـ وكثير من سيدات المجتمع المدني اللاتي تعلمن القراءة والكتابة وعلوماً أخرى يرجعن الفضل في تلقي العلم قبل أن تكون هناك مدارس نظامية لتعليم المرأة إلى المعلمة ـ المغربلية ـ. وشعرت بشيء من الحزن لأن هذه الرائدة توفيت قبل سنوات قليلة بعد وفاة زوجها الذي كان يدعونه في المدينة بـ(الباشا) لأناقته، دون أن ينوه بدورها التربوي وريادتها العلمية واحدة ممن عرفنها وتلقين العلم عنها.

لقد كان العم طه مغربل صهراً، ولهذا عرف الفتى كتاب المرأة التي ظلت وفية له إلى أن بلغ من العمر ما يقرب من مائة عام. وكان الفتى يصطحب أخته الكبرى من المدرج في (السيح) ومن دارهم المطلة على مجرى سيل (أبي جيدة) إلى الكتّاب. وكان يلفت نظر الفتى ذلك البناء المميز والمقابل لـ(دكة الترجمان)، ويتوسط هذا البناء مسجد صغير يدعى

بمسجد سيدنا بلال ـ رضي الله عنه ـ ويحيط بالبناء فناء تظلله شجرة من أشجار السدر التي كانت تظلل شوارع البلدة الطاهرة وأسواقها، ثم اختفى السدر واختفت معه النخلة، وتلاشت ملامح كانت تميز عاصمة الإسلام الأولى، وتلاشى معها ماض جميل قضاه جيلنا، أي جيل تعني يا رفيق العمر؟ وأي ماض ترسخ في أعماق النفس طيبه وشذاه وكيف تتطلع لأن أقتلع من النفس حباً تمكن!! أو أن أمحو من الذاكرة مشاهد انطبعت أو قل إن شئت ترسخت في الأعماق السحيقة أو البعيدة من هذا الذي يسمونه شعوراً؟ وهي تسمية تحاول الاقتراب من تلك المنابع الأولى للتكوين العقلي والنفسي ولكنها تعجز عن الإحاطة بها فالمعنى يحاول الانفلات من لفظ التعريف هذا، واللفظ يحاول اللحاق ويظل ما هو مجهول في هذا الكون أكثر مما هو معروف. وكثيراً ما عبر اللفظ عن قصور معرفة هذا الإنسان؟ إن لم يكن جهله الذي يحاول إخفاءه أو التعمية عليه. وأن شيئاً من هذا الجهل يقود البعض أحياناً إلى تكبّر وصلف شديدين يجنيان عليه وربما أبعداه عن الطريق السوي.

أعود إلى الأمر الذي كان من سمات (الدكة) والتي تعد من مشاهد حي (العنبرية) مثل (التكية المصرية) و(القشلة) ومحطة سكة حديد الحجاز ومقر الجامعة الإسلامية القديمة التي كان ينوي السلطان عبد الحميد إنشاءها، ثم تحول مكانها مقراً لثانوية طيبة. هذا الأمر هو وجود ما كان يعرف بـ(الحمّام) الذي يقصده الزوار عند قدومهم إلى المدينة وإقامتهم فيها زائرين ومسلّمين ومتأدبين.

لم يكن حمّام (ذروان) أو حمّام (الدكة) الذي يعمل فيه رجل صالح يسكن بالقرب من المنزل الذي نشأ فيه الفتى حيث زقاق السيد أحمد، لم

يكن القوم الذين يقصدون هذه الحمامات من الزائرين فقط، فلقد كان يستمتع بالماء الدافىء فيها والذي يستخدم فيه البخار استخداماً طبيعياً في تسخين الماء الذي ينسكب من منابع متعددة تثبت أنابيبها على الجدار المصنوع من الحجر والطوب ومادة الجير أو ما يسمى ـ النورة ـ. لقد كان يستمتع به الأهالي، فالمرأة تقصده بعد أربعين يوماً من ولادة الطفل، والرجل يصطحب معه أقرب الناس إليه ويذهب للاغتسال في الحمام ليلة عرسه.

يا ماء كان ينساب قوياً في المسيال، يا قطرات ندية كانت تتساقط على الأجساد في (البرحة) وما بين المصلى والمحراب، يا نفساً كانت تحلم بفجر تسطع فيه الشمس البهية بين الحصوة وباب السلام، يا أذناً تعودت على صوت ندي وخاشع يرتفع بالقرب من القبة والمقام. يا أحباباً اختفت منهم الوجوه في زحمة الحياة. يا نفوساً طاهرة وبريئة جنت عليها قسوة وغلظة طاغيتين، وبدد آمالها جفوة ما كنا نحسبها أنها ستضحي لغة من نصبوا أنفسهم حماة للرأي الواحد المتسلط، وقواماً على الفكر الذي تجرد كلياً من عاطفة الإنسان. إنه التيه الذي دخلت فيه أمة كان الحب هو نبضها الذي به تعيش!! والتعايش والوئام والقبول بالآخر هو الذي أعطاها قوة الصمود والتحدي على مر التاريخ، وجاء من يسلبها عنوة هذا الحب الذي كانت به تعيش وعليه تتغذى، وعلى نسماته تنتعش وتنمو.

ذكريات من باب العنبرية
(٢)

قد أتيت في المقالة السابقة من هذه الذكريات أو التداعيات على كُتّاب المعلمة مغربلية الكائن ـ في الماضي ـ بما يعرف بدكة الترجمان (نسبة لأسرة عريقة ببلد المصطفى ﷺ) في ذلك الكُتّاب قرأت أمهات اليوم بعضاً من المعارف والعلوم، وأشرت في شيء من الأسى والحسرة بأن تلك الصفحة المضيئة قد طويت، وأن عبارة الأستاذ المرحوم محمد حسين زيدان «بأننا مجتمع دفان» هي عبارة تنطبق إلى حد كبير على واقعنا الاجتماعي والثقافي كأفراد ومؤسسات فكرية وأدبية. إلا أن ذلك الأسى قد تبدد وتلك الحسرة قد انحسرت عندما هاتفني أستاذي وصديقي ناجي محمد حسن عبد القادر الأنصاري بأنه بصدد إخراج بحث عن كتاتيب تلك الحقبة الماضية، عفواً إنها جامعات حقيقية تعلمت الأجيال فيها الأدب قبل أن تحفظ الدرس وتتلقى السلوك الرفيع في حياة كان أدب النفس قوامها، وإنسانية السلوك هي ما تباهي به وتفاخر. خطوات محدودة تفصل بين دكة الترجمان وذلك البناء المتواضع المشرف على (السيح) مجرى سيل (أبي جيدة). في ذلك المكان تلقى الفتى دراسته الأولى إنه الكُتاب الذي كنا نقرأ القرآن فيه على الشيخ محمد صالح البيحاني. الذي كان من خير

حفظة كتاب الله في البلد الطاهر. وكان يؤم الناس في مسجد الغمامة أو المصلى مع الشيخ سيف بن سعيد ـ رحمه الله ـ. كان الشيخ سيف رجلاً سمحاً متواضعاً وكان مسؤولاً لحقبة من الزمن عن هيئة الأمر بالمعروف وكان الرفق دأبه في معالجة أمور العباد بحكمة ودراية ـ ما أحوجنا اليوم إليها ـ ولقد كان الشيخ عثمان الصالح ـ أمد الله في عمره (والد صديقنا الدكتور ناصر الصالح مدير جامعة أم القرى المكلف) من هذا الطراز النادر من رجال العلم والمعرفة.

مع إطلالة كل يوم يحمل أبناء الحارة أطباقاً ويقصدون دكان العم محمد الفوال ثم يعرجون على فرن (حاجي بهاء) يشترون التميزة بأربعة قروش، ثم يعودون أدراجهم إلى الأحواش المنتشرة على طرفي شارع العنبرية يأكلون القليل من الزاد، ثم يقصدون المدرسة المنصورية أو المحمدية. طلاب الأمس ـ يا صديقي ـ لا يملكون سيارة توصلهم إلى باب المدرسة أو فنائها. كان الجد والتحصيل هما ما يشغل منهم العقول والقلوب.

لم يدرك الفتى فرن العم حجازي الذي كان في حي العنبرية. فلقد انتقل صاحبه إلى حارة الأغوات وهناك عاش بقية حياته وحيداً بعد أن فقد رفيقة حياته وهي في معية الصبا، كان الناس في الحي يتحدثون عن جمالها الفاتن، وكانت كما يقول التعبير المدني (ست بيت).

الرقة في مجتمع المدينة شيء متجذر من عهد النبوة. فلقد ذكرت أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «قدمنا المدينة وما فيها من بيت إلا وينشد فيه الشعر» أو كما قالت ـ رضي الله عنها ـ. وكان ضرب الدف في حشمة ووقار هو سلوة الناس في زمن البراءة والطهر، وكان الإنشاد

في مجالس القوم هو دواء القلوب الكليمة.

حسين بخاري وعبد الستار بخاري ومحمود نعمان والسيد عمر عينوسة، ومن بعدهم عقيل توفيق وإبراهيم وعيد صباغ، والسيد حسين ياسين، والسيد إدريس هاشم كانت هي الأصوات الخاشعة والمتبتلة في محراب الحب والصفاء والنقاء.

ذكريات من باب العنبرية
(٣)

كان الفتى يلحظ في وجوه سكان هذا الحي من المدينة الطاهرة كثيراً من سمات البراءة والنقاء. على الرغم من تباين المناطق التي قدم منها هؤلاء القوم، إلا أن تربة المدينة المباركة وهواءها وتلك النفحات التي خصهم بها سيد البشر ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ بالدعاء لهم بالبركة والدعوة إلى محبتهم، كل ذلك وغيره صهر القوم وجعل منهم وحدة مترابطة وقواماً متماسكاً.

أزقة العنبرية، أحواشها، ومنها الراعي، الجوهري، أبو ذراع، أبو جنب، سنان، مرمه، الهاشمية، السلطان... يسكنها بعض المنتسبين إلى قبيلة حرب العريقة وبعض من أتباعهم. وكانوا يعاملون هؤلاء الأتباع معاملة إنسانية سامية. وكان الطفل ينادي الحليف أو التابع باللغة المدنية الرقيقة الدارجة (أبوي).

في الأعياد وفي حفلات الزواج يخرج الرجال ويتجمعون في حلقة الزير. لباسهم ثياب بيضاء فضفاضة، يلوحون بالسيوف ومع أن لعبة الزير أقل جاذبية من لعبة المزمار إلا أنها أكثر أماناً فالقوم يتفننون في حركاتهم مع إيقاع الأيدي التي تصفق بحسب (الكَسْرة) أو (الدانة). ومع هذا فلم

يعرف أن أحداً مس قبيلة وإن كان من حارة أخرى بسوء إلا أنه في المزمار ومع التصاعد يرتفع الدم إلى الرؤوس التي تطيش عن حلمها حيناً، وتخرج عن المعقول فترى الرجل مضرجاً بدمه بجانب النار، ولربما ظن البعض أنني أروي عن الكبار في هذا الشأن، ولكنني أؤكد أنني شاهدت الزير والمزمار والرفيحة وألعاباً أخرى وهي في ذروتها وقوتها، في الوادي وفي خيف الرواجح، وفي بحرة كان سيد جماعته الشريف كامل بن سعيد الراجحي (رحمه الله) وكنا معه نشهد الرفيحة وسواها. وكما تنمو الشجرة ثم تسقط الثمرة في أوج قوتها ونضجها، سقط كامل صريعاً. أخلاقه، حبه، وفاؤه، ذكرني ويذكرني دائماً بصديقنا ابن عيسى رحمه الله. كان يقابل أنداده من أهل الأحياء الأخرى ويكاد ينكفىء على أيديهم ليقبلها لا يفعل ذلك عن ضعف ولا رغبة في تزلف، ولكنه نُشّىء على هذا الضرب من الأخلاق لقد طوى شراعه وقضى وهو في الأربعين من عمره، وبكيته أنا وصديقي ابن جبل ـ رحمهما الله ـ لقد كان هذا الأخير معاذ سيداً في جماعته ـ أيضاً ـ نصد عنه من جهة فيقابلنا من جهة أخرى وترتفع أصواتنا عليه فيقابلها بابتسامة هادئة. وكنت أسأله عن الحكم الشرعي في قضية فيأتيني بالقول محكماً على المذاهب الأربعة. جلس إلى العلماء وأخذ عنهم وحفظ ودوَّن ولم تسعفنا زحمة الحياة للتدوين وهو الأصل في الأخذ عن العلماء.

أعود إلى (الزير) فلقد اجتمع أهل العنبرية وباب العوالي في مناسبة قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وشاهدت كلي عابد يصيخ بكلتا أذنيه لكَسْرة رجل ضرير من أهل العنبرية وبجانبه رجل يضرب على الزير اسمه العم مستور (رحمهم الله جميعاً) ثم يذهب ابن عابد لضيفه ليجيبه بكَسْرة مماثلة

على الفور، ويسمع الناس صوت الحادي في كل مكان!!

يا صديقي: لقد كان الحب يجمع الناس على مختلف مشاربهم في بلد الحب والأمان، أترى قد وارينا الثرى ذلك التسامح والحب والوداد هناك في الربوة؟؟ أم تراه تبخر في السماء وأضحى ذرات تائهة؟

اليوم يا صديقي يرفض أحدهم أن يلقي السلام على أخيه في الدين لأنه يخالفه الرأي في مسألة. ونسوا أن الإمام البخاري روى عن كبار المعتزلة مثل عمرو بن عبيد الذي قال فيه الخليفة المنصور: «كلكم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد» وأن سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عندما سئل عن الخوارج: هل هم كفار؟ قال: «هم من الكفار فروا»، ووصفهم بأنهم «إخواننا بغوا علينا». وإن الإمامين الجليلين ابن تيمية والسبكي اختلفا فلم يُكفّر أتباع كل منهم الفريق الآخر. ويختلف المسيحيون واليهود وغيرهم من أهل الملل الأخرى ولكنهم لا يوجهون سهامهم إلى صدور بعضهم البعض. ويظل الخلاف محصوراً تحت قبة المجلس وبين جدران مجالس الحوار. ولا يمتد إلى شؤون الحياة جميعها فتأكل ألسنته الأخضر واليابس على حد سواء.

هل نريد أن نتعلم من غيرنا أو يعلمنا غيرنا؟ إن في تراثنا الإسلامي والعربي البعيد منه والقريب، الحاضر منه والغابر، أمثلة حية لما يمكن أن يكون نبراساً لمن يحمل العصا. إنها عصا سوء الظن بالآخرين وعقائدهم، ويتأبطها تحت ذراعه عفواً إنه يقبضها بين أسنانه وتحت أنيابه وأضراسه ليهوي بها ـ زوراً وبهتاناً ـ على كل من يخالفه الرأي، أو يناقضه التوجه والقول.

إننا بحاجة إلى كثير من التروي والتفكير العميق البعيد عن التجهم

والغلظة والقسوة والجفوة. نحن بحاجة إلى التعقل والرشد، وحسن الظن بالآخرين قبل أن نلقي التهم جزافاً، ونحكم على الآخرين تهوراً، متوهمين أننا وحدنا من يملك مفاتيح الصفح والغفران.

إن من يملك تلك المفاتيح هو رب العزة والجلال، وما منا إلا من يصيب ويخطىء. وصدق عالم المدينة المنورة أنس بن مالك ـ رحمه الله ـ عندما قال: «كل منا يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر» وكان يشير في أدب جم إلى ضريح سيد الرسل وخاتم الأنبياء رسول الله ﷺ.

اللهم ارزق أمتك ـ أمة الدين الخاتم والوسط ـ أرزق قلوبهم الحب والوئام وجنبهم الزلل وطيش الأحلام. فلقد تكالبت الأمم عليهم كما تتكالب الأكلة على قصعتها ـ وهو ما أخبر به الهادي البشير ـ عليه صلوات الله وسلامه. ومع هذا فهم ينظرون إلى بعضهم شذراً، ويقف بعضهم لإخوانه في المعتقد ليردعهم بقسوة هي الأشد والأنكى عليهم من ضربة العدو المتربص بهم وكان الأولى أن يُحدّثهم في رفق وينصحهم في دعة ومحبة.

ذكريات من باب العنبرية
(٤)

في أيام الخليف (عيد الأضحى) كانت المدينة تكاد تخلو من سكانها، وكانوا قلة فهم يذهبون للحج، في تلك الأيام الخالية التي لا يسمع فيها إلا صوت (السانية) يتسلل الصوت من بين الأشجار، ليصل إلى الأسماع في جميع البيوت المحيطة ببساتين مثل (الحجارية) في التاجوري و(أم هاني) في (السيح) و(الزاهدية) في قباء... وهذه الأخيرة جفت مياهها، وتساقط ورق أشجارها، وخلت من روادها بعد أن انتقل إلى رحمة المولى صاحبها الشيخ محمد سرور الصبان. لم يمت بموته بستان الزاهدية فحسب ولكن بموت أبي حسن أقفلت دور، وتيتم رجال. وكنت تدخل البلد الحرام فأول ما تقع عينك عليه، هو بستان (الشيخ). كانت الحياة تسري به كما يسري الماء في (قناطر) تربته، ولكن نخلته قد تقوست والأرض يبست، وصوت الحادي اختفى، عندما ضمت الحجون والمعلاة ذلك الألمعي الذي قال فيه شاعر جازان الكبير محمد علي السنوسي يرثيه:

أبا حسن كم في الحجاز عواطف   تذوب التياعاً مثل ما يحرق الشمع

الذين عاشروا (محمد سرور الصبان) لم يدونوا سيرته والذين عرفوه عن بعد، كانوا الأكثر تعلقاً به وسمعت الأستاذ الأديب بسام البسام معلقاً على أبيات شعرية قالوا إن الصبان كان يضعها فوق رأسه، وهي الآن موجودة في صالون أبي الشيماء الأستاذ محمد سعيد طيب. لقد قال أستاذنا البسام إنه يحق (لمحمد سرور) أن يضعها بحيث يراها كل من دخل داره في أم الدرج فلقد طوق أعناق الرجال حقاً بالمتن. وكأنني استوحي من كلام أبي طارق، أنه كم من ثري استطاع أن يصل إلى قلوب عامة الناس وخاصتهم؟ مثلما كان الحب الخطوة للشيخ الصبان.

لقد كان (الصبان) ـ رحمه الله ـ صاحب أياد بيضاء على أهل الفكر والأدب في داخل هذه البلاد وخارجها.

وأشار الأستاذ المرحوم عزيز ضياء في كلمة رثى بها (الصبان) مضمونها أن محمد سرور يسمع الكلمات جهراً وهمساً من أناس يأكلون على مائدته ويشربون من إنائه، ويطرقون بابه في الملمات، فيكرمهم وهو حافظ لكرامتهم. ومع هذا كان يقابل الكلمات التي تجري على ألسنتهم حسداً بابتسامة عريضة. وربما تغافل عن سماعها أخذاً بقول الشاعر:

ليس الغبي بسيد في قومه ... ولكن سيد قومه المتغابي

كانت يد محمد سرور طويلة في الخير كطول قامته. وكان حلمه مضرب المثل حتى بين أولئك الذين لا يميلون لشخصه.

وحدثني الشاعر والصديق محمد صالح باخطمة أن حمزة شحاتة الذي لم يكن على وفاق مع الصبان دوماً كتب إليه في أخريات حياته، وكان شحاتة يعيش في مصر حياة الكفاف بعد أن كف بصره وارتضى العزلة

بعيداً عن صخب الحياة وضجيجها، كتب إليه في حاجة ما واستخدم العبارة التالية: «إنني أكتب إليك ولعلك تعجب عما أكتب إليك بشأنه!!» فلقد كان شحاته شامخاً في كل شيء في شعره في نثره، في مواقفه، في أحاديثه وكان أنيقاً في كل شيء أناقة لم يبق اليوم منها شيء وشموخ دفن مع النفوس التي تشربته أو تعمقته حتى الثمالة.

يواصل الصديق الكريم باخطمة حديثه لي وكان ـ عندئذٍ ـ قنصلاً في السفارة السعودية بمصر. وكان على صلة كبيرة مع الأستاذ شحاتة في أخريات حياته. لقد أتى الرد المطلوب من محمد سرور في مدة لا تزيد على اليوم والليلة. وذكر الأستاذ الزيدان وكان هو الآخر ـ رحمه الله ـ ليس على وفاق مع الصبان، بأنه على الرغم من الجفوة التي كانت تحيط علاقة الصبان بشحاتة، إلا أن شحاتة كان يرفض أن يذكر الشيخ عنده بسوء ويغضب لذلك.

وأروي شخصياً عن الوجيه إبراهيم شاكر ـ سمعته يتحدث بها في منزل والدي ـ رحمهما الله ـ بقباء بالزاهدية: «إن شحاتة كان يكتب شعراً فيه شيء من الهجاء للصبان، وكان هناك شخص لا يحب الصبان، فأرسل أحد خاصته ليعبر عن إعجابه الشخصي بشعر شحاتة الذي كان ينشر تحت اسم مستعار، ودخل الوسيط على الإنسان (شحاتة) ونقل له إعجاب ولي نعمته بما يكتبه من شعر. وبما تومىء به أبيات ذلك القصيد المتوهج.

فغضب حمزة غضباً شديداً، وكف عن شعره في هذا المنحى، فلم يرض أن يستخدم أداة لتصفية حسابات شخصية بين (الصبان) ومناوئيه، وأروي عن الوالد ـ رحمه الله ـ في هذا الشأن ـ أيضاً أن رجلاً اسمه حسين فوال ـ آمل أن تكون الذاكرة قد أسعفتني في تذكر اسمه الصحيح ـ

كان يعمل سائقاً خاصاً للشيخ (الصبان)، وقد وشى البعض عند أحد إخوان الشيخ بأن شقيق سائقه يبيع البنزين خلسة وكان الوقود في تلك الحقبة شحيحاً فما كان من أخي الشيخ (الصبان) إلا أن ينفس عن ذلك بضرب السائق، ولما حان موعد خروج الشيخ من منزله سأل عن الرجل فقالوا له إنه غادر وترك مفاتيح السيارة، وعرف (الصبان) بالقصة وطلب السائق، وطيب خاطره، وعينه رئيساً للكراج، والتفت إلى أخيه قائلاً: إذا افترضنا أن أحداً سرق دارنا، فإن (العيش والملح) يوجب علينا أن نخرجه من دارنا نظيفاً فكيف وهو ملء برديه نظافة وطهراً، وكان يقصد بانتساب السائق لبلد المصطفى ﷺ.

وسمعت قبل ما يقرب من ثلاثة عقود الشيخ حسن بن ذياب بن ناصر الصهر للسادة آل المدني (وذلك بعد قدومه من رحلته الطويلة في تركيا واستقراره في المدينة، ولقد كان والده أحد رجالات المدينة والذين حظوا بثقة المغفور له الملك عبد العزيز بعد تسليم المدينة) سمعت الشيخ حسن في المناخة يخاطب والدي قائلاً: «دخلت على محمد سرور في عزه، فقام وأجلسني بجانبه، وسألني إن كانت لي حاجة يتشرف بقضائها، أما المرحوم العلامة الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، فلقد كتب بعد وفاة الشيخ يقول: «إن ضائقة حلت بأديب العربية الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ـ رحمه الله ـ وكان عفيف النفس إلى حد بعيد فعلم العطار بذلك للصلة التي تربط بين الرجلين، فأخبر الشيخ محمد سرور، ففكر الصبان ملياً في مساعدته دون أن يجرح كبرياءه فأرسل في طلب أعداد كثيرة من كتبه (العبقريات) وضاعف له الثمن، وبهذا حفظ للعقاد كرامته وكبرياءه».

لقد سمعت المرحوم إبراهيم فودة يتحدث عن الشيخ الصبان حديثاً

ممتعاً وذلك في منزل اللواء علي زين العابدين وكان (الفودة) عمل لفترة سكرتيراً للشيخ الصبان ومات إبراهيم ولم يدون شيئاً من تلك السيرة العطرة. وكل ما هو متوافر في أيدينا كتاب المرحوم عبد الله عريف، وبقيت الكلمة أمانة في عنق الإنسان المهذب الأديب أمين عبد الله فهو من خير من يعرف الصبان. فهل يستجيب لهذا النداء، ويقول كلمته عن واحد من أبرز رجال عصره، وأكثرهم جرأة، وأمتعهم حديثاً وأصفاهم نفساً، وأوسعهم خلقاً وأطولهم، في الخير يداً وندى؟!

«محمد سرور لم يصنع الأدب، ولكنه بجهد الابتسامة الراسخة، والإيجابية الطامحة قد نشره وبهذا كان خيراً من صانعيه.

(من مقال للأستاذ محمد حسين زيدان، محمد سرور، البلاد، ١٢/٤/ ١٣٩١هـ).

ذكريات من باب العنبرية

(٥)

الأنوار تنبعث خافتة من فتحات النوافذ المطلة على الساحة التي تفصل بين باب عبد العزيز وبقيع الغرقد ولكن الأنوار التي تشع على النفس والقادمة من ساحة فرش الحجر هي ما كان يجذب الفتى إلى تلك الأماكن، باعثة في دواخله صفاءً وحباً، وتلك اللذة الحقيقية التي لو ذاق الآخرون شيئاً منها لما نعوا على الفتى حنينه وأخذوا عليه مثل هذا الوجد والتعلق ولتركوه في حنينه ووجده وهيامه وتعلقه. فهو غير آبه بما يقوله القوم عنه وليس واجداً فيما يهمسون به غضاضة أو أمراً جللاً.

انصرف الناس مسرعين من تلك الساحة بعد أن حل موعد إغلاق أبواب المسجد الطاهر. ولكن أنى للفتى الذي تعشقت روحه ذلك الألق وانغمرت بفيضه أن ينصرف؟ وأنه ليعز عليه أن يختفي من بين ناظريه ذلك المشهد البهي الذي يجمع بين المنارة الرئيسة والقبة الخضراء وما حوت الأرض تحتهما من أجساد طاهرة هي أنفس وأعز وأطهر وأكرم ما حوته الأكوان بأجمعها.

ينطلق الفتى مع رفيقه الزين من قرب دار العلوم الشرعية حيث قضى الفتى أحلى أيام دراسته بين جوانب فصولها ويتجهان نحو الساحة المجاورة

للبقيع فإذا ـ فجأة ـ يربت على كتفيه قائلاً: هل شاهدت المعلم؟ يشير إلى المكان الذي يمشي فيه الرجل بخطوات مطمئنة وواثقة، نعم إنه المعلم قلادة لعله لقب الحارة أو كنيتها.

رجل يلبس ثوباً قد أتقنت حياكته ويرتدي فوقه جبة بيضاء أو (كوت) ويعتمر كوفية بلدي، ويتدلى طرفا إحرامه أو غترته من على كتفيه، يمشي مختالاً كبقية الصفوة من مفاليح الحارة ورجالاتها. ولو دققت النظر في لون ثيابه لرأيتها من شدة بياضها ومعالجتها بالنشاء كياً وتهذيباً، نعم لرأيتها تنضح نوراً وتسطع بهاءً في ضوء تلك القناديل الجميلة الخافتة الضوء التي كانت تزدان بها أزقة البلدة الطاهرة ودروبها المسكونة بالطمأنينة والسلام والوئام. أناقة المعلم محمد عثمان تذكرني بأناقة رجلين آخرين هما الأفندي محسن بري وإبراهيم البسام ـ رحمهما الله ـ وكان حانوت المعلم مواجهاً لباب جبريل. تلقي عليه التحية فيرد عليك بكلمات الحب والصفاء النابعة من قلبه الطيب، ويبتسم فتشعر أنها الابتسامة التي يهديها إليك حبيب أو صديق. فلم يكن القوم يعرفون الابتسامة الصفراء، ولا تلون الوجوه، ولا تناقض المواقف، ولا ازدواجية السلوك، وكان حانوت المعلم أكثر ما يكون ازدحاماً بالرفاق ما بين صلاتي المغرب والعشاء. ثم ينصرف المعلم مسبحته في يده، وذكر الله على لسانه، فهو من حفظة كتاب الله، ويجالس العلماء، ولكن على هدي وبصيرة. فلم يجنح يوماً لمواقف المتشددين وظل الحب مشربه، والنقاء طبعه ومسلكه.

يا صديقي: اليوم نبتاع الغالي من الثياب، ونركب الفاره من المطايا، ولكن البريق والنصاعة قد فقدا مما نلبس، والجمال تبدد وتلاشى فيما نركب عليه لاهثين ومسرعين. أترى ما كان يبدو على وجه القوم من

جلال وعلى أطراف ثيابهم من نصاعة مرده إلى قلوبهم التي فطرت على الحب، وأرواحهم التي سمت بالذكر، ونفوسهم التي انصقلت بالرفيع من الأخلاق والعظيم من المثل؟ أم أن الرجال الذين كانوا يزينون الملابس عندما يرتدونها ويمنحونها من أعماق نفوسهم بهاءً وجلالاً قد انطفأت جذوة الحياة فيهم فهم تحت أطباق الثرى يرجون رحمة ربهم؟ أم أنهم أضحوا أحلاس منازلهم ورضوا بالخلوة مع بارئهم فمنحهم من نعم الحب والوصال ما أغناهم عن الحياة الزائلة، والمخلوق الضعيف الفاني؟

ولقد تسألني يا صديقي عن هذه الرحلة التي انطلقت فيها سائراً من العنبرية إلى الحارة وفرش الحجر وما بينهما، فإنني لأعيدك إلى مقالة سابقة التي ذكرت فيها أيام الخليف، حيث يتركها أهلها إلى مكة حاجين ومعتمرين، في تلك الأيام التي أضحت بعيدة زماناً ونائية مكاناً خرج المعلم أو ولد الشيخ إشارة إلى أسرته ذات التاريخ العلمي، خرج إلى العنبرية حيث يحلو السمر البريء مع الخلان، وعندما بلغت به قدماه إلى حلقة اللعب لم يجد جماعته من أهل الساحة. وتفرس في الوجوه فلم يجد عيال الرباط ومفاليحه. ورأى نظرات ترمقه شزراً ولكنه الضيف على أهل الحي الذي يمتلىء بأهل الشهامة والنخوة من أمثال حمزة لبان والدوي وعبيد الله عبد الرجال. ورفع المعلم صوته بزومان له دلالته عند أبناء الحارة، سمعوه يقول:

غريب ولا لي جماعة ... في وسط بيشة وداعة
تكفون يا أهل الشجاعة ... غريب ولا لي جماعة

وكنت نسيت الشطر الثاني من هذا القول فذكرني به الشيخ سراج عياد، فهو والسيد الفاضل عباس مالكي يحفظون ما لا أحفظ.

وتجاوبت مع صوته الطيور الوادعة في مخابئها بين أشجار النخيل والرمان. وسرى الصوت بين قناطر المياه وردده جدران القشلة وقباب التكية. وابتسمت وجوه القوم له، وتحلقوا حول ذلك الفتى الفارع الطول، القوي العزيمة والطيب الخلق ولم تستطع العيون الغريبة أن تنال منه شيئاً.

تلك شيم وأخلاق رفيعة تعمقت في النفوس وامتزجت في دماء القوم قبل أن تتجسد سلوكاً وتتبدى في أفعال أبناء مدرسة الحياة حقيقة وواقعاً. ولنبك اليوم ـ نحن معاشر المثقفين ـ حالنا كيف يخون أحدنا رفاقه بعد عشرة دامت سنيناً، ويقرضهم بين أسنانه بغضاً، وحقداً حتى يصل ذلك ـ أحياناً ـ إلى شيء من سوء الأدب.

ذكريات من باب العنبرية

(٦)

يخرج الفتى من المدرسة التي اختارها له والده معتقداً، وكان على حق فيما ذهب إليه، بأنها من أفضل دور العلم في البلد الطاهر يخرج لأداء صلاة الظهر في المسجد الطاهر وسمع المؤذن يعلن الصلاة على الميت صلى في الصفوف الأولى، ثم تسلل بين الناس ووصل إلى باب (جبريل) حيث تخرج (الجنائز) من هناك، ويقصد بها أهلها المقبرة التي تحمل في المدينة اسماً خاصاً وهو (البقيع). إنه يريد الولوج إلى داخل هذا المكان الذي تحيط به الأسوار، وعلى بابه يقف الحراس. وكان دخول صغار السن آنذاك ممنوعاً وفجأة يبرز وجه يعرفه من (أهل العنبرية) ومن حوش (مَنَّاع) الذي كان يسكنه عدد كبير منه (الحيدري) وهي أسرة كريمة عرف الفتى منها الشيخ محسن الحيدري والذي كان صديقاً حميماً لوالده وهو ابن للشيخ (عتيق) الذي نال من الحظوة لكرمه وشهامته ما هو جدير به حباً وثناء وذكرى طيبة.

لقد كان الوجه المعروف لدى الفتى هو (العم محمد بن عيد الحيدري) واحد من الرجال إذا مشى من (حوش مَنَّاع) إلى العنبرية حيث دار صديقه السيد حبيب محمود أحمد ـ عافاه الله ـ التفتت الأنظار إليه.

فثيابه العروبية الفضفاضة هي من التميز بحيث تتحرك أطرافه أناقة مع مشية (العزّ) التي كان يمشيها هذا الرجل الذي قضى في يوم من أيام الغفران والرحمة وهو يوم العيد. هؤلاء ـ يا صديقي ـ جيران حبيبه ومصطفاه وأنه ـ عز وجل ـ ليحسن الخاتمة لكثير منهم. فهم المحبون لله ورسوله، والباذلون من جيوبهم عطاء، ويتحدثون في أدب جم فكأن العطر ينسكب وريح الصبا تهب، والمزن تتقاطر ذراته حباً ورقة وشفافية.

أمسك الفتى بذراع الجار الكريم وتوسل إليه أن يدخله معه ليتجاوز هذه الأسوار إلى ما وراءها ـ لم يخيب الرجل توسله، فهو يعرف أباه، وأمسك بيده وتجاوز الحارس الذي كان يرد الناس برفق. اليوم يا صديقي يدفعك البعض دفعاً ويرفع صوته محذراً وكأنك قادم من عصر الجاهلية، أو كأن هذه الأرض لم تعرف نزول الوحي وانتشار العلم والمعرفة بحيث عبادة غير الله لا يمكن أن توجد في أرض الحرمين الشريفين. فنحن نطبق شرع الله ونلتزم به جماعات وأفراداً. ولا حاجة لهذه الوصاية العنيفة التي تُنَفّر الناس وترسم صورة قاتمة ما أغنى مجتمعنا الطيب والملتزم عنها، فهلا يفيقون؟

كان الفتى يحس بشيء من الرهبة بددها بروز بعض الوجوه التي يعرفها، وكان من بينها وجه العم أحمد عسيلان ـ رحمه الله ـ الصديق الحميم لحسين شوبل وجميل عبده والرفيق في مجلس المحبة لـ (حمزة الفت) و(إبراهيم صباغ) رحم الله تلك النفوس البريئة.

وأمسك أحدهم بيدي العم (العسيلان) المرتعشتين، فلقد كان يريد إلقاء نظرة الوداع على من تمدد جسده بالقرب من تلك الربوة الطاهرة ووجد القوم الأتقياء من الحرص بحيث يجلب بعضهم (الطوب) الذي كان

يصنع في داخل (البقيع)، طوب مادته من ذرات الأرض المؤمنة والطاهرة. والبعض الآخر يلقي (حفنة) من التراب الذي امتزج بتراب الأجساد الطاهرة من الصحابة وآل البيت والتابعين والأخيار ـ رضي الله عنهم ـ والبعض يرفع يديه داعياً لمن يريد أن يحل في داره الحقيقية موئلاً وسكناً، ويكون بين يدي المولى الكريم الذي جعل الرحمة من صفاته الأزلية والتي يتعلق بها عباده وعبيده ويتشبثون بها في حياتهم، وعندما يوهن منهم العظم، ويشتعل الرأس شيباً.

في صباح يوم أغر ـ هو يوم عيد الفطر ـ أسلم ذلك الرجل روحه. الرجل الذي جعل الفتى يكسر حاجز الخوف في نفسه من ذلك السور القائم، والباب الخشبي العتيق. من دون مقدمات تمدد العم (محمد بن عيد) وتوجه للقبلة فكان صعود الروح لبارئها، وخرج جاره العم الطيب القلب والقول (أحمد عسيلان) وكان معتزلاً في داره ولم تعد سماء الأرض الطاهرة ووديانها تردد صوته الشجي محلقاً ومتسامياً:

عيري على السلوان قادر   وسواي في العشاق غادر

خرج (الشاوش) وكانت الكنية دلالة طيبة على رجل طيب في أرض طيبة، وتحدث بصوت متهدج حزين وقال: «سوف تدفنوني بعده» ولم يمر الشهر حتى حمل سكان حوشي (منَّاع) و(عميرة) وأهل (العنبرية) ذلك الجسد النحيل وأودعوه تلك الربوة التي رآها الفتى إبان طفولته وهو ينظر إليها في كثير من الشوق والحنين.

ذكريات من باب العنبرية

(٧)

لا يتذكر الفتى متى رأى بعد عودته من صلاة العيد، أبواب المنازل ونوافذها مشرعة، لم تكن الأبواب يا صديقي هي التي تفتح على مصراعيها، ولم تكن (الرواشين) وحدها التي إذا ما وضعت أكواب الشاي على أطرافها لتتناولها الأيدي في رشاقة ثم تعود حيث كانت وكأنها ثبتت على تلك الأطراف تثبيتاً لا يتناثر منها شيء، ولا يرشح من قاعدتها ما يفسد منظرها البهي ولقد زين أعلاها بتلك الخطوط الذهبية البديعة.

كان قبل ذلك قلوب قد ملئت حباً صادقاً، ونفوس قد تخلصت من الغش والحقد، ووجوه قد كساها الإيمان هيبة ووقاراً، وأنه ليرى الناس يدخلون أفواجاً لتلك المنازل الواقعة أمام مبنى الإمارة القديم خلف مسجد المصلى أو الغمامة، وكان من تلك المنازل المتميزة دار وساعة يسكنها معظم آل البري، وهي من أقدم الأسر التي جاورت في بلد المصطفى ﷺ.

لقد أدرك الفتى وجوهاً نضرة من آل البري، منهم محسن بري، وقد كان يعمل في حقبة ماضية رئيساً لديوان الإمارة. وكانت داره في باب الشامي بجوار منزل السيد أمين مدني مفتوحة للزوار والضيوف. وكان أبو

(إحسان) يحتفظ بعلاقات إنسانية مع حاضرة المدينة وباديتها. ولقد سمعت الشيخ عوض الشريوفي (من رجالات حرب فرع الحوازم) يقول: «كنا إذا قدمنا إلى المدينة لا يتركنا الأفندي محسن من دون ضيافة» وكان الشيخ برادة صديقاً حميماً لصاحب تلك الدار، فإذا زار المدينة اجتمع القوم وازدان بهم مقعد يعرفه الفتى وهو على يمين الداخل للدار، فلا يحلو مجلس الأدب والمعرفة من دون حضور الريس عبد الستار بخاري الموسوعة في التاريخ والأدب، وعلم القراءات. وكان صاحب صوت ينبعث منه الجلال والخشوع إذا ما رفع الأذان من (المنارة الرئيسية) ـ هكذا ينطقونها في المدينة ـ أو (منارة باب السلام) وكان من إتقانه للقرآن الكريم حفظاً وترتيلاً، لا يقوى على السكوت إذا ما سمع خطأ في التلاوة حتى وإن كان في ذلك المكان المرتفع والمطل على الروضة والذي يدعونه بـ (المكبرية) نسبة إلى (التكبير) وراء الإمام. وكان إذا غاب الريس من (المكبرية) لانشغاله أحياناً بتدريس القرآن في مدرسة القراءات التي كان يديرها السيد أحمد ياسين خياري، سأل عن سبب غيابه شيخ من خير الرجال الذين ارتقوا المنبر والمحراب في مسجد رسول الله ﷺ وأعني به فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح ـ رحمه الله ـ. ولا أخال الناس إلا تزدهي وتسر من ذكر سيرة هذا الرجل الذي كان رفيقاً بالأمة، ومتأدباً في الجوار وملماً بالفقه ومقاصد الشريعة. فهو عالم وفقيه قبل أن يكون إماماً وخطيباً. ولقد عرف الفتى وجوهاً كريمة أخرى من أسرة آل البري، منهم أبو الهدى بري شقيق (محسن) وكان لا يفارق مثل أخيه لبس العباءة أو (المشلح). ولقد كانت دار عبد الجليل بري في المناخة مفتوحة للمقيمين والزائرين بل رأيت العلماء من الديار الأخرى يؤمون دار ذلك الرجل الكريم. أما دار عبد الغني بري والد مأمون وإخوانه ـ فإن لم تخن الذاكرة

الفتى ـ فقد كانت تقوم على مدخل حي الساحة من جهة مسجد سيدنا مالك بن سنان ـ رضي الله عنه ـ والد الصحابي الجليل أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنهما ـ وكان عبد الغني بري ينظم الشعر مثله في ذلك مثل الشيخين إبراهيم وابنه عمر بري. فمع أن الشيخ عمر كان محدثاً في الحرم النبوي الشريف إلا أنه كان للأدب نصيبٌ كبيرٌ من ثقافته، وخلف ديواناً شعرياً حققه الدكتور الأديب محمد العيد الخطراوي ـ عفا الله عنه وشافاه.

وحدثني الأستاذ محمد حميدة ـ بقية أهل الفضل في المدينة ـ بأن الشيخ عمر كان يملك ذاكرة قوية حتى إنه ليكاد يحفظ كتاب (الأغاني) لأبي فرج الأصفهاني.

ولعلك لا تجد عند ذلك الجيل من العلماء ما يمكن أن يوصف بإقامة الحدود والحواجز بين علوم الدين وعلوم الفكر والأدب. وكانت جميع صنوف وفنون العلم والمعرفة تشكل كلاً واحداً لا يتجزأ. أما المرحوم محمد العمري المتوفى في الستينيات الهجرية الذي كان عالماً فذاً يدرس علوم الدين في المسجد الطاهر، فإنني أحفظ من شعره ما لو أنني رويته لهاج البعض واندهش البعض الآخر. ولقد شطّر تلميذه السيد عبيد الله مدني شيئاً من تلك المقطوعات الغزلية وسمعت أن السيد محمد محمد أمين كتبي ينظم الحولية في كل عام مدحاً في رسول الله ﷺ فيحلق بسامعيه في أجواء الشعر كما كان يحلق برواد حلقته في المسجد الحرام في علوم اللغة التي كان لا يشق له غبار فيها.

ومن هذا الصنف من العلماء الشيخ إبراهيم فطاني فلقد كان فقيهاً وقاضياً وشاعراً متميزاً وأنشد المنشدون من شعر (العمري) و(الكتبي)

و(الفطاني) فلامس ذلك الشعر منهم القلوب وأرهف المشاعر واستدر الدمع حباً ووجداً وهياماً.

ولعلي نسيت أن أذكر من آل البري الرجل الوديع أمين بري فلقد كان كريماً وفتح أبواب داره التي تعود ملكيتها في السابق لآل سعود والمطلة على زقاق الطوال وشارع العينية. وذكر إبراهيم رفعت في كتاب (مرآة الحرمين) أن وظيفة شيخ الفراشين في الحرم النبوي الشريف كان يشغلها ـ آنذاك ـ رجل اسمه أمين بري. وأتى الأمير شكيب أرسلان في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) على ذكر أسرة آل البري الكريمة.

ذكريات من باب العنبرية

(٨)

لن ينسى الفتى صورة ذلك الفتى الأسمر الذي كان يسند ظهره إلى حائط كوبري المدرج، والناس في القيلولة نيام، ممسكاً بتلك الآلة الخشبية بين يديه، نافثاً فيها من أنفاسه التي تحمل أنات حزينة. ولا يسعك إلا أن تفتح روشان منزلك فتسمع إنشاد (جمعة) والعرق يتصبب من جبينه قطرات حرّى وكان الفتى يأنس لذلك كله ويشعر بالتعاطف مع إنسان لا يجد ملاذاً إلا في ظل الشجرة التي كانت تظلل الحي كله. فهي للمسجد الذي يحمل اسم الخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هي لفناء المسجد وقاء، ولأطفال الحي حب وحنان. فهم يرمونها بالحجارة الصغيرة وهي تمنحهم حبات النبق الحلوة المذاق.

وهي الأنيس لمن كتبت عليهم الوحدة أو تعشقوا ذلك النمط من الحياة الهادئة البعيدة عن صخب الحياة وضجيجها. وربما كان (جمعة) لا يجد من يناجيه من الناس من أحد، فاختار شجرة النبق أنيساً وحبيباً. وكأن ملامح وجهه تنطق بالأسى من جحود البعض وتنكرهم، ولربما وجد البعض فيما خلقه الله من طبيعة تبرهن على عظمة الخالق وقدرته لربما وجدوا في الجبل، والنهر والبحر، وخضرة الأرض ما يغنيهم عن حب

يبذلون له مهجهم، ويتحملون من أجله عناء يثقل النفوس وتوهن معه قلوب لا تقوى على تحمل هذا الطبع المتجذر في داخل النفس الإنسانية. وكان باعثاً وراء ما أبدعه الإنسان من فنون متنوعة حفظت للحياة بهاءها وصفاءها، وبقي الإبداع رمزاً للعطاء الإنساني الجميل وقضى أصحابه في كثير من الأحيان صبراً وكمداً وحزناً.

يختفي (جمعة) بعد أن يرسل تلك الأنات الحزينة. ويبدو مع إيذان الشمس بالغروب بروز امرأة تتشح بالسواد عائدة إلى منزلها في قباء بعد تركها له مع صباح كل يوم. ويسمع الفتى تفسيرات متعددة لسلوك هذه السيدة سمعها تتمتم قائلة: «لقد فقدت ابني الوحيد» وسأل نفسه لماذا كانت تلك المرأة الأنيسة التي لا تفارق دارهم تتعاطف مع تلك المرأة التي تلبس الجامة السوداء؟ وأدرك في كبره أن ذلك التعاطف كان مرده إلى أن تلك السيدة الأنيسة المتأنقة في لباسها وحديثها لم ترزق الأولاد مع أنها كانت محظية بالزواج أكثر من لداتها من نساء الحي في حوش عميرة. وكانت الأسر تتنافس في أن تقضي معهم الخالة آسية رحمها الله أكبر وقت. فهي تجيد إلقاء ذلك الفن الذي اختفى أو اندثر، أو أن قصص الأطفال حلت محله، وأعني به فن الحكاية الشعبية على ضوء القمر وفي هدوء الليل يغطي المدينة الطاهرة جلالاً وسكوناً. وعلى سطح المنزل المطل على مجرى سيل أبي جيدة لطالما استمع الفتى من المرأة الأنيقة حكاياتها التي تبدأها بالقول: «وحدوا الله، واللي عليه ذنب أو خطية يستغفر الله» ثم تبدأ في سرد حكاياتها. وتختلف خاتمة الحكاية، فبعضها له نهاية سعيدة، وبعضها نهايته محزنة، والبعض ليس له قفلة. والباب مفتوح للمختصين في الأدب الشعبي لدراسة هذا الفن الذي اندثر مع

مجيء أجهزة التلفازن ودخولها للبيوت رضا أو عنوة، ثم تبع ذلك دخول أجهزة الكمبيوتر بجميع تقنياتها الحديثة. ومع هذا كله فلقد بقي في داخل الإنسان حنين لما هو فطري أو طبيعي من الأشياء بل إنه من المفيد أن ننظر إلى هذا الإنسان الغربي الذي اخترع معظم تقنيات العصر إلا أنه لم يعطها ثقته فالرجل في الغرب لا يركب السيارة إلا في الرحلات الطويلة، ويذهب للريف ليستمتع بالحياة الطبيعية، ويسكن البيوت الحجرية ولم ير في بقائها غضاضة، بل إنه يحافظ عليها وعلى الشوارع المرصوفة بالحجر أو البلاط القديم، ويمشي على رجليه متنقلاً بين المنزل والنادي، ويترك سيارته في مكان بعيد ليسير في قلب المدينة الذي لم يتغير منذ عشرات السنين، ويبحث عن السوق الشعبي بين بقية الأسواق ليشتري منه لوحة، أو حلية، أو كتاباً قديماً يحكي تاريخ مدينته أو حضارته، أو ليردد مع شيللي، وباليوت نغماً شعرياً مثل ذلك النشيد الذي يناجي القمر في وحدته وضيائه الشاحب.

أشاحب أنت؟ لتسلقك أبراج السماء مجهداً ولتحديقك في الأرض
هائماً على وجهك بلا رفيق
بين النجوم والمختلفة الأصل
هل يتغير شكلك يوماً بعد يوم
لأنك كعين في كمد
لا تجد ما يستحق ثباتها

لقد أعطينا هذه الحضارة المادية من الثقة العمياء فيها، والركون إليها ما لم يعطه إياها الإنسان الذي ساهم مساهمة فعّالة في صنعها. وأضعنا في هذا الطريق الطويل كثيراً من براءتنا وصفاتنا. ولو كانت لنا مشاركة في

صنعها لما لوينا ألسنتنا وأشبعناها ثناء أو ذماً فالبعض يتوهم أن حضارة هذا الغرب في هذا الذي يدعونه برقصة (الروك) أو مجموعة (البيتلز) أو في أفلام هوليود المليئة بالمشاهد التي تصور الإنسان حيواناً شرهاً بلا ضوابط أو قيود.

ونسينا في كلا الجانبين أن المعامل في الغرب تزدحم بالرجال الذين جعلوا من البحث والتقصي العميقين هدفاً لكل ما يرضي عقولاً منهم تبحث، ومشاعر لكل جديد ومفيد تتحفز، وأننا افتقدنا البساطة في المظهر والملبس والتي هي جزء من تراثنا وحضارتنا الأصيلة. وعرف الغرب كيف يفيد من هذا كله، فهو المنتج لزاد هذه الحضارة وهو المعتدل أو غير المفرط في الاعتماد عليها، ونأت به تلك البساطة عن كل تلك الشكليات التي تعوق الإنسان الآخر منا ليس في حركته اليومية فقط ولكن في مسيرته كلها، من تخفف وتباطأ من أثقل نفسه بما يثقل حمله، والركب لا يقوى على الانتظار وليس فيه مكان للمتخلفين.

ذكريات من باب العنبرية

(٩)

لم يكن (جمعة) وحده الذي يجد في ظل شجرة النبق أمناً وأنساً يعوضه عن أنس الناس. وإذا الآخرون ضنوا على (جمعة) بالحب فقد أعطاهم إياه نغماً في وضح النهار يتعشقونه، وغذاء للروح يحلق بها في عالم الطهر والصفاء. وإن هم تركوه وحيداً فلقد منحته الأنات الحزينة، في تصاعدها من أعماق نفسه، أنيساً لا يؤذي وجليساً لا يغدر وخديناً لا يلوي لسانه استهزاءً لحظة انصراف من يجالسه أو يعتقد متوهماً أن هذا الخدين توأم روحه.

لم يكن (جمعة) وحده الذي أنس بالوحدة والعزلة أو أنست به هي الأخرى فلقد كانت (سيدة) تخرج من حوش (عميرة) متلفعة بعباءتها السوداء في الصباح الباكر وتعود ليلاً إلى بيت بني من الطين وشيد من الحجارة، لا تتكلم مع أحد ولا تؤذي أحداً. لقد شعرت بالغبن يوم فقدت أباها في وضح النهار وفي ساحة العنبرية. لقد سمع الآخرون صراخه، فلم يستجيبوا له وارتطم جسده بالأرض الصلدة وفقد القدرة عن الدفاع عن نفسه فلم يجد قلوباً رحيمة كقلب الرجل الشجاع سعود دشيشة أحد أبرز رجالات المدينة من حي العنبرية في تاريخها البعيد والقريب.

فلقد اختطفت يد المنون الدشيشة وهو في مقتبل العمر وكان قد اصطفاه موحد الجزيرة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود هو والشيخ ذياب ناصر جلساء له من أهل البلدة الطاهرة. وقبل الملك عبد العزيز، عدلاً منه ووفاء وحكمة، مشورة (الدشيشة) بإلغاء ما كان يعرف (بالكوشان). ولم أجد أحداً أشار إلى هذا سوى الأستاذ محمد علي مغربي ـ رحمه الله ـ في كتابه الذي أرخ فيه لرجالات الحجاز. ولقد اشتهر (سعود) بجرأته وحَمُلَ اسم محمد دشيشة. وأروي هنا عن والدي ـ رحمه الله ـ غير عابىء بمن ينكر علي الرواية عن والدي، فلقد كان ـ رحمه الله ـ يحفظ من تاريخ المدينة حاضرة وبادية ما لا يحفظه أنداده ومجايلوه. نعم لقد سمعته في مركازه يقول (المعرفة لمحمد دشيشة والحظوة لسعود) وكلا الرجلين على عظمته وتفرده لم يخلف أبناء ذكوراً وأخال أن الصحافي الناجح الابن مجدي وعدداً من أحفاد الشيخ محمد وإن ما يعرف الأستاذ مجدي دار أجداده لأمه من آل الدشيشة، فلقد عرفها الفتى في حارة الآباء والأجداد العنبرية. فلقد كانت الدار التي تقوم تحت حانوت أبناء (الخشة) محمد وحسن ـ رحمهما الله ـ واسم العائلة الحقيقي (الكردي) وعرفت دارهم في برحة حوش عميرة بين داري الشيخ حسن بشير والسيد صالح حلواني ـ رحمهما الله ـ وإن كانت الذاكرة لم تعني على التذكر فإن رجالاً من أبناء هذا الحي من أحياء البلدة التي سمت وطابت وتنورت بسيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ وتباركت أرضها بوطئه لثراها وهي التي ضمته حباً ووجداً وهياماً وبركة مضاعفة وشرفاً لا يدانى وعزاً وسؤدداً دائمين عندما لحق الشفيع المشفع عليه صلوات الله وسلامه ـ بالرفيق الأعلى نعم إن أخواناً من أمثال الأستاذ المؤرخ ناجي حسن عبد القادر الأنصاري والسيد الفاضل سعد حلواني والمهندس المخضرم إبراهيم عاتق أبو مزيد وغيرهم

يعرفون عن الحي أكثر مما أعرف، فهم أكبر مني سناً ومقاماً وكم تمنيت أن يلتفت معالي الدكتور رضا بن محمد سعيد عبيد إلى تاريخ هذا الحي الذي شهد طلعته الأولى فيدون ذكرياته عنه. وأظنه قادراً على أن يفعل. فتاريخ المدينة الاجتماعي حافل بتلك الصور الأخاذة، ففيها من مشاهد البطولة والوفاء والحب والتقوى والأخلاق الإنسانية ما يمكن أن يكون نبراساً للأجيال الصاعدة التي اندرس من بين أنظارها المكان فهلا كان منا العون والوفاء لعاصمة الإسلام الأولى ومهد الحضارة وموئل الإيمان والمعرفة والعلم بما لا يمكن للعين السليمة في رؤيتها أن تنكره أو أن تتأذى من الإقرار به لنأخذ بأيدي أجيال حائرة إلى البحر الذي فاضت منه الأنهر والعيون ماء زلالاً وصافياً ونخلي بينهم وبين المورد العذب ليعبوا منه عباً، وليغترفوا ويشربوا؟ فسوف تحيا منهم قلوب، وتضيء بين جوانحهم بصائر، وتعود النضارة إلى جسد تصلبت منه شرايين وأوردة بسبب هذا المد الحضاري القادم والخالي من ومضات الروح والمليء بكثافة المادة وتصحرها وتحثرها.

ويبدو أن مودة عميقة كانت تربط بين الشيخ سعود دشيشة رحمه الله والسيد أحمد أسعد الذي كان يعمل مستشاراً لدى السلطان عبد الحميد آخر سلاطين آل عثمان والذي رفض عروض الإنجليز واليهود معاً السخية، شريطة أن يفتح باب الهجرة لليهود إلى أرض فلسطين. وقال كلمة مشهورة: «فلسطين ملك للمسلمين جميعاً ولا أملك حق التصرف فيها». فأتى الغرب بكمال أتاتورك وحطم الخلافة العثمانية وأقام دولة علمانية مكثراً من وعوده لهم بأنه سوف يصلح اقتصادهم ويرفع من شأن عملتهم. واستمر الغرب لمدة طويلة يرفض طلب تركيا للانضمام إلى السوق

الأوروبية المشتركة بحجة انتهاك حقوق الإنسان حيناً ومن ضعف العملة النقدية حيناً آخر. ويتمادى بعض السياسيين الأتراك في قمع كل ما هو إسلامي حتى إن أولئك الذين يصلون لربهم، أو اللواتي يضعن حجاباً على رؤوسهن يتعرضون في بلد العسكر لأقصى عقاب. ويتوهم هذا البعض أن هذا هو السبيل لإرضاء الغرب مع أن الزعماء الغربيين يصلون في كنائسهم ويتركون من يدعونهن بالمتبتلات يلبسن لباسهن الذي يغطي الجسم كله من الرأس إلى القدم، ولقد انتشر المد للأسف إلى بعض النخب العربية، التي تزعم أنها تنتمي للتيار العلماني الغربي وتحجر على عامة الناس أن يقاطعوا اقتصادياً الغرب الذي يساند إسرائيل ويمدها بالسلاح الفتاك مما يمكنها من قتل الشيوخ والنساء والأطفال وتجويعهم هذه الفئات، فهمت العلمانية الغربية فهماً خاطئاً. وعلى هذا الفهم القاصر أسست عداءها لتراثها وعاداتها وتقاليدها. وأن الغرب الذي تفتح مؤسساته السياسية برامجها واجتماعاتها بالصلاة في الكنيسة ويؤمن بأسطورة العهد القديم ـ أرض الميعاد ـ ليبتسم دهاء واستهزاء بأولئك الذين يتلقفون عنه الأشياء بحماس وعن قصور في الوعي والإدراك.

ذكريات من باب العنبرية
(١٠)

كتب إليّ الأخ الكريم الأستاذ قصي أبو الجدايل يذكرني ببعض الشخصيات التي عرفها وخالطها من أهل البلدة الطاهرة فأثار في داخلي من الشجن ما أثار، وظللتني سحابة الذكريات لأيام عشتها بين العنبرية وقباء. وكان الفتى يسير على أقدامه قاطعاً الطريق بين دارهم في قباء وحي الأغوات. وهناك وجد السر ثم اختفى مع أهله، وتبددت ضحكات مجلجلة تنبعث من نفوس توطنها الحب والصفاء، وضم الثرى في الربوة أجساداً أخرس الردى منها ألسنة ذربة كانت تتغنى بنشيد الحياة، وكان نشيدها يمتزج مع حبات الغمام فإذا الدنيا أذن صاغية، وإذا النفوس تبتل ودعاء.

الأخ أبو الجدايل ذكر العم زين بليلة، والده من رجالات المدينة (محمد بليلة) ـ رحمهما الله ـ كان الناس يسعون لمقهى محمد عبد الواحد الواقع بالقرب من مسجد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، في المناخة، ليسمعوا حديث (البليلة) وينصتوا لحكمته. وفجأة، وفي صباح يوم أغر من أيام البلدة المحبوبة، جاء الناس كعادتهم فافتقدوه في مجلسه وسرى في أرجاء المدينة الخبر (قضى محمد بليلة فاطلبوا له المغفرة). وسمعهم الفتى في المناخة يتهامسون: «لقد مات الرجل كمداً» ولكأني به يرصد عيوناً

تتربص به، فأبت عليه كرامته ومنعته مقتضيات الحياة من الثأر لنفسه. فقضى. وحمل اسم هذا الرجل حفيد له، ونشأ الفتى في رعاية والده (زين بليلة) وكان كبقية أنداده من أبناء البلدة الطاهرة أنيقاً في ملبسه، مهذباً في قوله، بهياً في طلعته، ولكن المنون لم تمهل هذا الفتى، قالوا إن سيارة صدمته أو دهسته، ولكنه الأجل يا صديقي حان فأودعه أبوه (زين) بيديه في مخدعه الأخير متجملاً بالصبر، وبكته امرأة فضلة يمنعني حياء نشأنا عليه من ذكر اسمها وهي تنتسب لأسرة كريمة.

كان (زين) يحب المزاح البريء فأضحى يميل للعزلة وغدت ضحكته ابتسامة خفيفة ولكنها لم تفقد رقتها وشفافيتها. كان العم (زين) من فئة الأدلاء بالحرم، يقف مع جموعهم بين بابي (جبريل) و(السلام) ولكنه فارقهم قبل أن يتفرق جمعهم أو يفرقه الآخرون ولكل أمر بداية ونهاية.

ورأيته ذات يوم يمشي قاطعاً الطريق بين شارع العينية والمناخة، ويلبس ثوباً أبيض وناصعاً كأحسن ما تكون الثياب نصاعة وجمالاً، ويرتدي (صدرية) زينت أطرافها بما كانت تزين به الملابس من (قيطان) وغيره. وكان، رحمه الله، يدرك أنني أعرف فلذة كبده، فابتسم في وجهي، وأن الفتى ليستطيع القول جازماً بأنه لم يلحظ في حياته ابتسامة صادقة وهادئة كابتسامة هذا الرجل.

كان أبناء (زين بليلة) وأبناء الشيخ حمزة عوض، رحمهما الله، من شجرة واحدة. دار جدتهم لأمهم في باب المجيدي. وكان الشيخ عوض يسكن في (التواتية) حيث مقر منزل الشيخ فضل الرحمن ـ رحمه الله ـ وآل النبراوي وغيرهم.

كان حمزة عوض، رحمه الله، يملك صوتاً رخيماً وكان إذا وقف

بـ(مشلحه) الأسود، أمام الحضرة النبوية بكى وأبكى. ويجعلك بالكلمات النابعة من أعماق نفسه تعيش ذلك الماضي الذي وقفت فيه الدنيا تسمع صوت الحق ونداء الفطرة، حيث صدع سيد البشر أجمعين وخاتم الأنبياء والمرسلين بالدعوة، فلبت النداء أمم واستجابت له بصائر وأبصار.

وفي يوم مبارك وفي ساعة إجابة وبالقرب من المكان الطاهر الذي اعتاد (حمزة عوض) أن يقف بالناس مسلماً وللحبيب ﷺ معظماً ومبجلاً، كما أمر الله بذلك في كتابه العزيز، وضع الرجل جبهته ساجداً في صلاة جماعة بالمسجد الشريف، ولم يرفع رأسه فلقد قبضت روحه وهو في تلك الحالة التي يكون العبد فيها أقرب ما يكون لخالقه وبارئه عز وجل. يا صديقي: (هؤلاء جيران حبيبه الذين اصطفاهم الله للجوار، فتأدب، وهذه نفوس لا تعرف الحقد والبغضاء والغش والكذب، فاعتبر، وإن شئت فتعجب وتلك أرواح مازجها حب الله ورسوله فما عليك إلا أن تحاسب نفسك ثم تصمت وانظر لخاتمة حسنة لرجل كهذا قضى حياته متأدباً، ثم انظر إلى بعض قوم يفتخرون بأنهم جاوروا المسجد والروضة ولكنهم سعياً لصفاء المعتقد لم يقفوا على قبره مسلمين وإذا قلت لهم إن سيدنا عبد الله ابن عمر رضي الله عنه وقف وسلم وأن التابعين والأئمة اقتدوا بفعله ولم يجدوا في ذلك منكراً، وأن علماء عارفين من أمثال المشائخ عبد العزيز ابن باز وعبد العزيز بن صالح ومحمد بن عثيمين أسكنهم الله فسيح جناته، وهم القدوة والمثل في صفاء العقيدة ونقائها وفي الالتزام بشرع الله وسنة نبيه، قد وقفوا أمام المقام متأدبين ومسلمين، إذا قلت لهم ذلك ارتفعت أصوات نشاز لتقول لك: إن محدث العصر لم يفعله وأن صاحب الرسائل منعه وزجر عنه. ومن يكون هؤلاء بجانب علماء الأمة أولها إلى

آخرها؟ أو ليس فعل الصحابي حجة، وفعل علماء السلف قدوة؟

فليخلص هذا البعض نفسه من هذه الجفوة، وليحسن الظن بعقائد الناس، ولقد فاضت كتب السنة النبوية بوجوب حسن الظن بإخواننا المسلمين.

يقول حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، رحمه الله، في رسالته الفريدة (فيصل التفرقة بين الكفر والزندقة) موضحاً ما يمكن أن يترتب على رمي المسلم في عقيدته بغير برهان ولا دليل: «الكفر حكم شرعي كالرق والحرية مثلاً، إذ معناه إباحة الدم والحكم بالخلود في النار، ومدركه شرعي، فيدرك إما بنص وإما بقياس على منصوص وقد وردت النصوص في اليهود والنصارى والتحق بهم بالطريق الأولى البراهمة والثنوية والزنادقة والدهرية وكلهم مشركون فإنهم مكذبون للرسول فكل كافر مكذب للرسول وكل مكذب فهو كافر فهذه هي العلاقة المطردة المنعكسة».

وهذا إمام من أئمة الدعوة وعالم أوقف حياته على العلم وطلبه وتعليمه، وأجمع الناس على فقهه بالدين وأحكامه، والشريعة وأصولها، وهو الشيخ عبد العزيز بن باز، رحمه الله، الذي أصدر في بيان عن إدارة البحوث والإفتاء يحذر بعض طلبة العلم من مغبة التكفير والتفسيق والتبديع، فقال، رحمه الله، «فالذي أنصح به هؤلاء الأخوة الذين وقعوا في أعراض الدعاة ونالوا منهم، أن يتوبوا إلى الله تعالى مما كتبته أيديهم أو تلفظت به ألسنتهم مما كان سبباً في إفساد قلوب بعض الشباب، وشحنهم الأحقاد والضغائن، وشغلهم عن طلب العلم النافع وعن الدعوة إلى الله بالقيل والكلام عن فلان وفلان، والبحث عما يعتبرونه أخطاء للآخرين وتصيدها وتكلف ذلك. كما أنصحهم أن يكفروا عما فعلوا بكتابة

أو غيرها مما يبرئون فيه أنفسهم في مثل هذا الفعل ويزيلون ما علق في أذهان من يستمع إليه من قولهم وأن يقبلوا على الأعمال المثمرة التي تقرب إلى الله وتكون نافعة للعباد، وأن يحذروا من التعجل في إطلاق التكفير أو التفسيق أو التبديع لغيرهم بغير بينة ولا برهان، وقد قال النبي ﷺ: «من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما».

إن الأمة الإسلامية تعيش صراعاً شرساً ومريراً مع أعدائها من الصليبيين واليهود، وإن جراحها كثيرة وبكاء الثكالى والأرامل والشيوخ في فلسطين وغيرها مما ترق له الصخور قبل القلوب، وأن الأمة تفرقها الأهواء، وتعجل بخصوماتها انفرادية الرأي الواحد، وتلقى التهم فيها جزافاً لا تستطيع أن تواجه هذا العدو المتعدد الوجوه والمتفرق في كثير من شؤون الحياة إلا فيما يخص أعداء الأمة الإسلامية فهو متوحد ومجتمع شمله. ولا يصلح أمر أمة الإسلام إلا ما صلح به أولها من احتكام لكتاب الله وسنة نبيه سيدنا محمد ﷺ، وإشاعة روح الحب والتسامح وحسن الظن بين جموع الأمة. وأن يكون الحوار الهادىء هو الطريق للوصول إلى الحق، وليس الحراب ولا السيوف، فذلك مما يوجه إلى صدور أعداء الأمة الذين يقفون لها بكل سبيل، ويزرعون الأشواك في طريقها ليحولوا بينها وبين الوصول إلى الغاية المثلى من التكاتف والتماسك. وإن الحب لهو ما يجمع الناس وأن البغضاء والشحناء مما يفرقها ويدعها نهباً للعواصف والرياح.